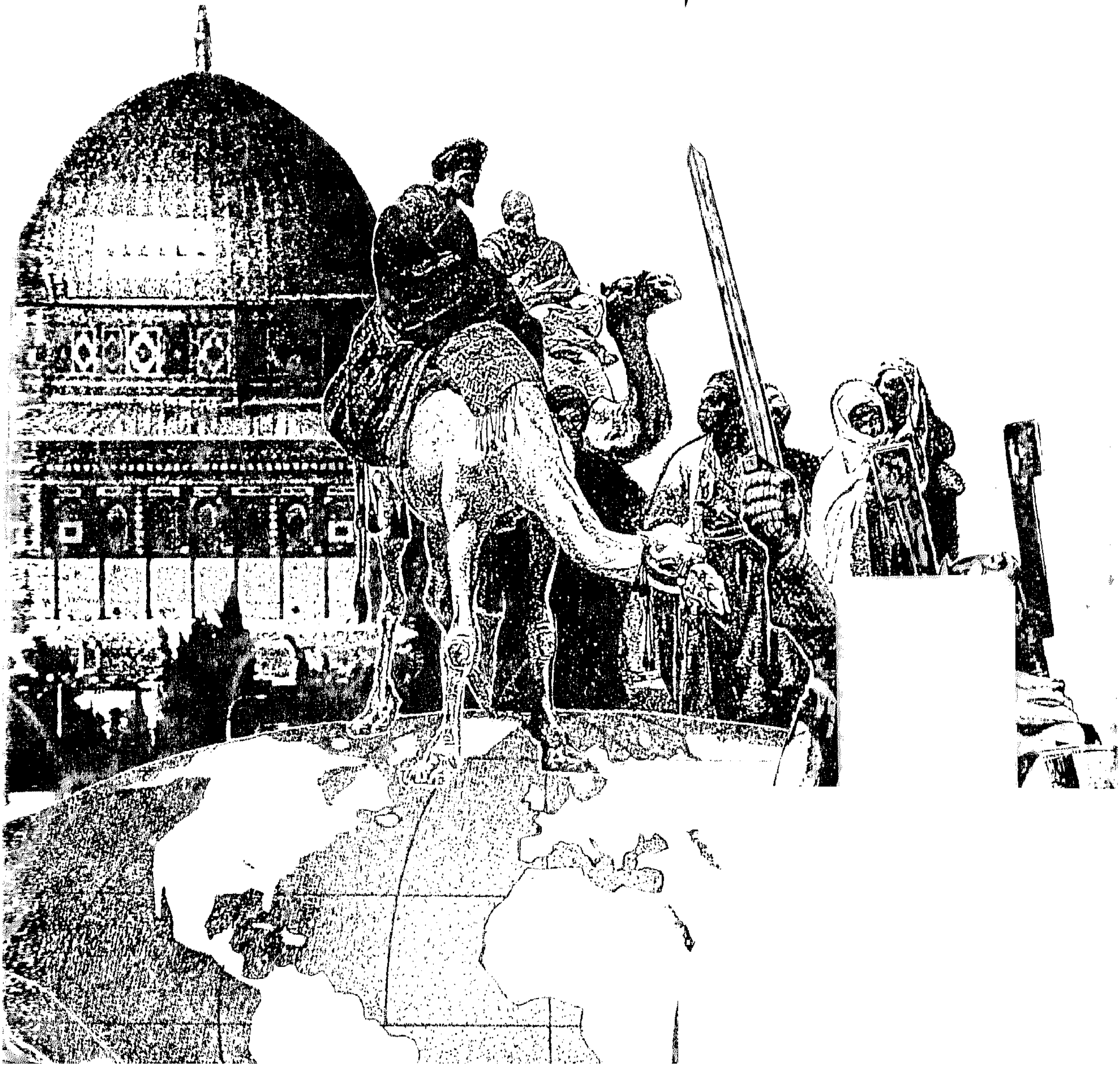
دكتور محمد مؤنس عوض

الجغرافيون والرحالة المسلمون

في بلاد الشام زمن الحروب الصليبية



الجغرافيون والرحالة المسلمون

فى بلاد الشام

فى عصر الحروب الصليبية

إعداد

د. محمد مؤنس أحمد عوض

كلية الآداب ـ جامعة عين شمس

وجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ـ أبها

الطبعة الأولى

١٩٩٥

عين للدراسات والبحوث الانسانية والاجتماعية

EIN FOR HUMAN AND SOCIAL STUDIES

الناشر :

عين للدراسات والبحوث الإنسانية والإجتماعية
EIN FOR HUMAN AND SOCIAL STUDIES
٦ شارع يوسف فهمي ـ اسباتس ـ الهرم ـ تليفون : ٣٨٥١٢٧٦

المشرف العام : دكتور قاسم عبده قاسم

تصميم الغلاف : محمد أبو طالب

الإهداء

إلى مؤرخين فاضلين،
من مؤرخي تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب
في العصور الوسطى،
بكلية الآداب ـ جامعة عين شمس، وهما :

أ. د./ احمد رمضان احمد، أ. د./ إسحق عبيد.

وفاءً لهما، وتقديراً لعلمهما،
إذ أن إسهاماتهما العلمية تتحدث عن نفسها.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وفوق كل ذى علم عليم ﴾

صدق الله العظيم

سافر تجد عوضاً عمن تفارقه

وانصب فإن لذيذ العيش في النصب

إنى رأيت وقوف الماء يفسده

إن سال طاب وإن لم يجر لم يطب

والشمس لو وقفت فى الفلك دائمة

لملها الناس من عجم ومن عرب

الإمام الشافعى

رضى الله تعالى عنه

المقــدمــة

يتناول هذا الكتاب بالدراسة الجغرافيين والرحالة المسلمين فى بلاد الشام فى عصر الحروب الصليبية (القرنان ٦، ٧هـ/ ١٢، ١٣م)، وما قدموه فى مؤلفاتهم من جوانب اجتماعية، واقتصادية، وسياسية وغيرها، ولا ريب فى أن ذلك الموضوع يحتل مكانة متميزة من بين موضوعات دراسة تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب فى العصور الوسطى، وعلى نحو خاص، خلال مرحلة الحروب الصليبية التى شهدت فيها بلاد الشام جانباً وافراً من أحداثها الزاخرة بالصراع بين عالمى الإسلام والمسيحية.

ومكمن الأهمية التى يمكن أن تعلق على موضوع الدراسة، أن المصادر التاريخية التى وصلت إلينا من ذلك العصر، سواء لدى الجانب الإسلامى أو الصليبى اتسمت بالإهتمام بالزوايا السياسية والحربية فى المقام الأول. أما النواحى الحضارية الأخرى – مع عدم إغفال أهمية الجوانب الأولى بالطبع – فإنها لم تحظ عند مؤرخى ذلك العصر، إلا بالقليل من العناية، وإن وردت لدى مؤلفات المؤرخين حينذاك، فهى بصورة ضمنية، وعرضية، ولا تتناسب مع ضخامة ما ورد بشأن الزوايا السياسية والحربية الأخرى.

وهكذا، يمكن أن نقرر أن هناك فجوة ما فى النصوص المصدرية من ذلك العصر، على اعتبار أن تلك الجوانب الحضارية تعد محدودة وسط الكم المتراكم من الأحداث السياسية والحربية الطابع.

وهنا تبدو أهمية مؤلفات الجغرافيين والرحالة المسلمين الذين عاصروا تلك الرحالة المنظمة من تاريخ منطقة الشرق الأدنى فى العصور الوسطى، إذ أن كتاباتهم تسد جانباً له

شأنه من تلك الفجوة المصدرية لاحتوائها على إشارات قيمة على الأصعدة الاجتماعية، والاقتصادية، والدينية، وغيرها.

زد على ذلك، فإن أولئك الجغرافيين والرحالة قدموا لنا، خاصة أولئك الذين قدموا من خارج بلاد الشام، رؤية مهمة من خلال عيون غريبة وافدة على المنطقة، ولذلك نجد فى نصوص مؤلفاتهم زوايا ندر أن تتردد فى كتب الحوليات، وتعليل ذلك أن الجغرافى والرحالة الذى تكون عقله فى مجتمع ما بأبعاده المحلية، عندما تطأ أقدامه أرض مجتمع آخر، وبخاصة خلال عصر الصراع العنيف بين عالمى الإسلام، والمسيحية، يحرص الحرص أجمعه على إيراد كل ما تقع عليه عيناه من مظاهر حياتية متعددة ومختلفة، ولا مراء فى أن ذلك كله أدى إلى إثراء مؤلفاتهم، وتميزها بتصورات شخصية ثرية.

فلا عجب، والأمر كذلك، أن قدم أولئك الجغرافيون والرحالة نصوصاً تمتاز بالحيوية المتدفقة بين ثناياها. وكأننا نعيش فعلا فى ذلك المجتمع الذى وفدوا عليه، على الرغم من انقضاء ثمانية قرون كاملة من الزمان على تلك الوقائع والمظاهر الحضارية التى أوردوا أمرها.

ومما عمق تلك الزاوية السابقة، أن أولئك الجغرافيين والرحالة المسلمين الذين قدموا إلى بلاد الشام فى ذلك العصر، كانوا فى الغالب موسوعيى الثقافة، وضرب عدد منهم بسهم وافر فى العديد من مجالات التأليف العلمى، والأدبى، وتمتعوا – بصفة عامة – بقوة الملاحظة والقدرة على الوصف الحى المتدفق، بالإضافة إلى سلاسة العبارة ذاتها، ولا ريب فى أن كل ذلك قد ضمن لأولئك الجغرافيين، والرحالة وما تركوه من مؤلفات مكانة متميزة من بين المصادر التاريخية لتلك المرحلة.

ومن جهة أخرى، من الضرورة بمكان ملاحظة أن مؤلفات أولئك الجغرافيين

والرحالة المسلمين تقدم لنا نوعاً هاماً من المصادر التى تلتقى فيها الرؤيتان الجغرافية والتاريخية، وهكذا، فليس من الممكن قبول الاعتماد كلية على المصادر التاريخة الصرفة التى تتناول تاريخ القيادات والدول. ونغفل تلك المؤلفات الجغرافية وما كتبه الرحالة المسلمون الذين قدموا إلى بلاد الشام. فإذا ما لاحظنا أن الجغرافية ذاتها توجه التاريخ. وأن التاريخ ذاته - فى أحد جوانبه - ما هو إلا صراع على الجغرافيا، أدركنا أهمية تلك المؤلفات، مع عدم إغفال القيمة المتنامية للمصادر التاريخية التقليدية من كتب الحوليات، والتراجم، والوفيات، والطبقات، وغيرها من صنوف الكتابة التاريخية التى وصلت إلينا من ذلك العصر، سواء كانت لدى الجانب الإسلامى أو الصليبى.

وإضافة إلى ذلك، نقدم مؤلفات أولئك الجغرافيين، والرحالة المسلمين رؤية تعكس تصور أحد أطراف المواجهة للطرف الآخر، فمن الأهمية بمكان ملاحظة كيف نظر المسلمون للصليبيين، بسلبياتهم وإيجابياتهم، ومظاهر تلك النظرة، وأثر المواجهة الشرسة بين الجانبين المتصارعين على تكوين رؤية أولئك الجغرافيين والرحالة وانعكاسها بالتالى على مؤلفاتهم.

وفى هذا المجال، لدينا أوصاف قيمة تفيض حيوية للكيان الصليبى فى بلاد الشام، من خلال الرحالة المسلمين الذين دخلوا فى ذلك الكيان، ومنهم من عايشه بعمق على مدى مرحلة زمنية طويلة، ومنهم من احتك به على مدى عدة أيام قليلة مركزة، ولا ريب فى أن تناول ذلك الكيان من جانب أولئك الرحالة، ومهما تباينت نظرتهم إليه يكشف لنا بالضرورة عن طبيعة ذلك العصر بتصوراته المختلفة.

كما أن نصوص مؤلفات أولئك الجغرافيين والرحالة المسلمين؛ الذين جابوا ربوع بلاد الشام فى ذلك العصر، قدمت لنا تصوراتهم الإنسانية دونما تصنع أو مواربة، بعيداً عن الذهاب وراء الأحداث السياسية والحربية، كما قدمت لنا الأبعاد النفسية العميقة مثل القلق والتوتر إلى غيرها من الجوانب الانفعالية، على نحو يقدم للمؤرخ الذى يبحث

عن النصوص الفريدة مادة هامة من انفعالات عصر بأكمله من خلال أولئك الجغرافيين والرحالة، لاسيما عندما وصفوا المدن الإسلامية، وهى خاضعة للسيادة الصليبية، وكذلك القلاع الصليبية التى زرعت فى المنطقة بعناية تأكيداً لبطش المحتل وقوته العسكرية، واستعماره – أى استخرابه – للأرض التى قدم من أوروبا خصيصاً للقيام بعمليات نهب منظم لثرواتها تحت شعار الصليب.

ومن جهة أخرى، قدمت مؤلفاتهم نصوصاً هامة عن المجتمع الإسلامى فى بلاد الشام فى ذلك العصر، مع ملاحظة أن دراسة ذلك المجتمع تحتل أهمية خاصة، على اعتبار أنه المجتمع الذى صد الغزو الصليبى، وواجه تلك الحملات الصليبية الشرسة، وأن تماسكه البنيوى على مدى قرنين من الزمان وانصهاره فى بوتقة الجهاد مع وجود بعض الظروف الدولية الخاصة بالصليبيين أنفسهم أو ارتفاع الغارة الأوروبية ذاتها، قد أدى إلى نجاحه فى دحر الحركة الصليبية على أرضه، مصححاً بذلك خطأ الانقسام والتشرذم السياسى الذى كان عليه عشية مقدم الصليبيين إلى المنطقة فى آخريات القرن الخامس هـ/ الحادى عشر م.

وإضافة إلى ما سبق، نجد أمامنا – ولحسن الحظ – امتداد مؤلفات أولئك الجغرافيين والرحالة المسلمين على مدى القرنين السادس والسابع هـ/ الثانى عشر والثالث عشر م. على نحو أفاد تماماً فى تتبع التواصل التاريخى للظواهر الحضارية التى وردت فى كتاباتهم، مع الاستعانة بالمصادر التاريخية الأخرى بطبيعة الحال.

وتجدر الإشارة إلى أننى فى هذا الكتاب أقوم بدراسة عدد من الجغرافيين والرحالة المسلمين، ومنهم من ألف معاجم جغرافية تناولت أوضاع بلاد الشام فى ذلك العصر موضوع الدراسة، ومنهم من كتب مؤلفاً خاصاً ومستقلاً تناول فيه أمر رحلته إلى أقاليم متعددة من دول الإسلام، ومنها بلاد الشام بينما نجد بعهم الآخر لا يؤلف رحلة مستقلة. بل إن ترحاله إلى تلك البلاد تناثر فى صفحات مؤلفات أخرى مثل الأنساب،

أو المذكرات الشخصية إلى نحو ذلك. وحيث أن أولئك المؤلفين ما ألفوا تلك المؤلفات إلا من خلال ترحالهم إلى بلاد الشام فى ذلك العصر، وهذا ما يتضح من خلال تناولهم لها فى ثنايا مؤلفاتهم، فلذا تم اعتبارهم رحالة مسلمين وفدوا إلى تلك البلاد.

ومعنى هذا، إننى لا أعتبر «الرحالة» هو كل من ألف كتاباً احتوى عنوانه على تعبير «الرحلة»، بل الذى احتوت مؤلفاته على جوانب حضارية متعددة يعكس ارتحاله إلى تلك المنطقة مكان الدراسة، ثم تناوله بالملاحظة والعرض لجوانب هامة من تاريخ بلاد الشام على مدى القرنين ٦، ٧هـ/ ١٢، ١٣م، ويدعم التصور السابق موسوعية فكر علماء ذلك العصر وشموليته، وأن بعد الرحلة، والارتحال كان وضاحاً فى مؤلفاتهم التى كانت بطبيعتها إفراز عصر عايشوه وشاركوا فيه كل فى مجاله.

ومع ذلك، فهناك نقد يمكن أن يوجه لمؤلفات الجغرافيين والرحالة المسلمين الذين قدموا إلى بلاد الشام فى عصر الحروب الصليبية، ويتمثل ذلك النقد فى أن هناك من أولئك الجغرافيين والرحالة من أمضوا فترات قصيرة فى المدن الإسلامية وكذلك الصليبية التى مروا بها، لا تتجاوز أياماً معدودات، وكتبوا انطباعاتهم عما شاهدوه من خلال تلك المدة الزمنية القصيرة، وبالتالى فليس بالإمكان الأخذ تماماً بكل ما ذكروه فى مؤلفاتهم وبخاصة أولئك الذين لم يوردوا إشاراتهم عن المدن المختلفة، من خلال معايشة طويلة.

وعلى الرغم من الوضع السابق، إلا أن من الإنصاف أن نذكر، أن الجغرافيين والرحالة المسلمين عندما أمضوا فترات زمنية قصيرة، فى المواضع التى زاروها كانوا يستشيرون أهلها والمقيمين بها من أجل أن يتثبتوا من انطباعاتهم التى كونوها.

ومن ناحية أخرى من الممكن معالجة الوضع المذكور من خلال المصادر التاريخية المعاصرة الأخرى سواء الإسلامية، أو الصليبية، ومقارنة ما ورد فى مؤلفات الجغرافيين والرحالة المسلمين بتلك المؤلفات التاريخية، بغية الوصول إلى الحقيقة التاريخية قدر

الإمكان. ثم هناك أيضاً منطلق الأحداث التاريخية ذاتها، وطبيعة ما نعرفه عن الصراع الإسلامي – الصليبي. ولا ريب في أنها تفيدنا في التعامل مع ما أورده الجغرافيون، والرحالة المسلمون في مؤلفاتهم عن تلك الرحلة.

ولما كنت قد قدمت من قبل – وفق جهدي المتواضع – دراسة مستقلة خاصة بالرحالة الأوروبيين في مملكة بيت المقدس الصليبية (١٠٩٩/١١٨٧م)، فقد عقدت العزم على تناول الجغرافيين والرحالة المسلمين في بلاد الشام في عصر الحروب الصليبية (القرنان ٦، ٧هـ/ ١٢، ١٣م) وذلك بالاعتماد على نصوص مؤلفاتهم، وكذلك دراسات الباحثين المسلمين المحدثين، والغربيين في هذا المجال.

وجدير بالذكر أن هناك عدة مظاهر للافتراق بين الرحالة المسلمين والأوروبيين – سواء من اليهود أو المسيحيين – الذين زاروا بلاد الشام في عصر الحروب الصليبية.

فمن ناحية؛ نجد أن الرحالة المسلمين، اتسعت المساحة المكانية لرحلاتهم، فشملت مناطق متعددة سواء تحت السيادة السياسية الإسلامية أو المناطق الصليبية، في حين نجد الرحالة الأوروبيين ،لاسيما المسيحيين منهم قد اقتصروا في رحلاتهم على الأماكن التي ارتبطت بذكريات المسيحية في عهدها المبكر، أما الرحالة اليهود، فلا ينطبق عليهم هذا التصور، على اعتبار أنهم تجاوزوا أماكن المزارات المقدسة لليهود في فلسطين، إلى مناطق أبعد مدى وأوسع مجالاً بالمقارنة بالرحالة المسيحيين خلال الرحلة المذكورة.

ومن جهة أخرى. نجد أن الرحالة المسلمين الذين زاروا بلاد الشام خلال ذلك العصر، اتسموا بشكل عام بصفة موسوعية المعرفة، ولذا كان منهم الفقهاء، والأدباء والشعراء، وعلماء الأنساب، الأمر الذي لا نجده لدى الرحالة الأوروبيين في ذات المرحلة الزمنية، ومن نتاج ذلك أن الرحالة المسلمين الذين قدموا إلى بلاد الشام ألفوا مؤلفات

متعـددة فى مجالات عدة من المعـرفة على نحو لا نجـده لدى الرحالة الأوروبيين الذين لم يعرفوا – فى الغالب الأعم – إلا من خلال نصوص رحلاتهم التى ألفوها.

وبالإضافة إلى ذلك، نجد أننا نعرف بدقة – غالباً – تراجم الرحالة المسلمين الذين قصدوا بلاد الشام فى ذلك العصر، وذلك بفضل نمو مناهج الكتابة التاريخية الإسلامية، وتوافر مؤلفات فى مجالات التراجم، والوفيات، والطبقات بالإضافة إلى مؤلفات الحوليات بطبيعة الحال، أما بالنسبة للرحالة الأوروبيين، فنجد أن معلوماتنا عنهم قليلة، ونادرة، ونعرفها على الأرجح من خلال نصوص رحلاتهم نفسها، وهكذا، فإن عمق تجربة الكتابة التاريخية الإسلامية فى ذلك العصر أفاد فى تناول تراجم الرحالة المسلمين حينذاك على نحو كان مفتقداً فى الغرب الأوروبى فى نفس المرحلة الزمنية. ونفس الأمر بالطبع ينطبق على الجغرافيين المسلمين الذين قدموا إلى بلاد الشام فى ذلك العصر.

مهما يكن من أمر، فإن هذا الكتاب يتناول بالبحث أحد عشر جغرافياً ورحالة مسلماً قد قدموا إلى بلاد الشام فى عصر الحروب الصليبية، ونجد أن بعضهم من المشرق الإسلامى، والبعض الآخر قدم من المغرب والأندلس، بل إن منهم من كان من بلاد الشام نفسها. وقد اتجه الرحالة المشارقة وكذلك المغاربة إلى بلاد الشام ذات العمق الحضارى والتاريخى والجاذبيـة الخاصة لأولئك الجغرافيين والرحالة فى ذلك الحين.

وقد اشـتمل الكتاب على بابين. الأول بعنوان «الجغرافيون المسـلمون فى بلاد الشـام فى عصر الحروب الصليبية»، واشـتمل على عدد من الجغـرافيين مثـل الإدريسـى (ت. ٥٦٠هـ/ ١١٦٢م)، وياقوت الحموى (ت. ٦٢٦هـ/ ١٢٢٨م)، والقـزوينى (ت. ٦٧٢هـ/ ١٢٧٣م)، وعزازين بن شـداد (ت. ٦٨٤هـ/ ١٢٨٥م) وأبو الفداء (ت. ٧٣٢هـ/ ١٣٣١م).

أما الباب الثانى فبعنوان «الرحالة المسلمون فى بلاد الشام فى عصر الحروب

الصليبية»، واشتمل على عدة فصول، حوت السمعانى (ت. ٥٦٢هـ/ ١١٦٧م)، وأسامة بن منقذ (ت. ٥٨٢هـ/ ١١٨٨م)، الهروى (ت. ٦١١هـ/ ١٢١٥م)، وابن جبير (ت. ٦١٦ أو ٦١٧هـ/ ١٢١٩ أو ١٢٢٠م).

والجدير بالذكر، أننى تابعت المؤلفات الببليوغرافية سواء الأجنبية أو العربية[١]. من أجل البحث عن الدراسات التى تناولت الجغرافيين والرحالة المسلمين فى بلاد الشام فى عصر الحروب الصليبية، وهناك العديد من الدراسات عن عدد من أولئك الجغرافيين والرحالة كجزء من دراسات عامة عن الجغرافيا والرحلات فى الإسلام فى العصور الوسطى، دون التخصيص المكانى، وأعنى به بلاد الشام، والزمانى وأعنى به القرنين ٦ و٧هـ/ ١٢ و١٣م، وقد أفدت بقدر الإمكان والجهد المتواضع من تلك الدراسات من أجل تدعيم البحث، ولا ريب فى أنها أفادتنى فائدة كبيرة.

ومن بعد ذلك، تم تزويد الكتاب بخاتمة تناولت أهم النتائج التى خلصت إليها، وكذلك عدداً من الملاحق والخرائط ثم أخيراً قائمة المصادر والمراجع العربية والأجنبية.

ومن الأمور الجديرة بالملاحظة، أن مجال الكتابة عن الجغرافيين والرحالة المسلمين فى بلاد الشام فى عصر الحروب الصليبية، مجال خصب، متسع، ويود المؤلف أن يقرر أنه مازال يطلب العلم والمعرفة، ومازال يدرس عصر لا يدعى فيه أنه أحاط به إحاطة

---

(١) عن ذلك أنظر :

Tobler, Bibliographia Geographia Palestinae, Leibzeg 1827; Atiya, The Crusades, Historiography and Bibliography, London, 1962; Mayer, Bibliographie Zur Geschichte der Kreuzzuges, Hannover, 1965.

قسطنطين زريق «ما ساهم به المؤرخون العرب فى المائة السنة الأخيرة فى دراسة التاريخ العربى عن فترة الحروب الصليبية»، مجلة الأبحاث، الجامعة الأمريكية ببيروت، السنة (١٢)، جـ(٢)، يونيو ١٩٥٩م؛ محمد مؤنس أحمد عوض، ببليوغرافيا الحروب الصليبية، المراجع العربية والمعربة، ندوة التاريخ الإسلامى والوسيط، المجلد الثانى، ط١، القاهرة ١٩٨٥.

كاملة، ولعل هذا الجهد المبذول؛ يكون مدعاة لباحثين آخرين أكثر جهداً وعطاءً من أجل المساهمة فى مجال الجغرافيـا والرحـلة الإسلامية إلى تلك المنطقة الحيوية، والمهمة، فى تاريخ المسـلمين فى العصور الوسطى بصفة عامة، وعصر الحروب الصليبية بصفة خاصة.

وأخيراً.. أود أن أعرب عن شكرى وتقديرى العميق للزملاء كافة الذين أسدوا إلى النصيحة، أو قدموا لى يد المساعدة العلمية الصادقة، وتعلمت منهم الكثير سواء فى مصر أو فى المملكة العربية السعودة، كما أتوجه بالشكر للقائمين على مكتبات الجمعية الجغرافية المصرية، ومكتبة الجامعة الأمريكية بالقاهرة، ودير الآباء الدومنيكان، ومكتبة كلية الآداب، جامعة عين شمس، ومكتبة جامعة القاهرة، ومكتبة فرع جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بأبها، ومكتبة نادى أبها الأدبى، ومكتبة أبها العامة؛ بحى العزيزية، والمكتبات الخاصة لعدد من الزملاء والأصدقاء.

وختاماً، أتوجه بالشكر إلى زوجتى الفاضلة، وإلى ولدّى هانى وداليا، الذين عاصروا زوجاً، وأباً عاكفاً على الأوراق والمداد على مدى ثلاث سنوات؛ من أجل إنجاز هذا الكتاب.

ذلك مبلغى من العلم وأذكر قوله تعالى :

﴿ وفوق كل ذى علم عليم ﴾

محمد مؤنس أحمد عوض

أبها ١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م

القسم الأول

الجغرافيون المسلمون فى بلاد الشام
فى عصر الحروب الصليبية

١ - الإدريسى

(ت ٥٦٠هـ/ ١١٦٤م)

يتناول هذا الفصل بالدراسة، أحد أشهر جغرافيى المسلمين فى العصور الوسطى، ونعنى به الشريف الإدريسى(١) (ت ٥٦٠هـ/ ١١٦٤م) الذى قدم إلى بلاد الشام خلال القرن السادس الهجرى/ الثانى عشر ميلادى، وتناول فى مؤلفاته الجغرافية، عدة جوانب، من أوضاع تلك البلاد فى ذلك العصر.

والإدريسى، هو محمد بن محمد بن عبد الله بن إدريس، وقد ولد فى سبتة بالمغرب الأقصى عام ٤٩٩هـ/ ١١٠٠م، وهو أحد أبناء عائلة الحموديين النبيلة، ونظراً لانتسابه للنبى عليه الصلاة والسلام، فقد حمل لقب الشريف(٢)، ونجد أنه درس عدداً من علوم عصره فى قرطبة التى كانت حينذاك؛ إحدى حواضر الإسلام المزدهرة، وقد بدأ الإدريسى فى الارتحال الذى ملك عليه فؤاده منذ أن كان فى السادسة عشرة من عمره، وفى هذا المجال طاف ذلك الجغرافى بالأندلس وفرنسا، وإنجلترا، وكذلك أنحاء الشمال الافريقى واتجه نحو تأدية فريضة الحج، فذهب إلى الحجاز. كما انه ارتحل إلى مصر، وبلاد الشام، واليونان، التى يقال إنه وصل إليها فى عام ٥١٣هـ/ ١١١٦م(٣). ومع ذلك فيبدو أن التاريخ الذى يقرره البعض لذهابه إلى هناك؛ يعد مبكراً بعض الشئ، ومن المرجح أن ذهابه إلى اليونان تم بعد ذلك التاريخ.

وقد عبر الإدريسى البحر فى عام ٥٣٣هـ/ ١٣٣٨م، إلى جزيرة صقلية Sicily حيث بلاط ملكها روجر الثانى Roger II (١١٣٠-١١٥٤م/ ٥٢٤-٥٤٨هـ)(٤)،

فى بالرمو Palermo، وقد اشتهر عن ذلك الملك عشقه الكبير للحضارة الإسلامية، وقد احتضن الإدريسى، وصار وثيق الصلة به إلى وفاته فى عام ١١٥٤م/٥٤٩هـ، وقد طلب روجر الثانى منه أن يقوم بتأليف كتاب يتناول فيه جغرافية العالم(٥). ووصف بقاعه، وأقاليمه، وبلدانه، وجعل تحت تصرفه إمكانيات دولة النورمان فى صقلية كافة، وكذلك مؤلفات الجغرافيين السابقين، وشهادات التجار الذين تاجروا فى أنحاء نائية. فعكف الإدريسى على تأليف كتابه هناك، بيد أن الأمور تبدلت فى أعقاب وفاة روجر الثانى عام ١١٥٤م/ ٥٤٩هـ، فلم يحظ ذلك الجغرافى بنفس الرعاية، والاهتمام السابقين(٦)، وعاد أدراجه فى أيام شيخوخته إلى مسقط رأسه سبتة، حيث توفى هناك.

أما تاريخ وفاة الإدريسى، فنعرف أن الحسن الوزان(٧) (ت ٩٤٤هـ/ ١٥٣٧م) قد ذكر أن ذلك قد وقع عام ٥١٦هـ/ ١١٢٢م، بيد أن البارون دى سلام De Slane؛ قد لاحظ أن مثل ذلك التاريخ يعد مصحفاً، على اعتبار أننا نعرف أن ذلك الجغرافى قد ولد أصلاً فى عام ٤٩٩هـ/ ١١٠٠م، ومن غير المنطقى تماماً أن يكون قد قام بكافة تلك الأسفار خلال حياته الحافلة بالأحداث خلال تلك الرحلة الزمنية القصيرة، ويبدو أن صحة التاريخ فى الغالب هى ٥٦٠هـ/ ١١٦٤م(٨)، مع ملاحظة أن الحسن الوزان قد ولد عام ٨٩٣هـ/ ١٤٨٧-١٤٨٨م، وبينه وبين الإدريسى مساحة زمنية طويلة، تقدر بأكثر من ثلاثة قرون(٩).

ويرى أحد المستشرقين، أن الإدريسى على الرغم من خلفيته الكوزمو بوليتية، وأهميته كجغرافى، كان محل تجاهل من جانب المؤرخين وكتاب التراجم المسلمين، وربما كان تفسير ذلك - فى اعتقاد صاحب ذلك الرأى - قضاء الإدريسى معظم سنوات شبابه، فى خدمة الملك النورمانى، روجر الثانى ملك صقلية فى بالرمو، وأن إخلاصه لذلك الملك المسيحى، وابتعاده عن عالم الإسلام، قد عاد عليه بعدم احترام، ولا مبالاة من جانب المعاصرين له(١٠)

ومع ذلك، فيبدو أن ذلك الرأى، لا ينطبق على الحقيقة من شئ، على اعتبار أن ضياع سيرة الإدريسى؛ نجد نظيراً لها بالنسبة لعدد من الجغرافيين المسلمين من أولئك الذين لم يتصلوا بالعناصر المسيحية(١١).

وتجدر الإشارة إلى أن الإدريسى؛ قد ألف عدداً من المؤلفات، مثل كتابه نزهة المشتاق فى ذكر الأقطار، والبلدان، والجزر والمدائن والآفاق أو الكتاب الروجارى، ويعد أهم مؤلفاته الجغرافية، وأوسعها شهرة، ثم كتاب روض الأنس، ونزهة النفس وكتاب أنس المهج وروض الفرج، وكتاب جنى الأزهار من الروض المعطار فى عجائب الأقطار(١٢)، وهناك كتاب آخر له فى مجال علم النبات، هو الجامع لصفات أشتات النبات(١٣)، ولا مراء فى أن تلك المؤلفات التعددة تعكس عقلية الإدريسى وموهبته التأليفية بحيث ألف فى العديد من العلوم والمعارف على نحو عكس بالضرورة موسوعية تكوينه العقلى.

واهتمامنا الأول، فى هذا الفصل ينصب على كتابين من مؤلفات الإدريسى، وهما نزهة المشتاق(١٤)، وأنس المهج(١٥)، والبحث عما أورده فيهما عن بلاد الشام، من زوايا متعددة، وجوانب مختلفة.

ومن الممكن أن تثار ناحية جديرة بالأهمية ألا وهى طبيعة ونوعية المصادر التى اعتمد عليها الإدريسى فى تأليف كتابه نزهة المشتاق، والواقع أنها تعد ثلاثة مصادر، تتمثل فى مشاهداته الشخصية من خلال ترحاله فى البلاد المختلفة، بالإضافة إلى التقارير التى وصلت من جانب أولئك الذين أوفدهم روجر الثانى إلى أنحاء مختلفة من العالم؛ لجمع المعلومات اللازمة لذلك العمل الجغرافى الكبير، بالإضافة إلى المصادر الجغرافية المتعددة التى يمكن أن يعتد بها(١٦)، مع ملاحظة أن ذلك كله من خلال إمكانيات دولة النورمان فى صقلية.

ولا نغفل فى هذا المجال حقيقة محورية، تتمثل فى أن قدرات الإدريسى، جعلته يحسن الإفادة من كافة تلك المصادر التى أتيحت له. ومن الممكن أن نعلق على تلك

الزاوية أهمية واضحة أدت بدورها إلى أن يؤلف كتاباته الجغرافية بتلك الصورة التى وصلت إلينا. وهي تعكس في واقعها، إمكانيات عنصر، وإمكانيات جغرافى قدير، أحسن استغلالها.

وقد اتسم كتاب نزهة المشتاق للإدريسى بالشمول، والعمق، على نحو جعل من صاحبه يحتل مكانة كبيرة فى تاريخ جهود المسلمين الجغرافية فى العصور الوسطى. وقد اعتبره البعض نقطة احتكاك بين الحضارتين الإسلامية والمسيحية[١٧]، ونظر إليه البعض الآخر على أنه اسطرابون العرب، وأكبر جغرافييهم[١٨]، وأن كتابه يعد أفضل رسالة جغرافية فى عالم العصور الوسطى[١٩]، كما أن هناك من اعتبره، مؤسس المدرسة العربية النورمانية[٢٠].

ومع ذلك، يرى أحد كبار المستشرقين المتخصصين فى مجال الجغرافية العربية فى تلك العصور، أن الإدريسى «أبعد ما أن يكون أكبر الجغرافيين قاطبة داخل الإطار العام لتطور الأدب الجغرافى العربى، بل لا نستطيع أن نضعه فى مصاف العلماء المبرزين الممتازين[٢١]»، ويرى باحث آخر أن كتاب الإدريسى «ليس بأدق كتب الجغرافيا العربية، وإنما اشتهر بالدرجة الأولى لأنه من تأليف جغرافى عربى قضى معظم عمره فى صقلية، أى فى بيئة أوروبية تأثرت بالحضارة الإسلامية إلى حد بعيد»[٢٢].

والواقع أن كلا من الرأيين السابقين يحويان تحاملاً واضحاً على الإدريسى، ومن الممكن تصور أن تلك الآراء المتحاملة عليه قيلت فى وقت لم تكن فيه الجهود التحقيقية لنزهة المشتاق قد اكتملت، ولم يكن النص العربى لذلك الكتاب قد ظهر بعد، ومن الممكن القول بأن كتاب «نزهة المشتاق» جعل الإدريسى يحتل تلك المكانة الرقيقة، لأنه اعتمد فيه على الجغرافيين والرحالة المسلمين السابقين مثل الهمذانى (ت ٣٣٤هـ/ ٩٤٦م)، وابن حوقل (ق ٤هـ/ ١٠م)، والمقدسى (ت ٣٩٠هـ/ ٩٩٦م)، وغيرهم[٢٣]، فكتابه «خلاصة الجغرافية العربية فى العصور الوسطى»، حتى

القرن السادس هجرى/ الثانى عشر ميلادى، ثم أنه لا يعكس إمكانيات فردية - كشأن مؤلفات الجغرافيين المسلمين السابقين - بل إنه يعكس إمكانيات وقدرات دولة هى دولة النورمان فى صقلية، فإذا أضفنا إلى ذلك سياحات مؤلفه المتعددة نعرف أن الإدريسى، توافرت له إمكانيات لم تتأت لغيره من الجغرافيين المسلمين السابقين. الأمر الذى جعل له تلك المكانة الرفيعة، ولذا يمكن القول - دون اعتساف فى الأحكام - إنه أبرز الجغرافيين المسلمين فى عالم العصور الوسطى.

أما القول بأنه أبعد من أن يكون أكبر الجغرافيين قاطبة داخل الإطار العام لتطور الأدب الجغرافى العربى، فهو رأى متحامل، ولا يقف على قدميه فى مواجهة النظرة العلمية الحديثة سواء لدى الباحثين المسلمين المحدثين أو الباحثين الأوروبيين. وفيما يتعلق بالرأى الآخر، وهوأنه كتب مؤلفه فى بيئة أوروبية فحصل على تلك المكانة الرفيعة، فهو قول مردود، إذ أن البيئة الأوروبية لا تضمن البتة للإدريسى تفوقه، ولا تضمن كذلك لكتابه الانتشار الواسع النطاق؛ فى حالة كونه متواضع المستوى من الناحية العلمية، غير أن إمكانيات ذلك الجغرافى العقلية وكذلك الإمكانيات العلمية التى وضعت أمامه ضمنت لذلك الكتاب تلك المكانة الرفيعة.

وإضافة إلى ما سبق؛ نجد أن الإدريسى قد زود كتابه بسبعين خريطة، وعدت خرائطه من أدق ما وصل إلينا من جغرافية المسلمين فى العصور الوسطى، ووصفت بأنها خرائط حقيقية تعطى للناظر إليها تصوراً واضحاً من المواضع التى تصورها، وهى بالتأكيد كانت أدق من خرائط الجغرافيين اليونان القدامى لأنها من عمل «جغرافى خرائطى موهوب»، ومن هنا يكون التقدير للإدريسى، وعمله كله نصاً وخرائط، ويزداد التقدير لمدرسة المسالكيين المسلمين الذين يعد الإدريسى الذروة التى بلغتها أعمالهم(٢٤).

أما الكتاب الثانى، من مؤلفات الإدريسى الجغرافية فهو أنس المهج، وروض الفرح، وهو لايزال مخطوطاً، ويفيد فى تكملة صورة بلاد الشام عند ذلك الجغرافى فى عصر الحروب الصليبية؛ ولاسيما خلال القرن السادس الهجرى/ الثانى عشر الميلادى.

ومن الممكن أن تثار زاوية خلافية هامة، وهى تتصل بزيارة الإدريسى لبلاد الشام أو اعتماده على روايات الجغرافيين الآخرين الذين زاروا تلك البلاد، ويعزز كراتشكوفسكى أن الإدريسى زار لشبونة، وسواحل فرنسا، وإنجلترا[٢٥]، كما أنه زار فى عام ٥١٠هـ/ ١١١٦م – كما ذكرت سلفاً – آسيا الصغرى، ويقرر «الظاهر أنه لم ير بقية أفريقيا، وآسيا»[٢٦]، والواقع أن هذا الرأى يمكن تفنيده على أساس عدة اعتبارات :

أولاً : إن وصف الإدريسى لبلاد الشام من خلال كتابيه «نزهة المشتاق»، و«أنس المهج» لا تدع مجالاً للشك فى أنه يعبر عن رؤية شاهد عيان معاصر للوجود الصليبى لعدد من المناطق فى تلك البلاد خاصة خلال أواسط القرن السادس الهجرى/ الثانى عشر الميلادى، ومن ثم تميزت نصوصه حول تلك المناطق عن نصوص الجغرافيين المسلمين السابقين، وهو أمر لا يتأتى له إلا بالمشاهدة، والمعاينة، والمعايشة. وهو ما سيتضح لنا من خلال هذا الفصل.

ثانياً : فى حالة كون الإدريسى لم ير بلاد الشام، لاعتمد على مؤلفات الجغرافيين المسلمين السابقين، ولأشار بالتالى إلى مؤلفاتهم، الأمر الذى لا نجده فى مؤلفاته، على نحو يفند المقولة السابقة، إذ أن ما كتبه عن بلاد الشام يعكس تصوراته الشخصية لا تصورات السابقين.

ثالثاً : إن ارتباط الإدريسى بملك صقلية؛ روجر الثانى، يدعونا إلى التصور بأن بلاد الشام كانت من المناطق الهامة التى من الضرورى لذلك الجغرافى أن يذهب إليها، إذ أن ذلك الملك كان مسيحياً، ومن الطبيعى أنه أراد معرفة الأماكن المقدسة المسيحية فى فلسطين ومن المستبعد أن يعتمد الإدريسى فى وصف تلك المناطق على مؤلفات السابقين ولا يراها رؤية عينية، ويؤكد ذلك التصور وصفه لكنيسة القيامة على نحو يعكس أنه كان يوماً ما هناك.

رابعًا : من المستبعد تمامًا أن يذهب الإدريسى إلى لشبونة، وسواحل فرنسا، وإنجلترا، ويجد الدافعية لذلك، ولا يرتحل إلى بلاد الشام، وهى أصلاً من ديار الإسلام وفى نطاق عالم البحر المتوسط، ولا توجد حواجز دينية أو لغوية تعوق اتصاله بتلك المنطقة الحيوية التى ذهب إليها كافة الجغرافيين المسلمين فى العصور الوسطى واحتلت مكانة رفيعة فى مؤلفاتهم.

ونخلص من ذلك، أن مقولة كراتشكوفسكى لا تقف على قدميها، إذ أنه رأى مناطق أخرى فى آسيا ونعنى بذلك بلاد الشام، وهو ما يعنينا فى هذه الدراسة.

مهما يكن من أمر، فمن الضرورى تناول الجوانب التى تعرض لها الإدريسى كافة، واختصت ببلاد الشام، ومن أمثلتها تناول المدن الرئيسية فى الساحل الشامى، وكذلك الجوانب الاقتصادية فى المدن الشامية، ثم المزارات الدينية والعلاجية فى ذلك العصر، ولاسيما المسيحيين، والمسلمين، ثم تعرضه للخريطة المذهبية لبلاد الشام فى ذلك الحين، وأخيرًا تناوله للقلاع، والحصون هناك.

وتجدر الإشارة إلى أن ذلك الجغرافى يمتاز أسلوبه فيما نعرض له من جوانب خاصة ببلاد الشام، بالإيجاز، والاختصار بصفة عامة، ولذا نجد أن عبارته عبارة مركزة مباشرة الدلالة.

وقد اهتم الإدريسى بالساحل الشامى، وحرص على أن يوضح أوضاع كل مدينة فيه من المدن التى خضعت للسيادة الصليبية، ومن المرجح أن كافة تلك المدن قد سيطر عليها الصليبيون، من قبل مقدم الإدريسى إلى بلاد الشام، ونجد أنه قد اهتم بإيراد الوضع السكانى لتلك المدن الشامية الساحلية، ودل ذلك جميعه على إدراكه للأهمية الكبيرة لتلك المنطقة الاستراتيجية والاقتصادية الهامة.

ونجد أنه عندما تناول مدينة عكا[٢٧]، وهي من المدن الصليبية الرئيسية على الساحل، وصفها بأنها مدينة كبيرة ذات أرجاء متسعة، وضياعها كثيرة، ولها ميناء مأمون من ناحية رسو السفن فيه[٢٨]، ونظراً لطبيعة تلك المدينة الساحلية التجارية، ووجود جنسيات متعددة فيها تعبيراً عن طبيعة الوجود الصليبي ذاته فى بلاد الشام، حيث تكون من جنسيات مخلفة شملت الإيطاليين، والفرنجة، والإنجليز، والألمان، والدنماركيين، والروس، وغيرهم كثيرون، نجد أن ذلك الجغرافي قد أدرك طبيعة البنية السكانية غير المتجانسة لتلك المدينة الخاضعة للسيادة الصليبية. وفى ذلك قرر أن «أهلها أخلاط، وناس شتى»[٢٩] وفى هذا تعبير صادق عن وصفها الديموغرافى، مع ملاحظة أن ذلك الوضع قد أدى إلى عدم تجانس المجتمع الصليبي، وتصارع عناصره على نحو ساعد على أن يسقط من الداخل؛ قبل أن يسقط من الخارج على أيدى القوى السياسية الإسلامية المجاهدة.

وعندما تناول الإدريسى مدينة حيفا[٣٠]، نجده قد أشار إلى أنها تحت طرف الكرمل، ولها مرسى جيد لإرساء الأساطيل[٣١]، وقد أدرك الصلة بين المدن البرية الحبيسة فى بلاد الشام وتلك الساحلية، إذ أن الأخيرة؛ عملت كمنافذ تصدير تجارة تلك المدن البرية الحبيسة، ومن ثم كان هناك الارتباط الوثيق الصلة بين تلك المدن، وقد أدرك الإدريسى، هذه العلاقة النفعية فنجده يقرر أن السويدية (سان سيمون) ميناء انطاكية[٣٢] وأن أنطرطوس مينا حمص[٣٣]، وحيفا ميناء طبرية[٣٤]، ويافا ميناء بيت المقدس[٣٥].

ومن الجلى البين، أن ذلك الارتباط السابق قد تأكد مع القرن السادس الهجرى/ الثانى عشر ميلادى، من خلال إدراكنا للنشاط التجارى المزدهر الذى شهدته مرحلة الحروب الصليبية، ومن المعروف أن مرحلة العصور الوسطى لم تشهد ثورة صناعية، بل شهدت ثورة تجارية، وينطبق ذلك بجلاء على النشاط التجارى الواسع النطاق الذى شهده

عالم البحر المتوسط فى ذلك الحين؛ ولاسيما القسم الشرقى منه، ومن ثم فإن وصف الإدريسى لتلك المنطقة يعكس تلك الحقيقة المؤكدة حينذاك ألا وهى ازدهار حركة التجارة هناك.

وهكذا، أوضح عرضه طبيعة الصلات التجارية بين المدن الاشمية، وكذلك مسألة الحج المسيحى، إذ أن الحجاج الأوروبيين احتاجوا تلك الموانئ الساحلية من أجل الوصول عن طريقها إلى المدن الداخلية التى احتوت على المزارات الدينية المقدسة لدى المسيحيين على نحو خاص، وخير مثال دال على ذلك، ميناء يافا الذى كان الحجاج يصلون إليه، ومنه يسيرون فى الطريق البرى الصخرى الوعر[٣٦]، من أجل الوصول إلى مدينة بيت المقدس.

ومن ناحية أخرى، نجد ذلك الجغرافى، يحرص على الإشارة إلى الكثافة السكانية المرتفعة إذا ما وجدها فى مدينة من مدن الساحل الشامى، ومن أمثلة ذلك إشارته إلى مدينة عرقة، وذكره لها على اعتبار أنها «عامرة بالخلق»[٣٧]، وهكذا نجد أنه أدرك تلك الكثافة المتزايدة لاسيما لدى عكا وعرقة ومن المرجح أن الدور التجارى لكل منهما أكسبهما تلك الصفة.

أما عسقلان[٣٨]، فقد زارها الإدريسى بعد عام ٥٤٨هـ/ ١١٥٣م، إذ يقرر أن الصليبيين أخضعوها فى ذلك العام، ويفيد هذا القول فى توضيح تاريخ زيارة الإدريسى لبلاد الشام وهى بالتالى وقعت بين عامى ٥٤٨هـ/ ١١٥٣م، وعام ٥٦٠هـ/ ١١٦٤م - والأخير عام وفاته - وقد أشار إلى أبرز ما فيها كما تصوره وهو أسواقها وأسوارها[٣٩].

ومن ناحية أخرى، احتوى تناول الإدريسى لبلاد الشام من خلال كتابه نزهة المشتاق، جوانب اقتصادية هامة، وفى هذا المجال نجده يذكر أمر الثروة المعدنية، وكذلك

النشاطين الصناعي، والتجاري في العديد من المدن الشامية. على نحو يعكس أن ذلك الجغرافي كانت لديه رؤيته الاقتصادية الهامة.

ومن الأمور الجديرة بالملاحظة، أن الإدريسي حرص على إيراد تميز بيروت بالثروة المعدنية لاسيما الحديد، إذ أشار إلى أنه بالقرب منها يوجد جبل فيه معدن الحديد الجيد ويقطع، ويتم استخراجه بكميات كبيرة[٤٠]، الأمر الذى انعكس بالضرورة على الصناعات التي يدخل فيها ذلك المعدن.

أما الزاوية الصناعية فنجده قد أوضحها بالنسبة لمدينة دمشق، حاضرة الشام الكبرى، وكذلك بالنسبة لبيسان.

وقد أشار إلى أن دمشق تحتوى على ضروب من الصناعات[٤١]، وأنواع من الملابس مثل الخز، والديباج النفيس الذى أعجب بصناعته إيما إعجاب حتى وصفه بأنه «عجيب الصنعة»، وأنه «عديم المثال»[٤٢]، وقد عقد مقارنة بين الديباج الدمشقي، والعديد من أنواع الثياب في مدن المشرق الإسلامي الكبرى فوجده يفوقها جميعاً، ومن أمثلة ذلك مقارنته بديباج البيزنطيين؛ وذكر أنه يقارب ديباج تستر، وينافس ديباج أصبهان، ويشف على أعمال طرز نيسابور، وكذلك بديع ثياب تينس، وأنهى تعليقه على الثياب الدمشقية بأنها لا تنافسها ثياب[٤٣].

وواقع الأمر، أن مقولة الإدريسي السابقة تعكس بجلاء مدى التفوق الذى حققته صناعة الثياب الدمشقية في عهد السلطان الملك العادل نور الدين محمود، الذى ازدهر الانتاج الصناعي بصفة عامة في عهده، وشهادة الإدريسي، شهادة رجل قدم من سبته بالمغرب الأقصى، وطاف العديد من بقاع العالم المعمور في ذلك العصر، وشمل ترحاله قارات أفريقيا، وآسيا، وأوروبا، فهي فريدة من نوعها، وتعكس التفوق العالمي للثياب الدمشقية في ذلك العصر على غيرها من الثياب.

وكامتداد للجانب الصناعى، نجد أن ذلك الجغرافى، قد ذكر أنه فى مدينة بيسان توجد صناعة الحصر السامانية، ولا يوجد البتة إلا بها، ولا يتوافر فى سائر أنحاء الشام(٤٤)، ويبدو أن صناعة تلك الحصر لم تكن بالاتقان والروعة التى وجدها ذلك الجغرافى الذواق فى الثياب الدمشقية، ودليلنا على ذلك، أنه على حين كال عبارات المديح والإعجاب الشديد بالديباج الدمشقى، وجدناه لا يمتدح الحصر السامانية. ولم يعقد مقارنة بينها، وبين أنواع الحصر فى المدن الشرقية الأخرى، مما يدل على أنها كانت صناعة محلية، ولم تتطور بحيث تدخل مجال المنافسة العالمية، على عكس أمر الديباج الدمشقى.

وكامتداد لرؤيته الاقتصادية، نجد أن الإدريسى، قدم لنا رؤيته التجارية، وقد حرص على تقديم صورة للأسواق التجارية، وكذلك أنواع السلع المتعددة، من ذلك أنه قرر بشأن مدينة صيدا أنها زاخرة بالأسواق ولاحظ أن أسعار السلع فيها رخيصة(٤٥). كما وصف مدينة دمشق بأن تجاراتها رابحة(٤٦)، وعكست عبارته مدى الثراء الكبير الذى حققته تلك المدينة، من عوائد النشاط التجارى، وقد ذكر أن ديباجها يحمل منها ليصدر إلى الأرجاء كافة القريبة والبعيدة(٤٧).

ومن المعروف أن الصناعة الدمشقية المتقدمة فى ذلك العصر، أمدت التجارة الدمشقية بزاد هام للتصدير، وقد دخل الديباج الدمشقى كسلعة هامة، فى التجارة الدولية، فى العصور الوسطى، ومن ثم أتت رواية الإدريسى فى هذا الشأن دالة على ذلك.

أما عرقة فهى عنده كثيرة التجارات، وطرابلس وصفها بأنها مقصود إليها بالأمتعة، وضروب الغلات، وصنوف التجارات(٤٨) مما عكس انتعاشها الاقتصادى.

وتوجد ناحية لا تخلو من طراقة، وهى أن الإدريسى أشار فى معرض حديثه عن صيدا إلى أن بها تجارة نوع معين من الأسماك، يصفه بأنه «طول الأصبع» وله علامات خاصة يعرف بها، يتم صيده ويجفف، ويسحق، ويسف بالماء، وهذا النوع يفيد من

الناحية الجنسية بشكل كبير[٤٩]، ومن الطريف أن الإدريسى أشار إلى أنه رأى ذلك النوع من الأسماك غير مرة، وإن لم يشر إلى تناوله أو تذوقه وربما منعه حياؤه من أن يذكر ذلك الأمر.

من ناحية أخرى، احتوت جغرافية الإدريسى عن بلاد الشام على إشارات هامة لاسيما فيما يتصل بالمزارات الدينية المسيحية والإسلامية.

وجدير بالذكر، أن الإدريسى يتميز من الجغرافيين المسلمين الآخرين؛ الذين زاروا بلاد الشام فى عصر الحروب الصليبية، على مدى القرنين ٦ و٧هـ/ ١٢ و١٣م، بأنه أكثرهم تفصيلاً بشأن المزارات المسيحية المقدسة فى فلسطين، فعلى حين نجدهم أوردوها بإيجاز بصفة عامة، إلا أن الإدريسى حرص الحرص أكبره على أن يفصل الحديث عنها. ولعل تعليل ذلك أن الكتاب الذى ألفه ونعنى به «نزهة المشتاق» قد ألف أصلاً بناء على طلب روجر الثانى ملك صقلية، وبحكم مسيحيته، فقد كان حريصاً على معرفة رؤية ذلك الجغرافى المسلم لتلك المواقع، ومن ثم حرص الأخير على إيرادها مفصله فى الغالب.

ومثل ذلك التفصيل، نجده يخالف الطابع العام بشأن الرواية الإدريسية عن بلاد الشام فى ذلك العصر، إذ أن الطابع العام الغالب عليها، هو طابع الإيجاز والاختصار، وهو أمر يدعونا إلى الاعتقاد بأن ذلك الجغرافى فصل فيما رآه هاماً وجديراً بالتفصيل، وأوجز عندما رأى أن الإيجاز ضرورى. وخير مثال دال على ذلك التفصيل موضوع المزارات المسيحية المقدسة فى فلسطين.

وقد تعرض الإدريسى لعدد من الكنائس، مثل كنيسة القيامة، وقد أشار إلى مكانتها، وأوضح أنها يتم الحج إليها من جميع بلاد الروم من مشارق الأرض ومغاربها[٥٠].

ومن المعروف أن الحج المسيحى لم يكن أصلاً من أصول المسيحية المبكرة، وإنما بعد أن قامت هيلانة أم الامبراطور قسطنطين الكبير Constantine The Great بالذهاب إلى بيت المقدس فى القرن الرابع الميلادى، صار ذلك تقليداً متبعاً للمسيحيين(٥١)، ولقبت بالقديسة هيلانة St. Helena.

وتوافد الحجاج المسيحيون من بعد ذلك على بيت المقدس، ولدينا العديد من الأشخاص سواء من الرجال أو النساء قاموا برحلات الحج، وتركوا مدونات لرحلاتهم(٥٢)، حتى يطالعها المعاصرون، واللاحقون، واستمرت رحلات الحج إلى هناك بصورة مكثفة، خلال عصر الحروب الصليبية ومن بعده.

مهما يكن الأمر، فإن الإدريسى يصف بدقة تلك الكنيسة، ويقرر أن لها باباً فى جهة الشمال، وينزل من خلاله إلى أسفل الكنيسة، ويسمى الباب، «باب شنت مريه» أى القديسة مريم St. Mary، وعند النزول إلى الداخل توجد المقبرة المقدسة العظمى، وهى ذات بابين، وتوجد عليها قبة قد اتقن بنيانها، وهى حصينة التشييد(٥٣).

كذلك تناول كنيسة المهد فى بيت لحم، وقد وصفها وصف المعجب بما فيها من مظاهر الثراء، وبراعة البنيان حتى أنه ذكر أنه «ما أبصر فى جميع الكنائس مثلها بناء»، وأشار إلى أنه فى ركن الهيكل من جهة الشمال، توجد المغارة التى ولد فيها السيد المسيح(٥٤).

ويلاحظ أن كنيستى القيامة، والمهد، تعدان أهم الكنائس المسيحية فى المنطقة، وقد حظيتا باهتمام الرحالة الأوروبيين الذين ألفوا مؤلفات خاصة برحلات حجهم إلى هناك، كما اهتم بها الجغرافيون والرحالة المسلمين(٥٥)، وإن لم يشيروا إليها – فى الغالب – بمثل تلك التفاصيل التى نجدها لدى الإدريسى.

وبالإضافة إلى ذلك، هناك كنائس أخرى مثل كنيسة قدس الأقداس، وكنيسة للسيدة مريم، تعرف بإسم الجسمانية، وكنيسة باطرنصطرة(٥٦)، وقد أشار إلى وجود

رجال، ونساء مترهبنين، أو بنص ذلك الجغرافى «رجال، ونساء محبوسون يبتغون بذلك، أجر الله سبحانه»(٥٧).

زد على ذلك، أن هناك تناولاً لأحد المزارات المسيحية الهامة فى ذلك العصر، ونعنى بها عين سلوان(٥٨)، وقد أشار عندها أن السيد المسيح؛ أبرأ فيها الضرير الأعمى(٥٩)، كما تعرض لعدد من المزارات الدينية مثل ذكره لبيت لحم، وإشارته إلى أنه يوجد فى الطريق الواقع بين بيت لحم، وبيت المقدس، قبر راحيل أم يوسف، وأم بنيامين، ولدى يعقوب عليهم السلام، وقد وصف ذلك القبر بأن عليه قبة معقودة بالصخر(٦٠)، كما تناول قبر اليعازر أو ما يعرف باسم St. Lazarus(٦١). ويعبر عنه الإدريسى بأنه «قبر اليعازر الذى أحياه السيد المسيح».

ثم إن الإدريسى فى موضع آخر، نجده يشير إلى وجود منازل كثيرة محفورة فى الصخر إلى الجنوب من عين سلوان وهى على ما يبدو أديرة «وفيها رجال قد حبسوا أنفسهم فيها عبادة»(٦٢) على حد قوله.

ومعنى ذلك، أن أهم ملامح تناول الإدريسى لتلك الأماكن المقدسة المسيحية، أنه أشار إلى الكنائس الهامة، وكذلك إلى القبور، بالإضافة إلى أنه تعرض للأديرة، وهما من أماكن العبادة الدينية المسيحية.

ولدينا عدة ملاحظات على ذلك التناول :

أولاً : إن الإدريسى عندما تعرض لتلك الأماكن، عبر عنها كأنه رحالة مسيحى. ولم يشأ أن يشير إلى اختلاف عقيدته الإسلامية عن معتقدات المسيحيين، بل إنه عندما تعرض لأمر اليعازر، لم يشر إلى أن السيد المسيح أحياه بإذن الله تبارك وتعالى، كما أنه عندما تناول أمر الأديرة أشار إلى أن أولئك الرجال، والنساء، من الرهبان والراهبات حبسوا أنفسهم من أجل رضا الله تعالى. ويبدو أن التعليل المنطقى لكل ذلك أنه ألف كتابه

لروجر ملك صقلية. ومن ثم تناول الأماكن المقدسة المسيحية، والرهبانية، بتلك العبارات المعتدلة، واللينة، والتى فيها قدر لا يمكن إغفاله من المداراة.

ثانياً : من الممكن – بناء على ما سبق – أن نعتبر كتابة الإدريسى عن الزاوية السابقة نموذجاً «للكتابة ذات التوجه الرسمى»، على أساس أنه عبر خلالها عن اتجاهات المسيحيين، دون أن يجعل لعقيدته دخلاً فى ذلك كله، ومن الأمور الملفتة للنظر هنا أن الإدريسى لم يشر أدنى إشارة عدائية حيال الصليبيين فى بلاد الشام؛ على الرغم من أنه مر بمناطق خاضعة لاحتلالهم، ومن المتوقع والمنطقى أن الإدريسى فى تجواله فى مناطق الصليبيين قد شاهد المسلمين الخاضعين لسيادتهم السياسية واحتلالهم العسكرى، بيد أن كتابته لم تتناول أولئك المسلمين البتة. ومرة أخرى من الممكن القول إن الارتباط الرسمى لذلك الجغرافى يمكن أن نتلمس آثاره – أكثر من أية منطقة أخرى – فى تعرضه لبلاد الشام خلال أواسط القرن السادس الهجرى/ الثانى عشر الميلادى.

ثالثاً : إن أوصاف ذلك الجغرافى الدقيقة للأماكن المقدسة المسيحية فى فلسطين تدل بجلاء على أنه كان شاهد عيان لها، وقدم وصفاً من عنده، وهكذا فإنه زار بلاد الشام وقدم ذلك الوصف، ولم يكن كما تصور بعض الباحثين قد اعتمد فى وصفه على أوصاف الآخرين، الذين سبقوه إلى تلك البقاع.

أما إذا نحينا ذلك كله جانباً، وتوجهنا إلى تناول الإدريسى للمزارات الإسلامية، فإننا نجده يتعرض للمسجد الأقصى. وقد عمل على عقد مقارنة بينه وبين المسجد الجامع فى قرطبة بالأندلس، وأشار إلى أن سقف جامع قرطبة أكبر من سقف الجامع الأقصى. كما أن صحن الأخير أكبر من صحن جامع قرطبة(٦٣).

كما أنه تعرض إلى قبة الصخرة، فعمل على وصفها وامتدح عمارتها التى هما من بناء الخلفاء المسلمين. وذكر أن طول هذه الصخرة مقارب لعرضها، وهى عشرة أذرع فى مثلها(٦٤)، ومن الملفت للإنتباه أن الإدريسى لا يشير إلى ارتباط تلك الأماكن

بالمعتقدات الإسلامية، وبخاصة ما اتصل بمعجزة الإسراء، والمعراج. كما أنه لايعبر عن مشاعره الدينية عن تلك المواضع المباركة على الرغم من أن الاحتلال الصليبى للقدس، كان قد ترك صدمة نفسية كبيرة للمسلمين، وكثيراً ما كان خضوع المسجد الأقصى، وقبة الصخرة للسيادة الصليبية في ذلك العصر يحرك مشاعر الجغرافيين، والرحالة المسلمين خاصة أولئك الذين قدموا من أنحاء جد بعيدة سواء من المشرق أو المغرب الإسلاميين، غير أنه فى موقف الإدريسي، وجدناه يخفى مشاعره الدينية، ولا يقدم لنا انفعالاً إسلامياً بالمواقع التى يزورها، ومرة أخرى نجد الارتباط الرسمي - على ما يبدو - دافعاً له نحو ذلك التوجه.

ومن جهة أخرى، تعرض الإدريسي للمسجد الأموى بدمشق، وقد أعجب به أشد الإعجاب(٦٥)، ويتضح ذلك من العبارات التى أطلقها عليه، وقد شدت عمارته انتباهه، وبصفة عامة، من الممكن القول بأن كل ما هو دمشقي بهر ذلك الجغرافى، فجعل قلمه يقدم عبارات المديح والإطراء على ما رآه فى تلك المدينة، وينطبق ذلك على المسجد الأموى هناك.

ومن المفيد أن نذكر، أن الإدريسى فى أوصافه للمزارات الدينية كافة سواء المسيحية أو الإسلامية، يكتفى بتقديم الوصف الموجز، ولا يحرص على أن يمزج بين الوصف، والتاريخ، فلا يقدم لنا عرضاً لتاريخ الأثر الذى يصفه، مما أفقد عرضه جانباً مهماً ومؤثراً من الحيوية المطلوبة فى مثل ذلك التناول، وإن لم يفقده قيمته الكبيرة بالطبع.

أضف إلى ذلك، أنه تناول نوعاً آخر من أنواع المزارات ونعنى به المزارات العلاجية، التى يذهب إليها المرضى من أجل العلاج، وفى هذا المقام نجده يتعرض للعيون الساخنة فى طبرية، وقد أوضح أنها حارة فى الشتاء والصيف، وذكر إسم حمام الدمامز، كذلك حمام اللؤلؤ، وحمام المبخرة(٦٦)، مع ملاحظة أنه لا يشير إلى دورهما العلاجى، وهو

أمر سنجده يتردد فيما بعد عصر الإدريسى فى كتابات الجغرافيين المسلمين؛ الذين قدموا إلى فلسطين، وعلى نحو خاص منطقة طبرية على امتداد عصر الحروب الصليبية، خلال القرنين ٦ و ٧هـ/ ١٢ و ١٣م.

وهناك زاوية هامة، تناولها ذلك الجغرافى، ألا وهى العمران فى المدن الشامية الداخلية الخاضعة لسيطرة المسلمين وكذلك الكثافة السكانية بها، وفى هذا المقام من المفيد أن نذكر أن ذلك الجغرافى حرص على إيراد وفرة المصادر المائية فى مناطق بلاد الشام الداخلية، فعلى سبيل المثال، أشار إلى مياه غوطة دمشق، وذكر أنها تخرج من عين الفيجة، وهى عين فى أعلى جبل، ويرى نزول الماء على قرية أبل حتى ينتهى إلى المدينة فتتفرع منه الأنهار مثل نهر بردى، ونهر نوره، وقناة المزة، ونهر بلنياس، ونهر يشكور(٦٧) وغيرها.

وفيما يتصل بوصفه للعمران البشرى فى تلك المدن الداخلية، نجد أنه تعرض لمدينة دمشق، وأشار إلى الغوطة، وذكر أن بها ضياعاً كالمدن، وقدم أمثلة على ذلك كالمزة، وداريا، وبردى، وهرشف، وكوكبا، وإيلاس، وكفر سوسنة، وبيت الأهرار(٦٨)، وكتعبير عن الكثافة السكانية أشار إلى أنه فى كل واحدة من تلك الضياع نجد ألفى رجل، إلى ألف، أو أقل، أو أكثر(٦٩).

وتفيد عبارته الأخيرة فى توضيح الكثافة السكانية لدمشق فى ذلك العصر، ومن الواضح أنه لا يقدم أرقاماً إحصائية دقيقة عن الأعداد البشرية الموجودة فى تلك الضياع، ومن المرجح أنها كانت أكثر من ذلك بكثير على اعتبار أن الغزو الصليبى لبلاد الشام ونجاح الصليبيين فى زرع كيانهم الدخيل فى المنطقة، أدى إلى حدوث عمليات طرد سكانى من المناطق المحتلة من جانب الغزاة إلى المدن الشامية الداخلية المسلمة، وبالطبع كانت دمشق إحدى تلك المدن التى نزح إليها المسلمون المنكوبون بالغزاة. ومع ذلك ليس من اليسير أن تدعم ذلك بأرقام إحصائية دقيقة نظراً لعدم دقة النصوص المصدرية فى ذلك العصر فيما يتصل بتلك الناحية.

على أية حال، أفادت إشارة الإدريسى فى توضيح اتساع حجم العمران البشرى لمدينة مثل دمشق، ولاسيما فى منطقة الغوطة، التى كانت – على ما يبدو – قد شهدت ازدهاراً واضحاً عندما زارها ذلك الجغرافى.

من جهة أخرى. ألقت جغرافية الإدريسى الضوء على الخريطة العقيدية والمذهبية لبلاد الشام فى أواسط القرن السادس الهجرى/ الثانى عشر الميلادى، وقد أشار إلى اليهود والمسيحيين، وكذلك عناصر الإسماعيلية النزارية.

وعلى سبيل المثال، نجده فى نابلس يقرر أنها مدينة السامرية، وأشار إلى أن أهل بيت المقدس يذكرون أن السامرية لا يوجد أحد منهم إلا فى نابلس(٧٠)، ويبدو أنه لم يكن مقتنعاً بذلك على اعتبار أنه ذكر ذلك القول من باب الزعم، مع ملاحظة أن نابلس فى ذلك العصر – وكذلك فى العصور التالية وحتى الآن – كانت بالفعل المركز الفعلى لعناصر السامرية، إذ لم يرد فى المصادر الجغرافية العربية الأخرى أمر وجودهم فى موضع آخر باستثنائها.

وبالنسبة لعناصر المسيحيين المحليين، نجد أن الإدريسى يقرر أن جونية أهلها مسيحيون يعاقبة(٧١)، ولا يقدم إشارات أخرى خاصة بباقى العناصر المسيحية فى بلاد الشام أو دعم بعضها للوجود الصليبى هناك ضد المسلمين(٧٢).

وفيما يتعلق بالإسماعيلية النزارية، نجد أن الإدريسى قدم إشارة مقتضبة عنهم عندما ذكر قلعة الخوابى، وقد ذكر أن قلعة الخوابى أهلها حشيشية(٧٣)، وسفه عقائدهم، وهاجمهم لأنهم فى نظره «خوارج عن الإسلام، لا يعتقدون شيئاً من البعث، ولا القيامة من بعد الموت»، ومن ثم لعنهم بمذهبهم(٧٤).

ويعد الإدريسى من أوائل الجغرافيين المسلمين الذين وفدوا على بلاد الشام فى عصر الحروب الصليبية، وأشاروا إلى عناصر الإسماعيلية النزارية، مع ملاحظة أن تناوله

الموجز والمقتضب لهم، لا يقدم من خلاله جديداً، وإنما يفيد فى أنه يعكس الميول الإسلامية السنية لدى الإدريسى.

وتجدر الإشارة إلى أن الخوابى كانت إحدى قلاع الإسماعيلية النزارية فى بلاد الشام، وقد تناثرت تلك القلاع بين الخوابى، ومصياف(٧٥) – وهى المركز الرئيسى للدعوة الاسماعيلية فى بلاد الشام فى العصر الذى زارها خلالها الإدريسى – والقدموس(٧٦)، والعليقة(٧٧)، والمينقة(٧٨)، والكهف(٧٩)، وجميعها، قد وقع ضمن نطاق كونتية طرابلس الصليبية.

ولا نغفل أن من دلائل قصور تناول الإدريسى للاسماعيلية النزارية أنه لم يشر إلى عمليات الاغتيال التى قاموا بها فى ذلك العصر، بيد أنها تفيد فى توضيح نظرة الجغرافيين المغاربة لتباين الخريطة العقيدية لبلاد الشام فى عصر الحروب الصليبية. وهو أمر سنجده يتردد – وبإهتمام – على مدى صفحات مؤلفاتهم التى تركوها، يستوى فى ذلك الذين قدموا من المغرب أو من الأندلس.

وتبقى ناحية مهمة، أوردها الإدريسى فى تناوله لأنحاء الشام، وهى تتعلق بالجانب الحربى، وما يتصل بالقلاع، والحصون الصليبية.

فمن الأمور الجديرة بالملاحظة، أن الإدريسى قدم إشارة لعلها الأقدم من بين الإشارات التى وصلت إلينا من ذلك العصر من جانب مؤلفات الجغرافيين المسلمين الذين قدموا إلى بلاد الشام عن إحدى الهيئات الحربية الصليبية التى قامت بدور بارز فى عصر الحروب الصليبية، ونعنى بها هيئة الداوية Templars, Templiers، أى فرسان المعبد، ويلاحظ أنه عندما تناول المسجد الأقصى تعرض للحديث عن الجزء المخصص لسكن فرسان الداوية هناك، ومن المعروف أن الصليبيين بعد احتلالهم لمدينة بيت المقدس حولوا قبة الصخرة إلى كنيسة لاتينية أسموها معبد السيد Templum Domini، كما

أنهم استخدموا المسجد الأقصى لصالحهم، وأطلقوا عليه إسم معبد سليمان Templum Solomonis وتم تقسيمه إلى ثلاثة أقسام، فحولوا القسم الأول إلى كنيسة، والقسم الثاني جعلوه لفرسان الداوية، والقسم الثالث تم تحويله لكى يكون مستودعاً لذخائرهم؛ وجعلوا تلك السراديب التى تحت المسجد لتكون اسطبلاً لحيواناتهم[٨٠].

ويلاحظ أن مؤلفات الرحالة الأوروبيين الذين زاروا مملكة بيت المقدس الصليبية خلال القرن الثانى عشر الميلادى/ السادس الهجرى[٨١]، تناولت الهيئات الحربية الصليبية مثل الاسبتارية والداوية، وندر أن نجد إشارات عنهم فى مؤلفات الجغرافيين المسلمين فى ذلك العصر. وقد أشار الإدريسى إليهم على أنهم خدام بيت الله[٨٢]، وهذا الوصف بالطبع من خلال نظرة الصليبيين أنفسهم لتلك الهيئة الحربية.

ومن المعروف أن هيئة الداوية تأسست عام ١١١٨م/ ٥١٢هـ، عندما أسسها فارسان صليبيان هما هيو دى باين Hugh de paynes، وجودفرى دى سانت أومير Godfrey de Saint Omer[٨٣]، وقد وافق البابا على الهيئة وتم تكريسها فى مجمع تروى Troy فى عام ١١٢٨م/ ٥٢٢هـ[٨٤]، وانهالت الهبات، والمنح، والعطايا على الداوية، حتى حققت ثراء عظيماً، وشاركت فى العديد من المعارك الحربية؛ التى خاضها الصليبيون ضد المسلمين فى بلاد الشام، كما امتلكت الهيئة المذكورة العديد من القلاع الحربية، التى تناثرت على طول امتداد الوجود الصليبى وعرضه هناك.

ومن جهة أخرى، نجد أن ذلك الجغرافى، قد تناول أمر القلاع الصليبية، ومن ذلك تعرضه لتلك القلعة التى أقامها الأمير الصليبى رايموند دى سانت جيل Raymond de Saint Gilles – ويسميه ابن سهيل – فى مواجهة طرابلس[٨٥] Tripolis بشمال لبنان.

وجدير بالذكر، أن رايموند دى سانت جيل بعد أن تمكن من إخضاع جبيل

عام ١١٠٤م/ ٥٠٠هـ، ازداد إصراره، وقويت عزيمته من أجل إخضاع طرابلس حيث كان يحكمها بنو عمار، من أجل أن يجعلها قاعدة لإمارة صليبية له ولأسرته من بعده.

وفي ظروف صراعه مع طرابلس، عمل على اختيار أكمة صخرية على الضفة اليسرى من نهر أبي علي (فاديشا) عرفت باسم تلة الحجاج Mons Pergrimus(٨٦)، وقد سماها المسلمون باسم قلعة صنجيل نسبة إلى ذلك الأمير الصليبي.

وتجدر الإشارة، إلى أن اختيار الموقع الذى أقيمت فيه القلعة، كان موفقاً لعدة اعتبارات، إذ أن القلعة أقيمت في مكان يشرف على مدينة طرابلس والأراضى المحيطة بها، حيث يسهل على الجند المرابطين فيه رصد كل النجدات البرية التى تصل إلى طرابلس من خارجها، بالإضافة إلى تحركات قوات طرابلس ذاتها، ومن جهة أخرى، كان من الممكن للصليبيين من خلال قلعتهم أن يسيطروا على مجرى النهر الذى يقوم بتزويد المدينة، وأرباضها باحتياجاتها من المياه، وكان بالإمكان أن يحصل الصليبيون على المياه عن طريق أبواب القلعة الشرقية الواقعة أسفل سفح التلة، ولا ترتفع عن مجرى النهر إلا بضعة أمتار، فضلاً عن موقع تلك القلعة المرتفع من شأنه أن يكتسب مناعة وتفوقاً عسكرياً على المدينة الساحلية(٨٧).

ويلاحظ أن رايموند دى سانت جيل قد حصل على دعم من جانب الإمبراطور البيزنطى الكسيوس كومنين Alexius Commenus (١٠٨٠-١١١٨م)، الذى أرسل له الميرة، والأخشاب، والمعدات التى كان في احتياج إليها، وذلك من جزيرة قبرص Cyprus(٨٨) المقابلة للساحل اللبناني.

ويبدو أن ذلك الأمير الصليبي قد عمل على تدعيم أبنية تلك القلعة، وشحنها بالأموال، والرجال، والسلاح(٨٩)، وفى عام ١١٠٤م/٥٠٠هـ، صارت القلعة مكتملة البناء، وصارت حقيقة واقعة، ومثلت تهديداً قائماً، وحقيقياً لبنى عمار؛ حكام طرابلس(٩٠).

وتجدر الإشارة كذلك إلى أن تلك القلعة التى أقامها رايموند دى سانت جيل كانت بمثابة القلعة الأولى التى أقامها الصليبيون فى المنطقة، ومن بعدها تعددت قلاعهم بأعداد كبيرة فى العديد من أنحاء بلاد الشام فى عصر الحروب الصليبية على مدى القرنين ١٢، ١٣م/ ٦، ٧هـ.

زد على ذلك، أنه عندما أشار إلى مدينة عرقة Arqa، ذكر أن لها حصناً كبيراً(٩١)، ولم يضف إلى عبارته الموجزة مزيداً من التناول لتلك القلعة الهامة، التى عدت من قلاع إمارة طرابلس الصليبية.

وقد قامت قلعة عرقة على المنحدرات الشمالية من لبنان أسفل الوادى المؤدى إلى حمص وحماة، وبعدت عن بعلبك بمسافة ستة وتسعين ميلاً وعن جزيرة ارواء بمسافة خمسة وأربعين ميلاً(٩٢)، أما اسمها فإنه يرد فى كتابات الصليبيين على أنه Arqa أو Archas(٩٣)، وكانت قلعة عرقة على درجة كبيرة من الحصانة على نحو اعترف به المؤرخ المجهول صاحب الجستا Gesta(٩٤)، فى وقت مبكر من مقدم الصليبيين إلى المنطقة، وقد استولى عليها الصليبيون بقيادة الأمير الصليبى وليم جوردان William Jordan (١١٠٥-١١٠٨م/ ٤٩٨-٥٠١هـ) وذلك فى عام ١١٠٨م/ ٥٠٢هـ(٩٥).

ومن أهم المراحل التى نجدها فى تاريخ قلعة عرقة، عندما عهد الملك الصليبى عمورى الأول Amaury I (١١٦٤-١١٧٦م/ ٥٥٩-٥٧١هـ) بأمرها إلى هيئة الإسبتارية Hospitallers، وكان ذلك خلال مدة وصايته على إمارة طرابلس، عندما كان رايموند الثالث Raymond III (١١٥٢-١١٨٧م/ ٥٤٧-٥٨٣هـ) فى الأسر، وعندما عاد من أسره ثبت تلك المنحة للهيئة المذكورة، وأضاف إليها بعض الامتيازات الجديدة، ويحدد البعض ذلك بأنه تم فى عام ١١٧٠م/ ٥٦٦هـ(٩٦).

وقد أصاب قلعة عرقة الهزات الزلزالية المدمرة التى حلت ببلاد الشام فى ذلك العصر، مثلما حدث عام ١١٧٠م/ ٥٦٥هـ[٩٧]، وكذلك عام ١٢٠١م/ ٥٩٧هـ[٩٨]، وقد اتجه فرسان الاسبتارية إلى إصلاح ما قد تهدم من أبنيتها من جراء ذلك، لتدعيم حصانتها فى مواجهة الصراع مع المسلمين.

وقد ظلت القلعة المذكورة فى قبضة القوى الصليبية، إلى أن خضعت لسيطرة المسلمين، وذلك فى عهد السلطان المملوكى الظاهر بيبرس وذلك فى عام ١٢٧١م/ ٦٦٩هـ[٩٩].

كما أن الإدريسى أشار إلى قلعة بغراس[١٠٠]، وهى من قلاع إمارة أنطاكية Antioch الصليبية، وإن لم يذكر شيئاً عن تاريخها ودورها فى الصراع الإسلامى/ الصليبى.

وجدير بالذكر، أن قلعة بغراس، قد وقعت فى مكان فيما بين أنطاكية، وقيليقية الأرمينية Armenian Cilicia، خلف جبل اللكام الهائل؛ المعروف باسم أمانوس Ammanus، وبعدت عن أنطاكية بمسافة إثنى عشر ميلاً، وبالقرب منها وجد حصن دربساك، إلا أن قلعة بغراس كانت أقرب إلى أنطاكية من دربساك[١٠١].

وقد حصلت هيئة الداوية على قلعة بغراس، وذلك فى عهد الملك الصليبى عمورى الأول، وهى سياسة اتبعها منذ عام ١١٦٧م/ ٥٦٣هـ، وشاركه نفس التوجه أمراء الإمارات الصليبية الأخرى، وقد اتجه الأمير بوهيمند الثالث Bohemond III (١١٦٣-١٢٠١م/ ٥٥٨-٥٩٧هـ) إلى إعطاء الداوية العديد من المواقع حول بغراس[١٠٢]، من أجل تدعيم دفاعات إمارة أنطاكية.

وفى عهد السلطان الناصر صلاح الدين الأيوبى، استولى المسلمون على قلعة بغراس وذلك فى عام ٥٨٤هـ/ ١١٨٨م[١٠٣]، وأظهر الداوية مقاومة عنيفة فى

مواجهة الجيش الأيوبى(١٠٤)، واتجه صلاح الدين الأيوبى من بعد ذلك إلى تخريب بغراس.

وفيما بعد عادت القلعة المذكورة لسيطرة الصليبيين، ولذا، حرص الأيوبيون على مهاجمتها، ونجد أن الملك العزيز ابن الملك الظاهر صاحب حلب شن هجوماً واسع النطاق عليها وذلك عام ٦٢١هـ/ ١٢٢٦م(١٠٥) وعلى مدى سبعة أشهر كاملة، وإن لم يتوصل إلى نتائج حاسمة حيالها بسبب حصانتها ومناعتها، وقد ظلت قلعة بغراس فى قبضة الصليبيين إلى أن سقطت فى قبضة المسلمين، وذلك فى عهد السلطان الظاهر بيبرس وذلك فى عام ٦٦١هـ/ ١٠٥٢٦١م(١٠٦)، على نحو فقدت معه إمارة أنطاكية الصليبية جانباً حيوياً من قدراتها الدفاعية.

ومن المفيد أن نلاحظ أن كافة القلاع الصليبية السابقة التى أشار إليها الإدريسى. قد بناها الصليبيون من أجل تحقيق أهداف استراتيجية هامة، ولسد ثغرات وعلاج مشكلات ملحة واجهوها بعد مقدمهم إلى بلاد الشام، ولعل أوضح تلك المشكلات؛ مشكلة نقص العنصر البشرى، ويلاحظ أن تلك المشكلة طالما أرقت الصليبيين، نظراً لوجودهم ككيان قليل السكان إذا ما قورن بالمحيط الإسلامى العام الذى اتسم بالكثافة السكانية المرتفعة.

وفى هذا المقام نذكر أن الجيش الصليبى الذى خرج من نيقية عام ١٠٩٧م/ ٤٩٠هـ، كان ضمناً إذا ما قورن بالجيوش المعاصرة، لكن الخسائر التى منى بها الصليبيون عند ضورلبوم كانت مرتفعة أيضاً، ويرجح أن الجيش الصليبى الذى فرض الحصار على مدينة أنطاكية Antioch تراوح بين الخمسين، والمائة ألف، وعندما اقترب الصليبيون من تحقيق هدفهم انسلخ القادة الصليبيون الواحد تلو الآخر بالقوة العسكرية المرافقة له من أجل أن يؤسسوا ممتلكات إقطاعية لهم، وهكذا، يرى البعض أن الجيش الذى وصل إلى بيت المقدس محاصراً لها لم يتجاوز ١٥٠٠ فارس وعشرة أمثالهم من

الجنود المشاة[١٠٧]، وقد يرى البعض أن هناك الدعم البشرى القادم من الغرب الأوروبى، بيد أن ذلك المدد لم يكن مستمراً، وكان عرضة للتقلبات، وهكذا لم يكن أمام الصليبيين إلا أن يشيدوا القلاع والحصون من أجل تعويض النقص البشرى لديهم، وحتى يدعموا كيانهم على حساب أراضى المسلمين فى المنطقة.

ولانغفل أن تلك القلاع التى أقامها الصليبيون على امتداد وجودهم فى بلاد الشام، مثلت أحد أشكال تغيير هوية المنطقة على المستوى الطوبوغرافى، وكرست الاحتلال الصليبى لأراضى المسلمين، واستمر الوجود الصليبى قائماً طالما استمرت تلك القلاع والحصون، وعندما سقطت، كان ذلك إشارة إلى سقوط الكيان الصليبى برمته.

وهناك حقيقة مهمة، ألا وهى، أن حرص الجغرافيين المسلمين الذين وفدوا إلى بلاد الشام فى ذلك العصر على إيراد أمر تلك القلاع الصليبية يدل على إدراكهم لخطورة أمرها ودورها فى دعم الكيان الغازى لأراضى المسلمين. ويعد الإدريسى فى إشاراته السالفة الذكر من أوائل الجغرافيين المسلمين الذين قدموا إلى بلاد الشام خلال القرنين ٦، ٧هـ/ ١٢، ١٣م وأدركوا أهمية دور تلك القلاع ومن ثم تناولها فى كتاباته الجغرافية.

وبعد؛ فتلك كانت إشارات الإدريسى عن بلاد الشام، ولا ريب فى أنها أفادت فى إلقاء المزيد من الأضواء على أوضاع المسلمين والصليبيين هناك خلال القرن السادس الهجرى/ الثانى عشر الميلادى، على نحو ضمن لذلك الجغرافى مكانة بارزة من بين الجغرافيين المسلمين الذين قدموا إلى تلك البلاد فى عصر الحروب الصليبية.

وسنخصص الفصل الثانى، لجغرافى آخر، هو ياقوت الحموى (ت ٦٢٦هـ/ ١٢٢٨م).

الهوامش

(١) عن مصادر ومراجع ترجمة الإدريسي أنظر :

ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء في طبقات الأطباء، تحقيق نزار رضا، ط. بيروت ب-ت، ص٥٠١؛ حاجي خليفة، كشف الظنون، في المكتبة العربية الصقلية، نشر أماري، ط. لبزج ١٨٥٧م، ص٧٠٦؛ محمد مرسي الحريري، الشريف الإدريسي ودور الرحلة في جغرافيته، ط. الاسكندرية، ١٩٨٥م، ص٣-٤٤؛ حسين مؤنس، الشريف الإدريسي قمة علم الجغرافيا عند المسلمين، صحيفة معهد الدراسات الإسلامية، مدريد، م(٩)، م(١٠)، مدريد، ١٩٦١-١٩٦٢، ص٢٥٧-٣٥٧؛ عبدالله كنون، الشريف الإدريسي، سلسلة ذكريات مشاهير رجال المغرب، ط. تطوان ب-ت؛ حسين الأمين، الشريف الإدريسي وخريطته المشهورة وكتابه نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، العربي، العدد ١٧٧، أغسطس، ١٩٧٣م، ص١١١؛ محمد عبالغني حسن، الشريف الإدريسي أشهر جغرافيي العرب والإسلام، ط. القاهرة، ١٩٧١م، ص٧-٤٩؛ فلورنس أفرا لاغ، «أبو عبدالله محمد بن محمد عبدالله الإدريسي» بحث ضمن كتاب عبقرية الحضارة العربية؛ ن. عبدالكريم محفوق، ط. دمشق، ١٩٨٢م، ص٤١٩؛ علي عبدالله الدفاع، الشريف الإدريسي، أعظم عالم في الجغرافيا في القرون الوسطى، المجلة العربية، السنة (٣)، العدد (٦)، يونيو - يوليو ١٩٧٩م، ص٨١؛ رواد علم الجغرافيا في الحضارة العربية والإسلامية، ص. جازان، ١٩٨٩م، ص١٥١-١٥٢؛ راجي عنايت، الشريف الإدريسي، ط. بيروت، ١٩٧٩م، ص١٩؛ أحمد رمضان، الرحلة والرحالة المسلمون، ط. جدة، ب-ت، ص١٦١؛ السيد عبدالعزيز سالم، التاريخ والمؤرخون العرب، ط. الاسكندرية ١٩٨١، ص١٦٣، عبدالحليم منتصر، تاريخ العلم ودور العلماء العرب في تقدمه، ط. القاهرة، ١٩٨٠، ص٢٥٣؛ محمد محمود محمدين، الجغرافية والجغرافيون بين الزمان والمكان، ط. الرياض، ١٩٨٣م، ص٢٣٩؛ قدري حافظ طوقان، علماء العرب وما أعطوه للحضارة، ط. الرياض، ب-ت، ص ١٩٧، حاشية (١)؛ فؤاد سزكين، تقديم كتاب أنس المهج وروض الفرج، تصوير معهد تاريخ العلوم العربية والإسلامية، فرانكفورت، ١٩٨٤، ورقة (١)؛ عبدالرحمن حميدة، أعلام الجغرافيين العرب، ومقتطفات من آثارهم، ط. دمشق، ١٩٨٠م، ص٣١٦؛ زكي حسن، الرحالة المسلمون في العصور الوسطى، ط. بيروت، ١٩٨١، ص ٦٤؛ محمود كامل، الرحالة العرب في القرون الوسطى، أول من أرسى قواعد الجغرافيا والإرشاد السياحي، العربي، العدد (٢٠١)، أغسطس، ١٩٧٥م، ص ١٤٨؛ جورجي زيدان، تاريخ

آداب اللغة العربية، م ٢، جـ٣، ط. بيروت، ١٩٨٣، ص٨٨؛ أنور عبدالعليم، الملاحة وعلوم البحار عند العرب، ط. الكويت، ١٩٧٩، ص ٤٧؛ كراتشكوفسكى، تاريخ الأدب الجغرافى العربى، ت. صلاح الدين عثمان هاشم، ط. بيروت ١٩٨٧م، ص٣٠٤؛ أبو زيد شلبى، تاريخ الحضارة الإسلامية والفكر الإسلامى، ط. القاهرة، ١٩٦٤م، ص٣٦٧؛ زيجريد هونكه، شمس العرب تسطع على الغرب، أثر الحضارة العربية فى أوروبا، ت. فاروق بيضون، وكمال الدسوقى، ط. بيروت، ١٩٧٩، ص٤١٧؛

(٢) فلورنس أفرالاغ، المرجع السابق، ص٤١٩؛ محمد السيد غلاب، الجغرافيون المسلمون ودورهم فى تطور الفكر الجغرافى، المؤتمر الجغرافى الإسلامى الأول، جامعة الإمام محمد بن سعود، م (٣)، الرياض، ١٩٨٤م، ص ١٤٤.

(٣) كراتشكوفسكى، المرجع السابق، ص ٣٠٤؛ محمد رشيد الفيل، أثر التجارة والرحلات فى تطوير المعرفة الجغرافية عند العرب، المؤتمر الجغرافى الإسلامى الأول، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، م (٣)، ط. الرياض، ١٩٨٤م، ص٤٤٥.

(٤) كراتشكوفسكى، المرجع السابق، ص ٣٠٥.

(٥) عن علاقة الإدريسى بروجر الثانى ملك صقلية أنظر :

الصفدى، الوافى بالوفيات، القسم المنشور فى المكتبة الصقلية، نشر أمارى، ص ٦٥٨؛ حسين فوزى، المعارف الملاحية العربية فى القرون الوسطى وأثرها فى عصر النهضة، ضمن كتاب أثر العرب والإسلام فى النهضة الزوروبية، ط. القاهرة، ١٩٧٠م، ص٣٤٩؛ على عبدالله الدفاع، رواد علم الجغرافيا، ص١٥٢، أحمد رمضان، المرجع السابق، ص١٦٢، حسين الأمين، المرجع السابق، ص١١١؛ زكى حسن، المرجع السابق، ص٦٥؛ شوقى ضيف، المرجع السابق، ص١٩؛ عباس العقاد، أثر العرب فى الحضارة الأوروبية، ط. القاهرة، ١٩٧٣م، ص٥٠؛ أحمد الشريف، دراسات فى الحضارة الإسلامية، ط. القاهرة، ١٩٧٦، ص١٨٦؛

والجدير بالذكر أن لايت، قد رأى أن الإدريسى قد ألف كتابه نزهة المشتاق فى بلاط روجر عام ١١٧٣م/ ٥٦٩هـ، بيد أن هذا التصور لا ينطبق على الواقع التاريخى؛ إذ أن روجر نفسه؛ قد مات عام ١١٥٤م/ ٥٤٩هـ، والمرجع أن الإدريسى قد أتم ذلك الكتاب خلال حياته، إذ أنه بعد ذلك اضطربت الأمور بالنسبة لذلك الجغرافى المسلم الكبير، ولم يعد يحظ بنفس الرعاية التى نالها خلال حياة روجر الثانى ملك صقلية. ويضاف إلى ما سبق، فإن الباحثين يتفقون على أن وفاة

الإدريسي كانت عام ١١٦٢م/ ٥٦٠هـ، ولهذا فليس من الممكن قبول ما ذهب إليه الباحث السابق بشأن التحديد الزمني كتابه نزهة المشتاق.

عن رأى ذلك الباحث أنظر :

Lite, A History of geographical discovery and exploration, New York, 1967, p.60.

(٦) حسين مؤنس، تاريخ الجغرافية والجغرافيون في الأندلس، ط. القاهرة، ١٩٨٦م، ص١٩٥.

ومن المفيد في هذا المجال أن نتعرض بالنقد لما أورده الباحث عبدالله عبدالغنى غانم، الذى يقرر فيما يتصل بعلاقة الإدريسى بروجر الثاني ملك أسبانيا، بينما الواقع التاريخي عكس ذلك؛ إذ أن أسبانيا في ذلك الوقت لم يكن لها ملك مسيحي واحد، بل تنازعها المسلمون والمسيحيون، بالإضافة إلى أن روجر الثانى كان لقبه ملك الصقليتين أى صقلية، ونابولى، ولم يكن قط ملك أسبانيا، أما في حديثه عن العلاقة بين الإدريسي وذلك الملك، يقرر ما نصه «اشتغل - أى الإدريسى - بنقل علوم العرب إلى الأوروبيين، ودعاة حكام صقلية، ومدن إيطاليا، وأسبانيا للإسهام في حركة نقل التراث العربي إلى لغات بلادهم». والواقع أن ذلك القول أبعد ما يكون عن الواقع التاريخين إذ لا يعرف عن ذلك الجغرافى المسلم أنه قام بدور ما في عملية الترجمة المذكورة. ولم ترد أدنى إشارة عن ذلك الدور في ما ورد عن الإدريسى فى كتابات المؤرخين المسلمين فى مرحلة العصور الوسطى، ومن المنطقى تصور أن الإدريسى شغل خلال مرحلة ارتباطه بروجر الثانى بتأليف مؤلفاته الجغرافية مثل نزهة المشتاق، وأنس المهج، ومن المستبعد تماماً أنه قام بدوره فى الترجمة التى أورد أمرها الباحث الفاضل، ناهيك عن عدم إيراد أدنى إشارة لذلك. الأمر فيما ألفه الإدريسى نفسه. خاصة فيما اتصل بعلاقته بروجر الثانى، وختاماً فإن عملية نقل التراث العربى إلى لغات أوروبا فى تلك العصور قام بها مترجمون أوروبيون، ولم نسمع البتة عن قيام أعلام مسلمين؛ بالمشاركة فى ذلك الدور. وأمام كافة الاعتبارات السابقة أجدنى اختلف مع الباحث السابق فيما ذهب إليه. عن رأيه أنظر : عبدالله عبدالغنى غانم، الرواد المسلمون، ط. الاسكندرية، ١٩٨٩، ص١٠٧.

وعن حركة الترجمة فى عهد روجر الثانى، نعرف أنه قد نشطت فى عهده حركة الترجمة من اللغتين اليونانية والعربية إلى اللغة اللاتينية، وقد ساعد على أزدهار تلك الحركة ما نعرفه من ازدهار صقلية بكثير من تراث اليونان القديم.

وقد قاد حركة الترجمة إثنان من رجال الإدارة فى بالرمو هما هنرى ارسطيبوس Henricus Aristippus، ويوجين البلرمى، فعندما كان الأول رئيساً لشمامسة قطانية فى عام ١١٥٦م/

٥٥١هـ قام بترجمة محاورتين من محاورات أفلاطون، كذلك عندما صار ارسطيبوس موظفاً كبيراً في المجلس الملكي خلال المرحلة من ١١٦٠ إلى ١١٦٢م/ ٥٥٥-٥٥٧هـ، قام بترجمة السيرة الذاتية لجريجوري النازيانزي Gregorius Nazianzus (٣٢٩-٣٨٩م). عن حركة الترجمة في عهد روجر الثاني في صقلية أنظر :

Haskins, Studies in the History of medieval science, Cambridge 1927, p. 156.

جمعة الجندي، حكم النورمان في صقلية (٤٨٤-٥٨٦هـ/ ١٠٩١--١١٩٤م)، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب، جامعة عين شمس عام ١٩٨٠، ص١١٨؛ عبدالرحمن بدوي، دور العرب في تكون الفكر الأوروبي، ط. القاهرة، ١٩٦٧، ص٩.

(٧) الحسن الوزان، هو ليو الأفريقي Leo Africanus، وقد ولد في تونس عام ١٤٨٨م/ ٨٩١هـ، وعندما بلغ الثلاثين من عمره وقع في أسر القراصنة الأوروبيين، وذهب به آسروه إلى إيطاليا، حيث مكث هناك عدة أعوام، وصنف في عام ١٥٢٤م/ ٩٢٧هـ، معجماً عربياً، عبرياً، لاتينياً، وذلك من أجل أحد الأطباء اليهود الذين صادقهم، كما أنه ألف كتابه وصف أفريقيا، وفي عام ١٥٢٦م/ ٩٢٩هـ، نعرف أنه أكمل الترجمة الإيطالية لذلك الكتاب، كما أنه قام عام ١٥٢٧م/ ٩٣٠هـ بتأليف كتاب باللغة اللاتينية، احتوى على سير ثلاثين من مشاهير العرب في الفلسفة والطب، وعنوان الكتاب المذكور باللاتينية هو :

Libellus de Viris quibusdam illustribus opud Arabes.

وقد استطاع ليو الأفريقي الفرار من إيطاليا، على الرغم من إطلاق سراحه، وذلك في المرحلة من ١٥٢٨، ١٥٣٠م، فقصد تونس، وعاش بها إلى أن أدركته منيته عام ١٥٥٢م، عن عمر يناهز الستين عاماً. عن الحسن الوزان أو ليو الأفريقي أنظر :

الحسن الوزان، وصف أفريقيا، ت. عبدالرحمن حميدة، ط. الرياض، ١٣٩٩هـ، مقدمة المترجم بالإضافة إلى ص ١٧-٢٦.

Massignon, "Moroc dans les premieres années du XVI siecle, Tableau geographique d'apres Leon African", memoires de la societe historique Algerienne, Alger 1906.

محمد عبدالله عنان، «الرحالة الأندلسي الحسن الوزان : ليو الأفريقي»، مجلة العربي، عدد (٤٣)، يونيو ١٩٦٢م، ص٧٣-٧٧؛ جمال زكريا قاسم، «الحسن بن محمد الوزان، رحالة عربي ومصنف فرنجي»، مجلة العربي، العدد ١٦٣، يونيو ١٩٧٢م، ص ٩٤-٩٩؛ محمد أحمد زوام، «الحسن الوزان، وأهمية كتابه وصف أفريقيا في جغرافية السودان الغربي»، رسالة ماجستير

غير منشورة، معهد الدراسات الإفريقية، عام ١٣٩٨هـ/ ١٩٧٩م؛ عبدالرحمن حميدة، «وصف أفريقيا»، الفيصل، العدد (٢١)، ربيع الأول ١٣٩٩هـ/ فبراير ١٩٧٩م، ص ٨٣-٩٠. و«الحسن بن محمد الوزان الزياتي أو ليون الأفريقي ٨٩٤-٩٦٢هـ/ ١٤٨٨-١٥٥٤م»، المؤتمر الجغرافي الإسلامي الأول، جامعة الإمام محمد بن سعود، م (٣)، الرياض، ١٩٨٤م، ص ٥٠١-٥٩٩؛ كراتشكوفسكي، المرجع السابق، ص ٤٨٨-٤٩٤.

(٨) حسين مؤنس، الجغرافيا والجغرافيون في الأندلس، ص١٦٩، هامش (٢).

وتجدر الإشارة إلى أن أحمد رمضان قد ذكر في كتابه أن الإدريسي قد مات في القاهرة في عام ٦٤٩هـ/ ١٢٥١م، وذلك اعتماداً على ما أورده السيوطي في حسن المحاضرة. والإدريسي الذي أورده السيوطي ليس الرحالة المسلم الشهير محمد بن محمد بن عبدالله بن إدريس، بل المقصود به محمد بن عبد العزيز الإدريسي الشريف الفاوي، والذي وصف بأنه كان من فضلاء المحدثين وأعيانهم، وألف كتاب المفيد في أخبار الصعيد، وقد ولد في عام ٥٦٨هـ/ ١١٧٣م، وتوفي بالقاهرة في عام ٦٤٩هـ/ ١٢٥٥م، وقد أورد ترجمته السيوطي؛ وكذلك الأدفوي. ويكمن الخلط بينهما أن كلاً منهما سمي بالإدريسي كما أنهما كلاهما من الأشراف. عن ترجمة الإدريسي الشريف (ت ٦٤٩هـ/ ١٢٥٥م) أنظر :

السيوطي، حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة، حـ١، تحقيق محمد أبو الفضل، ط. القاهرة، ١٩٦٧م، ص٥٥٤؛ الأدفوي، الطالع السعيد الجامع لنجباء مصر والصعيد، تحقيق سعد محمد حسن، ط. القاهرة ١٩٦٦م، ص٩٣؛

وأنظر إشارة أحمد رمضان السابقة في : الرحلة والرحالة المسلمون، ص١٦٤.

ومن جهة أخرى، اعتقد زكي العتيبي أن الإدريسي قد توفي عام ٥٤٨هـ/ ١١٤٤م، بيد أنه من خلال الاعتبارات السابقة يبدو أنه تصور مبكر، أنظر : تركي العتيبي، الحياة الاجتماعية والاقتصادية في صقلية الإسلامية، ط. الرياض ١٩٨٧م، ص «ذ» من المقدمة.

(٩) حسين مؤنس، المرجع السابق، ص ١٦٩، هامش (٢).

(١٠) فلورنس أفرالاغ، المرجع السابق، ص ٤١٩-٤٢٠.

(١١) زكي حسن، المرجع السابق، ص ٦٧.

(١٢) محمد مرسي الحريري، المرجع السابق، ص٨.

(١٣) على عبدالله الدفاع، إسهام علماء العرب والمسلمين فى علم النبات، ط. بيروت، ١٩٨٥، ص١٩١. وعن ببليوغرافيا مؤلفات الإدريسى أنظر :

Oman, Noticie Bibliografiche sul geografo arabo AlIdrisi (XII secole) e sulle sue opere. Estratto degli, Annall dell' Instituto Universitato Orientall di Napoli, Roma 1961.

وهى دراسة ببليوغرافية هامة - علر الرغم من إيجازها - ونجد عرضاً لذلك العمل من جانب حسين مؤنس فى صحيفة معهد الدراسات الإسلامية فى مدريد، م (١١)، (١٢)، مدريد، ١٩٦٣-١٩٦٤م، ص ٣٩٢-٣٩٤.

(١٤) عنوان الكتاب هو نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق.

ويلاحظ أن مخطوطات نزهة المشتاق هى المخطوطة فى المكتبة الأهلية .B.N فى باريس تحت رقمى ٢٢٢١، ٢٢٢٢ ويصفهما حسين مؤنس على أنهما ليستا كاملتين، وأن المتفق عليه بين الباحثين أن هاتين هما أحسن مخطوطات النزهة، وأكثرهما جدارة بالثقة، كما أوضح إبراهيم شوكة الذى عمل على تحقيق القسم الخاص بسوريا، ولبنان، وفلسطين، والأردن، أن هناك نسخاً أخرى فى صورة مخطوط بولوك من إكسفورد Oxford، ومخطوطة مغربية، بالإضافة إلى مخطوطة موصلية. عن ذلك أنظر :

حسين مؤنس، الجغرافية والجغرافيون فى الأندلس، ط. مدريد ١٩٦٧م، ص٢٢٩-٢٣٠؛ إبراهيم شوكة، تقديم تحقيق نزهة المشتاق، الجزء الخاص بوصف سورية ولبنان وفلسطين والأردن، مجلة المجمع العلمى العراقى، م (٣٠) عام ١٩٧٩، ص٤.

والجدير بالذكرأن الطبعة الوحيدة - كما يقرر كراتشكوفسكى - التى تشتمل على أصل الكتاب طبعت عام ١٥٩٢م؛ أى أواخر القرن السادس عشر الميلادى، بمطبعة الميديتشى Medici ونجد فيها الترجمة اللاتينية للعنوان وهو :

Oblectatio desiderantis in descriptione civrtatum principalium et Tractatuum et provinciarum et insularum et plagarum, Roma 1592.

ثم ظهرت ترجمة لاتينية لتلك الطبعة، وقد صدرت فى باريس عام ١٦١٩م، وقام بها كل من يوحنا الحصرونى Jaonnis Hesronica، وجبريل الصهيونى Gabriel Sionita، وهى تحمل عنوان : جغرافية النوبى : وعنوان الترجمة اللاتينية هو :

Geographia Nubiensis, id est acuratissima totius oybis in septem climata divin descriptio continans praesentin exactam universiae Asiae et Africae, rerum gue in iis bactenus incog - ni Tarum explicatione - Recons ex Arabico in

Latinum versa a gabriele sionita, siriacarum et arabicarum Literarum professore at que in terprete regio, et joanne Hesyonita, earandum regio interprete, Naronitis - parisiis 1619.

عن ذلك أنظر : Oman, Notice, Bibliografiche, p. 50-51.

ويلاحظ أن تسمية جغرافية النوبى أو Geographia Nubiensis، هى تسمية خاطئة، كما يلاحظ كراتشكوفسكي، إذ أن المترجمين، قررا أن المؤلف نوبى الأصل، وذلك لأنهما قرآ عبارة «أرضها» على أنها «أرضنا» فتصورا – على عكس الواقع – أن المؤلف من بلاد النوبة فى أقصى صعيد مصر. عن تلك الفكرة أنظر : كراتشكوفسكي، المرجع السابق، ص٣١١.

ومن جهة أخرى، قام كوندى بنشر القسم الخاص بوصف الإدريسى من خلال الكتاب المذكور، وذلك فى مدريد عام ١٧٩٩م، وعنوان عمله :

Conde, Description de Espana de X erif Aledrisi, connocida per el nubiense, con Traduccion y notas, Madrid 1799.

كما أن ميلر Miller، قام بنشر وصف بلاد الشام من نزهة المشتاق، وصدر عمله فى لبزج Lupzeg عام ١٨٢٨م.

أما الترجمة الكاملة لمتن الإدريسى فى نزهة المشتاق، فقد ظهرت باللغة الفرنسية فى مجلدين عام ١٨٣٦، ١٨٤٠م، على يد جوبير Jubert (١٧٧٩-١٨٤٧م) وهو أحد علماء الحملة الفرنسية على مصر، وعنوان عمله هو :

Geographie d'Edrisi, Traduite de L'Arabe, Par Jubert, Paris 1836-1840.

والجدير بالذكر أن دى ساسى له دراسة هامة عن جهود جوبير السالفة الذكر، تم نشرها فى الجريدة الآسيوية، المجلد الحادى عشر، عام ١٨٤١م. عنها أنظر :

De Sacy, "Geographie d'Idrisi, Traduite en Francais par Mr. Jaubert", J.A., T. XI, Année 1841, pp. 342-387.

ويرى كراتشكوفسكي، أن عمل جوبير يحوى العديد من الأخطاء، التى من الواجب تصويبها دون أن يحدد طبيعتها.

ومن جهة أخرى، قام دوزى Dozy ودى جويه De Goeje بطبع القسم الخاص بوصف المغرب، والأندلس، ومصر، والسودان، وصدر عملهما فى ليدن عام ١٨٦٤م، وعنوان العمل هو:

Dozy et De Goeje, Description de L'afrique et de L'Espagne, Leyden 1866.

أما أمارى Amari، فإنه قام بنشر القسم الخاص بوصف إيطاليا، وصدر عمله فى روما عام ١٨٨٥م. كما أن جون جلد مستر قام بنشر القسم الخاص بفلسطين وسوريا وصدر عمله فى بون

عام ١٨٨٥م، بعنوان :

Idrisi palestina et Syria arabice ad fidem Librorum manuscriptorum ed. Johm Gildemester, Bonn 1885.

عن طبعات وترجمات أجزاء من نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق أنظر :

Ruhricht, Chronologisches Verzeichniss der Auf die yeographie des Heilligen Landes Bezuglichen Literature Von 333 Bis 1878, Berlin 1890, P.36-37.

كراتشكوفسكى، المرجع السابق، ص٣١١؛ بالنثيا، تاريخ الفكر الأندلسى، ت. حسين مؤنس، ط. القاهرة، ١٩٥٥م، ص٣١٣؛ نجيب العقيقى، المستشرقون، حـ١، ط. القاهرة ١٩٨٠، ص٩٩؛ محمد جمال الدين الشيال، التاريخ الإسلامى وأثره فى الفكر التاريخى الأوروبى فى عصر النهضة، ط. بيروت ب-ت، ص ١٠٢، ١١٢؛ فلورنس أفرالاغ، المرجع السابق، ص ٤٢١؛

والواقع أن نظرة فاحصة إلى الجهود التحقيقية التى قام بها محققو الإدريسى، توضح أن الباحثين الفرنسيين، والألمان والايطاليين، وكذلك الأسبان، عملوا على تحقيق أجزاء معينة من نزهة المشتاق، وأن منهم من حرص على تحقيق القسم الخاص ببلاده، من ذلك الكتاب أو ترجمه إلى لغته المحلية.

بيد أن من الملاحظ أن الباحثين الإيطاليين؛ كانوا أكثر من غيرهم حرصاً على تحقيق كتاب نزهة المشتاق، وإصداره من خلال عمل جماعى قام به عدد من المحققين الايطاليين، نذكر منهم :

G. Levi Della Vida, E. Cerulli, F. Gabrieli, G. Tucci, L. Petech, A. Bombaci, U. Ruzitano, A. Rubinacci, L. Veccia Vaglieri.

وقد صدر عملهم تحت عنوان : Opus Geographicum . أى «صورة الأرض»، خلال المرحلة من ١٩٧٠-١٩٧٧م، وذلك من جانب معهدين من كبار معاهد الاستشراق فى إيطاليا وهما :

Instituto Universitario Orientale di Napoli, Istituto Italiano Per Il Medio Ed Estremo Oriente.

ويلاحظ أن جهد ذلك الفريق من الباحثين الإيطاليين قد استغرق سنوات عديدة، إذ أن العلامة حسين مؤنس؛ كان قد أشار إلى إعدادهم لذلك العمل منذ عام ١٩٦٣-١٩٦٤م. قبل إصداره عام ١٩٧٧م، عن ذلك أنظر ما ذكره فى صحيفة معهد الدراسات الإسلامية فى مدريد، م (١١)، (١٢) مدريد ١٩٦٣-١٩٦٤م، ص٣٩٤.

ومن الملاحظ غياب دور الباحثين المسلمين المحدثين فى مجال تحقيق نزهة المشتاق أو جزء منه، بيد أن الباحث إبراهيم شوكه قام بتحقيق القسم الخاص بوصف سوريا ولبنان، وفلسطين، والأردن، وصدر عمله فى مجلة المجمع العلمى العراقى، فى مجلد رقم (٣٠) عام ١٩٧٩.

ويلاحظ أن الباحث الألمانى ميلر Miller - كما أسلفت من قبل - كان قد قام بتحقيق ذلك القسم من نزهة المشتاق، وصدر عمله فى لبزج Lupzeg عام ١٨٢٨م، ولكن لم يتسن لى مطالعة عمل ميلر؛ كى أقرر حقيقة جهد إبراهيم شوكه، وأوجه تميزه من عمل قرينه الألمانى.

ومع ذلك، يؤخذ على تحقيق إبراهيم شوكه؛ أنه اعتبر قسماً مضافاً إلى مخطوطة من المخطوطات التى اتخذها أساساً لدراسته، على أنه أصل من نزهة المشتاق، والجزء المضاف خاص باسترداد جزيرة أرواد وقد أشار إلى حدوث ذلك فى عهد السلطان المملوكى الناصر محمد بن قلاوون، ويلاحظ أنه تولى السلطنة على ثلاث مراحل متقطعة من ٦٩٣هـ/ ١٢٩٣م إلى ٦٩٤هـ/ ١٢٩٤م، من ٦٩٨هـ/ ١٢٩٨م إلى ٧٠٨هـ/ ١٣٠٨م، من ٧٠٩هـ/ ١٣٠٩م إلى ٧٤١هـ/ ١٣٤٠. ومن المنطقى تصور أن ذلك القسم يعد دخيلا على المخطوطة، ومضافاً إليها، على اعتبار أن الإدريسى نفسه - كما أسلفت الإشارة من قبل - قد توفى عام ٥٦٠هـ/ ١١٦٢م، ولذا فمن المستبعد تماماً أن يصف أحداثاً وقعت خلال مدة حكم السلطان المملوكى الناصر محمد. عن ذلك السلطان أنظر :

ابن تغرين بردى، النجوم الزاهرة، جـ٨، ص١١٥-١١٦؛ سعيد عاشور، مصر والشام فى عصر الأيوبيين والمماليك، ط. بيروت، ب-ت، ص٢٢٥-٢٢٨، ٢٣١-٢٣٣؛ السيد الباز العرينى، المماليك، ط. بيروت ب-ت، ص٢٦٧؛ على إبراهيم حسن، تاريخ المماليك البحرية، ط. القاهرة، ١٩٦٧م، ص٦٨-١١٥.

(١٥) أنس المهج وروض الفرج، مخطوط مكتبة حكيم أدغلى تحت رقم ٦٨٨، ومخطوط مكتبة حسن حسنى تحت رقم ١٢٨٩، وقام بتصوير الكتاب اعتماداً على المخطوطتين المذكورتين فؤاد سزكين، وصدر عمله من جانب معهد تاريخ العلوم العربية والإسلامية، جامعة فرانكفورت، ألمانيا الاتحادية عام ١٩٨٤.

ومن المعروف أن المستشرق يوسف صورفيتش Joseph Horovitz، قد اكتشف المخطوطة المذكورة فى مكتبة حكيم أدغلى، وعمل عدد من الدارسين على البحث فيها مثل سيبولد C.F. Seybold وكونرا ميلر K. Miller.

ويلاحظ أن الإدريسى فى هذا الكتاب يقرر أنه يقتصر فيه «على الاختصار، وترك الهذر والإكثار»، وذلك مع اعتماده على المصادر التى ذكرها فى مقدمة كتابه نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق.

وقد ذهب فؤاد سزكين إلى القول بأن هذا الكتاب من المحتمل أن الإدريسى قد ألف فى أواخر حياته للامبراطور غليوم الأول (١١٥٤-١١٦٦م) ولد روجر. عن ذلك أنظر :

تقديم فؤاد سزكين لتصوير المخطوطة المذكورة؛ محمد المنونى، «الجزيرة العربية فى الجغرافيات والرحلات المغربية وما إليها» ، مجلة المجمع العلمى العراقى، م(٢٩)، عام ١٩٧٨م، ص١٦٢.

(١٦) جلال مظهر، حضارة الإسلام وأثرها فى الترقى العالمى، ط. القاهرة، ١٩٧٤م، ص٤٠٢؛ زغلول النجار والدفاع، إسهام علماء المسلمين الأوائل، ص٣٧٥؛ كراتشكوفسكى، مع المخطوطات العربية، ط. موسكو ب-ت، ص٣٥.

(١٧) نفسه، نفس المرجع، ص ٣٧٤-٣٧٥.

(١٨) بالنثيا، المرجع السابق، ص ٣١٤؛ شوقى ضيف، المرجع السابق، ص١٩؛ حسين فهيم، أدب الرحلات، سلسلة عالم المعرفة، ط. الكويت، ١٩٨٩م، ص٩٦؛ عبدالعال عبدالمنعم الشامى، «جهود الجغرافيين المسلمين فى رسم الخرائط الجغرافية»، المؤتمر الإسلامى الجغرافى الأول، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، م(٣)، ط. الرياض، ١٩٨٤م، ص٢٨١؛ عبدالمنعم ماجد، الحضارة الإسلامية فى العصور الوسطى، ط. القاهرة، ١٩٧٨م، ص٢٣٥؛ شاريف، الفكر الإسلامى منابعه وآثاره، ت. أحمد شلبى، ط. القاهرة، ١٩٧٨م، ص١٢٣.

(١٩) عز الدين فراج، فضل علماء المسلمين على الحضارة الأوروبية، ط. القاهرة، ١٩٧٨م، ص١١٢؛ أنور عبدالعليم، المرجع السابق، ص٤٧.

ومن المفيد فى الواقع أن نتعرض بالرد على ما ذهب إليه الباحث حسن على حسن عندما ذكر ما نصه «إن كتاب الاستبصار فى عجائب الأمصار يعدل كتاب الإدريسى نزهة المشتاق فى الأهمية، والواقع أن هذا التصور يحوى مبالغة جلية، لعدة اعتبارات، فمؤلف الاستبصار المجهول، ويعتقد أنه رحالة مغربى يعود إلى القرن السادس الهجرى/ الثانى عشر الميلادى تطرق فى وصفه لبلاد المغرب، ومصر، والحجاز فى الأساس، ولم يتعرض لمناطق أخرى فى آسيا وأوروبا، وأفريقيا إلا نادراً، على عكس نزهة المشتاق الذى أوضح فيه الإدريسى جوانب هامة عبر القارة الأوروبية ومناطق بها نائية وقل اهتمام الجغرافيين المسلمين السابقين بها، زد على ذلك أن الإدريسى أفاد من تصورات الجغرافيين والرحالة المسلمين السابقين عليه وهو أمر لا يتضح من خلال مطالعة الاستبصار، وأخيراً، فإن نزهة المشتاق يعكس براعة عقلية الإدريسى من خلال توافر إمكانيات دولة النورمان بصقلية، وبالتالى توافرت له إمكانيات يمكن أن توصف بأنها استثنائية، أما كتاب

الاستبصار فيمكس مجهوداً فردياً - مع عدم إغفال دور ما يسمى بالناظر في الكتاب - وليس من اليسير مقارنة الكتاب الأخير بنزهة المشتاق للإدريسي أمام كافة الاعتبارات السابقة. عن الرأى السابق أنظر :

حسن على حسن، الحضارة الإسلامية في المغرب والأندلس، عصر الرابطين والموحدين، ط. القاهرة ١٩٨٠، ص٥٠٥.

(٢٠) عبدالفتاح وهيبة، جغرافية العرب في العصور الوسطى، الجمعية الجغرافية المصرية، ط. القاهرة ١٩٦٠م، ص١٧.

(٢١) كراتشكوفسكى، الأدب الجغرافى، ص٣٠٣.

Lite, A History of geographical discovery and exploration, New York 1967, p. 60.

(٢٢) فؤاد سزكين، تقديم تصوير مخطوط أنس المهج وروض الفرج، ورقة (١).

(٢٣) حسين مؤنس، الجغرافية والجغرافيون في الأندلس، ص٢١٧.

والهمذانى، هو أبو محمد الحسن بن أحمد بن يعقوب الهمذانى المشهور بابن الحائك، نشأ في أسرة متوسطة الحال، كانت تهتم بأمر الحجيج من المين، وأكثر الهمذانى من الأسفار خارج اليمن، مما أعطاه فرصة جيدة من أجل مجالسة العلماء في العديد من المدن والأقطار، وتعرض الهمذانى للسجن في عهد الإمام الزيدى أحمد الناصر في عام ٣١٥هـ/ ٩٣٧م، وألف العديد من المؤلفات منها كتاب الإكليل، وكتاب سرائر الحكمة، وكتاب القوى في الطب، وكتاب زيج الهمذانى، وكتاب صفة جزيرة العرب، وكتاب الجوهرتين العتيقتين الحائقتين الصفراء والبيضاء، وكتاب في الأنساب، وكتاب المسالك والممالك، وقد توفى الهمذانى في عام ٣٣٤هـ/ ٩٤٦م. عن الهمذانى ومؤلفاته أنظر :

الهمذانى، الإكليل، تحقيق محب الدين الخطيب، ط. بيروت ١٩٨٧م، ص١٨-٢٤؛ القفطى، أخبار العلاء بأخبار الحكماء، ط. بيروت ب-ت، ص١١٣؛ زغلول النجار وعلى عبدالله الدفاع، المرجع السابق، ص ٢٩٦-٣٠٤؛ أحمد رمضان، المرجع السابق، ص ٩٥-١٠٠؛ أيمن فؤاد سيد، مصادر تاريخ اليمن في العصر الإسلامي، المعهد الفرنسي للآثار الشرقية، ط. القاهرة ١٩٧٤م، ص٦٨-٦٧.

وابن حوقل، هو محمد بن على البغدادى الموصلى، يكنى بأبى القاسم ولقب بابن حوقل، ولا نعرف الكثير عن حياته سوى أنه غادر بغداد في عام ٣٣١هـ/ ٩٤٣م، من أجل دراسة

البلاد والشعوب، ورغبة فى الارتزاق من خلال التجارة. ولذا طاف أنحاء العالم الإسلامى من شرقه إلى غربه، ويقال إنه ظل يتجول فى أنحاء عالم الإسلام على مدى ثلاثين عاماً، ووصل فى تجواله إلى بلغاريا، وأعالى نهر الفولجا، وقد ألف كتابه الشهير صورة الأرض، وقد أفاد من جغرافى مسلم آخر، ألا وهو الاصطخرى فى تخطيط الكتاب، وكذلك فى محتواه ذاته، وقد أضاف أشياء جديدة، كما أن أسلوبه فى الكتابة، امتاز بالسهولة، والوضوح، وتجنب السجع، والمحسنات البديعية، ونظراً لكون ابن حوقل تاجراً، نجد أنه اهتم اهتماماً خاصاً بالتجارة وكذلك الجبايات، ويلاحظ أن المستشرق دوزى قد رأى أن ابن حوقل عمل جاسوساً لحساب الفاطميين فى الأندلس، غير أن ذلك التصور لا يتفق مع الواقع، إذ أنه فى مواضع كثيرة يوجه النقد الشديد للفاطميين، من ذلك أنه عندما كان يورد ذكر بعض المناطق المخربة فى أفريقية، حرص على أن يشير إلى أن ذلك خربه العبيديون، وهى تسمية لا يوردها إلا أعداء الفاطميين، على نحو نفيد ما ذهب إليه دوزى فى هذا الشأن. عن ابن حوقل أنظر :

ابن حوقل، صورة الأرض، تحقيق دى جويه، ط. ليدن ١٩٦٧م، ص٣-٤؛ حسين مؤنس، مكان المسلمين فى التاريخ العام لعلم الجغرافيا، ص٢٤٧ ؛ أحمد رمضان، المرجع السابق، ص١١٧ ؛ على عبدالله الدفاع، رواد علم الجغرافى، ص١٠٨؛ نفيس أحمد، الفكر الجغرافى فى التراث الإسلامى، ت. فتحى عثمان، ط. الكويت ١٩٧٨م، ص٦٩؛ أحمد فؤاد باشا، التراث العلمى للحضارة الإسلامية، ط. القاهرة ١٩٨٣م، ص١١٦.

والمقدسى، هو أبو عبدالله محمد بن أحمد بن أبى بكر البناء وعرف باسم المقدسى، حيث ولد بمدينة بيت المقدس فى عام ٣٣٥هـ/ ٩٤٥.، وقد تلقى تعليماً متميزاً، وأدى فريضة الحج، وهو فى العشرين من عمره، وكرس حياته من أجل دراسة الجغرافيا، ولذا، قام بعدة رحلات استغرقت عشرين عاماً، وذلك من أجل الحصول على المادة العلمية اللازمة لوضع كتابه الشهير أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم، ويحتوى على وصف عام للدول الإسلامية، مع التخصيص على الجوانب الثقافية والدينية. وقد صنفه فى عام ٣٨٥هـ/ ٩٩٥م، ونجد فيه الكثير من الجغرافيا الوصفية لسطح الأرض والأقاليم والأقسام السياسية وذكر المسافات، وكذلك طرق المواصلات، وأيضاً عن الجغرافيا الانسانية التى تتناول طوائف الناس، واللغة، والتجارة، وغيرها، ومن المفيد أن نذكر أن المقدسى يتضح من خلال كتابه أنه دقيق الملاحظة لأنماط الحياة المختلفة فى المناطق التى مر بها، وكذلك ممارسات الناس، ونشاطهم الاقتصادى المتباين، كما أنه تمتع بنظرة ثاقبة فى مجال تقدير، وتقييم آداب البلاد التى طاف بربوعها، وقد امتاز منهجه بالاسناد، ولذا نجده يسند المعلومات التى دونها فى كتابه أحسن التقاسيم إلى راويها،

لاسيما في حالة التشكك حتى ولو قليلا، على نحو جعله يتصف بالدقة بصورة واضحة. وتبقى ناحية طريفة عن المقدسي، ألا وهي أنه كثيراً ما غير اسمه من أجل أن يندمج في صفوف الجماهير، حتى يتمكن من دراسة أنماط حياتها المختلفة. وقد توفي ذلك العلم الجغرافي في عام ٣٩٠هـ/ ٩٩٥م. عن المقدسي أنظر :

حاجي خليفة، كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، حـ١/ ق١، ط. استانبول ١٩٤١م، ص١٦؛ شاكر الفحام، حياة المقدسي وعصره، ضمن أعمال الندوة التي عقدت في دمشق في ١٩٩٠/١١/٨م، في الاحتفال بالذكرى الألفية لوفاته؛ صفي الدين أبو العز، الجغرافية الاقتصادية والاجتماعية عند المقدسي، الندوة السابقة؛ عادل عبدالسلام، منهج المقدسي وأسلوبه في البحث، الندوة المذكورة؛ خالد ماغوط، الإنشاءات التراثية المائية أيام المقدسي، الندوة السالفة الذكر؛ محمد نذير سنكرى، الملامح البيئية والمائية للوطن العربي عند المقدسي، ضمن أبحاث الندوة المذكورة؛ حسين فهيم، المرجع السابق، ص٧٧، حاشية (٣)؛ أحمد فؤاد باشا، المرجع السابق، ص١١٤؛ صباح محمود محمد، دراسات في التراث الجغرافي العربي، ط. بغداد ١٩٨١م، ص٤٤-٤٥؛ على عبدالله الدفاع، رواء علم الجغرافيا، ص١٢٤؛ زغلول النجار والدفاع، المرجع السابق، ص٣٤٤؛ آدم متز، الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، حـ٢. ط. بيروت ١٩٦٧م، ص١١؛ أحمد رمضان، المرجع السابق، ص١٢٩؛ زكي حسن، المرجع السابق، ص٤٤؛ أنور عبدالعليم، المرجع السابق، ص٣٥.

(٢٤) حسين مؤنس، الجغرافية والجغرافيون في الأندلس، ص٢١٧.

وعن دور الإدريسي في مجال علم الخرائط أو الكارتوجرافي Cartography، نعرف أن أكبر إضافة قدمها المسلمون، إلى ذلك العلم؛ تتمثل في خريطة الإدريسي للعالم، وقد تضمنت خريطته معلومات من كل من الجانبين؛ الغربي المسيحي، والشرقي الإسلامي، وتعود أهمية خريطته بالنسبة للغربيين إلى ثروة المعلومات الخاصة بالجزء الآسيوي، وكذلك منطقة الشرق الأوسط، ووسط آسيا على نحو خاص، وقد رسم الإدريسي خرائط أخرى، ونجد أنه قد استخدم الألوان في رسمها؛ فظهرت البحار باللون الأزرق، بينما نجده قد استخدم اللون الأخضر ليدل على الأنهار، واللون الأحمر والبني والأرجواني ليدل على الجبال، أما المدن؛ فنجده قد جعلها مرسومة بدوائر مذهبة. عن دور الإدريسي في هذا المجال أنظر :

محمد محمد سطيحة، الجغرافيا العملية وقراءة الخرائط، ط. بيروت ١٩٧٤م، ص٣٣-٣٤؛ محمد صبحي عبدالحكيم وماهر الليثي، المرجع السابق، ص٢٨-٢٩؛ حسين مؤنس، مكان المسلمين في التاريخ العام لعلم الجغرافيا، ضمن كتاب دراسات في الحضارة

الإسلامية، ط. القاهرة ١٩٧٠م، ص٢٣٩؛ مونتجومرى وات، فضل الإسلام على الحضارة الغربية، ط. القاهرة ١٩٨٦، ص٣٥؛ على عبدالله الدفاع، رواد علم الجغرافيا، ص١٥٣؛ أحمد فؤاد باشا، المرجع السابق، ص١١١.

Wright, The geographical Lore of The Time of The Crusades, Astudy in The History of medieval Science and Tradition in Western Europe, New York 1965, p. 80; Lite, A History of geographical discovery, p. 60.

ويلاحظ أن المستشرق بلوشيه، قد قام بنشر خريطتين من خرائط الإدريسى عن الشمال الأفريقى، وضمنها كتابه عن لدراسة علم الخرائط عند المسلمين، الصادر فى بون عام ١٨٨٨م. عن ذلك أنظر :

Blochet, contribution à L'etude de la cartographic chez les musulmans, Bonn 1888.

عن ذلك أنظر : دائرة المعارف الإسلامية، م (٢)، مادة «الإدريسى»، ص٤٨٩.

ومن بعد ذلك، قام المستشرق الألمانى كونراد ميلر Konrad Miller – وهو من كبار المهتمين بالدراسات الإدريسية لاسيما فى مجال الخرائط – قام بعمل أطلس كامل خاص بخرائط الإدريسى، وقد احتوى على (٧٣) خريطة، وأضاف إليها قائمة تفصيلية بالأسماء التى وردت فيها وذلك فى شتوتجارت عام ١٩٢٦.

وقد صدر عمل ميلر تحت عنوان :

Miller, Mappae Arabicae, Arabische Welt - and Lander Karren I Band. 3 Heft. Die kleine Ldrisikarte Von Johre 1192n Stuttgart 1926.

عن عمل كونراد ميلر أنظر :

شاكر خصباك، الخصائص العلمية للجغرافية العربية الإسلامية القديمة، المؤتمر الجغرافى الإسلامى الأول، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، م(٣)، ط. الرياض ١٩٨٤م، ص١٦١؛ وكذلك تقديم فؤاد سزكين لتصوير مخطوط أنس المهج.

ويلاحظ أن صبحى عبدالحكيم وماهر الليثى قد اعتقدا أن عمل كونراد ميلر السالف الذكر، قد صدر عام ١٩٢٨م، والصواب ما أثبته وهو عام ١٩٢٦م. عن رأيهما أنظر : صبحى عبدالحكيم وماهر الليثى، المرجع السابق، ص٢٨، حاشية (١).

ومن المهم أن ندرك أن عمل كونراد ميلر قد صدر فى ستة أجزاء، خلال الرحلة من ١٩٢٦ إلى ١٩٣١م.

ومن جهة أخرى، استطاع كونراد ميلر أن يستخرج من مجموعة من خرائط مخطوطات كتاب الإدريسى، خريطة شاملة للعالم كما صورها ذلك الجغرافى والخرائطى الموهوب، وتم طبعها وذلك فى عام ١٩٣٨، ملونة ومزودة بالحروف اللاتينية، وفى عام ١٩٥١م، اهتم المجمع العلمى العراقى بتحقيق تلك الخريطة الهامة، وعمل على إعادتها إلى أصلها العربى، وهناك من يرى أن التصحيف لايزال قائماً فى الأسماء، ومن زاوية أخرى، نجد أن الاهتمام بتلك الخريطة؛ لم يكن قاصراً على المجمع العلمى العراقى، بل إنه امتد ليشمل نقابة المهندسين العراقيين؛ التى عملت على الاهتمام بطبع تلك الخريطة، وذلك فى عام ١٩٧٠م، وتم اختصارها من ست قطع إلى ثلاثة. عن ذلك أنظر :

عبدالجبار عبدالرحمن، فهرست المطبوعات العراقية، حـ٢، ط. بغداد ١٩٧٩م، ص٣٦٥؛ على عبدالله الدفاع، رواد علم الجغرافية، ص١٥٣؛ أحمد رمضان، المرجع السابق، ص٦٤؛ فلاح شاكر أسود، دور العرب والمسلمين فى رسم الخرائط، المؤتمر الجغرافى الإسلامى الأول، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، م (٣)، ط. الرياض ١٩٨٤م، ص٢١٥؛ محمد محمود الصياد، منهج العلماء المسلمين فى البحث الجغرافى، المؤتمر الجغرافى الإسلامى الأول، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، م (٣)، ط. الرياض ١٩٨٤م، ص٤٩٤؛ عبدالعال عبد المنعم الشامى، جهود الجغرافيين المسلمين فى رسم الخرائط، الجمعية الجغرافية الكويتية، صفر ١٤٠٢هـ/ ديسمبر ١٩٨١م، ص٢٠٢-٢٠٣؛ أحمد فؤاد باشا، المرجع السابق، ص١٢٠

(٢٥) كراتشكوفسكى، الأدب الجغرافى، ص٣٠٤.

(٢٦) نفس المرجع والصفحة.

وقد ردد ذات الفكرة محمد عبدالغنى حسن؛ إذ أشار إلى أنه قدم أوصافاً لمدينة صيدا، وبيروت، وبيت لحم فى فلسطين، ويقول ما نصه «وإن كان لم يتأكد لنا زيارته لتلك البلاد، وهو هنا ناقل عن أوصاف غيره». أنظر : الشريف الإدريسى، أشهر جغرافيى العرب والإسلام، ص١٥١.

(٢٧) تكتب عكاء، أو عكة، أو عكا. وترد فى المصادر التاريخية الصليبية Acron, Accoron, Acre, Acras وهى من مدن الساحل الفلسطينى، وبعدت عن قيسارية بمسافة ستة وثلاثون ميلا، وقد استولى عليها الصليبيون وعلى رأسهم الملك الصليبى بلدوين الأول Baldwin I (١١٠٠-١١١٧م) فى عام ١١٠٤م/٤٩٧هـ، وغدت مركزاً تجارياً بالغ الأهمية للكيان الصليبى، وازداد وجود التجار الأوروبيين فيها من كافة الجنسيات من أجل القيام بعمليات

الاستيراد والتصدير. وقد حرص العديد من الرحالة الأوروبيين الذين زاروا مملكة بيت المقدس على مدى المرحلة من عام ١٠٩٩-١١٨٧م، حرصوا على وصف مدينة عكا والازدهار التجارى بها، وتعدد السفن الموجودة فى مينائها، وكذلك الكثافة السكانية بها من أمم وأجناس مختلفة، وفيما بعد استردها المسلمون فى عهد السلطان الناصر صلاح الدين الأيوبى عام ١١٨٧م/ ٥٨٣هـ، وفيما بعد أخضعها الصليبيون فى ظروف الحملة الصليبية الثالثة؛ وذلك عام ١١٩١م/ ٥٨٧هـ بعد حصار دام نحو عامين، وظلت بمثابة مركز الصليبيين السياسى - بالإضافة إلى مكانتها الاقتصادية - وذلك بعد سقوط مدينة بيت المقدس فى قبضة المسلمين، وفيما بعد استرد عكا المسلمون فى عهد السلطان الأشرف خليل بن قلاوون وذلك عام ١٢٩١م/ ٦٩٠هـ. عن عكا أنظر :

المقدسى، أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم، ط. ليدن ١٩٦٧م، ص١٦٢-١٦٣؛ ناصر خسرو، سفرنامه، ترجمة يحيى الخشاب، ط. القاهرة ١٩٤٥م، ص١٥؛ الإدريسى، أنس المهج، ورقة (٧٦).

Fulcher of Chartres, A History of The expedition to Jerusalem, Trans. by Rita Rvan, Tennesse 1969, p. 176; William of Tyre, A History of The deeds done beyond the sea, Trans. by Bebrok and Krey, Vol. I, p. 454-456; Le Strange, palestine under Islam, London 1890, p. 334.

مكسيموس موزوند، تاريخ الحرب المقدسة المدعوة بحرب الصليب، ت. مكسيموس مظلوم، حـ١، ط. أورشليم ١٨٦٥م، ص٢٢١-٢٢٢؛ سيد الحريرى، الأخبار السنية فى الحروب الصليبية، ط. القاهرة، ١٩١١م، ص٤٩.

(٢٨) الإدريسى، نزهة المشتاق، ص١٢.

(٢٩) نفسه، نفس المصدر والصفحة.

ويلاحظ أن هناك من الرحالة الأوروبيين، ممن زاروا عكا خلال القرن الثانى عشر الميلادى/ السادس الهجرى، من أشار إلى تزايد أعداد السكان فى مدينة عكا مثل ثيودريس ويوحنا فوكاس، أنظر :

Theoderich, Theoderich's Description of the Holy places, Trans. by Aubrey stewart, P.P.T.S., Vol. V, London 1896, p. 59; Joannes phocas, A Brief Description of the Holy Land, Trans. by Aubrey Stewart, P.P.T.S., Vol. V, London 1896, p. 19.

أيضًا : محمد مؤنس أحمد عوض، الرحالة الأوروبيون فى مملكة بيت المقدس الصليبية (١٠٩٩-١١٨٧م)، ط. القاهرة ١٩٩٢م، ص١٨٤، ص٢١٨.

(٣٠) وقعت حيفا على الجزء الجنوبي من أكبر خليج على شاطئ فلسطين، وتعد منفذاً إلى البحر مرج ابن عامر، وهو المرج الوحيد الذى يشق جبال فلسطين الغربية، وهذا المرج يمثل إنحداراً تدريجياً إلى غور الأردن، وتعد حيفا؛ مركزاً لشبكة من الطرق تتجه شمالاً وشرقاً وجنوباً، وقد استولى الصليبيون عليها فى عام ١١٠٠م/ ٤٩٤هـ، بمساعدة اسطول من البندقية، وقد دافع عنها سكانها ببسالة، وعندما دخلها الصليبيون ارتكبوا فيها مذبحة. وقد استردها المسلمون فى عام ١١٨٧م/ ٥٨٣هـ. ثم من بعد ذلك سقطت فى أيديهم بعد أن أخضعها الصليبيون، وكان ذلك فى عهد السلطان الظاهر بيبرس عام ١٢٦٥م/ ٦٥٥هـ. عن حيفا أنظر :

ابن القلانسى، ذيل تاريخ دمشق، ص٢٢٥؛ ابن عبدالظاهر، الروض الزاهر فى سيرة الملك الظاهر، تحقيق الخويطر، ط. الرياض ١٩٧٦، ص٢٣٤.

Fulcher of chartres, p. 142; William of Tyre, Vol. I, p. 399; stevenson, The Crusaders in The east, Beirut 1968, p.33, p.40, p. 150; Press, Palestina Und Sudsyrien ressehandbuch, Berlin 1921, p. 249-250.

ألكس كرمل، تاريخ حيفا فى عهد الأتراك العثمانيين ت. تيسير إلياس، جامعة حيفا، المركز اليهودى العربى، معهد دراسات الشرق الأوسط، ط. حيفا ١٩٧٩م، ص١١-٣٧؛ ميخائيل زابوروف، الصليبيون فى الشرق، ت. إلياس شاهين، ط. موسكو ١٩٨٦م، ص١٢٩؛ زكى نقاش، العلاقات الاجتماعية والثقافية والاقتصادية بين العرب والفرنج خلال الحروب الصليبية، ط. بيروت ١٩٥٨، ص٥٥-٥٦.

(٣١) الإدريسى، المصدر السابق، ص١٢.

(٣٢) نفسه، أنس المهج، ورقة (١٣٢).

(٣٣) نفسه، نزهة المشتاق، ص١٩، أنس المهج، ورقة (١٣٢).

(٣٤) نفسه، نزهة المشتاق، ص١٩.

(٣٥) نفسه، نفس المصدر، ص٧.

ويلاحظ أن مثل تلك الإشارات نجدها تتكرر فى المصادر الجغرافية العربية التالية على عصر الإدريسى؛ من ذلك - على سبيل المثال - أن ابن شاهين، قد أورد أن صيدا - فى عصره - تعد ميناء دمشق. عن ذلك أنظر :

ابن شاهين، زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسلك، تحقيق بول رافى، ط. باريس ١٩٩٤م، ص٤٧.

وأيضاً : هايد، تاريخ التجارة فى الشرق الأدنى فى العصور الوسطى، حـ١، ت. أحمد محمد رضا، ط. القاهرة ١٩٨٥م، ص١٨٥.

(٣٦) عن وصف الطريق الممتد من يافا إلى بيت المقدس، تعرف أنه مر بمناطق ذات طبيعة جبلية، إلى أن يصل إلى السهل الساحلى، ويبلغ امتداده سبعة وستين ك.م، ويبدأ من غرب بيت المقدس من الباب الغربى لها، والمسمى باب يافا، ويستمر فى هضبة القدس، ثم يعبر دير ياسين، وأبو غوش ثم الرملة، وقد قام الصليبيون بتشييد ستة حصون على امتداد ذلك الطريق. وفى أوائل عهد الصليبيين بالمنطقة، شن المسلمون حرب عصابات على أعدائهم عبر ذلك الطريق الذى وصفه الرحالة الروسى دانيال (١١٠٦-١١٠٧م) بأنه طريق صخرى وخطر وأشار إلى هجمات المسلمين الفجائية ضد أعدائهم الصليبيين الذين سقطوا قتلى من جراء ذلك.

عن طريق يافا – بيت المقدس أنظر :

Daniel, Pilgrimage of the Rusion Abbot Daniel in The Holy Land, Trans. by Wilson, P.P.T.S., Vol. IV, London, 1895, p. 9.

سيد فرج، القدس عربية إسلامية، الدارة، السنة (٨)، العدد (٢)، يناير ١٩٨٤م، ص١٢؛ عبدالرحمن زكى، القلاع فى الحروب الصليبية، المجلة التاريخية المصرية، م (١٥)، عام ١٩٦٩م، ص٦٢؛ فتحى عبدالعزيز عبدالله، دور الكنيسة فى مملكة بيت المقدس اللاتينية حتى عام ١١٨٧م، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب، جامعة الزقازيق عام ١٩٨٨م، ص١٢٢؛ على السيد على، القدس فى العصر المملوكى، ط. القاهرة، ١٩٨٦م، ص٢١٣.

(٣٧) الإدريسى، المصدر السابق، ص١٧.

(٣٨) وقعت عسقلان Ascalon على الساحل الفلسطينى على بعد إثنى عشر ك.م إلى الشمال من غزة، وعندما قدم الصليبيون إلى المنطقة فى أخريات القرن الخامس الهجرى/ الحادى عشر الميلادى كانت عسقلان تابعة للسيادة الفاطمية، ومثلت ميناء تجارياً هاماً، وقاعدة بحرية متقدمة للفاطميين فى فلسطين، ووصفت بأنها عروس الشام، وقد استولى عليها الصليبيون فى عام ١١٥٣م/ ٥٤٨هـ، وذلك بعد حصار طويل، فى عهد الملك الصليبى بلدوين الثالث Baldwin III (١١٤٦-١١٦٣م). عن عسقلان أنظر :

ابن حوقل، صورة الأرض، تحقيق دى جويه، ط. ليدن ١٩٦٧م، ص١٧٤؛ اليعقوبى، كتاب البلدان، تحقيق دى جويه، ط. لندن، ص٢٢٩؛ إسحاق بن الحسين، آكام المرجان فى ذكر المدائن المشهورة فى كل مكان، باعتناء فهمى سعد، ط. بيروت ١٩٨٨م، ص٦٠؛ الإدريسى، أنس المهج، ورقة (٧٥).

William of Tyre, vol. II, pp. 184-234; Baldwin, The Latin States under Baldwin III and Amalric I, in Setton, A History of the crusades, Vol. I, pennsylvania 1958, pp. 546-538.

عبداللطيف عبدالهادى السيد، السياسة الخارجية لمملكة بيت المقدس في عهد بلدوين الثالث (١١٤٦-١١٦٣م)، رسالة ماجستير غير منشورة - كلية الآداب - جامعة عين شمس عـام ١٩٩٠م، ص١٣٨-١٤١؛ قسطنطين خمار، أسماء الأماكن والمواقع والمعالم الطبيعية والبشرية والجغرافية الواردة فى فلسطين حتى العام ١٩٤٨م، ط. بيروت ١٩٨٠م، ص١٦٧؛ فهمى توفيق مقبل، الفاطميون والصليبيون، ط. بيروت ب-ت، ص١١٧-١٢٢؛ أحمد محمود الأحمد، السنوات الأخيرة من حياة صلاح الدين، ط. دمشق ١٣٩٩-١٤٠٠هـ، ص٢٩؛ بسام العسلى، نور الدين القائد، ط. بيروت ١٩٨٨م، ص٨٤-٨٩؛ حسين مؤنس، نور الدين محمود، سيرة مجاهد صادق، ط. القاهرة ١٩٥٩م، ص٢٥٦-٢٥٧.

(٣٩) الإدريسى، نزهة المشتاق، ص٦.

(٤٠) نفسه، نفس المصدر، ص١٦. وأنظر أيضاً : ابن بطوطة، تحفة النظار فى عجائب الأمصار، ط. بيروت ١٩٦٤م، ص٦٢.

(٤١) الإدريسى، المصدر السابق، ص١٤؛ على السيد على، أضواء جديدة على العلاقات الاقتصادية بين المسلمين والفرنج فى بلاد الشام فى عصر الحروب الصليبية (بلاد المناصفات)، الدارة، العدد (١)، السنة (٨)، شوال - ذو القعدة - ذو الحجة ١٤١٢هـ، ص١٩٢.

(٤٢) الإدريسى، المصدر السابق، ص١٤.

ومن المفيد أن نذكر أن مدينة دمشق فى العصر الذى زارها فيه الإدريسى عرفت واشتهرت بصناعة الثياب الحريرية التى عرفت باسم الدمسك Damask لدى الأوروبيين، والدمسك من الملابس الزخرفية، وخصص لها سداة واحدة ولحمة واحدة، كلاهما من لون واحد، أو من لونين مختلفين، وتحدث الزخرفة بهذا النوع من المنسوجين من خلال أطلس من السداة، وأطلس من الفضة، فى أجزاء الزخرفة من أجل تغطية وإخفاء خيوط السداة تحت ذلك عن ثياب الدمسك أنظر :

البدرى، نزهة الأنام فى محاسن الشام، ط. بيروت ١٩٨٠م، ص٢١٤؛ نعمان قسطالى، الروضة الغناء فى دمشق الفيحاء، ط. بيروت ١٩٨٢م، ص١٢١؛ صلاح العبيدى، الملابس العربية الرسلامية فى العصر العباسى من المصادر التاريخية والأثرية، ط. بغداد ١٩٨٠م، ص٦٩؛ روم لاندو، الإسلامى والعرب، ت. منير البعلبكى، ط. بيروت ١٩٧٧م، ص٣٣٧.

Serjeant, islamic Textiles, material for a History up to The Mongul Conquest, Beirut, 1972, p. 117.

(٤٣) الإدريسى، المصدر السابق، ص١٤.

(٤٤) نفسه، نفس المصدر، ص٥.

(٤٤) نفسه، نفس المصدر، ص١٤.

(٤٤) نفسه، نفس المصدر والصفحة.

ويلاحظ أن من العوامل الهامة التى أدت إلى ازدهار التجارة فى المدن الشامية الخاضعة للسيادة الإسلامية فى الوقت الذى زارها فيه الإدريسى، ما نلاحظه من اهتمام الدولة النورية بإنعاش النشاط التجارى فى الحواضر الشامية الكبرى؛ مثل دمشق، وحلب، وقد أدركت تلك الدولة الأهمية الكبيرة للنشاط التجارى من أجل تدعيم ميزانيتها، حتى تستطيع مواصلة الجهاد ضد الصليبيين فى بلاد الشام، ولذلك سعت ما وسعها السعى نحو تنشيط حركة التبادل التجارى بين بلاد الشام والأقاليم المجاورة، ومن أمثلة ذلك، أن نقش باب شاغور الذى يعود إلى عام ٥٥١هـ/ ١١٥٦م، نجد فيه اعفاء وإزالة حق التسفير الذى كانت تحصل عليه الدولة على التجار المسافرين إلى العراق، والقادمين منها إلى دمشق حاضرة الشام المزدهرة تجارياً.

عن نقش باب شاغور أنظر :

Comps, Wiet, Sauvaget, Repertoiee Chronologie d'epigraphie Arabe, T. IX, p. 16; Wiet, Notes d'epigraphie Syromusulmane, Syria, T. VI, Paris, 1929, p. ; Van Berchem, Inscriptions Arabes de Syrie, M.I.E.T III, Caire 1922, p. 453-454.

(٤٨) الإدريسى، نزهة المشتاق، ص١٧.

(٤٩) نفسه، نفس المصدر ص ١٥-١٦.

وهناك نص مشابه لما أورده الإدريسى، قدمه لنا مؤرخ متأخر ألا وهو؛ العثمانى (ق ٨هـ/ ١٤م) وقيمة نص الأخير، أنه يوضح ما ذكره الإدريسى وقدم التفاصيل الهامة بشأنه، وهو يقرر صراحة ضمن تناوله لتاريخ صفة، أن من توابعها بلاد الشقيف، ومرج عيون، وحدد قرية تسمى «اللول»، ذكر إنه بها يخرج سمك صغير إذا أخذ فى شهر فبراير (شباط) وتم استعمال الذكر منه، حيث توجد علامة مميزة له، نفع فى الباه نفعاً كبيراً، ويقرر العثمانى، أن هذا النوع من السمك ذكره الأطباء فى كتبهم، وعبروا عنه بسمكة صيدا، وقيل أنه بقرية من قراها، غير أن ذلك المؤرخ يستدرك ويذكر أنها فى وقته من ضمن عمل الشقيف. عن ذلك أنظر : العثمانى، تاريخ صفه، تحقيق برنارد لويس، B.S.O.A.S., Vo. XV, 1953، ص٤٨١.

(٥٠) الإدريسى، المصدر السابق، ص٧.

وكنيسة القيامة بنتها هيلانة أم الامبراطور قسطنطين وذلك فى عام ٣٢٥م؛ فوق الجلجة، فى الموضع الذى تم اكتشاف ما يزعم بأنه الخشبة التى قيل إن السيد المسيح صلب عليها كما يعتقد المسيحيون، وقد قام الفرس – خلال غزوهم للمدينة المقدسة – بإحراقها وذلك فى عهد كسرى عام ٦١٤م، كما أنهم احرقوا كافة الكنائس والأديرة التى وجدت فيها، وتمت إعادة بنائها وذلك على يد الراهب مورسطس فى عام ٦١٧م، وفيما بعد عندما قام الخليفة عمر بن الخطاب بفتح بيت المقدس عام ٦٣٦م، لم يصب كنيسة القيامة بأذى، بل أنه رفض أن يصلى فيها حتى لا يتم تحويلها إلى مسجد، وقد قام الخليفة الفاطمى الحاكم بأمر الله بتدميرها فى مرحلة من مراحل عدائه لأهل الذمة، وعمل ابنه الظاهر من بعده على إعادة تعميرها، وعندما خضعت الكنيسة المذكورة لسيادة الصليبيين عملوا على زيادة الاهتمام بها وصارت محل توافد الحجاج الأوروبيين، ويلاحظ أن هناك من الرحالة المسلمين من وصف كنيسة القيامة من قبل الإدريسى، من ذلك أن الرحالة الفارسى ناصر خسرو أشار إلى ما بها من الزخارف العظيمة من الرخام الملون، والنقوش، والصخور، وتحتوى على عدد من الصور الدينية.

عن كنيسة القيامة أنظر :

ناصر خسرو، سفرنامة. ت. يحى الخشاب، ط. بيروت ١٩٨٣م، ص٧٤-٧٦.

Daniel, p.10.

فاروق عز الدين، القدس تاريخياً وجغرافياً، ط. القاهرة ١٩٨١م، ص٧٤-٧٥، عبدالعليم عبدالرحمن خضر، التطور العمرانى لمدينة القدس، ط. الرياض ١٩٨١م، ص١٢٩-١٣٠؛ عماد الدين خليل، فلسطين فى الأب الجغرافى العربى، ضمن كتاب دراسات تاريخية، ط. بيروت ١٩٨٣م، ص١٣٩؛ مصطفى الدباغ، بلادنا فلسطين، حـ١٩، ق٢، ط. بيروت ١٩٧٥م، ص٣٠١؛ فيليب حتى، تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين، ط. ت. جورج حداد وعبدالمنعم رافق، ط. بيروت ١٩٥٨م، ص٤٠٥؛ شفيق جاسر، تاريخ القدس والعلاقة بين المسلمين والمسيحيين حتى الحروب الصليبية، ط. عمان ١٩٨٩م، ص٧٤-٧٥؛ محمد عبدالله عنان، مصر الإسلامية وتاريخ الخطط المصرية، ط. القاهرة ١٩٦٩م، ص١١.

(٥١) عن القديسة هيلانة ودورها فى هذا الصدد أنظر :

Eusebius, Extraits from Eusebius Life of constantine, Trans. by John Bernard, P.P.T.S., Vol. I, London 1896, p. 11; Attwater, Apenguin dictionary of saints, London 1978, p. 166; Runciman, The pilgrimage to palestine before 1095, in setton, A History of the crusades, Vol. I, Pennsylvania 1952, p. 69, A History of The Crusades, penguin Books, Vol. I, London 1978, p. 39.

إسحق عبيد، قصة عثور القديسة هيلانة على خشبة الصلب، أسطورة أم حقيقة، مجلة كلية الآداب - جامعة عين شمس، م (١٧)، عام ١٩٧٠م، ص٥-٢١؛ شفيق جاسر، المرجع السابق، ص٧٤، هنرى كتن، القدس الشريف، ت. نور الدين كتانة، ط. عمان ١٩٨٩م، ص٥٨، حاشية (٢٠).

(٥٢) عنها أنظر :

The tinerary of the Bordeaux pilgrim, Trans. by stewart, P.P.T.S., vol. I, London 1896; The pilgrimage of the Holy paula, by St. Jerome, Trans. by Aubrey stewart, P.P.T.S., Vol. I, London 1896; The Letter of paula and Eustochium to Marcella about the Holy places, Trans. by Aubrey Stewart, P.P.T.S., Vol. I, London 1896; Autonius Martyr, The Holy places visrted by Antonius Martyr, Trans. by Aubrey Stewart, P.P.T.S., Vol. II, London 1896; A domnan of Lona, in Wilkinson, Jerusalem pilgrims before the Crusades, London 1977; Wilibald, Hodoeporicon, Tans. by Brownlow, in P.P.T.S., Vol. III, London 1892.

(٥٣) الإدريسى، نزهة المشتاق، ص٧.

(٥٤) نفسه، نفس المصدر، ص١٠.

(٥٥) أنظر الفصول التالية من هذا البحث.

(٥٦) الإدريسى، نزهة المشتاق، ص٩.

(٥٧) نفسه، نفس المصدر والصفحة.

(٥٨) وقعت عين سلوان فى وادى قدرون، وهو جزء من الوادى الممتد شرق بيت المقدس، وتعرف بالبركة الحمراء وتكتسب قداسة خاصة نظراً لما يقال من أن السيد المسيح عليه السلام قد أرسل رجلاً كفيفاً إليها، وأمره أن يغتسل من مائها، فعاد إليه بصره بإذن الله تبارك وتعالى. وقد قدم رايموندا جيل Raymond d, Aguilliers تناولاً هاماً لعين سلوان وذكرأنها عبارة عن نبع كبير يتدفق مرة كل ثلاثة أيام، ويقرر السكان المحليون أنها تتدفق يوم السبت فقط، أما باقى الأيام فهى عبارة عن مستنقع، وقد ذكرأن التدافع الجنونى العنيف من أجل شرب الماء؛ جعل الكثيرين يلقون بأنفسهم فى البركة، وقد تسبب ذلك فى هلاك الكثيرمن الدواب، كذلك نجد أن الرحالة الألمانى يوحنا الورزبرجى John of Wurzburg، قد ذكر أن عين سلوان؛ ليس لها مصدر للمياه سوى جوف الأرض، وعندما زار الرحالة اليهودى الأسبانى بنيامين النطيلى Benjamin of Tudela المدينة؛ أشار إلى تلك العين، وذكر أنه لا يوجد بها إلا أقل القليل من الماء، وتجدر الإشارة إلى أن المنهاجى السيوطى قد ذكر العديد من الفضائل الخاصة بها. عن عين سلوان أنظر :

ابن حوقل، المصدر السابق، ص١٧١؛ المقدسي، المصدر السابق، ص١٧١؛ أبو العلا المعرى، لزوم ما لايلزم، حـ٢، ط. بيروت ١٩٦١ك. ص٤٦٨؛ ناصر خسرو، المصدر السابق، ص٥٥؛ رايموند اجيل، تاريخ الفرنجة غزاة بيت المقدس، ت. حسين عطية، ط. الاسكندرية ١٩٩٠م، ص٢٣٧؛ بنيامين التطيلي، الرحلة، ت. عزرا حداد، ط. بغداد ١٩٤٥، ص١٠٢، حاشية (٢)؛ المنهاجي السيوطي، إتحاف الأخصا بفضائل المسجد الأقصى، ق١، تحقيق أحمد رمضان، ط. القاهرة، ١٩٨٢م، ص٢١١-٢٢٤.

John of Wurzburg, Description of The Holy Land, Trans. by Aubrey Stewart, P.P.T.S., Vol. V, London 1896, p.51.

فاروق عز الدين، المرجع السابق، ص٥٣؛ مرمرجي الدومنيكي، المرجع السابق، ص٤٢-٤٣؛ عبدالحميد زايد، القدس الخالدة، ط. القاهرة ١٩٧٤م، ص١٧؛ كامل العسلي، من آثارنا في بيت المقدس، ط. عمان ١٩٨٢م، ص١٠٣؛ مصطفى الدباغ، بلادنا فلسطين، حـ٨/ ق٢، ط. بيروت ١٩٧٤م، ص١٥١-١٥٢؛ محمد عبدالجواد القاياتي، نفحة البشام في رحلة الشام، ط. بيروت ١٩٨١م، ص٩٥.

(٥٩) الإدريسي، نزهة المشتاق، ص١٠.

(٦٠) نفسه، نفس المصدر، والصفحة.

(٦١) القديس لازاروس St. Lazarus، يظهره العهد الجديد على أن السيد المسيح قد أعاد إليه الحياة – وذلك بإذن الله تبارك وتعالى. بعد أن مات، وعاش لازاروس مع اختيه مريم، ومرتا في قرية بيتاني بالقرب من بيت المقدس، ويقال إن قبره في قرية العازرية (بيت عنا) على قارعة الطريق المؤدية إلى أريحا Jerico. عن لازاروس أنظر :

يوحنا، الاصحاح (١١)، من ١ إلى ٥٢؛ الاصحاح ١٢ من ١ إلى ١١.

Bernard The Wise, The Tinerary of Bermard The Wise, Trans. by J.D. Bernard, P.P.T.S., Vol. III, London 1893, p.9; Attwater, Op. Crt., p. 216, p. 238.

رمرجي الدومنيكي، المرجع السابق، ص٢١٩، كامل العسلي، تراث فلسطين في كتابات عبدالله مخلص، ط. عمان ١٩٨٧م، ص١٩٣-١٩٤.

(٦٢) الإدريسي، نزهة المشتاق، ص١٠.

(٦٣) نفسه، نفس المصدر، ص٨. وعن المسجد الجامع في قرطبة أنظر :

المقرى، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، حـ٢، تحقيق إحسان عباس، ط. بيروت

١٩٦٨م، ص٥٦١؛ محمد عبدالله عنان، الآثار الأندلسية الباقية في أسبانيا والبرتغال، ط. القاهرة ١٩٦١م، ص٢٠-٣٦؛ إبراهيم ياسر الدروى، عبدالرحمن الداخل في الأندلس وسياسته الخارجية والداخلية، ط. بغداد ١٩٨٢م، ص٢٧٦-٢٨٧؛ السيد عبدالعزيز سالم، تاريخ المسلمين وآثارهم فى الأندلس من الفتح العربى حتى سقوط الخلافة بقرطبة، ط. الاسكندرية ١٩٦١م، ص٣٧٧-٤٠٠؛ قرطبة حاضرة الخلافة في الأندلس، ط. بيروت ١٩٧١م، ص٢٦٩، ٣٥٥.

والجدير بالذكر أن مساحة المسجد الجامع فى قرطبة تبلغ الآتى : الطول ١٨٠م × العرض ١٣٥م، المساحة : ٢٤٣٠٠ متراً مربعاً. عن ذلك :

محمد عبدالله عنان، الآثار الأندلسية الباقية، ص٢٢؛ أما المسجد الأموى بدمشق فمساحته تبلغ : الطول ١٣١م × العرض ٣٨م، المساحة : ٤٩٧٨ متراً مربعاً.

عن ذلك : محمد على، الرحلة الشامية، ط. بيروت ١٩٨١م، ص٨٧.

(٦٤) الإدريسى، نزهة المشتاق، ص٨.

(٦٥) نفسه، نفس المصدر، ص٦٣.

(٦٦) نفسه، نفس المصدر، ص١١.

(٦٧) نفسه، نفس المصدر، ص١٣.

(٦٨) نفسه، نفس المصدر والصفحة.

(٦٩) نفسه، نفس المصدر والصفحة.

(٧٠) نفسه، نفس المصدر، ص٦.

والجدير بالذكر، أن السامرة ينسبون إلى سبط يوسف، ويجعلون سبب إنشقاقهم عن باقى اليهود خلاف دينى نشأ بينهم وبين هذه الأسباط، ويلاحظ أنهم يصفون أنفسهم على أساس أنهم «المحافظون»، على اعتبار أنهم حافظوا ولا يزالون على أدق الشعائر سواء فى مجال العبادات أو الشريعة، ولعل أوضح مجالات الخلاف بين السامريين واليهود، موضع القبلة؛ إذ أن السامريين، يرون أن جبل جرزيم بمثابة الجبل المقدس، ويعتقدون أن عيد الفصح وقرابينه، لا تجوز إلا فى هذا الجبل، الذى لا يتجاوز بحدوده الجغرافية مدينة نابلس فى الضفة الغربية لنهر الأردن. عن وجود السامرة فى نابلس وعقائدهم أنظر :

ابن حوقل، المصدر السابق، ص١٧٢، اليعقوبى، كتاب البلدان، تحقيق دى جويه، ط. ليدن ١٩٦٧م، ص٣٢٨-٣٢٩؛ الاصطخرى، مسالك الممالك، تحقيق دى جويه، ط. ليدن

١٩٦٧م، ص٥٨؛ أبو الفداء، تقويم البلدان، تحقيق رينو ودى سلان، ط. باريس ١٨٣٨م، ص٢٩٢-٢٩٣؛ شيخ الربوة الدمشقى، نخبة الدهر فى عجائب البر والبحر، تحقيق مهرن، ط. بطرسبرج ١٨٣٥م، ص٢٠١؛ كرد على، خطط الشام، جـ٦، ط. دمشق ١٩٨٣م، ص٢١٣-٢١٩؛ أحمد رمضان، المجتمع الإسلامى فى بلاد الشام فى عصر الحروب الصليبية، ط. القاهرة ١٩٧٧م، ص٦١-٦٢؛ فضل الله فارس أبى حلقة، مختصر فى الجغرافية، ط. بيروت ١٨٩٠م، ص١٥١.

(٧١) الإدريسى، نزهة المشتاق، ص١٦.

(٧٢) من أمثلة ذلك؛ دعم الموارنة فى لبنان للوجود الصليبى، حيث عملوا كأدلاء ومرشدين، وكذلك كأطباء وتراجمة. واشتركوا فى بعض المعارك الحربية لدعم الصليبيين ضد المسلمين عن ذلك بالتفصيل أنظر :

William of Tyre, Vol. II, p.458; Salibi, The Maronites of Lebanon under the Frankish and Manlula rule R.E.A., T. IV, Année 1957, p. 289; Mayer, The Crusades, Trans. by Gillingham, Oxford 1972, p. 276; Smail, The Crusaders in Syria and The Holy Land, London 1974, p. 161; Churchill, The Druzes and Maronites, London 1862, p. 18.

هنرى لامنس، تسريح الأبصار فى ما يحتوى لبنان من الآثار، جـ٢، ط. بيروت ١٩٨٢م، ص٥٥-٥٦.

(٧٣) الإدريسى، المصدر السابق، ص١٩.

وقد وقعت قلعة الخوابى فى شمال غرب صافيتا وجنوب شرق قلعة المرقب، وهى جزء من قلاع الدعوة الإسماعيلية عنها أنظر :

ابن سعيد المغربى، بسط الأرض فى الطول والعرض، تحقيق خوان خميس، تطوان ١٩٥٨م، ص٨٦؛ أسامة زكى زيد، الصليبيون وإسماعيلية الشام فى عصر الحروب الصليبية (القرن ١٢م/ ٦هـ)، ط. الاسكندرية ١٩٨٠م، ص٩٥.

(٧٤) الإدريسى، نزهة المشتاق، ص١٩.

(٧٥) تسمى مصياف، أو مصياب، أو مصيات، أو مصياء، وقد وقعت فوق تل متدرج الانحدار فى الشعاب الواقعة إلى الشرق من جبال النصيرية، وهى بالتالى وقعت إلى الجنوب من قلعة الرصافة وإلى الشرق كذلك من قلعة القدموس، ووصفت مصياف بأنها كانت محصنة تحصيناً بالغاً؛ على نحو يثير العجب، وتتجسد فيها عملية استغلال المعالم الطوبوغرافية، استغلالا كاملاً، وهناك من

يقرر أنها وجدت منذ العهد البيزنطي، وفي العصر الإسلامي سيطر عليها فرع من الأسرة المرداسية. وقد حاصرها السلطان الناصر صلاح الدين الأيوبي، وذلك في عام ٥٧١هـ/ ١١٧٦م، بسبب محاولة عناصر الاسماعيلية النزارية اغتياله، ولكن تم عقد الصلح بين الجانبين فتم رفع الحصار، وفي عام ٦١٥هـ/ ١٢٢٠م، تمت عدة إصلاحات بالقلعة وتجديدات وهذا ما تكشف عنه النقوش الأثرية التي عثر عليها بداخلها، وقد تعرضت قلعة مصياف إلى سيطرة المغول وذلك في عام ٦٥٥هـ/ ١٢٦٠م حيث أخضعوها لنفوذهم مرحلة من الزمن وقاموا بتخريبها، وكان سقوطها النهائي في قبضة المسلمين في عهد السلطان الظاهر بيبرس في عام ٦٦٠هـ/ ١٢٧٠م. عن قلعة مصياف أنظر :

ابن القلانس، ذيل تاريخ دمشق، تحقيق زميدروز، ط. بيروت ١٩٠٨م، ص٢٧٢؛ أسامة بن منقذ، الاعتبار، تحقيق فيليب حتي، ط. برنستون ١٩٣٠م، ص١٤٨، حاشية (٢)؛ جوزيف نسيم يوسف، العدوان الصليبي على بلاد الشام، هزيمة لويس التاسع في الأراضي المقدسة، ط. بيروت ١٩٨١م، ص٢١٩، حاشية (١)؛ مولر، القلاع أيام الحروب الصليبية، ت. محمد وليد الجلاء، ط. دمشق ١٩٨٤م، ص٨٨-٨٩.

Van Bercham, Epigraphie des Assassins, J.A., T. IX, Annie 1897, p. 481.

بسام العسلي، فن الحرب الإسلامي أيام الحروب الصليبية، حـ٤، ط. بيروت ١٩٨٨م، ص٥٤٧-٥٥٦.

(٧٦) وقعت القدموس إلى الشرق من قلعة المرقب فيما بين قلعتي مصياف والكهف، وقد تمكن الاسماعيلية النزارية من الاستيلاء عليها؛ من صاحبها سيف الدين ابن عصرون، عام ١١١٢-١١١٣م/ ٥٠٦هـ، واستفادوا من موقعها؛ ضمن إقليم بانياس، من أجل مهاجمة المسلمين، والصليبيين، على حد سواء، وذلك من أجل تحقيق مصالحهم العليا. عنها أنظر :

ابن العديم، زبدة الحلب من تاريخ حلب، حـ٢، تحقيق سامي الدهان، ط. دمشق ١٩٥٤م، ص٥١، ص٢٥٢؛ القلقشندي، صبح الأعشى في صناعة الانشاء، حـ٤، ط. القاهرة ١٩١٢م، ص١٤٧؛ رنسيمان، تاريخ الحروب الصليبية، حـ٣، ت. السيد الباز العريني، ط. بيروت ١٩م، ص٣٠٩؛ زكي نقاش، الحشاشون وأثرهم في السياسة والاجتماع، رسالة دكتوراه غير منشورة، كلية الآداب، جامعة القاهرة عام ١٩٥٠م، ص١٣٣؛ برنارد لويس، الدعوة الاسماعيلية الجديدة، ت. سهيل زكار، ط. دمشق ١٩٧١م، ص١٢٥؛ عبدالكريم حناملة، صلاح الدين الأيوبي وموقفه من القوى المناوئة في بلاد الشام، الدارة، السنة (١٢)، العدد (٢)، سبتمبر ١٩٨٦م، ص١٦٢.

(٧٧) وقعت العليقة إلى الشمال من قلعة المتيقة وجنوب شرق جبلة، عنها أنظر :
القلقشندى، المصدر السابق، جـ٢، ص١٤٧؛ إلياس ديب، العقود الدرية فى تاريخ المملكة السورية، ط. بيروت ١٨٧٤م، ص٩٢؛ سالم، طرابلس الشام فى التاريخ الإسلامى، ط. الاسكندرية ١٩٦٦م، ص٣١٦.

Le Strange, Palestine, p. 352.

(٧٨) وقعت المنيقة شمال قلعة الكهف إلى القرب من قلعة القدموس عندها أنظر :
ابن بطوطة، الرحلة، ط. بيروت ١٩٦٤م، ص٧٦، شيخ الربوة، المصدر السابق، ص٢٠٨؛ عارف تامر، سنان وصلاح الدين، ط. بيروت ١٩٥٦م، ص٧١.

(٧٩) وقعت قلعة الكهف جنوب قلعة المنيقة وإلى الشمال من قلعة الخوابى، عنها. أنظر :
القلقشندى، المصدر السابق، جـ٤، ص١٤٧.

Runciman, The Crusades, Vol. II, p. 200.

(٨٠) الإدريسى، نزهة المشتاق، ص٩؛ عارف العارف، تاريخ القدس، ط. القاهرة ١٩٥١م، ص ٧١-٧٢؛ جوزيف نسيم يوسف، الوحدة وحركات اليقظة العربية إبان العدوان الصليبى، ط. الاسكندرية ١٩٦٦م، ص١٦. العرب والروم واللاتين فى الحرب الصليبية الأولى، ط. الاسكندرية ١٩٨٣م، ص٢٦٣.

(٨١) عن ذلك أنظر :

Fetellus, Description of the Holy Land, Trans. by J.R. Macpherson, P.P.T.S., Vol. V, London 1896, p. 39; Benjamin of Tudela, Travels of Benjamin of Tudela, in wright, early Travels in Palestine, London 1848, p. 83; John of Wurzburg, p. 21; Theoderich, Theoderich's Description of the Holy places, Trans, by Aubrey Stewart, P.P.T.S., Vol. V,London 1896, p. 30; Peters, Jerusalem, The Holy city in the eyes of chronicles, visitors, pilgrims and prophets From the days of Abraham to the beginnings of modern Times, Primceton 1985, p. 328.

(٨٢) الإدريسى، المصدر السابق، ص٩.

(٨٣) William of Tyre, Vol. II, p. 81.

إبراهيم خميس، العلاقات السياسية بين جماعة الفرسان الداوية والمسلمين فى مصر والشام (١١٩٣-١٢٩١م/ ٥٨٩-٦٩٠هـ)، رسالة دكتوراه غير منشورة، كلية الآداب، جامعة الاسكندرية عام ١٩٨٧م، ص٤٧.

Runciman, A History of The Crusades, Vol. II, p. 157.

(٨٤) William of Tyre, Vol. I, p. 81.

محمد مؤنس أحمد عوض، التنظيمات الدينية الإسلامية والمسيحية فى بلاد الشام فى عصر الحروب الصليبية، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب، جامعة عين شمس، عام ١٩٨٤م، ص٣٧٩. وعن هيئة الداوية بصفة عامة أنظر :

Fetellus, p. 29; John of Wurzburg, p. 2; Benjamin of Tudela, p. 83; Theoderich, p. 30; Northup, The Knights Templars in The Holy Land (1118-1187), Thesis of master ofArts, University of California, 1943; Barber, The Trial of Templars, London; Lamb, The Crusades, The Flame of Islam, London 1943, p. 269.

عمر كمال توفيق، مملكة بيت المقدس الصليبية، ط. الاسكندرية، ١٩٥٨م، ص١٠٦.

(٨٥) الإدريسى، المصدر السابق، ص١٧.

وعن تلك القلعة التى لاتزال بقاياها قائمة فى طرابلس بشمال لبنان أنظر :

Fulcher of Chartres, p. 194; William of Tyre, Vol., I, p. 454; Fedden, Crusader Castles, Beirut 1957, p. 24.

عمر عبدالسلام تدمرى، تاريخ طرابلس السياسى والحضارى عبر العصور، عصر الصراع العربى، البيزنطى والحروب الصليبية، ط. بيروت ١٩٨٤م، ص٤٠٨؛ مولر، القلاع أيام الحروب الصليبية، ت. محمد وليد الجلاد، ط. دمشق ١٩٨٤م، ص١٥؛ السيد عبدالعزيز سالم، طرابلس الشام فى التاريخ الإسلامى، ط. الاسكندرية ١٩٦٦م، ص٩٥؛ محمد محمد الشيخ، الإمارات العربية فى بلاد الشام فى القرنين الحادى عشر والثانى عشر الميلادى، ط. الاسكندرية ١٩٨٠م، ص٢٣٩؛ سعيد برجاوى، الحروب الصليبية فى المشرق، ط. بيروت ١٩٨٤م، ص٢٠٣.

(٨٦) William of Tyre, Vol. I, p. 454.

(٨٧) عمر عبدالسلام تدمرى، المرجع السابق، ص٤٠٨.

(٨٨) رنسيمان، المرجع السابق، حـ٢، ص٩٩؛ محمد محمد الشيخ، المرجع السابق، ص٢٤٠؛ عاشور، الحركة الصليبية، حـ١، ص٣٦٠؛ عمر عبدالسلام تدمرى، المرجع السابق، ص٤٠٨.

(٨٩) عمر عبدالسلام تدمرى، المرجع السابق، ص٤١١.

(٩٠) الإدريسى، المصدر السابق، ص٣.

(٩١) عن موقع قلعة عرقة أنظر :

أبو الفداء، تقويم البلدان، تحقيق رينو ودى سلان، ط. باريس ١٨٤٨م، ص٢٥٤-٢٥٥؛ ابن

شداد الحلبي، الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة، حـ٢، تحقيق سامي الدهان، حـ١، دمشق ١٩٥٤م، ص٩٣؛ ابن شاهين، المصدر السابق، ص٤٨؛ شيخ الربوة، المصدر السابق، ص٢٠٨؛ إلياس ديب، المرجع السابق، ص٩٤؛ فيليب، دى طرازى، أصدق ما كان من تاريخ لبنان، حـ١، ط. بيروت ب-ت، ص٢٥.

Nantet, Histoire de Leban, Paris 1963, p. 61; Stevenson, The Crusaders, p. 31;

(٩٢) Anonymous, The deeds of The Franks and other pilgrims, Trans. by Hill, New York, 1962, p. 83.

سعيد عاشور، الحركة الصليبية، حـ٢، ط. القاهرة، ١٩٦٦م، ص١٢٨٦.

(٩٣) Anonymous, The deeds of The Franks, p. 83.

(٩٤) ابن القلانسي، المصدر السابق، ص١٦٢؛ ابن ظافر الأزدي، أخبار الدول المنقطعة، تحقيق أندريه فريه، ط. القاهرة، ١٩ م، ص٨٧؛ الذهبي، دول الإسلام، حـ٢، تحقيق فهيم شلتوت، ومحمد مصطفى، ط. القاهرة ١٩٧٠م، ص٢٠؛ العبر في خبر من غبر، حـ٤، تحقيق صلاح الدين المنجد، ط. الكويت ١٩٦٣م، ص١٠.

(٩٥) Runciman, The Crusades, Vol. II, p. 389.

(٩٦) عاشور، الحركة الصليبية، حـ٢، ص٧١٤.

(٩٧) عن زلزال عام ١١٧٠م/ ٥٦٥هـ أنظر :

الأصفهاني، البستان الجامع لجميع تواريخ الزمان، تحقيق كلوركاهن B.E.O., T. VII-VIII, Année, 1957-1958، ص١٣٨؛ الفتح البنداري، سنا البرق الشامي، تحقيق فتحية النبراوي. ط. القاهرة ١٩٧٩م، ص٤٧؛ ابن الأثير، الكامل، حـ١١، ط. بيروت ب-ت، ص١٤٣؛ التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية بالموصل، تحقيق عبدالقادر طليمات، ط. القاهرة ١٩٦٣م، ص١٤٥، ابن العديم. المصدر السابق،، حـ٢، ص٣٣٠؛ ابن الجوزي، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، حـ٩، ط. حيدر أباد الدكن ١٣٥٩هـ، ص٢٣٠؛ أبو الفداء، المختصر في أخبار البشر، حـ٥، ط. بيروت ١٩٦٠م، ص٦٦؛ سبط بن الجوزي، مرآة الزمان في تاريخ الأعيان، ق١/ حـ٨، ط. حيدر آباد الدكن ١٩٥١م، ص٢٧٩-٢٨٠؛ المقريزي، إتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء، حـ١، تحقيق محمد حلمي محمد أحمد، ط. القاهرة ١٩٧٣، ص٣١٨؛ الذهبي، دول الإسلام، حـ٢، تحقيق شلتوت وزميله، ط. القاهرة ١٩٧٠م،

ص٧٨؛ ابن الفرات، تاريخ الدول والملوك، م (٤)،حـ (١)، تحقيق الشماع، ط. البرة ١٩٧٦م ص٩٤-٩٥؛ ابن قاضى شهبة، المصدر السابق، ص١٨٩.

William of Tyre, Vol. II, p. 370; Michael The Syrian, Chronicle, T. III, ed. by chabot, Paris 1910, p, 339; Ruhricht, Geschichte des Kenigreichs Jerusalem, Innsbruch 1892, p. 348; Stevenson, The Crusaders, p. 348.

شاكر أبو بدر، الحروب الصليبية والأسرة الزنكية، ط. بيروت، ب-ت، ص١٨؛ سالم، دراسة فى تاريخ مدينة صيدا فى العصر الإسلامى، ط. بيروت ١٩٧٠م ص١١٢؛ عماد الدين خليل، نور الدين محمود وتجربته الإسلامية، ط. دمشق ١٩٨٧م ص١٨؛ أشتور، التاريخ الاقتصادى والاجتماعى للشرق الأوسط فى العصور الوسطى، ت. عبدالهادى أبو عبلة، ط. دمشق ١٩٨٥م ص٢٨١؛ كردعلى، غوطة دمشق، ط. القاهرة ١٩٥٠م، ص٢١٥؛ عبدالله يوسف الغنيم، أسباب الزلازل وأحداثها فى التراث العربى، مجلة المجمع العلمى العراقى، م (٣٢)، حـ (٢)، ط. بغداد ١٩٨٤م، ص٢٣٥-٢٣٦.

(٩٨) عن زلزال عام ١٢٠١م/ ٥٩٧هـ أنظر :

ابن الأثير، الكامل، حـ٩، ط. بيروت ب-ت، ص٢٥٥؛ ابن كثير، البداية والنهاية، حـ١٣، ط. القاهرة ب-ت، ص٢٧-٢٨؛ ابن نظيف الحموى، التاريخ المنصورى تلخيص الكشف والبيان فى حوادث الزمان، تحقيق أبو العيد دودر، ط. دمشق ١٩٨١م، ص٢٥.

(٩٩) ابن عبدالظاهر، المصدر السابق، ص٢٥١؛ ابن شداد الحلبى، المصدر السابق، حـ٢، ص٩٥؛ ابن بهادر، فتوح النصر، حـ١، ورقة (١٠٩).

(١٠٠) الإدريسى، أنس المهج، ورقة (١٣٤).

(١٠١) عن موقع بغراس أنظر :

أبو الفداء، المصدر السابق، ص٢٥٨-٢٥٩؛ ابن عبدالحق البغدادى، مراص الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع، حـ١، تحقيق البجاوى، ط. القاهرة ١٩٥٤م، ص٢٠٩؛ العمرى، التعريف بالمصطلح الشريف، ط. القاهرة ب-ت، ص١٩٥؛ الخالدى، المقصد الرفيع المنشأ، ورقة (٩٢)؛ مرمرجى الدومنيكى، المرجع السابق، ص١٧٢.

Le Strange, palestine, p. 407; Runciman, Vol. II, p. 47.

(١٠٢) عاشور، الحركة الصليبية، حـ٢، ط. القاهرة ١٩٦٦م، ص٦٩٣؛ حامد غنيم، الجبهة الإسلامية فى عصر الحروب الصليبية، حـ٢، ط. القاهرة ١٩٧٢م، ص٦١.

(١٠٣) ابن شداد، النوادرالسلطانية والمحاسن اليوسفية، تحقيق جمال الدين الشيال، ط. القاهرة ١٩٦٤م، ص٩٣ ابن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، حـ٣، تحقيق محمد محيى الدين عبدالحميد، ط. القاهرة ١٩٤٨م، ص١٩٢؛ ابن العديم، بغية الطلب، حـ٢، ورقة (٢٢٩)؛ الحريرى، الإعلام والتبيين، ورقة (١٥)؛ الذهبى، دول الإسلام، حـ٢، ص٩٦، محيى الدين الحنبلى، الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل، حـ١، تحقيق محمد بحر العلوم، ط. النجف، ص٣٥٤.

(١٠٤) ابن شداد، المصدر السابق، ص٩٣.

(١٠٥) ابن عبدالظاهر، المصدر السابق، ص٣٢٦؛ عاشور، المرجع السابق، حـ٢، ص١٠٢٦.

ويلاحظ أن ابن بهادر اعتقد أن ذلك تم فى عهد الظاهر غازى صاحب حلب، أنظر المخطوط السابق، حـ١، ورقة (١١٣).

والواقع أن قوله ينطوى على مغالطة واضحة؛ ذلك أن الظاهر غازى قد توفى عام ٦١٣هـ/ ١٢١٦م (أنظر، ابن واصل، مفرج الكروب، حـ٣، ص٢٤١)، والخليفة ان ابنه الملك العزيز قام بذلك الدور.

(١٠٦) ابن عبدالظاهر، المصدر السابق، ص٣٢٥؛ الذهبى، دول الإسلام، حـ٢، ص١٧٠؛ المقريزى، السلوك لمعرفة دول الملوك، حـ١، ق٢، تحقيق مصطفى زيادة، ط. القاهرة، ص٥٧١؛ ابن بهادر، المصدر السابق، حـ١، ورقة (١١٣)؛ عاشور المرجع السابق، حـ٢، ص١١٥٠؛ الظاهر بيبرس، سلسلة أعلام العرب، ط. القاهرة ١٩٦٣م، ص٧٣؛ المماليك داوية الإسلام، مجلة العربى، العدد (٢٧٧) لعام ١٩٨١م، ص٥٧.

(١٠٧) محمود الحويرى، الأوضاع الحضارية فى بلاد الشام فيالقرنين ١٢، ١٣م، ط. القاهرة ١٩٧٧م، ص١٨٥-١٨٦. وعن مشكلة نقص العنصر البشرى بصفة عامة أنظر :

Prawer, The Settlement of the latins in Jerusalem, Speculum, Vol. XXVII, pp. 449-503; Russell, The population of the crusader states, in setton, A History of the Crusades, Vol. V, Madison 1985, pp. 295-314; Fedden, Crusader Castles, p. 13

سعيد عاشور، الحركة الصليبية، حـ١، ط. القاهرة ١٩٧٨م، ص٣٢٢.

٢ - ياقوت الحموى

(٦٢٦هـ/ ١٢٢٨م)

يتعرض هذا الفصل بالدراسة؛ لأحد كبار الجغرافيين المسلمين، ونعنى به ياقوت الحموى (ت ٦٢٦هـ/ ١٢٢٨م)[١]. وقد قدم تناولاً هاماً لبلاد الشام وأوضاعها فى عصر الحروب الصليبية، وذلك من خلال قدرة على الملاحظة وبراعة الوصف مع ثراء التفاصيل المهمة، الأمر الذى سيتضح من خلال السطور التالية.

وياقوت الحموى؛ هو أبو عبدالله ياقوت بن عبدالله[٢]، ولد فى عام ٥٧٤ أو ٥٧٥هـ/ ١١٧٨ أو ١١٧٩م[٣]، وهو رومى الجنس والمولد[٤]، وقد تم أسره فى إحدى المعارك الحربية وابتاعه أحد التجار ببغداد يسمى عسكر بن أبى نصر إبراهيم الحموى، وجعله فى الكتاب من أجل أن ينتفع به فى تجارته[٥].

وحدثت خلافات بين ياقوت، ومولاه عسكر، على نحو أدى إلى عتقه عام ٥٩٦هـ/ ١١٩٩م، وقد قام بإشراكه فى تجارته، وفى هذا المجال تم إرساله إلى أقاليم متعددة ومناطق نائية من أجل مباشرة النشاط التجارى، ثم فيما بعد؛ اشتغل بنسخ الكتب، واحترف الوراقة[٦] وقد أفاده ذلك عندما اتجه إلى تأليف مؤلفاته.

وتجدر الإشارة إلى أن ياقوت فى مرحلة من مراحل حياته قد تأثر بأفكار الخوارج، وتعصب على الإمام على كرم الله وجهه، وعندما اتجه إلى دمشق عام ٦١٣هـ/ ١٢١٦م، تناقش مع بعض من يتعصب للإمام فثار الناس عليه حتى كادوا يفتكون به، وعلى أثر ذلك غادر المدينة[٧].

وقد ساح ياقوت في العديد من الأقاليم والأصقاع؛ فطاف في آسيا الصغرى، وبلاد الشام، ومصر، وبلاد المغرب، وإيران، وبلاد ما وراء النهر[(٨)]، واستقر في خوارزم (خيوه حاليًا)، وعلى أثر الغزو المغولي لها قام بمغادرتها واتجه إلى بلاد الشام. واستقر في حلب[(٩)] حتى مات بها عام ٦٢٦هـ/ ١٢٢٨م[(١٠)]، وهو في ذلك يتشابه مع أحد الرحالة المسلمين السابقين، ونعني به السائح الهروي (ت ٦١١هـ/ ١٢١٤م)، الذي توفي في تلك المدينة؛ التي عدت من حواضر شمال الشام الهامة والتي حرص الجغرافيون والرحالة المسلمون في ذلك العصر على القدوم إليها وتناولها في مؤلفاتهم.

وقد ألف ياقوت الحموي عددًا وافرًا من المؤلفات على نحو يعكس علو مكانته العلمية، ومنها، معجم البلدان، ومعجم الأدباء، ومعجم الشعراء، والمشترك وضعًا والمفترق صقعًا، والمبتدأ والمآل في التاريخ، وكتاب الدول، ومجموع كلام أبي على الفارسي، والمقتضب في النسب يذكر فيه أنساب العرب[(١١)].

ويرى أحد الباحثين أن «الصفة الغالبة على القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي هي انعدام الخلق في الفكر العربي، واهتمام العلماء والأدباء بوضع موسوعات، ومعاجم، تتناول جهد الأسبقين في مختلف الموضوعات والبحوث، ولعل أبرز من يمثل هذا الاتجاه في هذا الصنف هو ياقوت الحموي»[(١٢)].

والواقع أن مثل هذا التصور يحوي مغالطة واضحة، وسوف توضح الصفحات التالية مدى قدرة ذلك العلم من أعلام الحضارة الإسلامية على التحليل، والنقد، والعرض الذكي لجغرافية العالم المعمور في ذلك العصر، ومن الإنصاف أن نقرر أن ياقوت الحموي ما هو إلا امتداد لعبقرية القرن السادس الهجري/ الثاني عشر ميلادي الذي ظهرت فيه كوكبة من العلماء والمفكرين من كافة المجالات والعلوم، والفنون، وينصفه البعض عندما يقررون أنه يتميز عن كثير من المؤلفين من أبناء عصره بملكة النقد[(١٣)].

وتجدر الإشارة إلى أن ياقوت لم يقم بتدوين أخبار تنقلاته، غير أنه ما شاهده في أسفاره، وما قام بجمعه من خزائن المشرق الإسلامي، والتي نهل منها، قد أفاده في تأليف مؤلفاته الجغرافية التي ألفها(١٤).

وأهم المؤلفات الجغرافية التي ألفها ياقوت الحموى هى معجم البلدان(١٥)، والمشترك وضعاً والمفترق صقعاً(١٦)، وتجدر الإشارة إلى أن الكتاب الأول، قد رتبه أبجدياً، وأورد فيه وصفاً حيوياً، وهاماً لكل ما أمكن أن يصل إليه علمه عن المدن، والمواضع من ديار الإسلام من الأندلس غرباً إلى بلاد ما وراء النهر، والهند شرقاً، كما كانت عليه تلك المناطق فى القرن السابع الهجرى/ الثالث عشر الميلادى(١٧).

ولكى ندرك عظم شأن هذا الكتاب، نعرف أنه وقع فى ثمانى مجلدات، وبلغت أعداد صفحاته (٣٨٩٤) صفحة، أما الشواهد الشعرية فيه فإنها بلغت ٥٠٠٠ بيتاً من الشعر(١٨). ويقيمه البعض على أنه اشتمل على الدين، والحضارة، والإثنولوجيا Ethnology أى علم الأعراق والفصائل البشرية، والأدب الشعبى Folklore، والأدب الفنى، وذلك فى القرون الستة الأولى من الهجرة(١٩)، وهكذا يمكن أن نتفق مع ما قدره البعض، من أن معجم البلدان، يعد منجماً غنياً للمعرفة، ولا يوجد له نظير فى سائر اللغات(٢٠).

ولا نزاع فى أن هذا الكتاب يعد وبحق ثمرة جهد ضخم، قام به المؤلف فى الارتحال، وكذلك المطالعة، ثم تسجيل كل ما وصل إلى علمه عن المناطق التى أشار إليها فى معرض كتابه، وهكذا، فلا عجب إذا ما عرفنا أنه قد بدأ فى تأليفه عام ٦١٢هـ/ ١٢١٥م، وأتمه عام ٦٢١هـ/ ١٢٢٤م(٢١) أى أن قرابة عشر سنوات استغرقها فى إعداد تلك الموسوعة الجغرافية الهامة، ونعنى بها «معجم البلدان».

وهناك ناحية هامة يمكن أن نقررها بشأن ياقوت الحموى، ألا وهى أن ثقافته كانت ثقافة شخصية أى أنه لم يتلق من خلال الشيوخ، ولكن عن طريق الجهد

الشخصى، وقد أفاد من النسخ والمتاجرة بالكتب فى أمهات المدن الإسلامية، فى كافة أنحاء العالم الإسلامى، ومن هنا كانت ثقافته الواسعة التى ضمنها كتابه معجم البلدان على نحو خاص بالإضافة إلى مؤلفاته الأخرى بطبيعة الحال.

ويلاحظ أن قيمة ذلك الكتاب أيضاً تتمثل فى أنه يعكس – صورة ضمنية – ثراء مكتبات المشرق الإسلامى، خاصة قبل أن تدمر على أيدى جيوش المغول، ولا ننسى أن ياقوت كان شديد الاعتزاز بمكتبات مرو، وقد امتدح محتوياتها، أو أنه استعار منها مئات المجلدات لازمت داره[٢٢]، دون أن تتأثر – على ما يبدو – باستعارة ذلك العدد الضخم من المؤلفات، ومن جانب شخص واحد، فقط. على نحو عكس ثراءها بأضعاف ذلك العدد من الكتب.

أما الكتاب الثالث، فهو المشترك وضعاً والمفترق صعقاً؛ وفيه يحدد ياقوت الأسماء الجغرافية الواحدة الموجودة فى أكثر من إقليم، وقد عكس ذلك مدى براعته، وتفوقه فى هذا المجال، فى عصر كان التوصل فيه إلى مثل تلك المعلومات الجغرافية لا يتم إلا بالارتحال، والانتقال بالدواب، ومجالسة العلماء مع ملاحظة تناثرهم فى مناطق متباينة ومتباعدة مع إتساع رقعة الدولة الإسلامية حينذاك.

أما المصادر التى استقى منها ياقوت مادة مؤلفاته الجغرافية، فهى مؤلفات الأقدمين الجغرافية، وكذلك مؤلفات المسلمين ولاسيما كتب الرحلات، وأيضاً دواوين الشعراء، هذا بالإضافة ما شاهده هو نفسه، وما سمعه من التجار، والعلماء، وأهل البلاد التى ساح فيها[٢٣].

وفيما يتعلق بمصادره عن بلاد الشام على نحو خاص، نجد أنه أفاد من مؤلفات الجغرافيين والرحالة المسلمين السابقين الذين زاروا المناطق الشامية، مثل السمعانى[٢٤] (ت ٥٦٢هـ/ ١١٦٧م) والسائح الهروى[٢٥] (ت ٦١١هـ/ ١٢١٥م) وغيرهما، بالإضافة إلى عنصر المشاهدة الشخصية؛ وهى هامة للغاية بالطبع. إذ أن تناول المدن التى

تعرض لها تبين لنا كيف أنه احتك بها، وكون رأيه الشخصى عنها من خلال اتصاله بها مكاناً وسكاناً. وعلى مدى زمنى ليس بالقصير على نحو مكنه من تكوين رؤية واقعية للمواقع التى أورد ذكرها وكان قد اتصل بها من قبل.

ويلاحظ أن ياقوت قد تعرض للعديد من الجوانب المتصلة بأوضاع بلاد الشام فى عصر الحروب الصليبية، فمن ذلك تناوله لمدن الساحل الشامى، ذات الأهمية الخاصة، وكذلك الوضع السكنى للمدن الشامية، والجوانب الاقتصادية سواء مصادر المياه، أو الأنشطة الزراعية والصناعية، والتجارية، ثم العمائر الحربية والمزارات الدينية، ولا ريب فى أن تعدد كافة تلك العناصر التى نعرض لها ذلك الجغرافى، تعكس مدى اهتمامه ببلاد الشام، وعنايته بها من خلال ما ألف، وإدراكه لضرورة أن يتعرض لها بذلك القدر الوافر من التفصيلات الهامة.

أما إذا ما نظرنا إلى تناول ياقوت الحموى للساحل الشامى، فإننا نجده يعطيه أهمية خاصة فى معجم البلدان، ويتضح ذلك بجلاء من تناول العديد من المدن الساحلية الشامية، وبصفة عامة نجده يحرص الحرص أجمعه على أن يتعرض لتاريخ المدن الهامة منه، من أجل أن يمزج بين التاريخ والجغرافيا؛ تدعيماً لوجودها، وتأكيداً لأهميتها، وإثباتاً - على ما يبدو - للعلاقة الوطيدة بين علمى التاريخ والجغرافيا الذى يكمل كل منهما الآخر.

ونجد المثال الجلى الدال على ذلك؛ فى صورة مدينة عكا؛ إذ أنه قدم لنا تناولاً تاريخياً لسيطرة الصليبيين عليها، وذلك فى عام ٤٩٧هـ/ ١١٠١م، ثم استمرار السيطرة الصليبية عليها حتى استطاع المسلمون فى عهد السلطان الناصر صلاح الدين الأيوبى انتزاعها، وذلك فى عام ٥٨٣هـ/ ١١٨٧م[٢٦] فى أعقاب الانتصار على الصليبيين فى ذلك العام، ثم يفرض لجهود الصليبيين حيالها خلال الحملة الصليبية الثالثة، وإخضاعهم لها مرة ثانية بعد معارك طاحنة.

وفى مجال مدينة عكا، نجد أن ياقوتا لا يخفى إعجابه بها إذ أنه يقرر أنها «من أحسن بلاد الساحل فى أيامنا هذه وأعمرها»[٢٧]، وتدل عبارته على أن العمران الذى كان قد شاهده من قبل الإدريسى (ت ٥٦٠هـ/ ١١٦٢م)، من المرجح أنه قد ازداد بصورة واضحة فيما بعد، حتى أن ياقوت الحموى عندما زار عكا، وجدها أكثر عمراناً وحسناً، مع ملاحظة أنه لم يجعلها أحسن بلاد الساحل قاطبة، بل أنها من أحسن البلاد. وفى هذا دلالة وضاحة على أن هناك مدناً أخرى إلى جانب عكا، حققت درجة كبيرة من العمران والازدهار، على نحو جعل ياقوتا يذكر الأمر بمثل هذه الصورة، مع ملاحظة أن عكا فى ذلك الوقت كانت خاضعة للسيادة الصليبية، وأنها مثلت القلب التجارى للكيان الصليبى وذلك إلى جانب بيت المقدس التى مثلت القلب الدينى أو الروحى، مع ملاحظة أن المدينة الأخيرة كانت لاتزال خاضعة للسيادة الإسلامية حتى زمن وفاة ياقوت.

أما مدينة عسقلان؛ فإنه حدد موقعها على اعتبار أنها على ساحل البحر، بين غزة وبين جرير، وتوصف بأنها عروس الشام مثلما يطلق نفس اللقب على دمشق حاضرة الشام الكبرى. وقد قام لنا عرضاً تاريخياً لسيطرة الصليبيين عليها فى عام ٥٤٨هـ/ ١١٥٣م إلى أن استردها المسلمون من قبضتهم عام ٥٨٣هـ/ ١١٨٧م بعد جهد[٢٨]، ولكن فيما بعد ضربها صلاح الدين الأيوبى؛ وذلك فى عام ٥٨٧هـ/ ١١٩٢م، ومن الواضح أن ذلك جاء تنفيذاً لمخطط عسكرى محدد حتى لا تقع فى قبضة الصليبيين ويتقووا بها.

ونجد ياقوت يتناول مدينة صور اللبنانية فيشير إلى حصانتها، وأنها داخلة فى البحر مثل الكف، وأنه يحيط بها من جميع جوانبها إلا أحد الأقسام، وقد أشار إلى أنه لا يمكن إخضاعها إلا بالخذلان[٢٩]، ثم يقدم لنا نبذة عن تاريخها وسقوطها فى قبضة الصليبيين عام ٥١٥هـ/ ١١٢٦م، وأشار إلى أنها لاتزال فى قبضتهم[٣٠]. ونفس الأمر

بالنسبة لأرسوف التي وقعت على ساحل البحر بين قيسارية ويافا وتناول خضوعها لسيطرة الصليبيين عام ٤٩٤هـ/ ١١٠٠م، وهي في زمانه لم تزل في قبضتهم[٣١] كجزء من إحكام سيطرتهم الحربية على الساحل الشامي ذي الموقع الاستراتيجي. أما بيروت؛ فهي عنده من أعمال دمشق، ويتحدث عن خضوعها للصليبيين عام ٥٠٣هـ/ ١١٠٩م، إلى أن استردها المسلمون في عام ٥٨٣هـ/ ١١٨٧م[٣٢]. أما فيما يتعلق بانطرطوس[٣٣] وبلنياس[٣٤]، نجده يكتفي بتحديد موقعهما الجغرافي دون أن يقدم لنا جانباً عن تاريخهما، وسيطرة الصليبيين عليهما، على الرغم من أهميتهما بوصفهما منافذ بحرية للمدن البرية الداخلية الحبيسة.

ونخلص من العرض السابق، أن ياقوت الحموى عندما كان يدرك أهمية مدينة معينة، كان يمزج التاريخ والجغرافيا معاً خاصة من خلال تناوله للصراع الإسلامى/ الصليبى بشأنها، والعكس بالنسبة لبعض المدن الأخرى التى لم ير فيها ذات الأهمية.

ومع ذلك فإن تناوله للساحل الشامى لا نجد فيه الأبعاد الاقتصادية لاسيما التجارية، وهى أساسية للغاية عند تناول ذلك الامتداد الطولى الفريد استراتيجياً واقتصادياً بالنسبة لاقتصاديات بلاد الشام، وعلاقات الوجود الصليبى بالغرب الأوروبى حينذاك وعلاقاته بالكيان الإسلامى ذاته.

ومن جهة أخرى، نجد أن ياقوت الحموى يقدم لنا إشارات هامة عن الوضع الديموغرافى أو السكانى لبعض المدن الشامية فى عصره، من حيث كثافتها الكبيرة وازدحامها بالعنصر البشرى، أو عكس ذلك، ونجد مثالاً دالاً على الحالة الأولى من خلال تناوله لدمشق حيث أوضح أن كثرة أهلها وبالتالى فإن هناك «أزمة» فى الإسكان بها، فيشير صراحة إلى أن «المساكن بها عزيزة»[٣٥] والسبب فى ذلك من وجهة نظره هو «كثرة أهلها، والمساكنين بها، وضيق رفعتها»[٣٦]، ومن المنطقى أن نلاحظ أن إتساع عمران دمشق، وتزايد أعداد سكانها ارتبطا معاً ارتباطاً وثيقاً، وينبغى ألا نتصور أن تعبيره

بشأن ضيق رقعتها، يعنى أنها كانت مدينة صغيرة إذ أن أوصاف الجغرافيين المسلمين الآخرين على امتداد القرنين ٦، ٧هـ/ ١٢، ١٣م؛ تنفى ذلك التصور البتة، بيد أن المقصود بمقولته أن التزايد السكانى بها استمر بصورة تفوق المعروض من مساكن للأهالى، ومن ثم فإن المساكن بها عزيزة على حد قوله.

وكنموذج للحالة الثانية نذكر مدينة على الساحل ونعنى بها قيسارية، إذ أن ياقوتا يشير إلى أنها كانت فى السابق كثيرة الخير والأهل، ولكنها فى وقته ليست كذلك(٣٧)، وهذا عنى أن بعض المدن أحياناً اضطربت أوضاعها على نحو انعكس على بنيتها السكانية بصورة متدهورة.

وهناك ناحية هامة أخرى يورد ذكرها ياقوت الحموى خاصة بالجانب العمرانى، فمن الملاحظ أنه لا يوضح العمران بالنسبة لداخل المدن الشامية الكبرى مثل دمشق، بل إنه يتعرض للعمران الريفى، واتساع نطاقه حول بعض المدن الأخرى.

ومن أمثلة ذلك؛ أنه يقرر أن هناك فى حلب، ثمانمائة، ونيف، وعشرون قرية، ملك لأهلها، ونحو مائتين ونيف قرية مناصفة بين الرعية والسلطان(٣٨)، والأمر المؤكد أن ذلك التحديد الدقيق الذى قدمه ياقوت فى أعداد القرى، والتى بلغ عددها نحو ألف قرية، جاورت وأحاطت حلب، يدل على دقته من ناحية، ويدل أيضاً على النمو السكانى على المستوى الريفى فى بلاد الشام فى ذلك العصر. وإشارته فى هذا المجال تعكس تشابهاً مع رواية متماثلة قدمها الإدريسى عن الضياع الموجودة فى غوطة دمشق، على نحو يفيد فى تصور الامتداد الحضارى والعمرانى لحواضر الشام الكبرى مع ملاحظة الفاصل الزمنى بين وقت قيام الإدريسى بزيارته إلى هناك وكذلك الأمر بالنسبة لياقوت.

ولا نزاع فى أن ذلك الجغرافى، وجد من الضرورة بمكان إيراد مثل تلك الأرقام؛ من أجل تأكيد ثراء تلك المدينة، ومن خلال موقعها الهام على المستوى التجارى لا نستبعد صحة تلك الأرقام، وحيث أنه استقر فى حلب وعاش فيها عدة سنوات فى

أخريات حياته، فمن ثم له مثل تلك المعلومات الدقيقة بشأنها على نحو دعم روايته في هذا الصدد.

وهكذا، يمكن القول إن ذلك الجغرافي، كان شاهداً على مدى إتساع حلب، وزيادة عمرانها الحضرى في ذلك العصر شأنها في ذلك شأن باقي حواضر الشام الكبرى التي سارت ذات المسيرة العمرانية على ما هو متوقع وإن كان بنسب متفاوتة.

ويضاف إلى ما سبق، أن ياقوت الحموى كانت له رؤيته الاقتصادية من خلال تناوله لمصادر الثروة المائية والنشاط الاقتصادى، ونجد أن ذلك الجغرافي، قد أعطى اهتمامه لمصادر المياه في بلاد الشام، سواء الأنهار، أو الأمطار، أو العيون، والينابيع، وفي هذا المجال نجده يذكر أن دمشق بها مياه الأنهار وافرة، ونجده يشير إلى نهر بردى ومخرجه من قرية يقال لها فتوة من كورة الزبداني، وتبعد خمسة فراسخ عن دمشق، وقد أعجب ياقوت بجريان الماء في قنوات دمشق، وفي ذلك يقرر أنه ندر أن يمر المرء بحائط إلا ويجد الماء يخرج منه في أنبوب إلى حوض من أحواض الشرب، ويسقى الوارد والصادر(٣٩).

أما في حلب، فهناك نهر قويق(٤٠)، أضف إلى ذلك؛ نهر العاصي، ويجعله نهر حماة وحمص، ويوضح أن له أسماء متعددة، فهو يعرف بالميماس، أما قرب أنطاكية فاسمه الأرند، أما اسم العاصي فسبب ذلك – في تقديره – أن أكثر الأنهار تتجه نحو الجنوب، أما ذلك النهر؛ فيتجه نحو الشمال(٤١)، وإن كان من المعروف أن الجغرافيين المسلمين قد أطلقوا ذلك الاسم عليه لأنه يعصى أمر المسلمين، ويدخل ديار الكفار، أما طرسوس، فعندها نجد نهر البردان.

وبالإضافة إلى ذلك، هناك بحيرة قدس، وهي بين حمص وجبل لبنان، وتنصب إليها مياه تلك الجبال، ثم تخرج منها لكي تصبح نهراً كبيراً ألا وهو نهر العاصي السابق الذكر(٤٢)، كما أن هناك بحيرة طبرية وهي تحيطها الجبال، وتصب فيها فضلات عدة أنهار كثيرة، تجيء من ناحية بانياس، والساحل، والأردن. وقد قرر ياقوت أنه رآها مرات

عديدة. ولا أدل على ذلك من أنه قرر أن ماءها عذب صالح للشرب بيد أنه ليس بصادق الحلاوة ثقيل(٤٣). ومن ناحية أخرى وصف سمكها وأوضح أن مذاقه لا يعجب إلا أهل طبرية، وفى هذا قدرة كبيرة على تحسين مظاهر المكان الذى يمر به الجغرافى بحيث يجعله عى مرأى بصر القارئ، وتوضيح تباين المشاعر النفسية حيال الأماكن باختلافها.

ويضاف إلى الأنهار، والبحيرات، مياه الأمطار، ومن أمثلة المناطق التى تعتمد على مياه الأمطار يذكر معرة النعمان، وكذلك مدينة بيت المقدس، وفى المدينة الأخيرة يقرر أن أهلها يعتمدون فى شربهم على مياه الأمطار(٤٤)، كما أن بها ثلاث برك عظيمة، هى بركة بنى إسرائيل، وبركة سليمان عليه السلام، وبركة عياض، وعلى تلك البرك توجد حمامات أهلها(٤٥)، ونفس الأمر يتكرر فى مدينة أخرى، ألا وهى معرة النعمان التى تعتمد أيضاً على الأمطار(٤٦) فى شرب أهلها وكذلك فى رى مزروعاتها.

ومن جهة أخرى، قدم ياقوت الحموى مادة علمية هامة عن النشاط الاقتصادى فى المدن الشامية الكبرى، لاسيما تلك الخاضعة للسيادة الإسلامية، ومن الجلى البين أن عمل ذلك الجغرافى فى المجال التجارى قد أفاده بصورة واضحة فى اهتمامه الشخصى بذلك النشاط فى المدن الشامية المختلفة من خلال خبرته العريضة التى تكونت على مدى عدة أعوام عندما كان ياقوت الحموى يعمل فى تجارة مولاه عسكر. وهذه الناحية - بصورة خاصة - تميز ياقوت الحموى عن غيره من الجغرافيين المسلمين الذين وفدوا إلى بلاد الشام فى عصر الحروب الصليبية، إذ لا أعلم أن أحداً منهم عمل فى التجارة قبل تصديه للتأليف فى المجال الجغرافى مثله. وهو أمر نجده لدى أحد جغرافيى القرن الرابع الهجرى/ العاشر الميلادى من المسلمين ونعنى به الجغرافى ابن حوقل النصيبى (ق ٤هـ/ ١٠م) مؤلف كتاب صورة الأرض الذى وصف بأنه كان تاجراً هو الآخر بما انعكس على كتاباته الجغرافية ذاتها.

والجـديد بالذكر، أن ياقوت الحموى على حين اهتم بإبراز النشـاط التجارى للمدن الإسـلامية، فإنه أغفل ذلك فيما يتصل بالمدن الخاضعة لسـيطرة الصليبيين، على نحو يدعونا إلى افتراض التصور بأنه على حين دخـل المدن الأولى وعاش فيها مدة زمنية كافية، فإنه على ما يبدو لم يدخـل الدن الخاضعة لسيطرة القوى السياسية الصليبية يمثل تلك الصـورة، وإن مر بها فإنه لم يقم بها بنفس الدرجة التى وجدناها له فى المدن الإسلامية.

مهما يكن من أمر، ففى المجال الاقتصادى بصفة عامة، نجده يشير إلى الناحية الزراعية، وقد أوضح – على سبيل المثال – أن مدينة حلب عرفت زراعة عدد من المحاصيل الزراعية مثل القطن، والسمسم، والبطيخ، والخيار، والدخن، والكروم، والذرة، والمشمش، والتين، والتفاح، وذلك اعتماداً على مياه الأمطار(٤٧). ويقدم رؤيته النقدية للأمر بعقلية التاجر الذكى، عندما يقرر أن الإنتاج الزراعى بها من تلك المحاصيل يتفوق ما ينتج اعتماداً على المياه التى تأتى من مصادر أخرى غير مياه الأمطار(٤٨).

أما على المستوى التجارى، فنجده يتتبع الأسواق التى فى العديد من المدن الشامية، ومن أمثلة ذلك إشارته إلى أن أسواق حماة، رخيصة الأسعار متسعة فى رقعتها. وبظاهر السور المحيط بحماة حاضر متسع للغاية فيه أسواق عديدة(٤٩)، كما ذكر وجود أسواق حسنة فى كفر سوت من الأعمال الحلبية بالغرب من منطقة تسمى يهسنا(٥٠)، أما بيت المقدس فيرى أن أسواقها كثيرة(٥١)، دون أن يذكر صفة أخرى مميزة لها. مع ملاحظة أن وضعها كمدينة مقدسة للأديان الثلاثة أفاد دورها التجارى، كذلك ذكر سوقًا يعقد بصفة سنوية، وهو السوق الذى يعقد عند جبل الطور؛ الذى يطل على طبرية، وإن لم يحدد إن كان ذلك السوق شهرياً أو موسمياً.

زد على ذلك، أنه قدم إشارات هامة عن حجم التعامل النقدى فى مدينة حلب بشمال الشام، مع ملاحظة أن تلك المدينة على نحو خاص احتلت موقعاً متميزاً من

الناحية الاقتصادية التجارية بحكم أنها تمثل مفتاح شمال الشام، وواقعة على خطوط التجارة التى تربط شمال الشام بشمال العراق؛ ناهيك عن قربها من الأسواق التجارية فى آسيا الصغرى، بالإضافة إلى أنها واقعة على امتداد خطوط التجارة القادمة من شرق ووسط آسيا، وتصب فى شرق البحر المتوسط؛ حيث يتم تصريفها إلى الأسواق التجارية الأوروبية(٥٢).

ولا ريب فى أن مدينة ذلك هو طابعها التجارى؛ من المنطقى تماماً أن تحظى باهتمام جغرافى تاجر طاف العديد من الأقطار والبلدان مثل ياقوت الحموى، وفى هذا المجال ذكر أن من عجائبها أن فى قيسارية البز عشرين دكاناً للوكلاء، ويقومون بالبيع كل يوم متاعاً، مقداره عشرون ألفاً من الدنانير، والأمر مستمر على ذلك منذ عشرين عاماً، حتى زمان ياقوت(٥٣)، ومعنى ذلك أن تعامل تلك القيسارية بمفردها يبلغ شهرياً ٦٠٠,٠٠٠ دينار أى ما يزيد على النصف مليون من الدنانير، فإذا ما لاحظنا أن هناك قياسر أخرى فى تلك المدينة، لبيع سلع ومنتجات أخرى، لأدركنا حجم الثراء الضخم الذى حظيت به تجارة تلك المدينة على نحو خاص.

والجدير بالذكر أن ياقوتا اختص مدينة حلب بتلك الإشارة الهامة، الأمر الذى لم نجده بالنسبة لتناوله للمدن الشامية الأخرى، على نحو يعكس دلالات هامة. ويميز تلك المدينة على غيرها من المدن التى تناولها فى كتابه ووقعت ضمن النطاق الشامى.

من ناحية أخرى، نجد أن ذلك الجغرافى لا يكتفى بتوضيح ظاهرة معينة، بل إنه يسعى ما وسعه السعى، نحو تحليل تلك الظاهرة قدر الاستطاعة، ويبحث فى أسبابها ودوافعها، ومن أمثلة ذلك تحليله الواعى لتفوق مدينة حلب على نحو خاص فى المجال التجارى، وفى هذا الصدد نجده يقرر أن أهلها لهم عناية خاصة بتثمير الأموال، وأنهم يتوارثون تلك الصفات بصورة كبيرة، فقل من أهلها من لا يكون على ذلك الحال. وكنتيجة طبيعية لذلك الوضع، نجد أن حلب تسودها ظاهرة الأسرات التجارية العريقة

المعروفة، وفي ذلك يقرر أمر «بيوتات قديمة معروفة بالثروة»(٥٤) ويحرص الأبناء فى المحافظة على تراث الآباء، ويقرر ياقوت نفسه، على الرغم من أنه مر فى أقطار متعددة إلا أنه لاحظ ذلك فى مدينة حلب؛ على نحو يخالف ما وجده فى سائر البلاد(٥٥).

ويبدو أن تحليل ياقوت الواعى لتفوق تلك المدينة على نحو خاص فى المجال التجارى، ساعده عليه إقامته بها ومعرفته الوثيقة بما يحدث فيها، ومن ثم قدم لنا ذلك التحليل، وهو يكشف لنا عن قدرة عميقة على الاستقصاء والتحليل، وبالتالي فليس من السهل قبول آراء بعض المتحاملين عليه الذين حاولوا النيل من جهده العلمى، وصفه بأنه مجرد جماع دون أن يبتكر، إذ أن مثل تلك الجوانب فى كتابه تكشف عن عقلية محللة ناقدة لا ترصد الظواهر فقط بل تتجه نحو تحليلها. وبالتالى يمكن أن نعتبره جغرافياً ذا نزعة عقلية محللة لا ناقلة دون وعى. إذ أن نصوص معجم البلدان تنفى ذلك التصور وترفضه وتدعم نقيضه.

ويضاف إلى الجوانب السابقة، أننا نجد أن ياقوت الحموى، قد حرص على إيراد العديد من القلاع والحصون التى انتشرت فى كافة أنحاء بلاد الشام، ولعبت أدواراً تاريخية هامة فى عصر الصراع بين المسلمين والصليبيين. وفى هذا المجال تناول بالحديث قلاع الصليبيين الحصينة التى كانت بمثابة شوكة فى جنب المسلمين، كما أنه أشار إلى قلاع الأخيرين، وكان تناوله فى هذا الصدد أوفر حظاً من تناول الإدريسى.

أما بالنسبة للقلاع الصليبية، فقد تفاوتت إشاراته بشأنها بين الإطالة والقصر، وذلك وفق أهمية القلعة، ودورها فى الصراع الإسلامى/ الصليبى، وعندما كان يلاحظ أهمية الدور الذى لعبته إحدى القلاع كان يلجأ إلى الزاوية التاريخية من أجل أن يوضح للقراء أهمية تلك القلعة فى ذلك الحين، ويؤصل دورها على المستوى التاريخى.

أما أمثلة الإشارات المفصلة بشأن القلاع، ما ذكره فيما يختص بقلعة صهيون(٥٦)، وقد أشار إلى حصانتها وأوضح أنها من أعمال حمص، وفى طرف جبل،

وخنادقها أودية واسعة عميقة، ولا يوجد بها خندق محفور إلا من جهة واحدة، ويبلغ طوله ستون ذراعاً، ومحفور فى الجبل، ولها ثلاثة أسوار، وقد سيطر عليها الصليبيون إلى أن أخضعها المسلمون بقيادة السلطان الناصر صلاح الدين الأيوبى عام ٥٨٤هـ/ ١١٨٨م، ولم تزل قلعة صهيون فى أيدى الصليبيين حتى وقت كتابة ياقوت الحموى لمعجم البلدان(٥٧).

ويلاحظ أن ما أورده ياقوت عن قلعة صهيون، هو إجمال ما نعرفه عن تلك القلعة التى لعبت دوراً هاماً فى عصر الحروب الصليبية، وقد اشتملت إشاراته فى هذا المجال على موقعها، وحصانتها، وتكوينها المعمارى ثم تاريخها فى ذلك العصر.

وتجدر الإشارة إلى أن قلعة صهيون، عرفت بعدة أسماء، فكان الصليبيون يسمونها سايون Saone(٥٨)، أو قصر ساون(٥٩)، وهناك تسمية لها مازالت حتى الآن موجودة وهى، قلعة صلاح الدين الأيوبى(٦٠).

وعدت قلعة صهيون من أعمال حمص، وهى تطل على مدينة اللاذقية، حيث وقعت بينها وبين حماة(٦١)، وتمتعت بموقع استراتيجى هام، إذ أنها كانت تستر المداخل الجنوبية الشرقية، المؤدية إلى إمارة أنطاكية الصليبية(٦٢).

وامتازت بأنها وقعت على طرف جبل له أودية واسعة عميقة(٦٣)، كما وصفت بأنها كانت شاهقة الارتفاع(٦٤)، وقد حفر الصليبيون من حولها خندقاً بلغ عمقه ثلاثين متراً، وعرضه اثنى عشر متراً، وأحاط بها عدة أسوار كما جهزت بأدوات القتال المختلفة(٦٥). واحتوت على نظام السقاطات(٦٦). وكان لكل ذلك أثره فى اعتقاد الكثيرين بصعوبة اقتحامها(٦٧).

ويلاحظ أن قلعة صهيون؛ سيطر فرسان الاستبارية عليها، وقد حاصرها المسلمون فى عهد السلطان الناصر صلاح الدين الأيوبى، وتمكنوا من إسقاطها، وذلك فى جمادى الآخر عام ٥٨٤هـ/ ٢٩ يونيو ١١٨٨م(٦٨).

أما الإشارات الموجزة التى أوردها ياقوت الحموى عن القلاع الصليبية، فمن أمثلتها قلعة بيت جبرين، والتى لا يقدم عنها سوى أنها وقعت بين بيت المقدس، وعسقلان[٦٩].

والجدير بالذكر أن قلعة بيت جبرين كانت تسمى بيت جبرين أو بيت جبريل، وعرفت من قبل باسم الثيروبوليس Eletheropolis[٧٠]، وعرفت عند الصليبيين خطأ باسم Beursheba[٧١]. أى بئر سبع. وقد وقعت قلعة بيت جبرين بين بيت المقدس وغزة، وكذلك بين بيت المقدس وعسقلان[٧٢]، الأمر الذى أعطى لها موقعاً استراتيجياً هاماً.

ويلاحظ أنه فى خلال محاولة الصليبيين إسقاط مدينة عسقلان التى طالما قاومتهم، وشكلت حاميتها الفاطمية خطراً عليهم، حرص الصليبيون على تشييد عدد من القلاع الحصينة من أجل تسهيل مهمة إسقاط تلك المدينة، وكانت قلعة بيت جبرين واحدة من ثلاث قلاع تحت إقامتها خلال المرحلة من ١١٣٦ إلى ١١٤٩م[٧٣]/ ٥٣١-٥٤٤هـ، وهناك من يقرر أنه تم بناؤها عام ١١٣٤م[٧٤] / ٥٢٩هـ. وقد عهد إلى الاسبتارية بأمر قلعة بيت جبرين؛ وذلك فى عام ١١٣٦م[٧٥]/ ٥٣١هـ أى بعد تشييدها بعامين فقط، نظراً لاحتياج المملكة الصليبية للعون الحربى القوى، المقدم من جانب فرق الرهبان الفرسان مثل الاسبتارية والداوية لمواجهة الخطر الإسلامى المتنامى حينذاك.

وقد وصفت قلعة بيت جبرين من جانب المصادر العربية بالحصانة[٧٦]، على نحو تأكد على مدى تاريخها ودورها فى قتال المسلمين، والدفاع عن المنطقة التى وجدت فيها.

ويلاحظ أن الفاطميين عملوا على مهاجمة القلعة المذكورة وذلك فى عام ١١٥٨م/ ٥٥٣هـ، إذ قامت سرية من قوات الجيش الفاطمى بمهاجمتها، وغنمت

منها، وعادت بالغنائم[٧٧] كما تكررت تلك الهجمات، وعاد المهاجمون بالمغانم والأسلاب[٧٨]. وقد سقطت القلعة في عام ١١٨٧م/ ٥٨٣هـ[٧٩] وإن تمكن الصليبيون من استردادها فيما بعد إلى أن عادت للسيادة الإسلامية في عهد السلطان الظاهر بيبرس عام ١٢٤٤م[٨٠]/ ٦٤٢هـ.

ومن الإشارات الأخرى التى قدمها ياقوت الحموى عن القلاع الصليبية ما ذكره بشأن قلعة عرقة، وقد تناولناها بالتفصيل في موضع سابق من هذا البحث. وقد ذكر أنه على جبلها (أى عرقة) قلعة لها[٨١].

كما تعرض ياقوت لقلعة صليبية هامة أخرى، ونعنى بها قلعة المرقب، وقد قرر أنها تشرف على ساحل البحر وعلى مدينة بلنياس، وعبر عن ضخامتها من خلال إشارته إلى أن كل من يراه يحدث نفسه بأنه لم يجد له نظيراً[٨٢].

وتجدر الإشارة إلى أن قلعة المرقب كانت تسمى فى اللاتينية مركاتوم Marghatum، أما فى الحوليات الصليبية فإننا نجد الاسم كاستروم مارجاتوم Castrum Margatum[٨٣]، وفي العربية مرقب؛ على اعتبار أن الأهلة منه ترقى وترقب[٨٤].

وقد وقعت قلعة المرقب إلى الجنوب الشرقى من مدينة بانياس، بالغرب من ساحل البحر المتوسط، وبالتالى وصفت بأنها وقعت على ساحل جبلة[٨٥] وبنيت القلعة المذكورة من أحجار سوداء قديمة، وفي ذلك تشابهت مع برج نور الدين محمود فى دمشق الذى بنى أيضاً من الأحجار القديمة[٨٦] واحتوت على أسوار مزدوجة تتخللها الأبراج المستديرة الشكل[٨٧]، وامتازت الأبراج بالارتفاع الشاهق[٨٨]، وفى داخلها وجدت كنيسة مربعة الشكل، وبسيطة فى تكوينها المعمارى[٨٩]، وكذلك كانت هناك الحمامات وصهاريج للمياه، ومخازن للمؤن، ويقال إنها كانت تكفى حاميتها لعدة سنوات. ومساكن عديدة تكفى لحامية صليبية قدر عددها بألفين من الرجال[٩٠].

ويلاحظ أن ذلك القسم الذى احتوى على كافة تلك المرافق الحيوية قد وقع فى الجانب الجنوبى من القلعة[٩١].

وقد حاول السلطان الناصر صلاح الدين الأيوبى إسقاط المرقب بمحاصرته عام ١١٨٨م/ ٥٨٣هـ. بيد أن الجيش الأيوبى عجز عن تحقيق هدفه[٩٢]، ويعبر أحد المعاصرين فى رواية له عن الموقف مبرراً إياه بوصفه للقلعة على أنها «من حصونهم التى لا ترام، ولا يحدث أحد نفسه بتملكها نظراً لعلوها، وامتناعها»[٩٣]. كما حاول الظاهر غازى صاحب حلب إسقاط القلعة عام ١٢٠٥م/ ٦٠٢هـ[٩٤]، دون جدوى هو الآخر، وإن حصل من جراء عملياته على مغانم وفيرة.

بيد أن سقوط المرقب كان فى عهد المنصور قلاوون فى عام ١٢٨٥م/ ٦٨٤هـ[٩٥]، وهناك من يرى أن سقوطها كان فى عهد الظاهر بيبرس[٩٦]، بيد أن ذلك لا يجد دعماً من المصادر التاريخية المعاصرة، واللاحقة، والكتابات الأكاديمية فى مجال القلاع الصليبية.

أما فيما يتصل بالقلاع الإسلامية، نجد أن ياقوت أشار إلى قلاع حلب، وحماة، والطور، أما قلعة حلب فنجده يصفها بدقة متناهية حيث شيدت على «جبل عال مدور صحيح التدوير»[٩٧] والمدينة حول ذلك الجبل وللقلعة خندق كبير، ولها سبعة أبواب حددها بمسمياتها[٩٨]، وأشار إلى التجديدات التى أقامها الملك الظاهر غازى بن صلاح الدين الأيوبى، وأنه عمل على حفر خندقها، وبناء رصيفها بالحجارة، غير أن المنية عاجلته؛ فلم يتمكن من إكمال مشروعه نحو تجديدها[٩٩].

وهكذا، فإن إشارة ياقوت الحموى فى هذا الصدد اقتصرت على الجهد الذى قام به الظاهر غازى فى أمر تجديدها؛ ولم يقدم لنا تناولاً للمراحل الأخرى التى مرت بها تلك القلعة فى المرحلة السابقة فى عهده.

والجدير بالذكر، أن قلعة حلب قد وقعت فوق مرتفع طبيعي بوسط المدينة، وكانت تتألف من برج أمامي، وبرج خلفي ضخم، ووجد خندق واسع عرضه ٢٦ متراً، تم حفره وأحاطها، ولها سفح يشرف عليه مصفح بالحجارة المنحوتة، وبصفة عامة تمتاز القلعة بمداخلها الحصينة التي تمثل أرقى ما وصل إليه فن التحصين الحربي في ذلك العصر[١٠٠].

ومن الممكن ملاحظة أن البرجين سالفي الذكر، كان يتم الاتصال بينهما عن طريق جسر مائل فوق الخندق يقوم على ثماني قناطر، واتصل بالبرج الأمامي عن طريق جسر خشبي متحرك[١٠١].

وقد عمل الملك العادل نور الدين محمود على تدعيم قلعة حلب وشيد لها سوراً، ومسجداً[١٠٢]، وفيما بعد، وفي العصر الأيوبي، نجد أن الملك الظاهر غازي بن صلاح الدين الأيوبي غطى سفح الجبل الذي تقع عليه القلعة بالحجارة، وشيد بابها، وكان ذلك في عام ٦٠٠هـ/ ١٢٠٣، ١٢٠٤م، وعمل له قنطرة، أو جسراً يمتد إلى حلب، كما أنه قام ببناء برجين على الباب، وجعل للقلعة خمسة أبواب، وشيد أماكن مخصصة للجنود وكبار موظفي الدولة[١٠٣].

وتجدر الإشارة إلى أن قلعة حلب قد تم ترميمها لاسيما في عهد دولة سلاطين المماليك، وذلك في خلال حكم قلاوون، وقايتباى، وقانصوه الغوري[١٠٤].

أما قلعة حماة، فنجد أن ياقوتا لم يفصل الحديث بالنسبة لها واكتفى بأن أوضح أنه في طرف المدينة توجد تلك القلعة، التي وصفها بالعظمة، وأنها متقنة العمارة[١٠٥].

أما قلعة الطور؛ فقد أعطى لها أهميتها، إذ أنه ذكر أن الملك المعظم عيسى ابن الملك العادل، قام ببنائها، وصارت قلعة حصينة، وقد أغدق عليها الأموال الوفيرة، وذلك من أجل أن يواجه الأطماع الصليبية الموجهة إلى المنطقة بعد رحيل السلطان الناصر

صلاح الدين الأيوبى، غير أن الأمور تطورت فى عام ٦١٥هـ/ ١٢١٩م، فعندما قدم الصليبيون إلى المنطقة، وأحس بالخطر، وخشى أن تسقط تلك القلعة فى قبضتهم عمل على تخريبها[١٠٦].

وهكذا، نجد أن ياقوت الحموى قد حرص على إيراد عدد من القلاع الصليبية، والإسلامية، من أجل توضيح دورها حنيذاك، بيد أن معالجته اختلفت من قلعة إلى أخرى أو بصفة عامة تعد إشاراته عن قلعة صهيون كإحدى القلاع الصليبية، وقلعة حلب كإحدى القلاع الإسلامية نموذجاً للتفاصيل الهامة التى أوردها بشأن القلاع فى ذلك العصر.

ويلاحظ أنه اهتم بإيراد التحصينات الدفاعية حتى للمدن الأخرى، من أمثلة ذلك أنطاكية التى أشار إلى أن سورها به ثلاثمائة وستون برجاً[١٠٧]، ودل ذلك على اهتمامه بصفة عامة بإيراد التحصينات الدفاعية سواء لدى القلاع، أو لدى المدن الموجودة فى بلاد الشام بصفة عامة. وكان من الطبيعى أن يتعرض لنموذج أنطاكية على اعتبار أن تلك المدينة على نحو خاص اشتهرت بمناعتها وحصانتها وقد تزايدت وتناثرت روايات مؤرخى الحروب الصليبية التى تعكس حصانة تلك المدينة على نحو خاص.

ومن جهة أخرى، تناول ياقوت جانباً هاماً عن بلاد الشام ونعنى به المزارات الدينية سواء الإسلامية أو المسيحية. ومن أمثلة المزارات الدينية الإسلامية، المسجد الأقصى[١٠٨]. وقد فصل الحديث بشأنه بيد أنه لم يخرج به عن حدود أوصاف الجغرافيين المسلمين السابقين، كما أن دمشق تحتوى على قبور لعدد من الصحابة والتابعين، من أمثلة ذلك ما يقال من أن قبر أم عاتكة أخت عمر بن الخطاب رضى الله عنها موجود هناك، وكذلك قبر صهيب الرومى وأخيه[١٠٩]، ويبدو أن ياقوتا لم يكن يقبل فكرة وجود قبر أخت عمر بن الخطاب، بدليل أنه ذكر ذلك من قبيل الزعم، بالإضافة ذكره لجبل قاسيون وما به من القبور الخاصة بالصالحين[١١٠].

زد على ذلك، أننا نجده يذكر وجود عدد من المشاهد والقبور في حمص، فيقرر أن بحمص مشهد الإمام على بن أبي طالب، كما أن بها دار خالد بن الوليد، وقبره فيما يقال، وكذلك قبر عياض بن غنم القرشي فاتح بلاد الجزيرة، وكذلك فبر زوجة خالد بن الوليد، وقبر ابنه عبدالرحمن، بالإضافة إلى مشهد لأبي الدرداء(١١١).

وتجدر الإشارة إلى أن ياقوت لم يقبل فكرة دفن خالد بن الوليد في حمص، بل إنه ذكر أنه مات بالمدينة المنورة ودفن بها ويرى أن هذا هو الأصح(١١٢)، ومعنى هذا أنه لم يقبل كل ما يقال له بشأن دفن الصحابة في تلك المناطق.

أما المزارات الدينية المسيحية، فهناك كنيسة القيامة، ويقرر أنها موجودة في وسط بيت المقدس، وأن هناك مقبرة يسميها المسيحيون القيامة، ويصف الكنيسة بصفة عامة على اعتبار أنها أعظم كنيسة للنصارى في بيت المقدس وبها مظاهر الحسن والثراء(١١٣).

وهناك أيضاً عين سلوان، وهي في ربض بيت المقدس، وهي عين عذبة ويتم التبرك بها، ويقرر ياقوت أن هناك اعتقاداً بأن ماء زمزم يزور ماء سلوان وذلك كل ليلة عرفة(١١٤)، ومن الواضح عدم اعتقاده في ذلك بدليل أنه اعتبر ذلك من قبيل الزعم، أو من خلال المعتقدات الشعبية الساذجة. وإن أفادت إشارته في تسليط الضوء على ذلك الجانب الفولكلوري.

وبالإضافة إلى تلك المزارات الدينية المسيحية، يشير ياقوت إلى عدد كبير من الأديرة المسيحية في كافة أنحاء الشام سواء في دمشق، وحلب، وبالس، وأنطاكية، وعزاز، وفي الأردن، وعند جبل الطور، والرملة.

ومن أديرة دمشق، دير صليبا، ودير الخصيان، ودير سمعان ودير يونا، ودير فطرس، ودير بولس، ودير قانون، ودير هند(١١٥)، ومن أيرة حلب حافر، وحشيان، وعمان، ودير

بلاض[١١٦]، أما فى أنطاكية فهناك دير سمعان[١١٧]، وفى عزاز هناك دير شيح[١١٨]، وفى الأردن هناك دير فاخور[١١٩] فى الموضع الذى عهد فيه يوحنا المعمدان[١٢٠] السيد المسيح. وفى الطور يوجد دير التجلى[١٢١] الذى يزعم المسيحيون أن السيد المسيح؛ قد علا عليهم فيه. أما الرملة ففيها دير البلوط، وكذلك دير بولس.

وتجدر الإشارة إلى أن هناك أديرة، معينة من بين التى أوردها تحتل مكانة خاصة لدى نفوس المسيحيين، ومن أمثلة ذلك دير التجلى، ويلاحظ أنه على جبل الطور، ويقصده الناس من كافة المواضع، ويوصف الدير بالاتساع والمناعة فى البناء، واشتمل على موضع مخصص لاستقبال الحجاج المسيحيين واستضافتهم، كما أنه احتوى على كنيسة عرفت بكنيسة المخلص[١٢٢].

وبصفة عامة كانت تلك الأديرة على درجة كبيرة من الثراء، ومن أمثلة ذلك إشارة ياقوت نفسه إلى أن دير سمعان بظاهر أنطاكية يبلغ دخله فى العام أربعمائة ألف دينار[١٢٣]، ومن الطبيعى ملاحظة أن الأديرة التى وقعت فى قبضة الصليبيين مثل أنطاكية والرملة كانت أكثر ثراء من تلك الأديرة الواقعة فى دمشق، وحلب، وعزاز، على اعتبار أن جموع الحجاج المسيحيين، كانوا يقدمون إليها كل النفائس والتبرعات المالية على نحو أدى إلى ثرائها بصورة متزايدة.

والجدير بالذكر، أن إيراد ياقوت الحموى لكل تلك الأديرة فى بلاد الشام، والعديد منها خاضع للسيادة الإسلامية. يعكس حقيقة جلية لا تقبل الجدل ألا وهى أن مناطق المسلمين، احتضنت أماكن العبادة المسيحية، ومنها الأديرة على مدى قرون عديدة من القرن الأول الهجرى/ السابع الميلادى حتى أخريات القرن الخامس الهجرى/ الحادى عشر الميلادى، وذلك فى حرية كاملة، ومن ثم فإن القول بأن الحملات الصليبية جاءت إلى المنطقة العربية بوصفها حملات إنقاذ للمسيحيين الشرقيين من اضطهاد المسلمين،

تفنده تلك الإشارات الثرية، التي قدمها ياقوت الحموى عن كثرة أعداد الأديرة المسيحية المتناثرة فى أنحاء بلاد الشام، وخاصة فى المناطق الإسلامية.

ومن ناحية أخرى، فإن إيراد ياقوت الحموى لأديرة المسيحيين، يعكس بجلاء مدى التسامح الذى أبداه المسلمون تجاه أهل الذمة، على نحو جعلهم يخصصون صفحات كاملة من مؤلفاتهم للحديث عن تلك المؤسسات المعمارية الدينية المسيحية، وفى هذا دليل واضح آخر إن لم تكن هناك «مشكلة ما» فى التعامل بين المسلمين والمسيحيين لا على المستوى الرسمى، ولا على مستوى الكتابة التاريخية عن الطرف الآخر المخالف فى الدين من جانب الجغرافيين المسلمين فى ذلك العصر، ويمثل ياقوت الحموى خير دليل على ذلك.

ومن جهة أخرى، نجد ذلك الجغرافى يعنى بتوضيح المزارات العلاجية، فى بلاد الشام، ومن أمثلتها عيون طبرية، وفى هذا المجال نجده يستفيد من نص للسائح الهروى، ويؤكد على أهمية قرية الحسينية، ويصف الماء هناك بأنه شديد الحرارة للغاية، كما أنه صافٍ، وعذب، وطيب الرائحة[١٢٤]. ومن الواضح أن تلك القرية لقيت اهتماماً كثيراً من جانب الجغرافيين المسلمين الذين زاروا بلاد الشام فى ذلك العصر.

وأخيراً، فإن ياقوت الحموى حرص على ذكر جوانب من الخريطة العقائدية لبلاد الشام، وفى هذا الصدد أشار إلى وجود عناصر الاسماعيلية فى حلب، وخاصة فى جبل السماق الذى احتوى على عدد كبير من المدن، والقرى والقلاع[١٢٥]. وقد أوضح أن غالبية الاسماعيلية هناك تحت طاعة الأيوبيين[١٢٦]، ويعنى ذلك أن عناصر أخرى منهم كانت تناصب السلطة الأيوبية فى حلب العداء ولكن دون فعاليات حقيقية خطرت بدليل عدم إشارته إلى تلك العناصر إلا بتلك الصورة الموجزة.

كذلك فإنه أوضح وجود عناصرهم فى كفر لاثا فى سطح جبل عاملة بين نواحى حلب[١٢٧]، مع ملاحظة أن مناطق حلب كانت مركزاً تقليدياً للوجود الاسماعيلى

منذ أخريات القرن الخامس الهجرى/ الحادى عشر الميلادى. ومع ذلك فإنه لم يشر إلى قيامهم بأية اغتيالات ويبدو أن شوكتهم قد كسرت نهائياً من خلال القبضة الأيوبية.

أضف إلى ذلك، أنه تناول عناصر النصيرية فى حمص(١٢٨). وأشار إلى أن كثيراً من أهلها من عناصرهم، ومن الطبيعى أن نجده يشن عليهم الهجوم؛ نظراً لعقائدهم، وأفكارهم الباطلة، حيث اعتبروا من غلاة الشيعة.

ولا ريب فى أن ياقوت يواصل بذلك توضيح أماكن توزيعات العناصر الشيعية فى ذلك العصر. مع ملاحظة أن تلك العناصر فى العصر الذى كان فيه ذلك الجغرافى، لم تكن بنفس قوتهم خلال النصف الأول من القرن السادس الهجرى/ الثانى عشر الميلادى.

وهكذا، قدم لنا ياقوت الحموى من خلال مؤلفاته الجغرافية التى تناول خلالها أنحاء الشام، صورة عامة عن بلاد الشام خلال عصره، وهى بالتأكيد صورة ثرية وهامة ومع ذلك يمكن أن توجه له بعض جوانب النقد ومنها :

أولاً : إن اهتمام ياقوت بالمدن الخاضعة للسيادة الإسلامية فاق بكثير اهتمامه بتلك الخاضعة للسيادة الصليبية، بل إنه أحياناً فى المدن الأخيرة اكتفى بإيراد اسمها فقط، دون أن يعمق رؤيته بشأنها، إذ أن رؤية تلك المدن المعادية من خلال عيون إسلامية يثرى تلك الرؤية إلى حد كبير، بيد أنه لم يفعل ذلك.

ثانياً : إن مدن الساحل الشامى، وهى التى لها شأنها الكبير على المستوى الاستراتيجى، والاقتصادى التجارى، غلبت الزاوية التاريخية على شقيقتها الجغرافية عند معالجة ياقوت الحموى لها، حقيقة أن الفاصل بين الجانبين ليس بالكبير، وأن

التاريخ ما هو إلا صراع على الجغرافية، إلا أن ياقوت الحموى عالج تلك المنطقة من خلال اهتمامه بتصوير تاريخ الصراع الإسلامى/ الصليبى بشأنها، بيد أن ذلك الجانب؛ خصصت له كتب الحوليات التاريخية العربية أجزاء هامة منها.

ومع ذلك؛ فإن النقد السابق، ينبغى ألا يقلل من قيمة ذلك العلم الجغرافى والأديب والمؤرخ المتميز، خاصة إذا ما لاحظنا أن الرحالة الأوروبيين الذين زاروا تلك المدن من خلال اهتمامهم بإيراد أوضاع المدن الخاضعة للصليبيين حينذاك.

الهوامش

(١) عن مصادر ومراجع ترجمة ياقوت الحموى أنظر :

ابن المستوفى، تاريخ أربل، حـ١، تحقيق سامى الصفار، ط. بغداد ١٩٨٠م، ص٣١٩-٣٢٤؛ ابن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، حـ٦، ط. بيروت ١٩٧٨م، ص١٢٧-١٣٩؛ الذهبى، العبر فى خبر من غبر، حـ٥، ص١٠٦؛ اليافعى، مرآة الجنان وعبرة اليقظان، حـ٤، ط. حيدر أباد الدكن ١٣٤٨هـ، ص٥٩؛ عبدالستار فراج، معجم البلدان لياقوت الحموى، مجلة العربى، العدد (١٤١)، أغسطس ١٩٧٠م، ص٧٨؛ صلاح الدين المنجد، من أعلام التاريخ والجغرافيا عند العرب، حـ١، ط. بيروت ١٩٧٨م، ص٦٣؛ محمد محمود محمدين، الجغرافيا والجغرافيون بين الزمان والمكان، ص١٥٦؛ زكى حسن، الرحالة المسلمون، ص١٠٢؛ صلاح الدين الشامى، الفكر الجغرافى سيرة ومسيرة، ص٢٥١، حاشية (١)؛ أحمد أحمد بدوى، الحياة الفعلية فى عصر الحروب الصليبية بمصر والشام، ط. القاهرة، ب-ت، ص٢٨٥؛ عبدالرحمن حميدة، أعلام الجغرافيين العرب، ط. دمشق ١٩٨٤م، ص٤٤٧-٤٤٨؛ على أدهم، بعض مؤرخى الإسلام، ط. بيروت ١٩٧٤م، ص١٥١؛ على عبدالله الدفاع، الموجز فى التراث العلمى العربى الإسلامى، ط. نيويورك ١٩٧٩م، ص٤٣؛ أحمد رمضان، الرحلة والرحالة المسلمون، ص١٧٧؛ زغلول النجار والدفاع، إسهام علماء المسلمين الأوائل فى تطور علم الأرض، ص٣٩٢-٣٩٣؛ يسرى الجوهرى، الفكر الجغرافى والكشوف الجغرافية، ط. الاسكندرية ١٩٧٩م، ص١٢٧؛ عبدالفتاح وهيبة، جغرافية العرب فى العصور الوسطى، ص١٨؛ عبدالرحمن زكى، أعلام العرب فى الجغرافيا، المجلة العربية، السنة (٣)، العدد الأول، ديسمبر ١٩٧٨م، ص٥٣؛ عمر رضا كحالة، معجم مصنفى الكتب العربية فى التاريخ والتراجم والجغرافيا والرحلات، ط. بيروت ١٩٨٦م، ص٦٦٧-٦٧٠؛ مصطفى الشكعة، مناهج التأليف عند العلماء العرب، قسم الأدب، ط. بيروت ١٩٩١م، ص٥٦٣-٥٦٥.

Brockelmann, Geschichte der Arabischen Literature, T.I., p. 479 Suppl., T.I., p. 880; Ruhricht, Chronologisches, p. 50.

(٢) ابن المستوفى، المصدر السابق، حـ١، ص٣١٩.

(٣) نفسه، نفس المصدر، حـ٦، ص١٣٩.

(٤) نفسه، نفس المصدر، حـ٦، ص١٢٧، ويرى يسرى الجوهرى، أن ياقوت قد ولد فى اليونان عام ١١٧٩م/ ٥٧٥هـ، ولكن هذا الرأى لا تدعمه المصادر الأصلية لأن المؤرخين يذكرون أنه رومى الجنس والمولد، ومعنى هذا أنه ولد فى موقع ما من أملاك الامبراطورية البيزنطية التى أطلق عليها المسلمون تعبير دولة الروم، أما التحديد بأنه ولد فى اليونان، فهو أمر لا يجد سنداً من الدعم المصدرى، ويبقى مجرد احتمال لا أكثر. أنظر رأيه فى الفكر الجغرافى والكشوف الجغرافية، ص١٢٧.

(٥) ابن خلكان، المصدر السابق، حـ٦، ص١٢٧؛ أحمد رمضان، المرجع السابق، ص١٧٧.

(٦) نفسه، نفس المرجع، والصفحة.

(٧) ابن خلكان، المصدر السابق، حـ٦، ص١٢٧-١٢٨.

(٨) السيد عبدالعزيز سالم، التاريخ والمؤرخون العرب، ص١٩٦.

(٩) ويلاحظ أن زغلول النجار وعبدالله الدفاع قد ذكرا أن ياقوتا عندما اتجه إلى حلب كان يحكمها الحمدانيون، أو كما ورد فى نص كتابيهما «هى إذن حاضرة الحمدانيين». عن ذلك أنظر : إسهام علماء المسلمين الأوائل فى تطور علم الأرض، ص٣٩٤.

غير أن هذا القول، لا ينطبق على الواقع التاريخى، على اعتبار أن الحلبيين، حكموا حلب خلال القرن الرابع الهجرى/ العاشر الميلادى، وكانوا على النحو التالى :

أبو الحسن على، سيف الدولة ٣٣٣-٣٥٦هـ/ ٩٤٤-٩٦٧م، الحمدان؛ سعد الدولة، أبو المعالى شريف ٣٥٦-٣٨١هـ/ ٩٦٧-٩٩١م، الحمدانى؛ سعيد الدولة أبو الفضائل سعيد ٣٨١-٣٩٢هـ/ ٩٩١-١٠٠١م، الحمدانى؛ أبو احسن على، أبو المعالى شريف الثانى، ٣٩٢-٣٩٤هـ/ ١٠٠١-١٠٠٣م.

ولما كان ياقوت الحموى قد عاش خلال القرن السادس الهجرى/ الثانى عشر الميلادى وتوفى عام ٦٢٦هـ/ ١٢٢٨م، فمن الواضح عدم صحة القول السابق. عن تسلسل حكم الحمدانيين وتاريخهم أنظر :

Canard, Histoire de la dynastie de Hamadanides de Jaziraet et Syrie, Paris, 1951.

زمباور، معجم الأنساب والأسرات الحاكمة فى التاريخ الإسلامى، حـ٢، ت. زكى حسن وآخرون، ط. القاهرة ١٩٥٢م، ص٢٠١؛ ستانلى لين بول، طبقات سلاطين الإسلام، ط. بيروت ١٩٨٥م، ص١٠٩؛ محمود سعيد عمران، معالم تاريخ الإمبراطورية البيزنطية، ط. بيروت ١٩٨١م، ص٣٧٢؛ السيد الباز العرينى، الدولة البيزنطية، ط. بيروت ١٩٨٢م، ص٩١٦.

وعن مصادر تاريخ الحمدانيين بصفة عامة أنظر : النصوص الهامة التى أوردها المستشرق الفرنسى كنار فى كتابه التالى :

Canard, Sayf Al Daula, recuerl de Textes relatifs d L'emir Sayf al Daula Le Hamdanids avec annotations, Alger 1934.

وفيه نجد النصوص العربية والتعليقات بالفرنسية التى قام بها كنار. وأنظر أيضاً : مصطفى الشكعة، سيف الدولة الحمدانى، أو مملكة السيف ودولة الأقلام، ط. القاهرة ب-ت.

(١٠) ابن خلكان، المصدر السابق، حـ٦، ص١٣٩، عبدالرحمن زكى، المرجع السابق، ص٥٣؛ عبدالستار فراج، المرجع السابق، ص٧٨؛ العبادى وزيادة والعدوى، الدولة الإسلامية، تاريخها وحضارتها، ط. القاهرة ب-ت، ص٥١.

(١١) ابن المستوفى، المصدر السابق، حـ١، ص٣٢٤.

(١٢) نقولا زيادة، الجغرافية والرحلات عند العرب، ط. بيروت ١٩٦٢م، ص٦١.

(١٣) محمد الحسينى عبدالعزيز، الحياة العلمية فى الدولة الإسلامية، ط. الكويت ١٩٧٣م، ص١٧٦. وأيضاً، حمد الجاسر، «نظرات فى معجم البلدان»، مجلة العرب، ج (٩)، (١٠)، الربيعان ١٤١٤هـ، ص٥٧٨؛ خودابخش، الحضارة الإسلامية، ت. على حسنى الخربوطلى، ط. القاهرة ١٩٦٠م، ص١٨٠.

(١٤) عبدالرحمن حميدة، المرجع السبق، ص٤٢٨.

(١٥) يلاحظ أن معجم البلدان، قد نشره وستنفيلد Wustenfield فى ستة أجزاء فى المرحلة من ١٨٦٦ إلى ١٨٧١م، وقد صدر عمله تحت عنوان :

Wustenfield, Jacut's geographischer worterbuch aus den Handschriften zu Berlin, St. petersburg und pairs.. hrsg von Ferdinand I-VI Lerbzig 1866-1870.

وضمن ذلك العمل، هناك جزء مخصص للفهارس، كذلك صدرت فى القاهرة فى عام ١٣٢٣-١٣٢٤هـ/ ١٩٠٦م، بعناية الشنقيطى طبعة أخرى من معجم البلدان وقعت فى ثمانية مجلدات، مع زيادات تحت عنوان «منجم العمران فى المستدرك على معجم البلدان»، لمحمد أمين الخانجى، الجزءان التاسع والعاشر، القاهرة ١٣٢٥هـ/ ١٩٠٧م. وفيما بعد ظهرت طبعة أخرى من الكتاب المذكور فى بيروت فى عام ١٩٧٧م، وهى التى اعتمدت عليها فى إعداد هذا الفصل.

ومن المفيد أن نذكر أن هناك من رأى أن عمل ذلك المستشرق الألمانى، فى تحقيق معجم البلدان، يعد أكبر عمل اضطلع به مستشرق بمفرده، وبذلك يكون قد قدم للعلم خدمة لا يمكن أن تقدر بثمن. عن ذلك أنظر :

صلاح الدين عثمان هاشم، المستشرقون والجغرافية العربية، ضمن كتاب مناهج المستشرقين فى الدراسات العربية والاسلامية، حـ٢. ط. الرياض ١٤٠٥هـ، ص٧٨. آثار فى الجغرافية الاسلامية تنتظر النشر، المؤتمر الجغرافى الاسلامى الأول، جامعة الامام محمد بن سعود الاسلامية، م (٣)، ط. الرياض ١٩٨٤م، ص٧.

والجدير بالذكر، أن كتاب ياقوت قد أدرك المؤرخون المسلمون أهمية اختصاره من أجل تقليل حجمه. وذلك على الرغم من أن ياقوت بنفسه قد أوصى فى مقدمة كتابه بألا يختصر حتى لا تقلل فائدته.

وقد قام صفى الدين بن عبد الحق البغدادى (ت ٧٣٩هـ/ ١٣٤٠م) باختصاره تحت عنوان مراصد الإطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع، وقد قام جوينبول بتحقيقه، وطبعه فى أربعة أجزاء، وقد صدر عمله فى ليدن عام ١٨٥٣م : كما أن السيوطى (ت ٩١١هـ/ ١٥٠٥م) اختصر هو الآخر كتاب ياقوت تحت عنوان مختصر معجم البلدان. عن اختصار معجم البلدان أنظر : حاجى خليفة، كشف الظنون عن أسامى الكتب والفنون، حـ٢، ق٢، ص١٧٣٣.

ويرى أحمد رمضان، أن مراصد الإطلاع من مؤلفات ياقوت الحموى، وأن عبدالمؤمن بن عبدالحق قد اختصره. بيد أن هذا الرأى يخالف الواقع، لأن ياقوتا لم يؤلف البتة كتاباً بهذا العنوان، أما كتاب مراصد الإطلاع؛ فما هو إلا اختصار ابن عبدالحق البغدادى لكتاب ياقوت معجم البلدان، أنظر رأيه : الرحلة والرحالة المسلمون، ص١٧٩.

كما أن صلاح الدين الشامى قرر أن عبدالمؤمن البغدادى قد اختصر هذا المعجم وأضاف إليه، بيد أن هذا القول، هو الآخر لا يتفق مع واقع الأمر، لأن عبدالمؤمن لم يضف إلى كتاب ياقوت، بل اختصره، لأنه فى حالة افتراضنا جدلا أنه أضاف إليه لما فكر أصلا فى أن يختصره، ويلاحظ أن اختصاره كان على عكس نصيحة ياقوت، لمن يأتى من بعده من المؤرخين، والجغرافيين، إذ أنه نصح بعدم اختصاره حتى لا تضيع فائدته، أنظر رأى الباحث السابق فى : الإسلام والفكر الجغرافى العربى، ط. الاسكندرية، ١٩٧٨م، ص١٣٧، حاشية (٢).

(١٦) حققه وستنفيلد Wustenfield اعتماداً على نسختى ڤيينا، وليدن، وصدر عمله فى جوتنجن عام ١٨٤٦م، وأعيد نشره كما هو، من جانب عالم الكتب فى بيروت عام ١٩٨٦م. وقد صدر تحقيق وستنفيلد بعنوان :

Jacut's Moschtarik, das isti Lexicon geographischer Homonyme, Gottingen 1846.

ويلاحظ أن عنوان كتاب ياقوت قد استوحاه محمد عبدالله بليهد عندما ألف كتابه ما تقارب سماعه وتباينت أمكنته وبقاعه. ط. الرياض ١٤٠٢هـ.

(١٧) خليل إبراهيم السامرائي، الثغر الأعلى الأندلسي، دراسة في أحواله السياسية (٩٥-٣١٦هـ/ ٧١٤-٩٢٨م)، ط. بغداد ١٩٧٦م، ص٢٦؛ صلاح الدين الشامي، الفكر الجغرافي سيرة ومسيرة، ص٢٥١.

(١٨) كراتشكوفسكي، تاريخ الأدب الجغرافي العربي، ص٣٥٩؛ محمد محمود محمدين وطه الفرا، المدخل إلى علم الجغرافيا، ط. الرياض ١٩٨٢م، ص٢٥؛ محمد محمود محمدين، دراسات في الأسماء الجغرافية العربية، الدارة، العدد (٤)، السنة (٤)، محرم ١٣٩٩هـ/ ديسمبر ١٩٧٨م، ص٢٢٧؛ محمد السيد غلاب، الجغرافيون المسلمون ودورهم في تطور الفكر الجغرافي، المؤتمر الجغرافي الإسلامي الأول، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، م (٣)، ط. الرياض ١٩٨٤م، ص١٤٦.

(١٩) كراتشكوفسكي، المرجع السابق، ص٣٥٩.

(٢٠) عبدالرحمن زكي، المرجع السابق، ص٥٣.

(٢١) ياقوت، معجم البلدان، حـ٥، ط. بيروت ١٩٧٧م، ص٤٥٧؛ صلاح الدين المنجد، المرجع السابق، حـ١، ص٧٠.

(٢٢) ياقوت، المصدر السابق، حـ ، ص١١٤. ويقول ما نصه «لا يفارق منزلي منها مائتا مجلد وأكثر بغير رهن» ومرو، مدينتان من مدن المشرق الإسلامي وهناك مرو الشاهجان أي روح الملك، وهي مرو العظمى؛ التي عدت أشهر مدن خراسان، وقصبتها، أما مرو الثانية فهي مرو الروة، وهي مدينة صغيرة بالمقارنة بمرو الشاهجان التي كانت أكبر منها، ويمتدح ياقوت مرو الشاهجان على اعتبار أنها أخرجت من الأعيان وعلماء الدين والأركان عدداً لا يحصى، ووصفت مرو من جانب القزويني، بأنها كثيرة الخيرات وافرة الغلات، كما امتدح الجغرافيون المسلمون في العصور الوسطى، أهل مرو؛ من حيث رقتهم، وحسن معاشرتهم. عن مرو أنظر :

النرشخي، تاريخ بخارى، ت. أمين عبدالمجيد بدوى ونصر الله مبشر الطرازي، ط. القاهرة ب-ت، ص٩٤-٩٥؛ ياقوت، معجم البلدان، حـ٥، ط. بيروت ١٩٥٧م، ص١١٣؛ القزويني، آثار البلاد، ص٤٥٦-٤٦٠؛ أبو الفداء، تقويم البلدان، ص٤٥٦؛ محمود شيت خطاب،

أفغانستان قبل الفتح الإسلامى وفى أيامه، مجلة المجمع العلمى العراقى، م (٣١)، حـ (٣)، ط. بغداد ١٩٨٠م، ص٤٧؛ لسترانج، بلدان الخلافة الشرقية، ت. بشير فرنسيس وكوركيس عواد، ط. بيروت ١٩٨٥م، ص٤٤٩-٤٥٢؛ طه ندا، فصول فى تاريخ الحضارة الإسلامية، ط. بيروت ١٩٧٦م، ص١٥٩.

Bosworth, "The political and dynastic History of The Franian World", in C.H.I., Vol. V, Cambridge 1968, p.65, p.163.

(٢٣) على أدهم، المرجع السابق، ص١٥٥-١٥٦.

(٢٤) عبدالرحمن حميدة، امرجع السابق، ص٣٩١.

(٢٥) ياقوت، المصدر السابق، حـ٤، ص١٨.

(٢٦) نفسه، نفس المصدر، حـ٤، ص١٤٤.

(٢٧) نفسه، نفس المصدر، حـ٤، ص١٤٣.

(٢٨) نفسه، نفس المصدر، حـ٤، ص١٢٢. عن معركة حطين أنظر :

ابن شداد، النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، تحقيق جمال الدين الشيال، ط. القاهرة ١٩٦٦م، ص٧٥-٧٦؛ العماد الأصفهانى، الفتح القسى فى الفتح القدسى، ط. القاهرة، ص٨١؛ ابن الأثير، الكامل، حـ٩، ص١٧٩، مجهول، الاستبصار فى عجائب الأمصار، تحقيق سعد زغلول عبدالحميد، ط. الاسكندرية ١٩٥٨م، ص١٠٥؛ مصطفى زيادة، يوم حطين اليوم الفاصل بين المسلمين والصليبيين، العربى، العدد (٥٩) أكتوبر ١٩٦٣م، ص٣٦-٤٦؛ محمد زنيبر، معركة حطين من التمزق إلى الوحدة، مجلة المؤرخ العربى، العدد (٣٩)، السنة (١٥)، عام ١٩٨٩م، ص١٦٥-١٧٦؛ الحبيب الجنحانى، حطين رمز الوحدة والتحرر، مجلة المؤرخ العربى، العدد (٣٩)، السنة (١٥)، عام ١٩٨٩م، ص١٧٧-١٨٥؛ ديفيد جاكسون، معركة حطين والاستيلاء على القدس، ضمن كتاب حطين صلاح الدين والعمل العربى الموحد، ط. القاهرة ١٩٨٩م، ص٨٦-١٠٠؛ جوزيف نسيم يوسف، معركة حطين، خلفياتها ودلالاتها، عالم الفكر، م (٢٠)، العدد (١)، أبريل، مايو، يونيو ١٩٨٩م، ص٢٣٢-٢٥١؛ جوزيف داهموس، سبع معارك فاصلة فى العصور الوسطى، ت. محمد فتحى الشاعر، ط. القاهرة ١٩٨٧، ص١٠٣-١٢١؛ محمود رزق محمود، العلاقة بين أرناط أمير حصن الكرك وصلاح الدين الأيوبى حتى موقعة حطين عام ١١٨٧م، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب، جامعة عين شمس عام ١٩٧٣م، ص١٥٥-١٦٠؛ أمين توفيق الطيبى، وقعتا حطين والأرك

نصران متوازيان على الغزاة الصليبيين فى المشرق والمغرب، مجلة البحوث التاريخية، السنة (١٠)، العدد (٩١ يناير ١٩٨١م، ص٥١-٦٤؛ بسام العسلى، الأيام الحاسمة فى الحروب الصليبية، ط. بيروت ١٩٧٨م، ص٦٥-١١٢.

Richard, "La bataille de Hittlin, Saladin defait L'Occident", L'Histoire, T. XL VII, année 1987, pp. 104-111, AAn account of the battle of Hattin referring to the Frankish mercenaries in Oriental maslem states", Speculum, T. XXXII, pp. 168-175.

(٢٩) نفسه، نفس المصدر، حـ٣، ص٤٣٣. وعن حصانة صور أنظر :

ابن حوقل، صورة الأرض، ص١٧٤، المقدسى، أحسن التقاسيم، ص١٦٢-١٦٤؛ ابن جبير، الرحلة، ص٢٧٧-٢٧٨؛ ياقوت، المشترك وصفاً، ص٢٨٦؛ سر الختم عثمان، صور فى القرنين ١٢، ١٣م، ص٤-٧؛ محسن محمد حسين، مسئولية صلاح الدين فى فشل حصار صور، المجلة العربية للعلوم الإنسانية، م(٧)، العدد (٢٦)، الكويت ١٩٨٧م، ص٣٢.

(٣٠) ياقوت، معجم البلدان، حـ٣، ص٤٣٣.

(٣١) نفسه، نفس المصدر، حـ١، ص١٥١-١٥٢.

وقد وقعت أرسوف، وهى فى المصادر الصليبية ترد بأشكال متعددة، مثل Arsuf, Arsur, Azotus، على بعد عشرة أميال إلى الشمال من يافا على ساحل فلسطين، وبينها وبين قيسارية نحو ثمانية عشر ميلاً، وبينها وبين الرملة إثنى عشر ميلاً، ومن المحتمل أن اسم ارسوف Arsuf، مشتق من اسم الإله السامى رسيف Reseph، ويلاحظ أنه خلال القرون الأولى من عهد الخلافة، عدت أرسوف واحدة من المدن الحصنة الرئيسية فى فلسطين، وقد احتلها الصليبيون فى عهد الملك الصليبى بلدوين الأول Baldwin I (١١٠٠-١١١٧م) وذلك فى عام ١١٠١م/ ٤٩٥هـ، وفيما بعد استردها المسلمون فى عهد السلطان الناصر صلاح الدين الأيوبى؛ فى عام ١١٨٧م/ ٥٨٣هـ، ووقعت عندها معركة أرسوف الشهيرة خلال أحداث الحملة الصليبية الثالثة عام ١١٩١م/ ٥٨٧هـ، والتى انتصر فيها الصليبيون بقيادة الملك الانجليزى ريتشارد الأول Richard I (١١٨٩-١١٩٩م)، وفيما بعد أخضعها الصليبيون لسيادتهم السياسية، وسقطت أرسوف بصورة نهائية فى قبضة المسلمين فى عهد السلطان الظاهر بيبرس؛ وذلك فى عام ١٢٧٨م/ ٦٧٧هـ. عن أرسوف أنظر :

المقدسى، المصدر السابق، ص١٧٤؛ ابن القلانسى، ذيل تاريخ دمشق، ص٢٢٥؛ أبو الفداء، تقويم البلدان، ص٥٢٨-٥٢٩؛ شافع بن على، حسن المناقب السرية المنتزعة من السيرة

الظاهرية، تحقيق عبدالعزيز الخويطر، ط. الرياض ١٩٧٦م، ص٨٩-٩٠.

Fulcher of Chartres, p. 12, p. 29; William of Tyre, Vol. I, p. 434.

كشاف البلدان الفلسطينية، ط. القاهرة ١٩٧٩م، ص١٩٦؛ عبدالحفيظ محمد على، الحياة السياسية والاجتماعية عند الصليبيين فى الشرق الأدنى فى القرنين ١٢، ١٣م، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب، جامعة القاهرة عام ١٩٧٥م، ص٢١؛ عبدالهادى شعيرة، الرحلة ورباطاتها السبعة، المجلة التاريخية المصرية، م (١٥)، عام ١٩٦٩م، ص٤٣؛ صابر دياب، سياسة الدولة الإسلامية فى حوض البحر المتوسط، ط. القاهرة ١٩٧١م، ص٢٩١-٢٩٢؛ مرمرجى الدومنيكى، بلدانية فلسطين العربية، ص٢٠-٢١؛ قدرس قلعجى، صلاح الدين الأيوبى، قصة الصراع بين الشرق والغرب خلال القرنين ١٢، ١٣م، ط. بيروت ١٩٧٩م، ص٤٠٥-٤٠٦.

(٣٢) ياقوت، معجم البلدان، حـ١، ص٥٢٥.

(٣٣) نفسه، نفس المصدر، حـ١، ص٢٧٠.

(٣٤) نفسه، نفس المصدر، حـ١، ص٤٨٩.

(٣٥) نفسه، نفس المصدر، حـ٢، ص٤٦٥.

(٣٦) نفسه، نفس المصدر والصفحة.

(٣٧) نفسه، نفس المصدر، حـ٤، ص٤٢١.

(٣٨) نفسه، نفس المصدر ، حـ٢، ص٢٨٥.

(٣٩) نفسه، نفس المصدر، حـ٢، ص٤٦٥.

(٤٠) نفسه، نفس المصدر، حـ٢، ص٢٨٣.

(٤١) نفسه، نفس المصدر، حـ٤، ص٦٧-٦٨.

وتجدر الإشارة إلى أن نهر العاصى Orontes، قد سماه أحد الرحالة الأوروبيين الذين زاروا المنطقة، وبالتحديد مملكة بيت المقدس الصليبية، ألا وهو فتيلوس (١١١٨-١١٣٠م) Pharphar أو Far Far، وقد ذكر عنه أنه نبع من أسفل جبل لبنان، واخترق مجراه مناطق متعددة من بلاد الشام مثل أنطاكية، وامتد غربها إلى البحر المتوسط حيث توجد مدينة سوليم Solim أو القديسى سيمون St. Simeon أو السويدية. عن ذلك : Fetellus, p. 24-25.

(٤٢) ياقوت، المصدر السابق، حـ١، ص٣٥٢.

(٤٣) نفسه، نفس المصدر، حـ١، ص٣٥١-٣٥٢

(٤٤) نفسه، نفس المصدر، حـ٥، ص١٦٨

(٤٥) نفسه، نفس المصدر والصفحة.

(٤٦) نفسه، نفس المصدر، حـ٥، ص١٥٦.

(٤٧) نفسه، نفس المصدر، حـ١، ص٢٨٤.

(٤٨) نفسه، نفس المصدر، حـ١، ص٢٨٥.

(٤٩) نفسه، نفس المصدر، حـ٢، ص٣٠٠.

(٥٠) نفسه، نفس المصدر، حـ٤، ص٤٦٩.

(٥١) نفسه، نفس المصدر، حـ٥، ص١٦٨.

(٥٢) نفسه، نفس المصدر، حـ٤، ص٤٧.

ويلاحظ أن جبل الطور أطلق عليه طابور Tabor، ويقع فى إقليم الجليل، وطل على مرج بن عامر، وارتفع عن سطح البحر بنحو خمسمائة وثمانية وثمانين متراً، واحتل موقعاً استراتيجياً هاماً، وكان موضع اهتمام وإعجاب الصليبيين، ولدينا وصف هام لذلك الجبل من جانب الرحالة الروسى دانيال Daniel، ويقرر أنه من عجيب صنع الله، على نحو يعجز المرء عن وصفه، وهو بالغ الجمال والروعة، ومنعزل عما سواه من الجبال، وهناك نهر يجرى فى الوادى الذى يقع أسفل الجبل وتنمو فوق الجبل كافة أنواع الأشجار المثمرة مثل الزيتون والتين وغيرها من أشجار الفاكهة، ويقرر نفس الرحالة أنه من الصعوبة بمكان تسلق ذلك الجبل نظراً لتكويناته الصخرية الوعرة، عن جبل الطور. أنظر :

Anonymous, The deeds of The Franks, p. 100; Daniel, p. 66-67; Fulcher of Chartres, p. 272.

الشابشتى، الديارات، تحقيق كوركيس عواد، ط. بغداد ١٩٥١م، ص١٣٢؛ ابن عبدالحق البغدادى، مراصد الإطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع، حـ٢، ص٨٩٦؛ أندراوس كرشه وأبيض، الثمار الشهية فى جغرافية المملكة العثمانية، ط. طرابلس الشام ١٩١٢م، ص١٧٨-١٧٩؛ مصطفى الدباغ، بلادنا فلسطين، حـ٧، ق٢، ص١٣؛ طه تلجى الطراونة، تاريخ مملكة صفد فى عهد المماليك، ط. بيروت ١٩٨٢م، ص٧٥-٧٦؛ أحمد رمضان، المجتمع الإسلامى فى بلاد الشام، ص١٦، سعيد البيشاوى، الممتلكات الكنسية فى مملكة بيت المقدس الصليبية (١٠٩٩-١٢٩١م)، ط الاسكندرية، ١٩٩٠م، ص٦٩، حاشية (٢)

(٥٣) ياقوت، المصدر السابق، حـ٢، ص٢٨٤.

(٥٤) نفسه، نفس المصدر، حـ٢، ص٢٨٦.

(٥٥) نفسه، نفس المصدر والصفحة.

(٥٦) نفسه، نفس المصدر، حـ٣، ص٤٣٦-٤٣٧.

(٥٧) نفسه، نفس المصدر والصفحة.

(٥٨) شيخو، جولة فى الدولة العلوية، ص٤٩١.

(٥٩) محمد عبدالله عنان، قلاع الصليبيين والمسلمين فى سوريا ولبنان، ص٥٥٠.

(٦٠) صبحى الصواف، الكتابات العربية فى قلعة حلب، مجلة عاديات حلب، معهد التراث العلمى العربى، جامعة حلب عام ١٩٧٥م، ص٢٨٢.

(٦١) ياقوت، المصدر السابق، حـ٣، ص٣٣٨؛ ابن سعيد المغربى، بسط الأرض فى الطول والعرض، ص٨٦؛ ابن الشحنة، الدر المنتخب فى تاريخ مملكة حلب، تحقيق سركيس، ط. بيروت ١٩٠٩م، ص٢٦٧؛ القلقشندى، صبح الأعشى، ح٤، ص١٤٥، الخالدى، المقصد الرفيع المنشا، ورقة (٩٥).

(٦٢) عبدالرحمن زكى، القلاع فى الحروب الصليبية، ص٥٦.

(٦٣) ابن شداد، المصدر السابق، ص٧٣؛ ابن الأثير، الكامل، حـ١٢، ص١٠؛ ابن واصل، مفرج الكروب، حـ٢، ص٢٦١؛ سعداوى، التاريخ الحربى المصرى فى عصر صلاح الدين، ص٢٠٨.

(٦٤) ابن واصل، المصدر السابق، حـ٢، ص٢٦١.

(٦٥) شنجو، المرجع السابق، ص٤٩١.

(٦٦) أحمد رمضان، المجتمع الإسلامى فى بلاد الشام، ص٣٢٥.

(٦٧) رنسيمان، تاريخ الحروب الصليبية، حـ٢، ص٧٦٠-٧٦١.

(٦٨) العماد الأصفهانى، الفتح القسى، ص٢٤٢-٢٤٣؛ ابن شداد، المصدر السابق، ص٩٠؛ ابن الأثير، المصدر السابق، حـ١٢، ص٤-٥؛ ابن العديم، زبدة الحلب، حـ٣، ص١٠٣؛ عاشور، الحركة الصليبية، حـ٢، ص٨٢٩-٨٣٠؛ حامد غنيم، الجبهة الإسلامية، حـ٢، ص١٢٥؛ زكى نقاش، العلاقات، ص٥٩.

Runciman, The Crusades, Vol. II, p. 470.

(٦٩) ياقوت، المصدر السابق، حـ٢، ص١٠١.

(٧٠) Fetellus, p. 41, note (2) .

(٧١) William of Tyre, Vol. II, p. 132.

رنسيمان، المرجع السابق، حـ٢، ص٣٦٩؛ السيد الباز العريني، الشرق الأوسط والحروب الصليبية، ط. القاهة ١٩٦٣م، ص٣٧٤؛ آدم سميث، الجغرافية التاريخية للأرض المقدسة، ط. بيروت ب-ت، ص١٩٢.

(٧٢) شيخ الربوة الدمشقي، نخبة الدهر، ص٢١؛ عاشور، الحركة الصليبية، حـ٢، ص٦٠١؛ حسن عبدالقادر، أسماء المواقع الجغرافية في الأردن وفلسطين، ط. عمان ١٩٧٣م، ص١٩؛ نبيلة مقامي، فرق الرهبان الفرسان في بلاد الشام في القرنين ١٢، ١٣م، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة القاهرة عام ١٩٧٤م، ص٨٢.

Le Strange, Palestine, p. 414.

(٧٣) Smail, Crusading Warefare, p. 211.

(٧٤) دائرة المعارف الإسلامية، مادة «بيت جبرين»، ص٤٩٧.

(٧٥) Prawer, The Latin Kingdom of Jerusalem, London 1973, p. 265.

Riley-Smith, History of The Order of St. John of Jerusalem, London 1967, p. 52; Smail, The Crusaders in Syria and The Holy Land, London 1974, p. 54.

سامي سلطان سعد، الاسبتارية في رودس، رسالة دكتوراه غير منشورة، كلية الآداب، جامعة القاهرة، عام ١٩٧٠م، ص٢٥.

(٧٦) ياقوت، المصدر السابق، حـ١، ص٧٧٦.

(٧٧) ابن ميسر، أخبار مصر R.H.C., Hist. Or., T. III, p. 472 .

(٧٨) أسامة بنمنقذ الاعتبار، تحقيق فيليب متي، ط. برنستون ١٩٣٠م، ص١٧.

(٧٩) ابن شداد، المصدر السابق، ص٨٠؛ ابن واصل، المصدر السابق، حـ٢، ص٢١٠؛ ابن العديم، المصدر السابق، حـ٣، ص٩٨.

Le Strange, Palestine, p. 414.

(٨٠) دائرة المعارف الإسلامية، مادة «بيت جرين»، ص٤٩٧؛ نبيلة مقامى، المرجع السابق، ص٨٢.

(٨١) ياقوت، المصدر السابق، حـ٤، ص١٠٩.

(٨٢) نفسه، نفس المصدر، حـ٥، ص١٠٨

(٨٣) فردنياند توتل، زيارة إلى قلعة المرقب، مجلة المشرق، م (٣٣)، حـ (٤)، عام ١٩٣٥م، ص٥٣٥.

(٨٤) ابن عبدالظاهر، تشريف الأيام والعصور بسيرة الملك المنصور، تحقيق مراد كامل، ط. القاهرة ١٩٦١م، ص٨٥.

(٨٥) أبو الفداء، تقويم البلدان، ص٢٥٥؛ ابن عبدالظاهر، المصدر السابق، ص٨٥؛ القلقشندى، المصدر السابق، حـ٤، ص١٤٥-١٤٦؛ ابن الشحنة، المصدر السابق، ص٢٦٧.

(٨٦) وقع هذا البرج في الطرف الجنوبى الغربى من سور دمشق وبناه الملك العادل نور الدين محمود عام ٥٦٤هـ/ ١١٦٨م، ويلاحظ أنه بنى بأحجار قديمة مستعملة؛ أخذت كما يعتقد من سور مدينة دمشق. عن ذلك أنظر : سليم عادل، مشاهد دمشق الأثرية، ط. دمشق ١٩٥٠م ص٤.

(٨٧) نبيلة مقامى، المرجع السابق، ص٨٧.

(٨٨) محمود الحويرى، الأوضاع الحضارية فى بلاد الشام، ص٢٢٣.

(٨٩) فردينياندتوتل، المرجع السابق، ص٥٣٢؛ يوسف سمارة، جولة فى الإقليم الشمالى، ص٧٣.

(٩٠) Rey, Les colonies Franques de Syrie aux XIIe et XIIIe siecles, Paris 1883, p.120.

إبراهيم المحمود، فن الحرب عند العرب، ط. بغداد، ب-ت، ص٣٦٣-٣٦٤.

(٩١) فرديناند توتل، المرجع السابق، ص٥٣٢.

(٩٢) ابن الأثير، المصدر السابق، حـ١٢، ص٤، ابن واصل، المصدر السابق، حـ٢، ص٢٥٧؛ عاشور، الحركة الصليبية، حـ٢، ص٨٢٨؛ الناصر صلاح الدين الأيوبى، ط. القاهرة ١٩٦٥م، ص٢١٠.

(٩٣) العماد الأصفهانى، الفتح القسى، ص١٠٢. أيضاً أنظر :

John poloner, Description of the Holy lant, Trans, by stewart, P.P.T.S., Vol. VI, London 1889, p. 34.

(٩٤) ابن واصل، المصدر السابق، حـ٣، ص١٦٥.

(٩٥) ابن عبدالظاهر، المصدر السابق، ص٨٦؛ ابن حبيب، تذكرة النبيه أيام المنصور وبنيه، تحقيق محمد أمين، ط. القاهرة ١٩٧٦م، ص٩٦؛ اليونيني البعلبكي، ذيل مرآة الزمان، حـ٢، ص٤٤٧-٤٤٨؛ ابن إياس، بدائع الزهور في وقائع الدهور، حـ١، ط. القاهرة، ١٨٩٤م، ص١١٦؛ محمد جمال الدين سرور، دولة بني قلاوون، ط. القاهرة، ١٩٤٧م، ص٢٣٨.

Siada, "The Mamluk Sultan to 1293", in Setton, A History of the Crusades, Vol. II, ponnsylvania, 1955, p. 752.

(٩٦) أبو الفرج القش، آثارنا في الإقليم السوري، ص٩٤.

(٩٧) ياقوت، المصدر السابق، حـ٢، ص٢٨٥.

(٩٨) وهي باب الأربعين، وباب اليهود، وباب النصر، وباب الجنان، وباب أنطاكية، وباب قنسرين، وباب العراق، وباب السر؛ المصدر السابق، حـ٢، ص٢٨٦.

(٩٩) ياقوت، المصدر السابق، حـ٢، ص٢٨٦.

(١٠٠) حسن الباشا، مدخل إلى الآثار الإسلامية، ط. القاهرة ب-ت، ص١٨١.

(١٠١) نفسه، نفس المرجع والصفحة.

(١٠٢) عبدالرحمن زكي، قلاع العالم العربي في العصر الوسيط، الدارة، العدد الأول، السنة (٢)، ربيع الأول ١٣٩٦هـ/ مارس ١٩٧٦م، ص٨٦.

(١٠٣) ابن الشحنة، الدر المنتخب، تحقيق كيلر أوهانا، ط. طوكيو ١٩٩٠م، ص٤٠.

(١٠٤) حسن الباشا، المرجع السابق، ص١٨١.

(١٠٥) ياقوت، المصدر السابق، حـ١، ص٣٠٠.

(١٠٦) نفسه، نفس المصدر، حـ٤، ص٤٧. وعن قلعة الطور أنظر :

ابن نظيف الحموي، التاريخ المنصوري، تلخيص الكشف والبيان في حوادث الزمان، ص٦٣؛ ابن واصل، مفرج الكروب، حـ٣، تحقيق جمال الدين الشيال، ط. القاهرة ١٩٦٠م، ص٢١٦؛ أبو شامة، الذيل على الروضتين، ص٧٠؛ محمود الحويري، العادل الأيوبي، صفحة من تاريخ الدولة الأيوبية، ط. القاهرة ١٩٨٠م، ص٨٤-٨٥؛ على عودة الغامدي، بلاد الشام قبيل الغزو المغولي (٥٨٩-٦٥٧هـ/ ١١٩٣-١٢٥٩م)، ط. مكة المكرمة ١٩٨٨م،

ص٢٢٧؛ محمود سعيد عمران، الحملة الصليبية الخامسة، ط. الاسكندرية ١٩٧٨م، ص١٠١.

Duggan, The Story of The Crusades, London 1961, p. 212.

(١٠٧) ياقوت، المصدر السابق، حـ١، ص٢٦٧.

(١٠٨) نفسه، نفس المصدر، حـ٥، ص١٦١.

(١٠٩) نفسه، نفس المصدر، حـ٤، ص٢٩٥.

(١١٠) نفسه، نفس المصدر، حـ٤، ص٢٩٥.

(١١١) نفسه، نفس المصدر، حـ١، ص٣٠٣.

(١١٢) نفسه، نفس المصدر والصفحة.

(١١٣) نفسه، نفس المصدر، حـ٤، ص٣٥٦.

(١١٤) نفسه، نفس المصدر، حـ٣، ص٢٤١. أنظر أيضاً : الفصل الأول، حاشية (٥٨).

(١١٥) ياقوت، المصدر السابق، حـ٣، ص٤٩٥، ٤٩٩، ٥٠٢، ٥١٧، ٥٣٨، ٥٤٣، ٥٢٥، ٥٢٦.

(١١٦) نفسه، نفس المصدر، حـ١، ص٥٠١، ٥٢٤، ٥٠٤، ٥٠٥، ٥٠٧.

(١١٧) نفسه، نفس المصدر، حـ٢، ص٥١٧.

ويلاحظ أن النابلسي يشير إلى دير آخر بنفس الإسم؛ أى دير سمعان؛ ويوجد فى نواحى طرابلس بلبنان، عنه أنظر :

النابلسي، التحفة النابلسية في الرحلة الطرابلسية، تحقيق هربرت بوسه، ط. بيروت ١٩٧١م، ص٢٧.

(١١٨) نفسه، نفس المصدر، حـ١، ص٥١٨.

(١١٩) نفسه، نفس المصدر، حـ١، ص٥٢٥.

(١٢٠) يوحنا المعمدان، هو أحد رجال الدين من يهودا، عاش فى خلال المرحلة التى سبقت ظهور السيد المسيح عليه السلام مباشرة، وكان والده يدعى زكريا، وهو كاهن يهودى، وأخذ يوحنا يقوم بدوره فى التبشير بالسيد المسيح، وقام بتعميده، ويرى البعض أن تعاليم يوحنا كان لها أثرها الهام على المعاصرين، وقد لقى مصرعه على يد هيرودس، ويلاحظ أن العهد الجديد، لاسيما انجيلى متى، ومرقص، يحتوى على إشارات هامة عن دوره التبشيرى، عنه أنظر :

متى، الإصحاح (١)، من ١ : ٦، الإصحاح (٣)، من ١٢ : ١٧؛ مرقص، الإصحاح (٦) من ١٤ : ٢٩، الإصحاح (٨)، من ٧ : ٩.

Hastings, Dictionary of The Bible, New York 1952, p. 509-510; Grant, Historical introduction to the new testament, New York 1963, pp. 309-312; Unger, Unger's Bible Dictionary, Chicago 1944, p. 599-600.

سامي سعد الأسعد، تاريخ فلسطين القديم، ط. بغداد ١٩٨٩م، ص٣٧١-٣٧٢.

(١٢١) ياقوت، المصدر السابق، حـ٢، ص٥٠٢.

(١٢٢) الشابشتي، المصدر السابق، ص١٣٢؛ العمري، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، حـ١، تحقيق أحمد زكي، ط. القاهرة ١٩٢٤م، ص٣٣٧.

ويلاحظ أن ذلك الدير، كان أحد ثلاثة أديرة موجودة فوق جبل الطور، وهي دير التجلي، ودير الياس، ودير موسى، وقد احتلت مكانة كبيرة في منطقة الجليل بشمال فلسطين وصارت هدفاً لزيارة الحجاج المسيحيين في العصور الوسطى. عن تلك الأديرة أنظر :

Daniel, p. 66-67; William of Tyre, Vol. II, p. 495.

ليلى طرشوبي، إقليم الجليل فترة الحروب الصليبية في القرن الثاني عشر الميلادي، رسالة دكتوراه غير منشورة، كلية الآداب، جامعة القاهرة عام ١٩٨٧م، ص١٩٧-٢٠٦.

(١٢٣) ياقوت، المصدر السابق، حـ٢، ص٥١٧.

(١٢٤) نفسه، نفس المصدر، حـ١، ص١٨.

(١٢٥) نفسه، نفس المصدر، حـ١، ص١٠٢.

(١٢٦) نفسه، نفس المصدر والصفحة.

(١٢٧) نفسه، نفس المصدر، حـ٤، ص٤٧٠.

(١٢٨) نفسه، نفس المصدر، حـ٢، ص١٠٤.

٣ - القزوينى

(ت ٦٧٢هـ/١٢٧٣م)

يتناول هذا الفصل بالدراسة؛ التعريف بالجغرافى القزوينى[١] (ت ٦٧٢هـ/ ١٢٧٣م)، وأهم ما تناوله فى مؤلفاته عن بلاد الشام خلال عصر الحروب الصليبية، ومن الواضح أن ذلك العلم الجغرافى قد أفاد فى إلقاء الضوء على أوضاع تلك البلاد من كافة الجوانب، الأمر الذى سيعنى هذا الفصل بتوضيحه.

والقزوينى هو زكريا بن محمد بن محمود القزوينى، ولد فى عام ٦٠٠هـ/ ١٢٠٣م فى بلدة قزوين الواقعة فى شمال إيران، وهو ينتمى إلى إحدى الأسرات العربية التى استقرت فى العراق العجمى منذ أمد بعيد[٢]، ويقال إن نسبه يصل إلى الإمام مالك[٣]، وقد تنقل القزوينى بين أنحاء متعددة من أقاليم المشرق الإسلامى، ونعلم أنه رحل إلى العراق من أجل أن يتتلمذ على أيدى كبار العلماء هناك، وقد تولى منصب القضاء فى مدينتى واسط، والحلة، فى العراق، ووصف بأنه كان حجة فى المجال القضائى، وقد ظل يشغل ذلك المنصب حتى مقدم المغول إلى عاصمة الخلافة العباسية بغداد، عام ٦٥٦هـ/ ١٢٦١م، ومن بعد ذلك ارتحل إلى بلاد الشام؛ حيث توفى فى مدينة دمشق عام ٦٨٢هـ/ ١٢٨٧م[٤].

ومن المنطقى تصور أن حياة القزوينى وتنقله بين العدد من أقاليم المشرق الإسلامى، ثم معاصرته لمرحلة تاريخية خطيرة متمثلة فى الغزو المغولى للمشرق الإسلامى، وعمله فى الجانب القضائى، كل ذلك أثقل تجربته الإنسانية، وعمق خبرته، على نحو انعكس

بالضرورة على معالجته، ووصفه، لما كتب عنه من أقاليم، ومناطق جغرافية متعددة ومنها بلاد الشام بطبيعة الحال.

وقد ألف القزوينى كتابين هامين فى المجال الجغرافى، حققا له ذيوعاً فى الصيت، ومكانة علمية رفيعة، وهما : آثار البلاد وأخبار العباد(٥)، وعجائب المخلوقات وغرائب الموجودات(٦)، والكتاب الأول، وهو الأكثر فائدة لنا فى دراستنا. نجد القزوينى فيه لا يعطى اهتمامه للمسالك فقط، بل إنه يهتم كذلك بأوضاع المناطق التى يتناولها، وكذلك عناصر السكان(٧)، أما كتابه الثانى، فيندرج تحت الجغرافيا الفلكية، والرياضية، أو ما يطلق عليه فى الوقت الحالى تعبير الكوزموجرافى Cosmography، أى وصف الكون(٨).

ومن الضرورة بمكان معرفة المصادر التى استقى منه القزوينى مادته الجغرافية عن بلاد الشام فى عصر الحروب الصليبية، والواقع أنه أفاد من ترحاله ومشاهداته الشخصية فى ربوع بلاد الشام، كما أنه أفاد من كتابات بعض الجغرافيين والرحالة المسلمين مثل السائح الهروى(٩) (ت ٦١١هـ/ ١٢١٥م) وكذلك ياقوت الحموى(١٠) (ت ٦٢٦هـ/ ١٢٢٨م)، ولا نزاع فى أن مؤلفاتهما، كانت متوافرة لدى القزوينى عندما تصدى بالتأليف لكتابيه السابقين، على نحو دعم رؤيته الجغرافية لتلك البلاد.

ولا نزاع، فى أن الوضع السابق يعكس حقيقة جلية ألا وهى أن الجغرافيين المسلمين بنيت معارفهم من خلال جهود زملائهم السابقين، وأضافوا من بعد ذلك إليها تصوراتهم الشخصية، وهى ظاهرة ندركها بوضوح طوال مرحلة العصور الوسطى، على نحو أفاد الباحثين المحدثين فى تتبع تطور الفكر الجغرافى لدى المسلمين فى تلك العصور ذات الثراء العلمى الإسلامى الواضح.

وجدير بالذكر، أن القزوينى تعرض للعديد من الجوانب ضمن تناوله لبلاد الشام. فمن ذلك ذكره للساحل الشامي بمدنه المتعددة ومظاهر أوضاعها الحضارية، كذلك تعرض للخريطة العقائدية لبلاد الشام، سواء بالنسبة للمسلمين، أو أهل الذمة مثل اليهود. ثم أنه تصدى للحديث عن المزارات الدينية هناك لاتباع الأديان السماوية الثلاثة : اليهودية، والمسيحية، والإسلام، ثم أنه تعرض لمناطق الاستشفاء، أو السياحة العلاجية. وبالإضافة إلى ذلك تناول الجانب الاقتصادى، من ذلك تعرضه مصادر الثروة المائية المتعددة فى بلاد الشام، وكذلك النشاط الاقتصادى لاسيما التجارى، وأوضاع الأسواق والعملة النقدية، وزيادة على كافة الجوانب السابقة، نجده يتعرض للحياة الاجتماعية فى بعض المدن الشامية.

ويلاحظ أن القزوينى فى رؤيته لبلاد الشام، يعطى اهتماماً خاصاً لمدن الساحل الشامى، ذات الأهمية الاقتصادية التجارية الفائقة، وهو فى ذلك يشترك فى نفس التوجه لدى غيره من الجغرافيين المسلمين ورحالتهم، وكذلك الأوروبيين الذين وفدوا على المنطقة فى عصر الحروب الصليبية، ونجده – على سبيل المثال – يذكر مدينة عكا ويقرر أنها مدينة تقع على ساحل بحر الشام(١١)، ويصفها بأنها فى أيامه أحسن بلاد الساحل وأعمرها(١٢)، ومن الواضح أن تلك المدينة البالغة الأهمية، والتى تصارع من أجل السيطرة عليها المسلمون، ونجد ذلك بصورة جلية خلال أحداث الحملة الصليبية الثالثة ومن الواضح أن مدينة عكا ازدادت فى نشاطها التجارى ومن ثم توسع عمرانها على عصر القزوينى بصورة كبيرة، وعلى نحو جعله يصفها بمثل ذلك الوصف الذى يستشعر من خلاله انعدام منافسة أية مدينة على الساحل الشامى لعكا، فى تميزها الاقتصادى لاسيما التجارى، وكذلك فى توسعها العمرانى، وبالتالى اختلفت رؤيته لها عن رؤية ياقوت الحموى الذى لم يصورها أحسن مدن الساحل بل من أحسنها.

ومن جهة أخرى؛ ومن خلال إدراك ذلك الجغرافى لأهميتها نجده يورد لنا نبذة موجزة عن تاريخها، تدعيماً لأهميتها، ولدورها التجارى، وحتى يمزج بين الرؤية الجغرافية، والرؤية التاريخية، وقد قرر استيلاء الصليبيين عليها عام ٤٩٧هـ/ ١١٠٣م[١٣]. واستمرار سيطرتهم عليها إلى أن انتزعها المسلمون مرة أخرى فى عام ٥٨٣هـ/ ١١٨٧م[١٤]، فى أعقاب انتصارهم فى معركة حطين، فى نفس العام[١٥]. وهو فى ذلك يتفق مع منهج ياقوت الحموى بين الجغرافيا والتاريخ.

وإضافة إلى ذلك، نجد القزوينى يعطى أهمية لمدينة ساحلية أخرى من مدن الساحل الشامى، ونعنى بها عسقلان Ascalon، وقد أشار إلى أهميتها، وذكر ظروف استيلاء الصليبيين عليها، وذلك فى عام ٥٤٨هـ/ ١١٥٣م، واستمرار سيادتهم عليها، حتى تم استردادها لصالح المسلمين فى عام ٥٨٣هـ/ ١١٨٧م[١٦] فى أعقاب المعركة المظفرة السابقة.

ومن المعروف أن عسقلان سقطت فى عهد الملك الصليبى بلدوين الثالث Baldwin III (١١٤٣-١١٦٣م) بعد حصار طويل، وذلك فى عام ١١٥٣م/ ٥٤٨هـ[١٧]، وبسقوطها سقطت آخر المعاقل الفاطمية فى فلسطين[١٨]، واكتملت السيادة الصليبية على الساحل الشمالى[١٩] الذى امتد من سان سيمون St. Simeon (السويدية) ميناء أنطاكية Antioch فى الشمال، حتى غزة Gaza فى الجنوب بامتداد أربعمائة ميلاً.

وقد أشار القزوينى إلى مرحلة هامة من مراحل تاريخ عسقلان عندما اضطر السلطان الناصر صلاح الدين الأيوبى إلى تدميرها وتخريبها وذلك فى عام ٥٨٧هـ/ ١١٩١م[٢٠]، وذلك فى ظروف أحداث الحملة الصليبية الثالثة، ويلاحظ أن أمر تخريبها قد نص عليه صلح الرملة الذى وقع بين السلطان الأيوبى والملك الإنجليزى ريتشارد الأول Richard I (١١٨٩-١١٩٩م/ ٥٨٥-٥٩٥هـ).

كذلك نجده يتعرض لإحدى المدن الساحلية اللبنانية الهامة، ونعنى بها مدينة صور Tyre، وقد قرر أنها مدينة ذائعة الصيت، على طرف بحر الشام[٢١]، وأوضح أمر استدارة حائطها على مينائها «استدارة عجيبة»[٢٢]، ومن الواضح أن حصانة تلك المدينة قد استرعت انتباه القزوينى، ومن المحتمل أن يكون وصفه لها دليلاً على أنه رآها بالفعل، بيد أن تأكيد ذلك ليس فى الاستطاعة لعدم إفصاح النص الذى قدمه فى هذا الشأن.

وتجدر الإشارة إلى أن حصانة مدينة صور، قد جعلت العديد من الرحالة المسلمين والأوروبيين يتناولونها بالذكر، حتى صار أمراً تقليدياً عندما ترد تلك المدينة فى نصوص الجغرافيين والرحالة التى وصلت إلينا من عصر الحروب الصليبية أن نجد ذكر حصانتها التى أدخلتها إلى تاريخ الحروب الصليبية بجدارة لاسيما فى أعقاب معركة حطين ولجوء فلول الصليبيين إليها ثم تعاقب أحداث الحملة الصليبية المذكورة. ويلاحظ أن وصف القزوينى لها يعد موجزاً، ومختصراً، إذا ما قورن بوصف أحد الرحالة المسلمين الذين وفدوا على بلاد الشام خلال القرن السادس الهجرى/ الثانى عشر الميلادى ونعنى به ابن جبير وهو ما ستتناوله فى الفصل المخصص له من هذه الدراسة.

كما أنه يتناول بالإشارة مدينة ساحلية هامة أخرى وهى اللاذقية Ladacia، التى ذكر أنها مدينة من سواحل بحر الشام، وذكر أنها «عتيقة»[٢٣] وتفيد الإشارة الأخيرة فى مزج القزوينى الماهر بين الرؤيتين الجغرافية والتاريخية، وحرصه على إيراد صفة القدم على بعض المدن دون الأخرى، على نحو عكس رؤيته الخاصة فى هذا المجال، وإن لم يضف ما يدعم تلك الزاوية التى أشار إليها.

وقد قرر أن الصليبيين استولوا عليها، فيما ملكوه من بلاد الساحل فى حدود عام ٥٠٠هـ/ ١١٠٦م، وأن المسلمين استردوها فى عام ٥٨٤هـ/ ١١٨٨م[٢٤]، فى عهد السلطان الناصر صلاح الدين الأيوبى.

ومن الملاحظ فى عرض القزوينى للساحل الشامى، أنه لم يورد كافة المدن الموجودة به، وإنما أورد نماذج محددة معينة، عكست اهتمامه بالدور الاقتصادى التجارى الذى لعبته تلك المنطقة الحيوية، والهامة من بلاد الشام.وهو فى هذا المجال يتشابه مع ما أورده الرحالة المسلمون والأوروبيون سواء المسيحيين أو اليهود، وإن اتسمت إشاراته فى ذلك المجال بطابع يميل نحو الاختصار إلى حد ما، دون أن يقدم لنا التفاصيل الضافية التى يتوق إليها الباحثون.

ومن جهة أخرى، نجد أن القزوينى، اهتم بأن يقدم لنا جانباً من الخريطة العقائدية التى كانت عليها بلاد الشام، فهو يحرص على إيراد توزيعات العناصر السنية، وكذلك الشيعية، وأيضاً أماكن وجود اليهود فى مناطق معينة فى بلاد الشام، فعلى سبيل المثال؛ أورد لنا أن مدينة حلب – حاضرة شمال الشام الهامة – «أهلها سنية وشيعية»[٢٥]، أما فى حمص فقد لاحظ وجود العناصر النصيرية فيها[٢٦]، وقد قرر أنه من الأمور التى تثير العجب أنهم كانوا من أكثر الناس شدة على الإمام على كرم الله وجهه، ولكن فيما بعد صاروا من غلاة الشيعة[٢٧]. ووصل بهم الأمر، أن صاروا أكثرية فى حمص[٢٨] كما يقرر نفس الجغرافى.

ويستمر القزوينى فى عرضه للخريطة العقائدية لبلاد الشام؛ فيقرر أن جبل السماق، وهو من أعمال حلب، يشتمل على مدن وقرى أغلبها للعناصر الاسماعيلية[٢٩]. وهو أمر أورده من قبل ياقوت الحموى، ومن الواضح أن ذلك الجبل عد منطقة تركز تقليدى لهم.

وتجدر الإشارة إلى أن الوجود الاسماعيلى النزارى فى بلاد الشام فى عصر القزوينى، قد خفت حدته، ولم يحتفظ الاسماعيلية حينذاك بنفس قوتهم فى عمليات الاغتيال التى روعوا بها الأهلين، لاسيما عمليات الاغتيال التى قاموا بها ضد قادة حركة الجهاد الإسلامى مثل اغتيال شرف الدين مودود عام ٥٠٥هـ/ ١١١١م[٣٠]،

وكذلك سنقر البرسقى عام ٥٥١هـ/ ١١٢٦م[٣١]، واغتيال بعض أمراء الشام مثل جناح الدولة حسين صاحب حمص، عام ٤٩٧هـ/ ١١٠٣م[٣٢]، وخلف بن ملاعب صاحب أفاميه، عام ٤٩٩هـ/ ١١٠٥م[٣٣]، وكذلك محاولتين لاغتيال صلاح الدين الأيوبى، وقد أقر القزوينى نفسه بأنهم «قتلوا جمعًا من العظماء على يد الفداوية»[٣٤].

وقد أورد القزوينى إشارات تفيد بأنه فى عهد الملك العادل نور الدين محمود، أنكر وجود ملك الإسماعيلية، فى مناطق وسط بلاده، فجاءه من أجل محاربته، ولما نزل عليه فى الليلة الأولى أصبح فوجد رسالة تهديد وسكينًا عند رأسه[٣٥]، والمرجع أن هذه الرواية لا أساس لها من الواقع التاريخى، ويبدو أنها من نسج الخيال الشعبى، ويظهر أن القزوينى قد أدرك ذلك إذ جعل الرواية على اعتبار أنه «حكى»، ويدعم تصورى هذا، أن المصادر التاريخية المعاصرة لنور الدين محمود؛ لا تشير البتة إلى محاولته الاستيلاء على مناطق الاسماعيلية النزارية، خاصة أنه جعل همه الأكبر مواجهة القوى الصليبية ممثلة فى إمارة أنطاكية وكذلك إمارة طرابلس، ومملكة بيت المقدس الصليبية، وأمام صمت المصادر المعاصرة عن تلك الحادثة نتصور أنها واهية دونما دعم مصدرى.

أما بالنسبة للوجود اليهودى فى المدن الشامية، نجد أن القزوينى قد أشار إلى وجود اليهود فى مدينة نابلس، وقرر أن بها اجتماع السامرة[٣٦]، وأوضح أن اليهود يرون فيهم أنهم مبتدعون أحيانًا[٣٧]، وأحيانًا أخرى نجد من العناصر اليهودية من يرى أنهم خارجون عن العقيدة اليهودية[٣٨]، مع ملاحظة أنه غض الطرف عن وجود اليهود فى المدن الإسلامية الشامية، مثل دمشق، وحلب وغيرها. الأمر الذى جعل روايته محدودة الأهمية فى هذا الشأن.

فإذا نحينا ذلك جانبًا، وتوجهنا إلى زاوية أخرى من الزوايا التى تعرض لها القزوينى فى بلاد الشام، نجد أنه حرص على إيراد أمر المزارات الدينية التى تعددت فى أنحاء متفرقة

سواء فى مناطق المسلمين أو الصليبيين، وفى تقديرى أن إطلاع القزوينى على ما ألفه الهروى عن الزيارات ربما جعله يعنى بإيراد تلك المواضع، وهى توضح أن منها ما كان لليهود. ثم هناك مزارات للمسيحيين، كما توافرت مواضع زيارة من جانب المسلمين، وكذلك مزارات مشتركة اشترك فيها أصحاب الديانات الثلاث، اليهودية، والمسيحية، والإسلام.

فبالنسبة لليهود، نجد أنه أورد وجود عين تحت كهف فى نابلس عظمته عناصر السامرة، وبالمنطقة بيت عبادة خاص بالسامرة(٣٩)، أما العناصر المسيحية، فنجد أنه أورد أمر كنيسة القيامة فى بيت المقدس، وأشار إلى أنها كنيسة عظيمة لدى المسيحيين(٤٠). كما ذكر أمر عين سلوان التى يتم التبرك بها(٤١)، وفى بيت لحم يوجد ماء يقال له المعمودية وهو «عظيم القدر» عندهم(٤٢)، أما بالنسبة للمزارات الخاصة بالمسلمين، فقد ذكر وجود مشاهد رأس الحسين عليه السلام فى عسقلان، ويقدم إليه الناس من كافة الأنحاء(٤٣)، أما مسجد حبيب النجار فإنه فى أنطاكية وفيه قبره، ويزوره الناس(٤٤)، أما أنطرطوس، ففيها مصحف عثمان بن عفان، وقد أشار إلى أن الناس يذهبون إليه تبركاً به(٤٥).

وإلى جانب تلك المزارات السابقة الخاصة بأصحاب كل دين من الأديان السماوية الثلاثة سواء اليهود، أو المسيحيين، أو المسلمين، أشار القزوينى إلى وجود مزار قرب عكا يعرف بعين البقر، يقدم إليه أصحاب الأديان الثلاثة(٤٦). وقد ذكر أيضاً وجود مشهد على العين منسوب إلى الإمام على بن أبى طالب(٤٧). ومن المتوقع أن العناصر المسلمة فقط هى التى توجهت إلى المشهد الأخير وخاصة الشيعة منهم.

وهكذا، فإن القزوينى، يورد عدداً وافراً من المزارات الدينية المتناثرة فى ربوع بلاد الشام، وهنا نجده يختلف عن ياقوت الحموى الذى أورد عدداً منها فى كتابه معجم البلدان، فعلى حين نجد أن ياقوتا يقرر صراحة أن بعض مواضع الزيارات غير صحيحة، أو

أن أصحابها دفنوا فى أماكن أخرى(٤٨)، إلا أن القزوينى يؤثر السلامة، ولا يشير إلى ذلك البتة، وهذا يعكس لنا ناحية هامة، ألا وهى، أن الجغرافيين المسلمين اختلفوا فى معالجة أمر تلك المزارات الدينية، وأن منهم من عارضها فى شجاعة نادرة، والبعض الآخر آثر السلامة، ولم يشأ أن يعارض عقائد العامة، والحس الشعبى العام فى ذلك العصر الذى تزايدت فيه ظاهرة المزارات والاعتقاد بأصحابها، والتبرك بأضرحتهم، وكل ذلك يمكن رصده من خلال تعاظم ظاهرة التصوف التى تسيدت ذلك العصر.

وإلى جانب المزارات الدينية السابقة، أوضح القزوينى وجود مزارات بغرض الاستشفاء، مثل تلك العيون الموجودة فى منطقة طبرية، وخاصة موضع يقال له «الحسنية»(٤٩) حيث يأتى إليه المرضى من أجل العلاج، ويلاحظ أن الإدريسى قد أشار من قبل إلى تلك الظاهرة العلاجية الهامة فى نفس تلك المنطقة، وكان من أوائل الجغرافيين المسلمين الذين وفدوا على بلاد الشام وأشار إلى ذلك فى خلال القرن السادس الهجرى/ الثانى عشر ميلادى، ويلاحظ أن القزوينى - على ما يبدو - كان شديد الإعجاب بذلك الموضع العلاجى الذى سمى بالحسنية، حتى أنه عده من «عجائب الدنيا»(٥٠) الآمر الذى يعكس الفعالية العلاجية لتلك المنطقة، ويبدو أنه عبر بذلك عن اعتقادات المعاصرين أنفسهم فى هذا الشأن.

ومن جهة أخرى، احتوت إشارات القزوينى على رؤية اقتصادية هامة لبلاد الشام فى ذلك العصر، وتتمثل رؤيته فى هذا الشأن فى حرصه على تناول مصادر الثروة المائية التى هى عصب النشاط الاقتصادى والعمرانى، ثم تعرضه للأسواق التجارية وكذلك العملة النقدية المتداولة حينذاك.

وفى مجال الثروة المائية، والتى شهدت فى عصر الحروب الصليبية تنافساً، وتصارعاً عنيفاً بين المسلمين، والصليبيين، من أجل تدعيم السيادة الاقتصادية، والسياسية بالتالى، نجد أن القزوينى يورد أن غوطة دمشق تمتد فيها عدة أنهر(٥١)، الأمر الذى وفر لتلك

المنطقة ثراء زراعياً مشهوداً، أما بيت المقدس فإنها تعتمد على مياه الأمطار، ولذا فكل بيت فيها يملك صهريجاً من أجل تخزين المياه[٥٢]، كما ذكر أن بها ثلاث برك، وهي بركة بني إسرائيل، وبركة سليمان، ثم بركة عياض[٥٣]، وفي فيج أشار إلى أن أهلها يشربون من قنى تسبح على وجه الأرض[٥٤]، وفي كفر طاب لاحظ أنها في برية معطشة، وأن المياه نادرة بها، ولذا يشرب أهلها من مياه الأمطار[٥٥].

ويدل عرضه السابق على تنوع مصادر المياه بالنسبة لأهل الشام من أنهار وأمطار وعيون ثم استعمال وسائل تخزين المياه خاصة الصهاريج، كما أن ما أورده يعكس أن بلاد الشام كانت تعاني في بعض الأحيان من مشكلة نقص المياه خاصة في المناطق التي لم تتوافر بها الأنهار.

أما الأسواق، فنجد أنه يحرص على إيراد بعض أسواق المدن التجارية الشامية، والتي ازدهرت فيه العديد من الصناعات، والسلع التجارية، ومن أمثلة ذلك؛ ذكره لأسواق مدينة حلب بشمال الشام، وقد أعجب القزويني بسوق الزجاج بها[٥٦]، ورأى أن المرء إذا اجتاز بها لا يريد أن يغادر ذلك السوق وذلك لكثرة ما يشاهده من مصنوعات متقنة[٥٧]. وأشار إلى أن تلك المصنوعات الزجاجية الحلبية يتم تصديرها إلى مختلف البلاد[٥٨]. على نحو عكس تفوقها بحيث صارت سلعة تجارية تدخل في نطاق التصدير للدول الأخرى.

ومن المعروف أن صناعة المنتجات الزجاجية قد ازدهرت في عصر الحروب الصليبية في العديد من المدن الشامية، ومن المدن الأخرى التي يمكن أن تذكر في هذا المجال صور[٥٩]، وعكا[٦٠]، حيث أشار المؤرخون الصليبيون المعاصرون مثل وليم الصوري، وكذلك ما ألفه الرحالة الأوروبيون؛ الذين زاروا بلاد الشام في ذلك العصر لاسيما اليهود مثل بنيامين التطيلي الذى أشار إلى تفوق مثل تلك المدن في الصناعات الزجاجية[٦١].

كما أن القزوينى أعجب بأحد أسواق حلب الطريقة ونعنى بها سوق المزوقين، وقد وصفها بأن فيها «آلات عجيبة ومزوقة»(٦٢)، ويبدو أن هذين السوقين كانا أكثر الأسواق التى لفتت انتباه ذلك الجغرافى على الرغم من أن منها ما كان من الكماليات، مع عدم إغفال أسواق هامة أخرى للعديد من السلع التجارية لم يشر إليها القزوينى، وإذا كان هذا هو حال مدينة حلب فى شمال الشام، فإن مدينة دمشق كانت أكثر ثراء وازدهاراً على المستوى الحرفى والتجارى. وهذا يتضح لنا بجلاء من خلال كتابات المؤرخين السابقين على عصر القزوينى الذين قدموا لنا وصفاً طوبوغرافياً للمدينة المذكورة اشتمل على أسواقها المتعددة.

ومن جهة أخرى، نجد أن القزوينى اهتم بإيراد أمر العملة المتداولة فى عصره فى بلاد الشام، وفى هذا المجال أشار إلى الدنانير الصورية التى سكت فى مدينة صور الساحلية، وذكر أن تلك الدنانير يتعامل عليها أهل الشام، والعراق(٦٣).

وتجدر الإشارة إلى أن الدنانير الصورية كانت من أكثر أنواع العملات النقدية التى اتسع نطاق التعامل النقدى بها فى عصر الحروب الصليبية وهى عبارة عن عملة ذهبية عليها نقوش عربية وآيات قرآنية(٦٤).

فإذا غادرنا تلك الناحية الاقتصادية ضمن إشارات القزوينى عن بلاد الشام، وجدنا أنه قدم لنا رؤية طريفة، لبعض مظاهر الحياة الاجتماعية فى مدن الشام الكبرى مثل دمشق وحلب، وهى التى يمكن وصفها بأنها من وسائل التسلية وإدخال المرح على النفوس، وفى هذا المجال نجده يقرر أن أهل دمشق يجعلون من كل يوم سبت أمر الاشتغال باللهو، واللعب، يستوى فى ذلك الرجال، والنساء، والأطفال، حيث يلتقون بأصدقائهم، ويخرجون إلى البساتين، ويتجه القوم إلى الميدان الأخضر؛ الذى تحيطه مظاهر الخضرة وكذلك المياه الجارية(٦٥).

وقد أوضح أن فى ذلك اليوم يوجد المغنون، والساخرة، والمصارعون(٦٦)، الذين يؤدون ألعابهم، وأدوارهم التمثيلية من أجل إدخال البهجة على نفوس الأهلين، على نحو عكس أن ذلك المجتمع، لم يعدم وسائل التسلية على الرغم من جو الحرب الذى عاشه بصفة عامة.

أما إذا توجهنا إلى مدينة حلب، فنجد أنهم يحددون مناسبة مثل تلك السابقة لدى أهل دمشق، ونعنى بها أول الربيع وتسمى الشلاق، حيث يخرجون إلى ظاهر المدينة وقد انقسموا إلى فرقتين متقاتلتين متصارعتين(٦٧).

ويعنى هذا كله، أن المجتمع الإسلامى فى بلاد الشام لم يعدم وجود العديد من وسائل التسلية(٦٨)، والترويح عن النفس، وأن الصراع بين المسلمين والصليبيين، لم يحل دون توافر مثل تلك الوسائل التى عكست انتعاش الحياة الاجتماعية فى المدن الإسلامية الشامية، وقيمة ما أورده القزوينى فى ذلك المجال أن المصادر المعاصرة نادراً ما تشير إلى تلك الزوايا الاجتماعية.

وهكذا، احتوت مؤلفات القزوينى على جوانب هامة عن بلاد الشام فى عصر الحروب الصليبية، وتناول المنطقة الساحلية الهامة على المستوى الاقتصادى لاسيما التجارى، وكذلك الخريطة العقائدية لبلاد الشام، سواء العناصر السنية أو الشيعية وكذلك اليهودية، ثم تناوله للمزارات الدينية لمعتنقى الأديان السماوية الثلاثة بالإضافة إلى إشاراته الاقتصادية والاجتماعية.

الهوامش

(١) عن القزويني أنظر :

ابن القوطي، الحوادث الجامعة والتجارب النافعة في المائة السابعة، تحقيق مصطفى جواد، ط. بغداد ١٣٥١هـ، ص١٢٨-١٣٠؛ تلخيص مجمع الآداب في معجم الألقاب، حـ٤/ق٢، تحقيق مصطفى جودة، ط. دمشق ١٩٦٧م، ص٧٢٥-٧٢٦؛ على عبدالله الدفاع، علوم الكون في الإسلام : القزويني، الدارة، العدد (٣)، السنة (٧)، ربيع الثاني ١٤٠٢هـ/ فبراير ١٩٨٢م، ص٢٢٧؛ محمد محمود محمدين، شمولية الفكر الجغرافي في كتب التراث، الدارة، العدد (٤)، السنة (٩)، رجب ١٤٠٤هـ/ أبريل ١٩٨٤م، ص١٧٣؛ أحمد عيسى، تاريخ النباتات عند العرب، ط. القاهرة ١٩٤٤م، ص١١٥؛ محمد مفيد آل ياسين، الحياة الفكرية في العراق في القرن السابع الهجري، ط. بغداد، ١٩٧٩م، ص٣١٦-٣١٧؛ عبدالرحمن حميدة، أعلام الجغرافيين العرب، ص٤٠٤-٤٠٥؛ زغلول النجار والدفاع، إسهام علماء المسلمين الأوائل في علم الأرض، ص٤٠٧؛ شوقي ضيف، الرحلات، ص٢١؛ محمد أحمد العقيلي، جهود الجغرافيين المسلمين في رسم الخرائط، الدارة، العدد (٢)، السنة (٥)، المحرم ١٤٠٠هـ/ ديسمبر ١٩٧٩م، ص١٦٩؛ عمر فروخ، تاريخ الفكر العربي إلى أيام ابن خلدون، ط. بيروت ١٩٧٢م، ص٥٥٩؛ أحمد رمضان، الرحلة والرحالة المسلمون، ص٢٩٧؛ صلاح الشامي، الإسلام والفكر الجغرافي العربي، ص١٣٠؛ محمد أمين فرشوخ، موسوعة عباقرة الاسلام في العلم والفكر والأدب والقيادة، ط. بيروت ١٩٩٢م، ص٥٥؛ الفاضل العبيد عمر، الطب الإسلامي عبر القرون، ط. الرياض ١٩٨٩م. ص٣٩٢.

Ruhricht, Chronologisches, p. 60.

(٢) عبدالرحمن حميدة، المرجع السابق، ص٤٠٤.

(٣) عبدالحليم منتصر، تاريخ العلم ودور العلماء العرب في تقدمه، ط. القاهرة ١٩٧٣م، ص٢٤٧.
محمد محمود محمدين، الجغرافيا والجغرافيون بين الزمان والمكان، ص١٦٦.

(٤) على عبدالله الدفاع، رواد علم الجغرافيا، ص١١٥؛ محمد محمود محمدين، المرجع السابق، ص١٦٦.

(٥) حقق المستشرق وستنفيلد Wustenfield كتاب آثار البلاد وأخبار العباد، وصدر عمله فى توبنجن عام ١٨٤٨م، وعنوان عمله هو :

Wustenfield, Zakarija Ben Muhammed Ben Mahmud El-Cazwini's Kosmographie Zweiter Theil Die der Lander, hrsg- Von F. Wustenfield, Gottingen 1848.

وهناك طبعة أخرى من آثار البلاد وأخبار العباد، صدرت فى بيروت بدون تاريخ، وهى التى اعتمدت عليها فى إعداد هذا الفصل.

(٦) حقق المستشرق وستنفيلد كتاب عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات، وصدر عمله فى توبنجن عام ١٨٤٩م، وعنوان عمله هو :

Wustenfield, Zakarija Ben Muhammed el. Cazwinis die kosmographie erster Theil Wunder der Schopfunghrsg. Von. F. Wustenfield, Gottingen 1849.

والجدير بالذكر هنا، أن الطبعة الثانية للكتاب المذكور قد صدرت فى القاهرة فى عام ١٨٩٢م، ثم صدرت عدة طبعات تجارية أخرى بهامش كتاب حياة الحيوان الكبرى للدميرى، كما نشرت ترجمة له إلى الفارسية فى لكناو عام ١٨٠٥م، ثم صدرت له ترجمة تركية، كما يلاحظ أن للكتاب المذكور ملخصاً قام به الباكونى (ت ٨٠٦هـ/ ١٤٠٤م) تحت عنوان الآثار من عجائب المخلوقات. عن ذلك أنظر : مصطفى النجار والدفاع، المرجع السابق، ص٤١١.

ومن المهم أن نلاحظ أن التأليف فى مجال العجائب خاصة فى الزاوية الجغرافية، يمثل توجهاً وجد من قبل القزوينى واستمر من بعده، من ذلك أننا نعرف أن محمد على بن حسين المسعودى (ت ٣٤٦هـ/ ٩٩١م) قد ألف كتاباً بعنوان عجائب الدنيا، كما أن أبا جعفر أحمد بن إبراهيم (ت ٤٠٠هـ/ ١٠٤٥م) قد ألف كتاب عجائب البلدان، أضف إلى ذلك وجود كتاب بعنوان عجائب المخلوقات، وهو فارسى، لمحمد بن محمود بن أحمد الطوسى، السلمانى، وقد ألفه عام ٥٥٥هـ/ ١١٦٠م، ثم كتاب عجائب المخلوقات، وهو تركى، لمؤلف اسمه أحمد المعروف بييجان، وقد ألفه ببلدة كليبولى فى عام ٨٥٧هـ/ ١٤٥٨م، وأخيراً، هناك كتاب عجائب البحر للمولى علمشاه عبدالرحمن بن صاجلى أمير (ت ٩٨٧هـ/ ١٥٨٨م)، ومن قبل ألف فى ذات العنوان على بن عيسى الحرانى كتاباً للخليفة المقتدر. عن ذلك أنظر :

حاجى خليفة، كشف الظنون، جـ٢/ ق١، ص١١٢٦-١١٢٧.

وعلى الرغم من اشتهار القزوينى بتأليف كتابيه، آثار البلاد وأخبار العباد، وكذلك عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات، إلا أن حاجى خليفة يشير فى كتابه إلى أن القزوينى قد ألف كتاب عجائب البلدان، وقد أشار إلى أنه جعل أوله «العز لك، والجلال لكبريائك»، وبالبحث اتضح أن

هذه هي بداية كتاب آثار البلاد وأخبار العباد، مما يدعوني إلى الاعتقاد بأن حاجي خليفة تصور أن كتاب القزويني عجائب البلدان كتاب ثالث، بينما في الواقع أن القزويني لم يؤلف كتاباً – على الأرجح – بذلك العنوان لتطابق بدايته مع ما أورده في مقدمة آثار البلاد. عن إشارة حاجي خليفة أنظر :

كشف الظنون، حـ٢/ ق١، ص١١٢٦.

وقد أشار صالح دياب هندي، إلى أن من مؤلفات القزويني كتاب صفة الأرض، بيد أن ذلك لم يرد في المؤلفات المتخصصة في مجال الرحالة والجغرافيين المسلمين في العصور الوسطى، أنظر ما ذكره :

صالح دياب هندي، دراسات في الثقافة الاسلامية، ط. عمان ١٩٨٢م، ص٢٣٠.

(٧) شوقي ضيف، المرجع السابق، ص٢١.

(٨) حسين مؤنس، مكان المسلمين في التاريخ العام لعلم الجغرافية، ص٢٣٤.

(٩) القزويني، آثار البلاد وأخبار العباد، ط. بيروت ب–ت، ص١٤١، وهذا نجده من خلال وصفه لطبرية.

(١٠) نفسه، نفس المصدر، ص٤٠٨، وهو ما نجده من خلال وصفه لطرابلس الشام.

(١١) نفسه، نفس المصدر، ص٢٢٣.

(١٢) نفسه، نفس المصدر والصفحة.

(١٣) نفسه، نفس المصدر، ص٢٢٤.

(١٤) نفسه، نفس المصدر والصفحة.

(١٥) عن ذلك أنظر : الفصل الرابع، حاشية (١٢).

(١٦) القزويني، المصدر السابق، ص٢٢٥.

(١٧) عن ذلك أنظر : الفصل الأول،حاشية (٣٨).

(١٨) محمد مؤنس أحمد عوض، التنظيمات الدينية، ص٤٨٠؛ حسين مؤنس، نور الدين محمود، ص٢٥٧.

Stevenson, The Crusaders, p. 172.

(١٩) عاشور، الحركة الصليبية، حـ٢، ص٦٦٥.

Northop, The Knights Templars, p. 45.

(٢٠) القزوينى، المصدر السابق، ص٢٢١.

(٢١) نفسه، نفس المصدر، ص٢١٧.

(٢٢) نفسه، نفس المصدر والصفحة.

(٢٣) نفسه، نفس المصدر، ص٢٥٨.

(٢٤) نفسه، نفس المصدر، ص٢٥٩.

(٢٥) نفسه، نفس المصدر، ص١٨٣.

(٢٦) نفسه، نفس المصدر، ص١٨٥.

والنصيرية، فرقة شيعية متطرفة نسبت إلى نصير مولى الإمام على بن أبى طالب، رضى الله تعالى عنه، وقد زعموا أن الله تبارك وتعالى حل فى الإمام. ويعتقدون أن الشمس وقفت له كما وقفت ليوشع بن نون من قبل، وتصوروا فكرة الفيض الإلهى الذى حل فى شكل سلم متدرج من الناس على رأسهم كان الإمام على. عن عقائد النصيرية أنظر بالتفصيل :

الرازى، اعتقادات فرق المسلمين والمشركين، تحقيق النشار، ط. بيروت ١٩٨٢م، ص٦١؛ الشهرستانى، الملل والنحل، ط. القاهرة ب-ت، ص١٨١-١٨٩؛ الحسينى عبدالله، الجذور التاريخية للنصيرية العلوية، ط. القاهرة ١٩٨٠م، ص٢٧-٦٥؛ سليمان الحلبى، طائفة النصيرية، ط. القاهرة ١٩٨٢م،

Dussaud, Histoire et religion des Nusairis, Paris 1900; Cahen, "Note Sure Les Origines dela Communite Syrienne de Nusaytie", R.E.I, T. XXX VIII, Année 1978, pp. 243-249; Hammer, "Tableau genealogique des Saixante Treize sectes de L'Islam", J.A., Vol. VII, Année 1915, p. 44.

(٢٧) القزوينى، آثار البلاد، ص١٨٥.

(٢٨) نفسه، نفس المصدر والصفحة.

(٢٩) نفسه، نفس المصدر، ص٢٠٨؛ عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات، ط. بيروت ب-ت، ص١٥٣-١٥٤

(٣٠) من اغتيال شرف الدين مودود أنظر :

ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، تحقيق أمين روتر، ص١٨٧؛ ابن عساكر، ولاة دمشق في العصر السلجوقي، تحقيق صلاح الدين المنجد، مجلة المجمع العلمي بدمشق، م (٢٤)، حـ (٤)، عام ١٩٤٩م، ص٥٥١؛ كمال بن مارسي، العلاقة بين الموصل وحلب ودورها في الحرب الصليبية، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب، جامعة عين شمس عام ١٩٩١م، ص٢٠٦؛ عفاف صبرة، الأمير مودود بن التونتكين اتابك الموصل ودوره في حركة الجهاد الإسلامي، الدارة، العدد (٢)، السنة ١٢٠)، المحرم ١٤٠٧هـ/ سبتمبر ١٩٨٦م، ص١٣٠؛ عبدالغني رمضان، شرف الدين مودود اتابك الموصل والجزيرة، مجلة كلية الآداب، جامعة الرياض، م (٤)، عام ١٩٧٦م، ص١٤٨؛ شاكر مصطفى، طغتكين رأس الأسرة البورية، مجلة كلية الآداب، جامعة الكويت، العدد (١) عام ١٩٧٢م، ص٦١؛ عثمان عشرى، الاسماعيليون في بلاد الشام في القرنين ١٢، ١٣م، رسالة دكتوراه غير منشورة، كلية الآداب، جامعة القاهرة عام ١٩٧٥م، ص٧٥؛ حامد زيان، الصراع السياسي والعسكري بين القوى الإسلامية زمن الحروب الصليبية، ط. القاهرة ١٩٨٣م، ص٩٤؛ عماد الدين خليل، المقاومة الإسلامية للغزو الصليبي، عصر ولاة السلاجقة في الموصل (٤٨٩-٥٢١هـ/ ١٠٩٥-١١٢٧م)، ط. الرياض ١٩٨١م، ص١٠٥.

Fink, "Mawdud of Mosul, precursor of Saladin", M.W., Vol. XLIII, 1953, p. 26.

(٣١) عن اغتيال آقنسقر البرسقي أنظر :

ابن القلانس، المصدر السابق، ص٢١٤؛ ابن الأثير، الباهر، ص١٥؛ ابن العديم، زبدة الحلب، حـ١، ص٢٣٢؛ ابن خلكان، وفيات الأعيان، حـ١، ص٢٤٢-٢٤٣؛ ابن كثير، البداية والنهاية، حـ١٢، ص١٩٥؛ ابن العبرى، تاريخ مختصر الدول، ص٢٠٢؛ ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهبي، حـ٤، ص٦١؛ العماد الأصفهاني، البستان الجامع لجميع تواريخ الزمان، ص١٢٠؛ زكي نقاش، الحشاشون وأثرهم في السياسة والاجتماع، ص١٢٦، ١٣٢؛ حسن حبشي، نور الدين والصليبيون. ط. القاهرة ١٩٤٨م، ص٢٢؛ رشيد الجميلي، دولة الأنابكة بالموصل بعد عماد الدين زنكي، ط. بغداد، ص٤٤؛ ماجد، العلاقات بين الشرق والغرب في العصور الوسطى، ط. بيروت ١٩٦٦م، ص١٥٤؛ سعيد الديوجي، الموصل في العهد الأنابكي، ط. بغداد ١٩٥٨م، ص١٩.

Chen, La Syrie du nord à L'epoque des croisades, Paris 1940, p. 304; Lewis, The Assossins, p. 109; Runciman, A History of The Crusades, Vol. II, p. 118; Stevenson, The Crusaders in the east, p. 118.

(٣٢) ابن العديم، بغية الطلب فى تاريخ حلب، تراجم الأمراء السلاجقة، تحقيق على سويم، ط. أنقرة ١٩٧٦م، ص١٢٢-١٢٣.

Gibb, The Damassus chronicle of the Crusades, London 1958, p. 27; Lewis, "The Ismailites and The Assassins", in Setton, A History of The Crusades, Vol. I, pennsylvania 1955, p.111.

(٣٣) ابن العديم، زبدة الحلب، جـ٢، ص١٥١-١٥٢؛ ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، جـ٥، ص١٩٢؛ السيد العزاوى، فرقة النزارية، تعاليمها ورجالها على ضوء المراجع الفارسية، ط. القاهرة ١٩٧٠م، ص١٠٧.

(٣٤) القزوينى، المصدر السابق، ص٣٠١.

(٣٥) نفسه، نفس المصدر، ص٢٠٧. وعن علاقة نور الدين محمود بالاسماعيلية النزارية أنظر :

ابن القلانسى، المصدر السابق، ص٥٣٤؛ ابن الحنبلى الحلبى، الزبد والضرب فى تاريخ حلب، تحقيق محمد التونجى، ط. الكويت ١٩٨٨م، ص٢٨.

Khayat, "The Sirte rebellions in Aleppo in the 6th A.H./ 12th A.D. century", R.D.S.O., Vol. XLVI, 1971, p. 180-181.

(٣٦) القزوينى، آثار البلاد، ص٢٧٧.

(٣٧) نفسه، نفس المصدر والصفحة.

(٣٨) نفسه، نفس المصدر والصفحة.

(٣٩) نفسه، نفس المصدر والصفحة.

(٤٠) نفسه، نفس المصدر، ص١٦٣.

(٤١) نفسه، نفس المصدر والصفحة.

(٤٢) نفسه، نفس المصدر، ص١٥٩.

(٤٣) نفسه، نفس المصدر، ص٢٢٣؛ عواد مجيد الأعظمى، معالم التراث العربى الإسلامى فى فلسطين، ط. بغداد ١٩٧٥م، ص١٠٩.

(٤٤) القزوينى، المصدر السابق، ص١٥١.

(٤٥) نفسه، نفس المصدر والصفحة.

(٤٦) نفسه، نفس المصدر، ص٢٢٤ .

(٤٧) نفسه، نفس المصدر والصفحة.

(٤٨) أنظر الفصل الخاص بياقوت الحموى.

(٤٩) القزوينى، المصدر السابق، ص٢٦٨ .

(٥٠) نفسه، نفس المصدر والصفحة.

(٥١) نفسه، نفس المصدر، ص٢٣٢ .

(٥٢) نفسه، نفس المصدر، ص١٦٠ .

(٥٣) نفسه، نفس المصدر والصفحة.

(٥٤) نفسه، نفس المصدر، ص٢٧٤ .

(٥٥) نفسه، نفس المصدر، ص٢٤٨ .

(٥٦) نفسه، نفس المصدر، ص١٨٣-١٨٤ .

(٥٧) نفسه، نفس المصدر والصفحة.

(٥٨) نفسه، نفس المصدر والصفحة.

(٥٩) عن مكانة صور فى الصناعات الزجاجية أنظر :

William of Tyre, Vol. II, p. 9

سر الختم عثمان، صور فى القرنين ١٢ ، ١٣م، رسالة دكتوراه غير منشورة، كلية الآداب، جامعة القاهرة، عام ١٩٧١م، ص٢٩٦-٢٩٧ .

(٦٠) Jacques de Vitry, The History of Jerusalem, p. 92-93.

(٦١) Benjamin of Tudela, The Travels of Benjamin of Tudela, in Wright, The early Travels in palestine, London 1848, p. 80.

ووليم الصورى William of Tyre ، هو المؤرخ الرسمى لمملكة بيت المقدس الصليبية خلال القرن الثانى عشر الميلادى، ولد فى بيت المقدس فى عام ١١٢٧م أو ١١٣٠م، وذلك بعد أن أخضعها الصليبيون لسيادتهم السياسية، وينبغى أن نفرق بين اثنين من الاشخاص يحملان

نفس الاسم وليم الصورى، وهم انجليزى شغل وظيفة حارس للقبر المقدس The Holy Sepulchre فى بيت المقدس، ويلاحظ أن وليم الصورى مؤلف التاريخ الشهير، المعروف باسم تاريخ الأعمال التى جرت فيما وراء البحر، وهو باللاتينية :

Historia rerum impartibus Transmarinis gestarum.

وترجمته بالإنجليزية :

History of The deeds done beyond The sea.

كان عارفاً بالرجل الانجليزى الذى حمل نفس اسمه، وقد أورد ذكره فى كتابه، وقد أظهر وليم الصورى منذ نعومة أظفاره حباً للعلم والتحصيل، ومن المتصور أنه التحق ببعض المدارس، التى كانت ملحقة بالأديرة والكنائس، والبعض منها بقصر الملك الصليبى، وقد أظهر ولعاً كبيراً باللاهوت المسيحى، على نحو جذب إليه أنظار العديد من رجال الكنيسة، ووصل فى تدرجه إلى وظيفة رئيس أساقفة صور Archishop of Tyre، وأجاد عدة لغات مثل اللاتينية واليونانية والعربية، وأفاده ذلك فى إثراء كتابته التاريخية، وصار متصلاً بالملك الصليبى عمورى الأول Amaury I (١١٦٣-١١٧٤م) ودعاه إلى تأليف تاريخه السالف الذكر، وله كتاب آخر مفقود، وهو خاص بتاريخ الأمراء الشرقيين وينتهى تاريخه الخاص بالأعمال التى جرت فيما وراء البحر بحوادث ما قبل معركة حطين ١١٨٧م/ ٥٨٣هـ، ويقال إن وليم الصورى قد مات مسموماً فى عام ١١٨٤م/ ٥٨٠هـ. عن وليم الصورى أنظر :

Krey, "William of Tyre, The making of an historian in The middle ages", Speculum, Vol. XVI, 1941, pp. 149-166; Edbury, "William of Tyre, A Historian of The Crusades and The kingdom of Jerusalem (1130-1184)", B.F.A.A.U., 1988, pp. 43-52.

عمر كمال توفيق، المؤرخ وليم الصورى، مجلة كلية الآداب، جامعة الاسكندرية، م (٢١)، عام ١٩٦٧م، ص١٨١-٢٠٠؛ تقديم حسن حبشى للترجمة العربية لتاريخ وليم الصورى الحروب الصليبية، حـ١، ت. حسن حبشى، ط. القاهرة ١٩٩١م، ص١٠-٤٠؛ السيد الباز العرينى، مؤرخو الحروب الصليبية، ط. القاهرة ١٩٦٢م، ص١٠١؛ سر الختم عثمان، صور فى القرنين ١٢، ١٣م، رسالة دكتوراه غير منشورة، كلية الآداب، جامعة القاهدو عام ١٩٧١م، ص٣٣٩-٣٤٠؛ سمايلى، المؤرخون فى العصور الوسطى، ت. قاسم عبده قاسم، ط. القاهرة ١٩٧٧م، ص١٨٦-١٨٧؛ جمال الدين الشيال، التاريخ الإسلامى وأثره فى الفكر التاريخى الأوروبى فى عصر النهضة، ط. بيروت ب-ت، ص٧٠-٧٤؛ حسين عطية، إمارة أنطاكية الصليبية والمسلمون (١١٧١-١٢٦٨م/ ٥٦٧-٦٦٦هـ)، ط. الاسكندرية ١٩٨٩م، ص٣٤، حاشية (١٧).

أما بنيامين التطيلى Benjamin of Tudela؛ فهو الربى بنيامين Benjamin، ووالده يدعى يونا، وقد ارتحل إلى الشرق من مدينة طليطلة Tudelo، وقام بالتجوال فى مناطق جنوب فرنسا، وإيطاليا، واليونان، ومصر واليمن والشام وغيرها من البلاد، ثم عاد أدراجه إلى أسبانيا فى عام ١١٧٣م، ويقال إنه خلال ما يقرب من خمسة عشر عاماً زار ما يقرب من ثلاثمائة موضع فى مختلف بقاع العالم المعمور حينذاك، وقد اهتم بنيامين التطيلى فى رحلته، بعرض أوضاع اليهود فى مختلف البقاع التى زارها، ونشاطهم الاقتصادى لاسيما التجارى، والحرفى، ويعد بصفة عامة، أشهر رحالة يهودى فى العصور الوسطى، عن بنيامين التطيلى ورحلته أنظر :

The Universal Eney., "Benjamin of Tudela", Vol. II, New York 1969, p. 180; E.J., "Benjamin of Tudela", Vol. IV, jerusalem 1973, pp. 535-538; Wright, Early Travels in palstine, London 1848, p. 63; Roth, A. Short History of The Jewish people, London 1953, p. 216; Tobler, Bibliogrophia geographia palestinae, Leipzeg 1867, p. 17; Ruhricht, Chronologisches Vergeichis der Auf die geographic der Herligen Landes Bezuglichen Literatur, Von 333, Bis 1878, pp. 37-38; Mayer, Bibliographie Zur Geschichte der Kreuzzuge, hannover 1965, p. 65; Asher, The Tinerary ofRabbi Benjamin of Tudela, Vol. I, London 1840, pp 1-24.

ويلاحظ أن عزرا حداد قام بترجمة رحلة بنيامين التطيلى، إلى اللغة العربية، وصدرت الترجمة المذكورة فى بغداد عام ١٩٤٣؛ وهى ترجمة لاتزال تحتفظ بجانب كبير من أهميتها على الرغم من مرور نحو نصف قرن على صدورها، وذلك نتيجة للتعليقات الثرية التى أوردها عزرا حداد فى هوامش الترجمة على نحو أفاد الباحثين بشكل واضح، ومع ذلك، فإن رحلة بنيامين التطيلى تحتاج إلى دراسة أكاديمية عربية متخصصة لمعالجة كافة الجوانب التى تناولها ذلك الرحالة اليهودى لاسيما عن منطقة الشرق الأدنى فى عصر الحروب الصليبية.

والجدير بالذكر، أن صناعة الزجاج، لم تكن قاصرة على المناطق الخاضعة لسيادة الصليبيين السياسية مثل صور، وعكا، بل إن المدن الإسلامية هى الأخرى ازدهرت بها تلك الصناعة، ونجد أنه فى القرن السادس الهجرى/ الثانى عشر الميلادى؛ أشار ابن عساكر إلى وجود مسبك للزجاج فى دمشق، وقد صنع من نوع خاص من الصخور الرملية، واحتاجت الأنواع البللورية منه إلى نسب ومقادير مختلفة من أكاسيد الرصاص، ويلاحظ أن بلاد الشام بصفة عامة احتوت على مواد صالحة للغاية لصناعة الزجـاج استعملت منذ العصور القديمة. ومن أكثر المدن التى نشطت بها تلك الصناعة فى عصر الحروب الصليبية، دمشق وحلب، وتمت صناعة ألواح زجاجيـة بأشكال هندسية جميلة. وتم تكوينها بألوان عديدة، وفى بعض الأحيان تم تزويقها بخيوط من الذهب والفضة. ولذلك سمعنا عن الزجاج المذهـب، ومن الزجاج صنعت الأقـداح

والأوانى والمشكاوات ونحو ذلك ويوجد فى المتحف الوطنى بدمشق العديد منها. عن ذلك أنظر :

ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، م (٢)، ص٦٢؛ أبو الفرج العش، المتحف الوطنى بدمشق، ط. دمشق ١٩٦٩م، ص٣٠١؛ أشتور، التاريخ الاقتصادى والاجتماعى، ص٣٠٨؛ كرستى، تراث الإسلام، حـ٢، ت. زكى حسن، ط. القاهرة ١٩٣٦م، ص٥٣-٥٤؛ ديماند، الفنون الإسلامية، ت. أحمد عيسى، ط. القاهرة ١٩٥٤م، ص٢٣٥؛ أحمد فكرى، فن العمارة والتحف الفنية، ضمن كتاب أثر العرب والإسلام فى النهضة الأوروبية، ط. القاهرة، ١٩٧٠م، ص٤٤١؛ جابر الشكرى، لمحات من مآثر العراق العلمية فى الكيمياء، ط. بغداد ١٩٨٥م، ص٣٩؛ عبدالعزيز الدورى وناجى معروف، موجز تاريخ الحضارة العربية، ط. بغداد ١٩٥٢م، ص٨٠؛ أحمد كمال الدين حلمى، السلاجقة فى التاريخ والحضارة، ط. الكويت ١٩٧٥م، ص٢٤٥.

(٦٢) القزوينى، المصدر السابق، ص١٨٤.

(٦٣) نفسه، نفس المصدر، ص١٩١.

(٦٤) عن الدينار الصورى أنظر :

أسامة سيد على، الساحل الشامى فى القرن الثانى عشر الميلادى/ الاسدس الهجرى ودوره فى الصراع الإسلامى الصليبى، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب، جامعة عين شمس عام ١٩٩٢م، ص١٩٦؛ مصطفى الكنانى، العلاقات بين جنوة والشرق الأدنى الإسلامى (١١٧١-١٢٩١م/ ٥٦٧-٦٩٠هـ)، ط. الاسكندرية ١٩٨١م، ص٣١١-٣١٥؛ حسان حلاق، العلاقات الحضارية بين الشرق والغرب فى العصور الوسطى، ص٢٢٢.

(٦٥) القزوينى، المصدر السابق، ص١٩١؛ جميل نخلة مدور، حضارة الإسلام فى دار السلام، ط. القاهرة ب-ت، ص٢٢١.

(٦٦) القزوينى، المصدر السابق، ص١٩١.

(٦٧) نفسه، نفس المصدر، ص١٨٤.

(٦٨) عن وسائل التسلية فى المجتمع الإسلامى فى بلاد الشام فى ذلك العصر أنظر :

ابن دانيال، خيال الظل، تحقيق ماهر حمادة، ط. القاهرة، أحمد رمضان، المجتمع الإسلامى، ص٢٩٠-٣٠٦؛ عبدالحميد يونس، خيال الظل، ط. القاهرة ١٩٩٤م، ص٩-١١.

٤ - ابن شداد

(ت ٦٨٤هـ/ ١٢٨٥م)

يتصدى هذا الفصل بالدراسة لأحد الجغرافيين المسلمين البارزين؛ الذين انجبتهم بلاد الشام فى عصر الحروب الصليبية، ونعنى به عز الدين بن شداد الحلبى[١] (ت ٦٨٤هـ/ ١٢٨٥م)، ويتطرق الفصل إلى العديد من الجوانب تتعلق بحياة ابن شداد، وتطورها بين الشام، ومصر، وأهم مؤلفاته، وكذلك الجوانب المختلفة التى تعرض فيها لأوضاع بلاد الشام خلال تلك المرحلة الهامة والمؤثرة من تاريخها فى العصور الوسطى.

وابن شداد، هو عز الدين محمد بن على بن إبراهيم بن شداد بن خليفة بن شداد بن إبراهيم بن شداد، أبو عبدالله الأنصارى الحلبى، وقد ولد فى مدينة حلب بشمال الشام، وذلك فى عام ٦١٣هـ/ ١٢١٦م، وظل هناك حتى تعرضت بلاد الشام لكارثة الغزو المغولى لها، وعندما واجهت حلب ذلك الخطر الداهم عام ٦٥٨هـ/ ١٢٦٠م، لاذ عز الدين بن شداد بالفرار[٢]، ولجأ إلى مصر.

وجدير بالذكر، أن ابن شداد، قد شغل فى سنوات شبابه المبكرة مناصب إدارية لدى الأيوبيين، ووصف بأنه كان خبيراً بالجوانب المتعلقة بالميزانية، والمالية[٣]، الأمر الذى أفاده بشكل واضح عندما تصدى بالكتابة عن الجوانب الجغرافية المتصلة ببلاد الشام.

مهما يكن من أمر، فإن ابن شداد، قد حظى فى مصر برعاية سلاطين المماليك مثل الظاهر بيبرس[٤]، والمنصور قلاوون، وقد زار دمشق فى عام ٦٧٦هـ/ ١٢٧٧م، ثم ما لبث أن عاد أدراجه إلى القاهرة حيث توفى بها عام ٦٨٤هـ/ ١٢٨٥م[٥].

وقد ألف ابن شداد عدداً من المؤلفات ذات الطابع التاريخى، أو الجغرافى، من ذلك كتابه جنى الجنتين فى أخبار الدولتين[٦]. ثم كتاب تاريخ العز ابن شداد فى سيرة السلطان الملك الظاهر بيبرس[٧]. وكذلك كتاب القرعة الشدادية الحميرية، أو تحفة الزمن فى طرائف أهل اليمن[٨]، ثم كتاب كروم الذهانى فى تفسير السبع المثانى[٩]– وهو كتاب فى مجال التفسير كما يتضح من عنوانه– بالإضافة إلى كتابه الأعلاق الخطيرة فى ذكر أمراء الشام والجزيرة[١٠].

والواقـع إن نظرة متأنيـة لتلك المؤلفات تكشف لنا عن تعدد المواهب التـأليفية لابن شداد، إذ أنه ألف مؤلفات فى التاريخ، والجغرافيا التاريخية، والتفسير، وتعددت المجالات الجغرافية الإقليمية لمؤلفاته، فقد تناول بلاد الشـام والجزيرة، وكذلك اليمن، ولم يجعلها قاصرة على نطـاق جغرافى محدود، كما أنه تجاوز عصره وانتقـل إلى العصـور القديمة.

وبصفة عامة، فإن أهم مؤلفات ابن شداد التى تفيدنا فى دراستنا هذه، كتابه الأعلاق الخطيرة فى ذكر أمراء الشام والجزيرة، وقد استغرق فى تأليفه مدة زمنية طويلة خلال الرحلة الواقعة من عام ٦٧١هـ/ ١٢٧٢م إلى عام ٦٨٠هـ/ ١٢٨١م[١١]، وهو فى ذلك، يتشابه مع ياقوت الحموى (ت ٦٢٦هـ/ ١٢٢٨م)؛ الذى ألف كتابه الشهير معجم البلدان بعد عشر سنوات من البحث والتقصى[١٢].

وكتاب الأعلاق الخطيرة، ليس هو الأول من نوعه من بين المؤلفات الجغرافية العربية الذى يكون عنوانه «الأعلاق» فمن قبل ذلك نجد أحد الجغرافيين المسلمين ونعنى به ابن رسته، قد ألف كتابه بعنوان «الأعلاق النفيسة»[١٣]. وإن كان تعبير

«الخطيرة» فى عنوان ما ألفه عز الدين بن شداد يعكس - أول ما يعكس - ثقة مؤلفه فى ما ألفه خاصة أنه استغرق منه فى تأليفه قرابة العقد من الأعوام.

ويلاحظ أن ذلك الكتاب اهتم فيه مؤلفه بوصف الظواهر الجغرافية، والطوبوغرافية، ثم تبع ذلك تناول التاريخ السياسى؛ لتلك المناطق التى تصدى بالكتابة عنها.

ويرى أحد المستشرقين ما نصه «أن التأثير النشط الذى خلقته خبرات الصليبيين التاريخية عن الحياة الفكرية فى سوريا تجلى فى مؤلف آخر عن التاريخ المحلى السورى ألا وهو، أعلاق الحاضرة فى أمراء وحكام الشام والجزيرة لابن شداد»(١٤).

والواقع أن هذا التصور لا ينطبق على الواقع فى شئ لعدة اعتبارات، إذ أن الصليبيين لم تتفوق لديهم المعارف التاريخية بالصورة التى تجعل المسلمين يفيدون منها، بل إن الأمر المعاكس هو الذى حدث، إذ أنهم أفادوا من تجربة المسلمين التاريخية ويتجلى ذلك بصورة واضحة لدى مؤرخهم الأشهر، وليم الصورى William of Tyre، الذى كان يجيد اللغة العربية واطلع على المؤلفات التاريخية العربية وأفاد منها. بالإضافة إلى أن الصليبيين أصلاً قدموا إلى المنطقة كغزاة محاربين لا كأصحاب توجه فكرى أصيل، ويعكس الرأى السابق رغبة ذلك الباحث فى اضفاء قيمة فكرية على تجربة الاستيطان الصليبى فى بلاد الشام الأمر الذى تنكره الوقائع التاريخية، ناهيك عن أن ذلك الباحث أورد عنوان ما ألفه ابن شداد خطأ، والصواب ما أسلفت ذكره، ألا وهو الأعلاق الخطيرة فى ذكر أمراء الشام والجزيرة.

أيا كان الأمر، فهناك زاوية أخرى تتصل بكتاب الأعلاق الخطيرة، ألا وهى أن عدداً من الباحثين قد جعلوه لمؤرخ آخر، وهو بهاء الدين بن شداد (ت ٦٣٢هـ/ ١٢٣٩م)(١٥) مؤلف النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية أو سيرة صلاح الدين(١٦). والواقع أن ذلك التصور جانبه الصواب تماماً، لأن بهاء الدين بن شداد لم يطل به العمر حتى عصر الظاهر بيبرس، وإنما عاصر السلطان الناصر صلاح الدين الأيوبى، أى أن

بهاء الدين بن شداد ينتمى إلى العصر الأيوبى، بينما عز الدين بن شداد ينتمى إلى العصر المملوكى ثم إن الأول عاش خلال القرن السادس الهجرى/ الثانى عشر الميلادى، وجزء من القرن السابع الهجرى/ الثالث عشر الميلادى؛ بينما عاصر الثانى القرن السابع الهجرى/ الثالث عشر ميلادى فقط.

على أية حال، فإن هناك ناحية هامة يتطلب الأمر التعرض لها، ألا وهى المصادر التى اعتمد عليها عز الدين بن شداد فى تأليفه لكتابه الأعلاق الخطيرة، ولا نزاع فى أن كتاباً متعدد الأجزاء يستغرق من مؤلفه نحو عشر سنوات؛ من أجل تأليفه؛ من المنطقى تصور تعدد وتشعب المصادر التى اعتمد عليها ذلك المؤلف؛ من أجل انجازه فى النهاية بالصورة التى وصلت إلينا.

ومن الممكن تقسيم المصادر التى اعتمد عليها ذلك الجغرافى والمؤرخ من أجل تأليف كتابه إلى ثلاثة أقسام رئيسية؛ وهى المصادر المكتوبة، والمصادر الشفهية، ثم المعاينة، والمشاهدة، وأكثر المصادر أهمية فى كتاب هى المصادر المكتوبة، إذ اعتمد على كم كبير من المؤلفات الجغرافية، والتاريخية السابقة على عصره، والمعاصرة له، أما المصادر الشفهية فقد جعلها مستمدة من كبار العلماء، والفقهاء، ورجال الحكم مما عكس أهميتها، وفيما يتعلق بالمعاينة، نجد أنه جعلها بصورة ما مرتبطة بالمزارات، وأماكن المقدسات الدينية.

وبالإضافة إلى المصادر السابقة، هناك ما يمكن وصفه بمصادر مجهولة اعتمد عليها عز الدين بن شداد؛ دون أن يحددها، وإن كانت مصادر مكتوبة أو شفهية.

أما المصادر المكتوبة، فهناك مصادر جغرافية؛ ثم مصادر تاريخية، ومن أمثلة المصادر الجغرافية، هناك اليعقوبى(١٧)، وكتابه البلدان، ثم البيرونى(١٨)، وكتاب القانون المسعودى، ثم المهبى(١٩)، وما ألفه تحت عنوان المسالك والممالك، هذا بالإضافة إلى

الهروى (ت ٦١١هـ/ ١٢١٥م)، وكتابه الإشارات إلى معرفة الزيارات، ثم ابن جبير[٢٠] (ت ٦١٦ أو ٦١٧هـ/ ١٢١٩ أو ١٢٢٠م) ورحلته الشهيرة.

زد على ذلك، أمر المصادر التاريخية وهى متنوعة، سواء من عصر سابق على عصر عز الدين بن شداد أو من جانب مؤرخين ارتبطوا بالقرنين ٦، ٧هـ/ ١٢، ١٣م.

وفى هذا المجال، نجده أفاد من محبوب بن قسطنطين فى صورة تاريخه[٢١]، ثم أنه استعان بما ألفه البلاذرى فى صورة كتابه فتوح البلدان[٢٢]، ثم العظيمى[٢٣] (ت ٥٥٨هـ/ ١١٦٣م) فى تاريخه، كذلك ابن عساكر[٢٤] (ت ٥٧١هـ/ ١١٧٦م) صاحب تاريخ مدينة دمشق، بالإضافة إلى إفادته من ابن العديم الحلبى (ت ٦٦٠هـ/ ١٢٦١م) وكتابه زبدة الحلب من تاريخ حلب، ثم ابن أبى طئ (ت ق٧هـ/ ١٣م) فى مؤلفاته مثل تاريخ حلب، وعقود الجواهر فى سيرة الملك الظاهر، كذلك أفاد عزالدين بن شداد من الكامل لابن الأثير الجزرى[٢٥] (ت ٦٣٠هـ/ ١٢٣٨م).

وهكذا تعددت مصادر ذلك الجغرافى المكتوبة، على نحو أثرى كتابه بصورة واضحة، ومع ذلك يثير المستشرق الروسى كراتشكوفسكى ناحية لا تخلو من أهمية، ويقول ما نصه «إنه – أى عز الدين بن شداد – لم يكن له علم فيما يبدو بمعجم ياقوت، ومهما يكن من شئ فإنه لم يشر إليه ولو مرة واحدة»[٢٦].

والواقع أن كراتشكوفسكى قد أثار تساؤلا ولم يقدم التعليل له. كما أنه تصور أمراً من الممكن الاختلاف معه بشأنه.

فمن المستبعد تماماً، أن يكون كتاب معجم البلدان لياقوت الحموى (ت٦٢٦هـ/ ١٢٢٨م) مجهولاً لعز الدين بن شداد (ت ٦٨٤هـ/ ١٢٨٥م)، وكل منها شامى الإقامة لاسيما فى حلب حاضرة شمال الشام الكبرى، وإن امتاز عز الدين بن شداد عن

ياقوت بأنه ولد، ونشأ فى حلب، كما أن المرحلة الزمنية بينها لم تكن طويلة، ومن المرجح أن كتاب ياقوت معجم البلدان كان متوافراً فى عدة نسخ مخطوطة عندما تصدى عز الدين بن شداد لكتابه الأعلاق الخطيرة، وبالتالى فإن تصور ذلك المستشرق ليس من اليسير قبوله أو تصوره منطقياً، خاصة إذا ما لاحظنا أن أبا الفداء (ت ٧٣٢هـ/ ١٣٣١م). ولا يوجد فارق زمنى كبير بينه، وبين عز الدين بن شداد نجده يستعين بما ألفه ياقوت الحموى.

نخلص من ذلك إلى القول، إن معجم البلدان كان متوافراً فى بلاد الشام، والمرجح أن عز الدين بن شداد كان عارفاً به – وهو العلم الجغرافى الذى أفاد من عشرات المؤلفات الجغرافية السابقة عليه والمعاصرة له – مع عدم إغفال أهمية المصادر التاريخية بالطبع وإن تعمد – على ما يبدو – عدم الاستعانة به، وتعليل ذلك أنه أراد ألا يكثر من الإفادة به فلا يكرر معجم البلدان، أو لعله أراد أن ينافس ياقوت فى كتابه بتأليف كتاب آخر خاص ببلاد الشام، والجزيرة، ورأى أن الأفضل تجنب الإشارة إلى معجم البلدان، ولعل فى ذلك التعليل المرجح لعدم استعانة عز الدين بن شداد بمعجم البلدان الذائع الصيت.

أما المصادر الشفهية، فنجد أمثلتها فى صورة أنه يذكر على سبيل المثال حكى القاضى الحسن بن موج القوعى[٢٧]، أو أخبرنى زين الدين عبدالملك بن عبدالرحمن ابن العجمى الحلبى[٢٨]، أو أخبرنى الرئيس بهاء الدين أبو محمد الحسن بن إبراهيم بن الخشاب الحلبى[٢٩].

ومن الجلى الواضح أن المصادر الشفهية؛ جاءت قليلة بالنسبة للمصادر المكتوبة الثرية التفاصيل.

وإذا توجهنا إلى المعاينة والمشاهدة نجدها فى زاوية المزارات وفى هذا المجال نجده يقرر عند حديثه عن قبر أبى عبيدة بن الجراح فى غور نابلس «وقد زرناه بطبرية»[٣٠].

وبالإضافة إلى ذلك، هناك مصادر مجهولة، غير محددة وذلك نجده بالنسبة للكتب وكذلك للرواة، يقول فى أحد المواضع «ووجدت في بعض الكتب»[٣١] أو «ذكر أرباب التواريخ»[٣٢] دون أن يحدد عنوان الكتاب ومؤلفه، أو أن يقول «ذكر بعض جماعة»[٣٣] ومع ذلك فمثل تلك المصادر قليلة ونادرة. وبصفة عامة حرص عز الدين بن شداد على إيراد أسماء الكتب ومؤلفيها بدقة ونادراً ما لجأ إلى المصادر المجهولة سواء كانت مكتوبة أو شفهية.

وبصفة عامة، نجد أن عز الدين بن شداد حرص على إيراد العديد من القصائد الشعرية ضمن تناوله للأحداث التاريخية المختلفة، ولذا من الممكن القول إن الشعر يعد أحد الجوانب المهمة فى منهجية عز الدين بن شداد فى كتابه الأعلاق الخطيرة، ومن أمثلة ذلك إيراده لقصيدة أبى بكر الصنوبرى فى مدحه لمدينة حلب وذكره فيها المسجد الجامع[٣٤]. ويبدو أنه نفسه كان ذواقاً للشعر؛ دون أن نعرف أقرضه أم لا، بدليل كثرة الشواهد الشعرية فى كتابه.

ومن جهة أخرى، نجد أن ذلك الجغرافى والمؤرخ قد حرص على استخدام الجانب الوثائقى فى كتابته نظراً لإدراكه لأهمية الوثائق فى كتابة التاريخ، مع ملاحظة أن منهجيته ارتبطت بنوع من الكتابة توصف بأنها جغرافيا تاريخية لمناطق بلاد الشام والجزيرة، وفى هذا المجال، نجد أنه استعان ببعض الوثائق، ومن أمثلتها رسالة القاضى الفاضل عبدالرحيم بن على البيسانى؛ فى فتح بيت المقدس عام ٥٨٣هـ/ ١١٨٧م[٣٥]، وكذلك خطبة القاضى محيى الدين بن الزنكى حين تم فتح القدس من الناصر داود[٣٦]، ثم نص إحدى الرسائل المرسلة إلى الخليفة المستنصر العباسى[٣٧]، إلى غير ذلك من النصوص الوثائقية الهامة.

الصفة البارزة بالنسبة لكتابة عز الدين بن شداد أنه يوصف بالأمانة العلمية، والدقة فى التحرى، والتوثيق المصدرى، إذ أنه عندما لا يجد ضالته فى المصادر المتوافرة تحت

يديه؛ يعلن ذلك صراحة دونما مواربـة، من ذلك أنه عندما تحدث عن طرابلس فى مرحلة من مراحل تاريخها أشار إلى أن عدداً من ولاتها «لم يتصل بى مدد إقامتهم فى الولايات»[٣٨]، كذلك عندما كان يبحث عن تاريخ حصن من الحصون ولم يحالفه التوفيق فى تتبع أصوله الأولى يصرح بأنه «لم أعثر له على ذكر فى كتاب من كتب التواريخ المصنفة فى صدر الإسلام»[٣٩].

وبصفة عامة، نجد أن عز الدين بن شداد قد تناول العديد من الجوانب المتصلة ببلاد الشام على نحو جعله وبحق واحداً من أهم الجغرافيين المسلمين فى بلاد الشام على مدى القرنين السادس والسابع الهجرى/ الثانى عشر، والثالث عشر الميلادى.

ومن أمثلة ذلك تناوله لمدن الساحل الشامى المتعددة، ثم النشاط الاقتصادى فى بلاد الشام من كافة جوانبه، وكذلك المعارك والعمائر الحربية فى صورة القلاع والحصون، سواء الإسلامية أو الصليبية، ثم المزارات الدينية المختلفة، والخريطة المذهبية لبلاد الشام فى ذلك العصر، ثم العمائر الدينية والتعليمية.

وقد احتل الساحل الشامى أهميته الخاصة الجديرة به، لدى عز الدين بن شداد، شأنه فى ذلك شأن غيره من الجغرافيين المسلمين الذين قدموا إلى بلاد الشام أو الذين أنجبتهم أصلاً تلك البلاد، ومن الملاحظ هنا أن ذلك الجغرافى ظهرت بجلاء عاطفته الدينية خاصة عند تناوله للمدن التى كانت خاضعة لسيادة المسلمين السياسية ثم أخضعها الصليبيون من بعد ذلك، وظلت فى قبضتهم، ومن ثم ظهرت عباراته الداعية إلى أن تعود ضمن ديار الإسلام من جديد، فعبر بذلك عن شعور إسلامى عام.

ونجد أنه تعرض لمدينة عكا فأشار إلى إتساع أرجائها، وكثرة ضياعها، وأن لها ميناء مأموناً[٤٠]، وقد عبر تعبيراً دقيقاً عن أهميتها ومكانتها من خلال قوله أنها «قفل بلاد الساحل وقصبته ما فيه من الحصون والمعاقل»[٤١]، فإذا ما لاحظنا أن ذلك الجغرافى

يكتب تلك العبارات في سبعينات القرن السابع الهجرى/ الثالث عشر الميلادى، أدركنا أن تلك المدينة كقلب تجارى للكيان الصليبى ظلت تتمتع بتلك المكانة المتميزة دون أن تنازعها مدينة أخرى وذلك على امتداد تاريخ الوجود الصليبى فى بلاد الشام.

وعز الدين بن شداد جغرافى نتاج عصره، بأحاسيسه الدينية الجياشة، وتشوقه للجهاد، ويتضح ذلك بجلاء من خلال تناوله لمدينة عكا إذ يذكر أنها لاتزال فى قبضة الصليبيين وقت تأليفه لكتابه الأعلاق الخطيرة، وينهى عبارته بقوله : «يسر الله فتحها، وسنى للملة الإسلامية، نجحها»(٤٢).

كذلك تعرض لعدد من المدن الشامية الساحلية بدرجات متفاوتة من الأهمية، من ذلك تناوله لمدينة صور وإشارته الضمنية لمناعتها التقليدية عندما ذكر أن البحر يحف بها بثلاث جهات(٤٣). وقد أشار إلى استمرار خضوعها للصليبيين وتمنى لها ذات الأمنية التى تمناها من قبل لعكا(٤٤).

وكإمتداد لتناوله لحصانة صور، وجدناه يشير إلى مناعة وحصانة كل من يافا، وقيسارية، فوصف الأولى بأن لها سوراً محكم البناء(٤٥)، أما الثانية فوصفها بالمنعة(٤٦).

ويلاحظ أن ذلك الجغرافى الحلبى حريص على إيراد إتساع مظاهر العمران فى المدن الساحلية الشامية، من ذلك أنه عندما تعرض لمدينة صيدا بجنوب لبنان أشار إلى أن لها أربعة أقاليم وأنها متصلة بجبل لبنان واشتملت على نيف وستمائة ضيعة(٤٧)، وتفيد إشارته فى توضيح أن تلك المدن الساحلية لم تكن مراكز تجارية فقط بل أنها مثلت أهمية أخرى من خلال كونها مراكز عمرانية هامة ذات ثقل فى حجم كثافتها السكانية المرتفعة نسبياً كما هو متوقع.

وهناك ناحية هامة، أوردها عز الدين بن شداد بشأن الساحل الشامى، ألا وهى أن

مدنه عدت موانئ تصدير للمدن الشامية البرية الحبيسة، وهو أمر أوضحه من قبل في القرن السادس هـ/ الثاني عشر م الإدريسي، وفي هذا الصدد أشار عز الدين بن شداد إلى أن حيفا، تعد في زمانه ميناء طبرية[٤٨]، وهكذا أكد في القرن السابع هـ/ الثالث عشر م. استمرار تلك الظاهرة الحيوية التي أعنى بها ارتباط المدن الشامية البرية والساحلية مع بعضها البعض من خلال المصالح المتبادلة المشتركة، وتكرر ذات الأمر من خلال أن بيروت عدت ميناء دمشق[٤٩] مثلما أوضح ذلك في الأعلاق الخطيرة.

أما الزوايا الاقتصادية لدى ذلك الجغرافي فهي تعد قليلة ونادرة؛ إذا ما قارنا أمرها بالجوانب الأخرى التي فصل الحديث بشأنها، وإشاراته في هذ المجال توصف بأنها عرضية موجزة، من ذلك تناوله للنشاط الزراعي في طرابلس وذكره لزراعة قصب السكر في طرابلس[٥٠]، ومن المعروف أن الصليبيين قد عرفوا قصب السكر؛ في تلك المنطقة وأفادوا منه في تصنيع السكر. أما الثروة المعدنية فقد أشار إلى توافر معدن الحديد بالقرب من بيروت[٥١] وهي إشارة تقليدية طالما تكررت في مصادر ذلك العصر الجغرافية.

أما على المستوى الصناعي فقد أشار إلى صناعة الزجاج في صور، وقد وصفه بأنه «محكم»[٥٢]، وكذلك صناعة الفخار بها[٥٣]، وهو أمر كان قد أشار إليه من قبل، ياقوت الحموي في معجم البلدان.

وفيما يتصل بالزاوية التجارية نجد أنه أشار إلى ثراء بعض المدن الشامية الداخلية نتيجة اشتغال أهلها بالتجارة بالطبع ومن أمثلة ذلك معرة مصرين إذ وصفها أهلها بأنهم «ذوو يسار، وأموال، وأملاك»[٥٤]، ومنطقي أن ذلك تأتي لهم من خلال اشتغالهم بالمتاجرة مع المدن الشامية الداخلية الأخرى.

زد على ذلك، أن عز الدين بن شداد، قد أشار ضمنياً إلى تجارة معينة في صيدا في جنوب لبنان وهي خاصة بنوع الأسماك الذي يفيد في الناحية الجنسية[٥٥]، ويكاد

نصه في هذا الصدد يتطابق مع نص الإدريسي؛ الذى أورده فى نزهة المشتاق[٥٦]، وهكذا فإن بعض المظاهر التى رددها الجغرافيون المسلمون في القرن السابق، على عصر عز الدين بن شداد ونعنى به القرن السادس هـ/ الثاني عشر م، وجدناها تتأكد، وتتكرر في القرن التالي، ونعنى به القرن السابع هـ/ الثالث عشر م؛ على نحوأكد شهرة ذلك النوع من الأسماك كسلعة تجارية أثبتت جودتها بشهادة الجغرافيين المسلمين وعلى مدى طويل.

وهكذا، جاءت إشارات عز الدين بن شداد للجوانب الاقتصادية محدودة، وإن لم تفتقد الأهمية، خاصة أنها أكدت رؤية سابقة لجغرافيين مسلمين؛ قدموا إلى بلاد الشام في مرحلة سابقة على عصر ذلك الجغرافى الحلبى.

أما إذا ما انتقلنا إلى جانب آخر من الجوانب الهامة التى أوردها عز الدين بن شداد عن بلاد الشام، خلال ذلك العصر، فهناك الجانب الحربى، سواء ما اتصل بالمعارك الحربية، أو القلاع، والحصون لدى الجانبين الإسلامى، والصليبى.

وفى هذا الصدد نجد أن عز الدين بن شداد قد أورد عدداً من المواجهات الحربية بين المسلمين والصليبيين لاسيما خلال عهد السلطان نور الدين محمود ومواجهته للصليبيين.

ولعل أهم الأحداث الحربية التى أوردها فى هذا الصدد تناول عز الدين بن شداد لمعركة أنب عام ٥٤٤هـ/ ١١٥٩م[٥٧]، وكذلك أسر الأمير الصليبى جوسلين الثانى عام ٥٤٥هـ/ ١١٦٠م[٥٨]، ثم معركة حارم عام ٥٥٩هـ/ ١١٦٤م[٥٩].

ويلاحظ أن تناول ذلك الجغرافى لتلك الأحداث قد اعتمد فيه على المصادر المعاصرة، ولذا فلم يورد إضافات جديدة تذكر عما قد ورد بشأنها، ومع ذلك من المهم أن نذكر أهم ملامحها لما لها من فائدة.

وتعد معركة أنبا[٦٠] من المعارك الهامة فى صراع السلطان نور الدين محمود ضد إمارة أنطاكية الصليبية، وقد جرت وقائعها في صفر عام ٥٤٤هـ/ يونيه ١١٤٩م، وفيها تم النصر للمسلمين وهزم الصليبيون، وقتل رايموند دى بواتيه أمير أنطاكية، وعدد من كبار القادة الصليبيين[٦١]، ومن الملاحظ أن نور الدين محمود قد تلقى دعماً عسكرياً من جانب دمشق، وإن وقفت عناصر الاسماعيلية النزارية إلى جانب الصليبيين، ولقى قائدهم على بن وفا، مصرعه فى ساحة المعركة[٦٢].

وجدير بالذكر، أن انتصار أنب يعد من أهم انتصارات ذلك القائد المسلم خلال تلك المرحلة المبكرة من حكمه، ويعده البعض نقطة تحول فى صراعه مع الصليبيين وقد أكسبه انتصاره حيناً كبيراً.

أما فيما يتصل بأسر أمير الرها جوسلين الثانى عام ٥٤٥هـ/ ١١٦٠م، ومن المعروف أن تلك القيادة الصليبية كثيراً ما واجهت نور الدين محمود وأوجدت مقاومة صليبية ضد المسلمين، وقد وقع صدام حربى بين نور الدين وجوسلين الثانى عندما حاول الاستيلاء على أملاكه الصليبية وتمكن الأخير من إلحاق الهزيمة بنور الدين محمود عام ٥٤٥هـ/ ١١٥٠م، بل إنه أسر بعض قادة الجيش النورى، ويلاحظ أن المصادر الرسمية العربية لا تقدم إشارات كافية عن تلك الهزيمة على نحو يدعو للاعتقاد بأنها كانت فادحة.

وقد أدركت القيادة النورية خلال تلك الأحداث ضرورة حرمان الصليبيين من قيادة جوسلين الثانى بأن يتم أسره، وبالفعل تم ذلك فى نفس العام ٥٤٥هـ/ ١١٥٠م[٦٣]، وتم تسميل عينيه، وأودع السجن، وأمضى فيه نحو تسعة أعوام، أدركته منيته بعدها عام ٥٥٤هـ/ ١١٥٩م[٦٤].

ولا ريب، فى أن أسر جوسلين الثانى يعد من الأحداث الهامة فى صراع نور الدين

مع الإمارات الصليبية، حيث عرفت عنه البسالة فى قتال المسلمين، وكانت النتيجة المباشرة لأسره هى سقوط أملاكه مثل تل باشر، وعين تاب، واعزاز، وتل خالد، وقورس، والراوندان، وبرج الرصاص، ودلوك، ومرعش وغيرها من الأملاك[٦٥]. فى قبضة الجيش النورى.

وقد اختلف المؤرخون فى تحديد المدة الزمنية التى استغرقها إسقاط قلاع وحصون وأملاك جوسلين الثانى، فذكر البعض أن ذلك حدث فى أيام يسيرة[٦٦]، بينما تصور آخرون أنه حدث خلال عام[٦٧]، وقرر ابن الوردى أنها مدة يسيرة[٦٨] ولكن اعتماداً على نص صريح لابن العديم، أمكن الاعتقاد أن ذلك استغرق عدة سنوات، ربما بلغت الخمس، يقول «فى ثامن عشر ربيع الأول سنة خمس وأربعين وخمسمائة فتح تل باشر، وتل خالد، وفتح عين تاب سنة خمسين، وفتح قورس والراوندان وبرج الرصاص...[٦٩] ومما يدعم هذا أن المصادر المعاصرة مثل ابن القلانسى والعماد الأصفهانى، لايبرزان إلا سقوط عزاز عام ٥٤٥هـ/ ١١٥٠م[٧٠]، مما يدل على أن القلاع والمناطق الأخرى سقطت – على الأرجح – بعد ذلك، ثم أن دلوك مثلاً استولى عليها نور الدين عام ٥٤٧هـ/ ١١٥٢[٧١].

أما معركة حارم عام ٥٥٩هـ/ ١١٦٣م[٧٢]، فهى من أعنف المواجهات الحربية بين نور الدين محمود، والصليبيين، ومن حالفهم، وقد اشتركت فى مواجهة المسلمين، القوى الصليبية والبيزنطية، والأرمينية.

ومن الملاحظ أن اشتراك القوى الصليبية مرجعه الرغبة فى تحجيم خطر نور الدين الذى تزايد من خلال هجماته على إمارة أنطاكية، كما أن الامبراطورية البيزنطية قد سعت إلى المشاركة فى مواجهة نور الدين نظراً لأطماعها بأنطاكية من قبل الغزو الصليبى للمنطقة فى أواخر القرن الخامس الهجرى/ الحادى عشر الميلادى، وأراد الأرمن هم أيضاً، جنى ثمار مشاركتهم فى المعركة فى حالة الظفر.

وقد اغتنم نور الدين محمود فرصة غياب الملك عمورى الأول فى مصر لتنفيذ مشروعه الصليبى هناك، وهاجم إمارة أنطاكية[٧٣]، وطبيعى أنها حرمت من العون العسكرى الكبير الذى كان من الممكن أن يقدمه لها، ويقال – وفقاً لرواية ابن عساكر وغيره – إن القوات المتحالفة بلغت ثلاثين ألفا[٧٤] – وعلى الرغم من طابع المبالغة الرقمية الذى اعتادته المصادر التاريخية خلال ذلك العصر، إلا أن ذلك الرقم عكس الأهمية التى علقها التحالف المسيحى على الصدام مع الدولة النورية حينذاك، وقد تلقى نور الدين دعماً قوياً من المناطق المجاورة، وبخاصة من جانب أخويه نصرة الدين وقطب الدين وكذلك من زيد الدين كوجك حاكم أربيل وحاكم سنجار وابن عم مجد الدين وسيف الدين صاحب فيج[٧٥]، وقد كلل جهد الجيش النورى بالنجاح وأنزل هزيمة كبيرة بالقوات المعادية وبلغ عدد القتلى نحو عشرة آلاف[٧٦]، ويقال إن الأسرى قد بلغوا ستة آلاف من كبارهم[٧٧] ومن بينهم أمير أنطاكية بوهيمند الثالث Bohemond III (١١٦٣-١٢٠١م/ ٥٥٨-٥٩٧هـ) وأمير طرابلس ريموند الثالث Raymond III (١١٥٢-١١٨٧م/ ٥٤٣-٥٨٣هـ) وأمير تل باشر جوسلين الثالث Joselin III، وأمير قليقيه Cilicia قسطنطين كارلومان Constantine Carloman، وهيو دى لوزينيان[٧٨]، بينما فر تورس الأرمينى من ساحة القتال عندما أيقن تفوق المسلمين، ولم ينصت الصليبيون إلى نصحه لهم بانتظار مقدم الملك عمورى من مصر[٧٩].

ولا نزاع فى أن موقعة حارم أثرت على نطاق متسع على العلاقات النورية – الأنطاكية، فقد مثلت انتصاراً لنور الدين ضد الوجود الصليبى فى شمال الشام، وفقدت الإمارة الكثير من فرسانها بين قتيل وجريح، وسلبتها قيادات هامة، وحق لكلود كاهن أن يصفها بأنها كارثة[٨٠]، وقد حقق نور الدين من جرائها العديد من المكاسب، إذ استولى على حارم، وعمل على الإغارة على مناطق أنطاكية بعد أن أيقن عدم وجود مقاومة حقيقية ضده، وبلغت قواته اللاذقية وسعى إلى اكتساب مغانم وفيرة من

أعدائه[٨١]، وانتهز فرصة غياب عمورى فى مصر واستولى على بانياس بعد ذلك بشهرين[٨٢].

ومن جهة أخرى، تعرض عز الدين بن شداد لأمر القلاع سواء الصليبية أو الإسلامية فى بلاد الشام فى عصر الحروب الصليبية، وقد حرص على التعرض لتكوينها الأثرى، بالإضافة إلى تعاقب القوى السياسية المسيطرة عليها، وفى هذا المجال نجده يتميز بصورة واضحة عن غيره من الجغرافيين المسلمين فى بلاد الشام فى ذلك العصر، الذين قدموا مجرد إشارات موجزة، ونادرة، عن تلك القلاع، والحصون على الرغم من أهميتها المتزايدة فى ذلك العصر، وفى قضية المواجهة الحربية الإسلامية/ الصليبية.

والجدير بالذكر هنا، أن قيمة عز الدين بن شداد فى إيراد العمائر الحربية تجعله، لا يتفوق على الجغرافيين المسلمين فى ذلك العصر، بل وحتى مؤلفات الرحالة الأوروبيين الذين قدموا إشارات بالغة الاقتضاب والندرة بشأن تلك القلاع، ولا ريب فى أن ذلك كله من شأنه أن يزيد من قيمة النصوص التى أوردها ذلك الجغرافى الحلبى بشأن تلك القلاع، والحصون؛ وعلى نحو يعكس أيضاً إدراكه الشخصى لأهمية دورها فى المواجهة بين المسلمين، والصليبيين فى ذلك العصر.

مهما يكن من أمر، فإن عز الدين بن شداد قد أورد تناولاً هاماً لأحد الحصون الصليبية البارزة، ونفى به حصن الأكراد Crac des ehevaliers، وقد ذكر أمر حصانته بأن أشار إلى أن له ثلاثة أسوار وثلاث باشورات[٨٣]، كما أوضح أن الفرنج كانوا فيه لا يكترثون بالجيوش مهما كان عددها، ومنه كانوا يشنون الغارات تلو الغارات، ويدركون الثأرات[٨٤].

ومن المعروف أن حصن الأكراد قد وقع على طريق القوافل الواقعة فى الشمال من حمص، وحماة من جهة، وطرابلس وأنطرسوس من جهة أخرى[٨٥]، وذلك فى وادى النهر الكبير[٨٦]، ووقع على بعد مائتين وأربعين كيلو متراً من مدينة دمشق، ومائة

وأربعين كيلو متراً من طرابلس[٨٧]، وأربعين كيلو متراً من حمص[٨٨]، وبذلك احتل موقعاً استراتيجياً ممتازاً.

وهناك من يقرر أن حصن الأكراد سمي بتلك التسمية نسبة إلى صلاح الدين ورجاله وهم من الأكراد[٨٩]، بيد أن هذا الرأى لا ينطبق على الواقع فى شئ، إذ أن التسمية ذاتها كانت موجودة حتى من قبل العصر الأيوبى ونجدها تتردد فى مصادر تاريخية سابقة زمنياً على ذلك العصر[٩٠]. ومن المرجح أنها وجدت منذ عهد المرداسيين عندما عهدوا بأمر ذلك الحصن لمجموعة من الأكراد فعرف بحصن الأكراد.

وقد اتصف حصن الأكراد بالحصانة والمنعة واحتوى على ثلاثة أسوار[٩١]، وثلاث باشورات[٩٢]، وقد استولى الصليبيون على الحصن المذكور فى عام ١١١٠م/ ٥٠٣هـ[٩٣]، الأمر الذى أدى إلى زيادة قوتهم فى المنطقة التى وقع فيها ذلك الحصن.

وقد حصلت هيئة الاسبتارية Hospitallers على حصن الأكراد فى عام ١١٤٢م/ ٥٣٧هـ على الأرجح[٩٤]، وحاول الأيوبيون إخضاعه دون جدوى، وكان سقوطه فى قبضة المسلمين فى عهد السلطان الظاهر بيبرس البندقدارى وذلك فى شعبان عام ٦٦٩هـ/ أبريل ١٢٧١م[٩٥].

والجدير بالذكر أن عز الدين بن شداد يقدم لنا مادة تاريخية قيمة فيما يتصل بظروف سقوط حصن الإكراه، وذلك من خلال معاصرته لتلك الأحداث وارتباطه بالسلطان الظاهر بيبرس الذى خصه برعايته مثلما أسلفت الإشارة من قبل.

وقد ذكر أن السلطان الظاهر بيبرس نزل على الحصن المذكور، ونصب عليه المجانيق[٩٦] وغيرها من أدوات الحصار وواصل مواجهة الصليبيين به إلى أن تمكن المسلمون من هدم الأسوار، ثم أعقب ذلك، سقوط الباشورات[٩٧]، ويشير ذلك

الجغرافى إلى أن العساكر قد دخلوا الحصن بالسيف «وقتلوا من فيه من الاستيمار»[٩٨] وقام السلطان بالعفو عن عناصر الفلاحين وذلك من أجل القيام بإعادة تعمير المنطقة التى[٩٩] أصابها التخريب من خلال المواجهة الحربية بين المماليك والصليبيين.

وبالإضافة إلى ذلك، تناول ذلك الجغرافى أحد الحصون الصليبية الهامة فى جنوب مملكة بيت المقدس الصليبية ونعنى به حصن الكرك، وقد أوضح أنه كان ديراً للمسيحيين[١٠٠]، وأن الصليبيين زادوه تحصيناً، وتناول مناعته، وحصانته، وذكر أن له ربض عليه سور، وأن الحصن وربضه على جبل، ومن مظاهر مناعته أنه بينه وبين ربضه خندق عميق يبلغ نحو ستين ذراعاً[١٠١]، كما ذكر خطورته من حيث أن الصليبيين فيه كانوا يشنون الغارات على ما داناهم من القرى والضياع المسلمة للقيام بعمليات السلب والنهب[١٠٢].

ومن المعروف أن حصن الكرك أو Krak de Montrial، قد وقع عند الطرف الجنوبى من البحر الميت، وذلك على بعد مائة وواحد وعشرين كيلو متراً جنوبى مدينة حماة، ويبلغ ارتفاعه فوق سطح البحر ثلاثة الاف ومائة من الأقدام، فى موقع حصين، وقد أحاطت به أجراف طبيعية من الجهات الشرقية والغربية والجنوبية، أما الجهة الشمالية، فقد أحاط به خندق اصطناعى ثم حفره فى الصخر الصلد[١٠٣].

ويلاحظ أن للحصن المذكور أربعة أبراج، يشرف كل برج منها على أحد المداخل التى كانت تؤدى إلى المدينة، وتألف الحصن من قاعات، وغرف، وكذلك اسطبلات للخيول، وسجون وأماكن مخصصة للراحة[١٠٤].

وقد استولى الصليبيون على ذلك الحصن، وأضافوا إليه عدداً من التحصينات، فى عام ١١٤٢م/ ٥٣٧هـ، وتولى ذلك الأمير باين ساقى الملك فولك آنجو Fulk of Anjou (١١٣١-١١٤٤م/ ٥٢٦-٥٣٩هـ) ملك بيت المقدس الصليبية[١٠٥].

كذلك تعرض عز الدين بن شداد لقلعة تبنين أو Toron فى المصادر التاريخية الصليبية، ووصفها بالمنعة والحصانة(١٠٦).

والجدير بالذكر أن قلعة تبنين، وقعت على بعد سبعة عشر ميلاً من بانياس، الداخلية إلى الجنوب الشرقى منها فى مواجهة ساحل صور(١٠٧)، وقد تم بناء تلك القلعة فى عام ١١٠٤م/ ٤٩٨هـ من أجل القيام ببعض العمليات العسكرية الموجهة إلى مدينة صور، وذلك اعتماداً على ما أورده وليم الصورى William of Tyre(١٠٨)، وقد حصل الاستبارية عليها فى عام ١١٥٧م/ ٥٥٢هـ عندما أعطاها لهم الأمير همفرى أوف تبنين(١٠٩) Humphry of Toron .

وقد امتازت قلعة تبنين بحصانتها، ومناعتها(١١٠)، وتمكن المسلمون من اسقاطها عام ٥٨٣هـ/ ١١٨٧م(١١١)، وفيما بعد أعطاها الصالح إسماعيل للصليبيين، وذلك فى ظروف صراعه مع السلطان نجم الدين أيوب نظير مساعدتهم له ضد مصر وحلفائها(١١٢)، وظلت فى أيديهم إلى أن تمكن السلطان الظاهر بيبرس من استردادها فى عام ٦٦٤هـ/ ١٢٦٦(١١٣).

ومن جهة أخرى، أشار عز الدين بن شداد، إلى حصن شقيف أرنون(١١٤)، وهو من الحصون الصليبية المنيعة.

وقد وقع الحصن المذكور على جبل عاملة فى القسم الشمالى منه حيث يفصله نهر الليطانى شمالى فلسطين(١١٥)، وقد هيأ له موقعه، القيام بدور دفاعى عن أملاك الصليبيين فى المنطقة المجاورة له، حيث وقع بالقرب من مدينة صيدا(١١٦).

وقد احتوى حصين الشقيف على تكوينات معمارية هامة، جعلته واحداً من أحصن القلاع والحصون الصليبية فى بلاد الشام، وكان شكله مثلث الزوايا، وبلغ طوله مائة وسبعين متراً أما عرضه فقد بلغ سبعين متراً وقد حفرت عنده صهاريج المياه من

أجل توفيرها للمدافعين، كما حفرت آبار فى الصخور، بالإضافة إلى وجـود آبار فى داخل القلعة لتوفير المياه عن طريق الأمطـار السـاقطة، وفى جنـوب الحصن؛ وجـدت آثـار خندق محفور ليعوق تقدم المهاجمين، كذلك كانت هناك حظائر للخيول ودواب الفرسـان[١١٧]. وبالإضافة إلى كل ذلك، نعرف أن الحصن قد احتوى على عدة أبـراج بارزة وعلى عنصر السـقاطات عند الأسـوار والأبـراج، وبذلك تشـابه مع وضـع حصـن الأكراد.

وتجدر الإشارة إلى أن حصن الشفيف قد سقط فى قبضة المسلمين فى أعقاب معركة حطين عام ٥٨٣هـ/ ١١٨٧م، بيد أنه عاد فيما بعد للسيطرة الصليبية، وإن أخضعه المسلمون نهائياً لهم فى عهد السلطان الظاهر بيبرس عام ٦٦٦هـ/ ١٢٦٨م[١١٨].

من جهة أخرى، أشار عز الدين بن شداد لقلعة صفد[١١٩]، وتناول حصانتها، وسـيطرة هيئـة الداويـة عليها، كما تناول تفاصيل استيلاء المسلمين بقيادة الظاهر بيبرس عليها.

وقد وقعت قلعة صفد على بعد ثمانية أميال من بحيرة طبرية، وهيأ لها موقعها الإشراف على كافة الأراضى الواقعة فى منطقة الجليل بشمال فلسطين، ثم أنها كانت فى منطقة واقعة بين مدينة عكا على الساحل الفلسطينى، ودمشق[١٢٠]، وقد هيأ لها ذلك الموقع أهمية استراتيجية خاصة.

وقد وقع خلاف بين المؤرخين بشأن قلعة صفد، فعلى الرغم من أن المملكة اللاتينية قد عهدت بأمرها لهيئة الداوية إلا أن التحديد الزمنى لذلك ثار بشأنه الخلاف، وقد أشار عز الدين بن شداد إلى أن قلعة صفد قد بناها الداوية عام ٤٩٥هـ/ ١١٠١م[١٢١]، ونقل عنه العثمانى تلك الرواية دونما تمحيص[١٢٢]. ولكن من

الواضح تماماً أن كلاً منهما قد وقع فى الخطأ، إذ أن تنظيم الداوية لم يكن قد ظهر بعد إلى حيز الوجود حينذاك؛ لأن ذلك التنظيم قد تأسس عام ١١١٩م/ ٥١٣هـ.

وقد اختلف الباحثون فى تاريخ حصول الداوية على قلعة صفد، فهناك من رأى أن ذلك قد وقع عام ١١٦٧م/ ٥٦٣هـ(١٢٣)، أما براور، فقد رأى أن ذلك تم عام ١٢٤٠م/ ٦٣٨هـ(١٢٤)، وفى تقديرى أن الرأى الأول هو الأصح، إذ أنه خلال ذلك الحين عهدت مملكة بيت المقدس الصليبية فى عهد الملك الصليبى عمورى بالعديد من القلاع والحصون لتلك الهيئات الحربية مثل الداوية والاسبتارية، ومن المستبعد منطقياً أن تنتظر المملكة حتى قرب منتصف القرن الثالث عشر الميلادى/ السابع الهجرى من أجل القيام بذلك، إذ أن احتياجاتها الأمنية الملحة خلال القرن الثانى عشر الميلادى/ السادس الهجرى من خلال اشتداد أمر حركة المقاومة الإسلامية، هى التى جعلتها تقوم بذلك خلال القرن المذكور.

والجدير بالذكر، أن السقوط النهائى لقلعة صفد فى قبضة المسلمين حدث فى عهد السلطان الظاهر بيبرس فى عام ٦٦٤هـ/ ١٢٦٦م(١٢٥).

أما القلاع الإسلامية، فقد أشار عز الدين بن شداد إلى قلعتى حلب والطور، وقدم تفاصيل هامة عنهما.

ويرتبط فى وصفه لقلعة حلب جانبان هامان هما الجانب الأثرى، والجانب التاريخى، ونجده يذكر التطورات المعمارية التى طرأت على القلعة مع تعاقب القوى السياسية؛ على حكم المدينة، وكل ذلك بتفاصيل ثرية لم نعهدها فى كتابات الجغرافيين المسلمين فى ذلك العصر، وتفوق فى هذا المجال على الإشارات التى قدمها ياقوت الحموى على الرغم من ارتباط الأخير بحلب.

وقد أشار إلى أن سيف الدولة الحمدانى قد أقام بها بعض المواضع عندما قام ببناء سور المدينة[١٢٦]، كما أن المرداسيين أقاموا هم أيضاً بها دوراً وجددوا أسوارها[١٢٧]، بيد أن التطور البارز فى أمر عمارة قلعة حلب ارتبط بعهد الملك الظاهر غازى ابن صلاح الدين الأيوبى، إذ أنه أقام جسراً ممتداً من القلعة إلى البلد وبنى برجين لم يتم بناء مثلهما من قبل، وأقام للقلعة كذلك ثلاثة أبواب حديدية. وأقام بها أماكن مخصصة للجنود وأرباب الدولة، وخصص فيها مكان لآلات الحرب، بالإضافة إلى أنه فتح فى سورها باباً سماه باب الجبل[١٢٨].

وبالإضافة إلى كافة تلك التجديدات، نعرف من خلال ذلك الجغرافى الحلبى أن الملك الظاهر غازى أقام بالقلعة مصفاً كبيراً للماء وكذلك مخازن للغلال، وقام بسفح تل القلعة وبناه بحجر يسمى الهرقلى، وقام بتعلية بابها، وكان من قبل قريباً من أرض المدينة[١٢٩].

وهكذا قدم لنا عز الدين بن شداد عرضاً مهماً لتطور عمارة قلعة حلب، وكان من الطبيعى أن تنال منه اهتماماً خاصاً مع ارتباطه بتلك المدينة مولداً ونشأة. ومن الواضح كذلك أن عهد الملك الظاهر غازى يعد وبحق أهم مرحلة من مراحل تطور تلك القلعة الحصينة.

أما قلعة الطور، فقد أوضح أن الملك العادل أبو بكر قام ببنائها على جبل الطور، وكانت توصف بالحصانة، والمنعة، ثم خربها من بعد ذلك[١٣٠].

وهكذا، قدم عز الدين بن شداد، تناولاً هاماً للقلاع الصليبية والإسلامية فى بلاد الشام فى عصر الحروب الصليبية، ومن الجلى البين أنه اهتم بعنصر القلاع اهتماماً خاصاً، ولا أدل على ذلك من أنها شملت قسماً كبيراً من كتابه وفصل أمرها، فجاء تناوله عوضاً عن الإشارات المقتضبة التى وجدناها لدى الجغرافيين المسلمين الذين قدموا إلى بلاد الشام فى ذلك العصر.

وبالإضافة إلى كافة الجوانب السابقة التي تعرض لها ذلك الجغرافي هناك أيضاً جانب هام يتصل بالمزارات الدينية وقد أوضحها بالنسبة للأديان الثلاثة، اليهودية، والمسيحية، والإسلام.

ومن أمثلة المزارات اليهودية إشارته إلى وجود قبر يوشع بن نون في مشهد هناك، وقد ذكر أن الملك الظاهر غازى قام بتجديد عمارته(١٣١).

أما المزارات المسيحية، فهناك، كنيسة القيامة والتى وصفها بأنها «الكنيسة العظمى»، وأشار إلى أنها من عجائب الدنيا من الناحية المعمارية(١٣٢). كذلك تعرض لكنيسة اليعاقبة بالقدس. وقد ذكر أنه يقال إن السيد المسيح عليه السلام قد اغتسل بها(١٣٣)، وكذلك عين سلوان التي شبه ماءها بماء زمزم(١٣٤). وكنيسة السليق التى أشار إلى أن السيد المسيح رُفع منها إلى السماء(١٣٥)، ثم كنيسة صهيون التى ذكر أن المائدة نزلت على المسيح والحواريين بها(١٣٦)، أما وادى جهنم فقد أشار إلى أن به قبر السيدة مريم العذراء أم المسيح(١٣٧).

ومن الملاحظ بشأن المزارات التى أوردها عز الدين بن شداد، وخاصة المزارات اليهودية، والمسيحية، أنه أوجز الحديث فيها، ولم يقدم وصفاً مفصلا لأحد تلك المزارات، وذلك على عكس الإدريسى الذى قدم وصفاً مهماً لعدد من الكنائس المسيحية فى فلسطين فى القرن الثانى عشر الميلادى/ السادس الهجرى.

أما المزارات الإسلامية؛ فقد أشار إلى أن بمدينة غزة قبر هاشم بن عبدمناف(١٣٨)، وهو أمر كثيراً ما أشار إليه الجغرافيون المسلمون فى ذلك العصر. كما ذكر وجود مشهد يونس، ومشهد الحسين، ومشهد الثلج، وكذلك مقام إبراهيم، ومشهد الخضر فى حلب(١٣٩) وقد حرص على إيراد العديد من المشاهد والمقامات التى يقوم الأهلون بزيارتها تبركاً فى ذلك الحين، لاسيما فى حلب بشمال الشام حيث اهتم عز الدين ابن شداد بمزاراتها على نحو خاص.

وهناك ناحية جديرة بالدراسة، تتعلق بموقف عز الدين بن شداد من تلك المزارات، ومدى تأييده لوجود بعضها وصحة ذلك من عدمه، وفي هذا المجال نجده يشير إلى الوضع الذى يتشكك أصلاً فى صحته على اعتبار أنه «زعم»، ومن الأمثلة الدالة على ذلك أنه عندما تناول قبر يوشع بن نون فى معرة النعمان ذكر الأمر على أنه «فيما زعموا»[١٤٠]، وتكرر الموقف عندما أشار إلى أحد المزارات الإسلامية فى حلب ونعنى به مسجد الغوث إذ ذكر أن به كتابة «يزعم» البعض أنها من خط الإمام على بن أبى طالب[١٤١].

ولم يقف الأمر عند ذلك الجغرافى إلى هذا الحد، بل إنه كان يصحح المعتقدات والآراء، ففى إشارته إلى وجود قبر مالك بن الأشتر النخفى فى بعلبك ذكر ذلك ثم أشار مباشرة إلى أن «الأصح أنه بالمدينة»، وهو يتشابه فى كل ذلك مع موقف ياقوت الحموى فى معجم البلدان عندما اتجه إلى نقد مواضع بعض المزارات التى قصدها العامة، وعمل على تصحيح ذلك.

وبالإضافة إلى ذلك، هناك المزارات العلاجية، وفى هذا المجال أشار إلى حمامات طبرية؛ ذات المياه الحارة، وذكر قدرتها العلاجية على علاج المجذومين وأصحاب العاهات[١٤٢]، وتعتبر إشارته فى هذا المجال أكثر تفصيلاً مما أورده الإدريسى، وبصفة عامة حظيت مياه حمامات طبرية بشهرة واسعة فى ذلك العصر؛ على نحو جعل كافة الجغرافيين المسلمين يشيرون إليها بصور مختلفة بين الاقتضاب تارة والتفصيل تارة أخرى.

أما ما اتصل بالخريطة العقائدية لبلاد الشام فى عصر الحروب الصليبية، ونجده قد أشار إلى عناصر الاسماعيلية النزارية وذكر دور بهرام الاستراباذى مقدم الاسماعيلية وقدرته على الاختفاء والاستقرار، واتصاله بظهر الدين طغتكين أتابك دمشق الذى سلمه بانياس[١٤٣]. كما تعرض لدور الاسماعيلية فى الصدام الحربى مع عناصر الدروز وذلك

عام ٥٢٢هـ/ ١١٢٧م(١٤٤)، كما تعرض عز الدين بن شداد لمحاولة الاسماعيلية النزارية اغتيال السلطان الناصر صلاح الدين الأيوبى فى اعزاز عام ٥٧١هـ/ ١١٧٥م(١٤٥)، وفشل تلك المحاولة.

والواقع أن بهرام الاستراباذى مثل أحد القيادات الاسماعيلية فى بلاد الشام، لاسيما فى مدينة دمشق، ويكاد يجمع المؤرخون على تمتعه بقدرة هائلة على التحرك والنشاط السرى متخفياً بتغيير ثيابه، وملامحه، وتوافرت لديه القدرة على التستر(١٤٦)، الأمر الذى جعله «يطوف البلاد والمعاقل، ولا يعرف شخصه»(١٤٧).

ومن الملاحظ أن الأتابك ظهير الدين طغتكين – أتابك دمشق – تعاون مع بهرام ومثل معه نفس الدور الذى لعبه أتابك حلب رضوان بن تتش مع مقدم الاسماعيلية الحكيم المنجم الباطنى، كما أن إحدى الشخصيات السياسية الهامة حينذاك وهو الوزير المزدقانى بذلت جهدها من أجل مساعدة الاسماعيلية النزارية(١٤٨)، وأدى ذلك بدوره إلى ازدياد نفوذهم مما ترتب عليه زيادة السخط فى نفوس المسلمين السنيين فى دمشق(١٤٩)، وأدركوا أن الباطنية يسيطرون على مقدرات الحياة السياسية فى دمشق.

وعندما أدرك بهرام الاستراباذى تزايد السخط عليه وعلى أتباعه، أراد أن يجد له مركزاً هاماً محصناً ليكون بديلاً عن دمشق فى حالة طرد الإسماعيلية منها، أو من أجل أن يوازن بين قوة أتباعه فى دمشق وفى المركز الجديد، ولذا نجده قد طلب من طغتكين إعطاءه بانياس(١٥٠)، ويبدو أنه أراد استغلال موقعها الاستراتيجى من أجل أن يقدمها للصليبيين كورقة رابحة من أجل أن يحصل على أية مكاسب سياسية من وراء ذلك. وبالفعل قدم له أتابك دمشق بانياس وذلك عام ٥٢٠هـ/ ١١٢٥م(١٥١).

ويزعم أحد المؤرخين الاسماعيليين المحدثين أن هدف الباطنية من الاستيلاء على بانيـاس، هو رغبتهم فى إيجـاد إمارة تقف فى وجه الصليبيين(١٥٢)، غير أن هذا القول لا يستند إلى أى أساس من الواقع التاريخى، لسبب بسيط، وهو أن الباطنية عندما

تعرضوا للضغوط الإسلامية السنية فى مذبحة دمشق - فيما بعد - سرعان ما قاموا بتسليم بانياس للصليبيين مما عكس حقيقة واضحة وهى أن الصليبيين فى ذلك الحين لم يكن لهم أى وضع فى مخططات السياسة الإسماعيلية، ولم يفكر الاسماعيلية فى معاداتهم خلال تلك المرحلة.

أما فيما يتصل بالصدام الحربى بين الإسماعيلية، والدروز، عام ٥٢٢هـ/ ١١٢٧م فقد كشف عن مواجهة عنيفة بينهما، وكان وادى التيم قد شهد نشاطاً واضحاً للعناصر الدرزية، ومن بين الأسرات الحاكمة حينذاك كانت أسرة درزية هامة وهى الأسرة الجندلية، وعلى رأسها الضحاك بن جندل البقاعي الذى انتهت إليه رئاسة وادى التيم حينئذ، وبسبب الصراع التقليدى على قضية الأخذ بالثأر، تقدم بهرام الاستراباذى إلى هناك، فتصدى له الضحاك، وتمكن الأخير من إلحاق الهزيمة بعناصر الاسماعيلية، وعادت فلول المنهزمين «على أقبح صورة»(١٥٣)، كما يصفهم ابن الأثير، وقد قتل بهرام فى أحداث المعركة(١٥٤)، ففقدت عناصر الاسماعيلية النزارية واحداً من كبار قياداتها.

وقد وقعت أحداث ذلك الصدام بين الاسماعيلية والدروز عام ٥٢٢هـ/ ١١٢٧م؛ أى بعد حصول الاسماعيلية على بانياس، مما يدعم فكرتنا فى أن ازدياد نفوذ الاسماعيلية السياسى عقب حصولهم على بانياس شجعهم على محاولة فرض سيطرتهم على العناصر الدرزية فى وادى التيم.

أما فيما يتصل، بمحاولة الاسماعيلية اغتيال صلاح الدين الأيوبى فى اعزاز عام ٥٧١هـ/ ١١٧٦م(١٥٥)، فنعرف أن اعزاز كانت من أهم مراكز التواجد الاسماعيلى فى بلاد الشام خلال عصر الحروب الصليبية، وقد بذل الجيش الأيوبى مجهودات مضنية من أجل حصارها الذى استمر نحو ثمانية وثلاثين يوماً وفق ما قرره ابن واصل(١٥٦).

وكانت اعزاز عامرة بالمدافعين والأسلحة، وقد أظهرت عناصر الباطنية دفاعاً كبيراً عن مركزها، وتمكنت من إرسال الفداوية من أجل اغتيال السلطان صلاح الدين الأيوبى، ولكن قدر له النجاة، ولم يكن صلاح الدين يصدق أن خناجر الفداوية لم تصبه فى مقتل(١٥٧).

وتبقى زاوية أخيرة، حرص عز الدين بن شداد على أن يتعرض له ضمن تناوله للجغرافيا التاريخية لبلاد الشام فى ذلك العصر، ونعنى بها المؤسسات التعليمية والدينية، سواء المدارس، أو المساجد، والخانقاوات، والربط.

والجدير بالذكر هنا، أن عصر الحروب الصليبية فى بلاد الشام قد شهد صحوة دينية إسلامية واضحة المعالم، من خلال المواجهة مع الصليبيين، ومن سمات تلك الصحوة؛ الاهتمام بحركة تشييد المدارس، والمساجد، والخانقاوات، والربط، والزوايا إلى غيرها من العمائر الدينية، وكان من الطبيعى أن نجد ذلك الجغرافى الحلبى يحرص على إيراد تلك الظاهرة.

وقد تعرض عز الدين بن شداد للمدارس المقامة فى بلاد الشام، وإن أعطى اهتماماً خاصاً لمدينة حلب، ونجده قد أورد مدارس الشافعية، والحنفية، والمالكية والحنابلة. وفى هذا المجال من الواضح أنه خصص للمدارس قسماً هاماً من «الأعلاق»، وهكذا يمكن القول إن العمائر الحربية فى صورة القلاع، والحصون، سواء لدى المسلمين أو الصليبيين، وكذلك العمائر التعليمية والدينية حظيت بأكبر قدر من اهتمام ذلك الجغرافى على نحو ميز منهجه فى هذا الصدد.

ومن المدارس التى أشار إليها، نذكر على سبيل المثال، المدرسة الزجاجية التى أسسها بدر الدولة(١٥٨) أبو الربيع سليمان ابن عبدالجبارين ارتعه عام ٥١٦هـ/ ١١٢١م. ثم المدرسة النقرية النورية، التى أقامها نور الدين محمود عام ٥٤٤هـ/ ١١٤٩م(١٥٩).

أما المساجد، فنجده يشير إلى المئات منها في حلب، وإن أعطى اهتماماً خاصاً بالمسجد الجامع فيها، وقد قرر أن موضعه كان في الأصل بستاناً للكنيسة العظمى في عهد البيزنطيين، وعندما فتح المسلمون حلب صالحوا أهلها من أجل أن يشيدوا ذلك المسجد في الموضع المذكور(١٦٠)، وقد قرر أن جامع حلب كان يضاهي جامع دمشق من حيث أعمال الزخرفة، والفسيفساء(١٦١)، وتكشف تلك العبارة تحمسه لمدينته، وتصوره لجمال أبنيتها على نحو لا نقف أمامها منافسة المدن الأخرى حتى دمشق؛ عاصمة الشام التاريخية.

وقد أشار ذلك الجغرافي لبعض المراحل التاريخية التي مرت على المسجد الجامع في حلب، من ذلك أن عناصر الاسماعيلية قامت بإحراقه في عام ٥٦٤هـ/ ١١٦٨م(١٦٢). وكذلك قامت بإحراق الأسواق، فقام نور الدين محمود بإعادة بنائه واجتهد في عمارته، ولا أدل على ذلك من أنه نقل إليه أعمدة من قنسرين(١٦٣)، كذلك عمل على توسعة الجامع المذكور على نحو جعله حسناً في أعين الناظرين(١٦٤).

أما الخانقاوات، فقد تناول العديد منها، وكانت مخصصة لعناصر المتصوفة، الذين ارتفع شأنهم بصورة كبيرة في ذلك العصر، ومن الخانقاوات الحلبية. هناك خانقاة العصر التي أقامها نور الدين محمود(١٦٥) وسميت بذلك الاسم لأنها كانت مكان قصر بني من قبل تشييدها. وهناك أيضاً خانقاة البلاط انشأها شمس الخواص لؤلؤ الخادم(١٦٦).

ومن الجوانب الهامة فيما أورده ذلك الجغرافي الحلبي أنه أشار إلى خوانق للنساء في حلب. ومن أمثلتها خانقاة أنشأتها فاطمة خاتون بنت الملك الكامل(١٦٧)، وكذلك خانقاة أقامتها ضيفة خاتون بنت الملك العادل(١٦٨)، على نحو عكس حرص نساء البيوت المالكة على إقامة مثل تلك العمائر الدينية.

أما الربط، فنجد أنه ذكر بعضها فى حلب، ومن أمثلة تلك العمائر الدينية التى ارتبطت فى بدايتها بأعمال المرابطة والجهاد، ثم تخلت عن صفتها الحربية وصارت ذات صفة دينية، هناك رباط أقامه الأمير سيف الدين على علم الدين[١٦٩]، ثم رباط آخر يعرف برباط الخوام، وصفه بأنه تحت قلعة حلب[١٧٠]، ثم رباط ثالث، وصفه عز الدين بن شداد بأنه قريب من مدرسة النفرى[١٧١]. ولم يحدده بأكثر من ذلك.

وهكذا، قدم لنا ذلك الجغرافى الحلبى تصورات هامة بشأن مدن بلاد الشام المتعددة والعمائر التى بها سواء الحربية أو التعليمية أو الدينية، واحتوى تناوله على العديد من الجوانب الاقتصادية والحربية، والسياسية، والمذهبية، على نحو ضمن له مكانة متميزة من بين الجغرافيين المسلمين؛ فى بلاد الشام فى عصر الحروب الصليبية على مدى القرنين السادس والسابع الهجرى/ الثانى والثالث عشر الميلادى.

الهوامش

(١) عن مصادر ومراجع ترجمة عز الدين بن شداد أنظر :

اليونيني البعلبكي، ذيل مرآة الزمان، حـ٤ ، ص٢٧٠-٢٧١؛ الذهبي، العبر، حـ٥، ص٣٤٩؛ ابن كثير، البداية والنهاية، حـ١٣ ، ص٣٠٥؛ الصفدي، الوافي بالوفيات، حـ٤ ، باعتناء ديدرينغ، ط. فسبادن ١٩٥٩م، ص١٨٩-١٩٠؛ ابن الفرات، تاريخ الدول والملوك، حـ٨، تحقيق نجلاء عز الدين رزيق، ط. بيروت ١٩٣٩م، ص٣٣؛ ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، حـ٥، ص٣٨٨؛ عبدالله نبهان، الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة لابن شداد، عالم الكتب، م (١٣)، العدد (١٤)، المحرم - صفر ١٤١٣هـ/ يوليو- أغسطس ١٩٩٢م، ص٣٩٦؛ أحمد حطيط، سيرة الظاهر بيبرس لعز الدين محمد بن علي بن شداد، ط. بيروت ١٩٨٧م، ص١٧؛ حبيب الزيات، في تاريخ مملكة حلب، المشرق، العدد (٣٢)، عام ١٩٣٤م، ص٥٠٥-٥٠٩.

Brockelmann, Geschichte de Arabischen Literature, T.I, p. 482, S., II, p. 1042; Cahen, "La Djazira au milieu du Treizieme siecle d'apreès Izz ad-Din Ibn Chaddad", R.E.I., Année 1934, p. 109-128.

(٢) كراتشكوفسكي، تاريخ الأدب الجغرافي العربي، ص٤٠١ ، أحمد حطيط، المرجع السابق، ص١٧.

(٣) كراتشكوفسكي، المرجع السابق، ص٤٠١.

(٤) عبدالله نبهان، المرجع السابق، ص٣٩٧؛ أحمد حطيط، المرجع السابق، ص١٧.

(٥) عبدالله نبهان، المرجع السابق، ص٣٩٧.

(٦) ابن شداد، الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة، حـ١/ق١ ، تحقيق يحيى زكريا عبارة ط. دمشق ١٩٩١م، ص٣٠.

(٧) نفسه، نفس المصدر، والصفحة؛ وللباحث اللبناني أحمد حطيط دراسة هامة عن ذلك الكتاب أشرت إليها في الهوامش السابقة.

(٨) ابن شداد، المصدر السابق، ص٣٠-٣١؛ أيمن فؤاد سيد، مصادر تاريخ اليمن في العصر الإسلامي، ط. القاهرة ١٩٧٣م، ص١٢٩.

(٩) ابن شداد، المصدر السابق، ص٣١.

(١٠) عن الجهود التحقيقية التى قام بها الباحثون الفرنسيون والسوريون، حيال ذلك الكتاب الهام، نعرف أن المستشرق الفرنسى دومنيك سورديل D. Sourdel قام بتحقيق القسم الأول من كتاب الأعلاق الخطيرة المخصص لتاريخ حلب؛ وصدر عمله من جانب المعهد الفرنسى للآثار الشرقية بدمشق عام ١٩٥٣م، ثم قام الباحث السورى سامى الدهان بتحقيق الجزء الأول من الكتاب الخاص بدمشق، وصدر عمله من جانب نفس المعهد المذكور فى جزءين، الأول عام ١٩٥٦م، والثانى عام ١٩٦٤م، ومن بعد ذلك قام باحث سورى آخر على جانب كبير من المهارة فى مجال تحقيق التراث، ونعنى به يحيى زكريا عبارة بتحقيق الجزء الخاص بتاريخ الجزيرة والموصل، وصدر عمله من جانب وزارة الثقافة السورية بدمشق عام ١٩٧٨م، كما أنه حقق الأعلاق فى صورة الجزء الأول، القسم الأول والجزء الأول، القسم الثانى، وصدر عمله من جانب وزارة الثقافة السورية أيضاً فى دمشق عام ١٩٩١م. وفى هذا الفصل أفدت بصورة واضحة من جهود كل من سامى الدهان ويحيى زكريا، مع عدم إغفال جهد دومنيك سورديل الريادى فى هذا الصدد. عن الجهود التحقيقية للأعلاق الخطيرة أنظر :

ابن شداد، المصدر السابق، حـ١/ق١، تحقيق يحيى زكريا، مقدمة التحقيق؛ عبدالله نبهان، المرجع السابق، ص٣٩٨.

(١١) ابن شداد، المصدر السابق، حـ١/ق١، ص٣٧. من مقدمة التحقيق.

ويلاحظ أن كراتشكوفسكى يقرر أن ابن شداد قد انتهى من الجزء الأول الذى خصصه لشمال الشام، فى عام ٦٧٣هـ/ ١٢٧٤م، أما الجزء الثانى فقد جعله منصباً على جنوب الشام، وقد انتهى عام ٦٧٤هـ/ ١٢٧٥م. أنظر، كراتشكوفسكى، المرجع السابق، ص٤٠٢.

(١٢) أنظر الفصل الخاص بياقوت الحموى.

(١٣) ابن رسته، هو أبو على أحمد بن عمر، عالم عربى من أصل فارسى، عاش فى النصف الثانى من القرن الثالث هـ/ التاسع الميلادى، ومن المعروف أنه عاش فى أصفهان، وقام بالحج إلى بيت الله الحرام وذلك فى عام ٢٩٠هـ/ ٩٠٣م، ثم اتبعه إلى المدينة المنورة، ويقال إنه ألف كتابه الأعلاق النفيسة حوالى ذلك العام، ويلاحظ أنه لم يصل إلينا من كتابه إلا الجزء السابع فقط، وهو الذى عمل دى جويه على تحقيقه، عن ابن رسته أنظر :

تقديم وتحقيق دى جويه لكتاب الأعلاق النفيسة، دائرة المعارف الإسلامية، مادة ابن رسته، حـ١، ص٢٨٥.

(١٤) روزنتال، علم التاريخ عند المسلمين، ت. صالح العلي، ط. بيروت ١٩٨٣م، ص٢١٥.

(١٥) بهاء الدين بن شداد، هو بهاء الدين أبو المحاسن يوسف بن رافع بن تميم اشتهر بابن شداد، لأن شداد جده لأمه، وقد توفى أبوه وهو طفل صغير وقد تكفل بتربيته أخواله بنو شداد ولذا فقد نسب إليهم، وقد ولد ابن شداد فى الموصل عام ٥٣٩هـ/ ١١٤٥م، وقد تلقى علومه الأولى فى الموصل ودرس العلوم الدينية على نحو خاص، وقد توطدت علاقته بالسلطان الناصر صلاح الدين الأيوبى حتى جعله قاضياً لعسكره وللقدس الشريف، وظل ابن شداد ملازماً له لا يفارقه ليلا أو نهاراً إلى أن أدركته وفاته، ويلاحظ أنه كان مقيماً إلى جوار السلطان الأيوبى ومعه القاضى الفاضل حتى فى أيام مرضه الأخير، ومن بعد وفاة صلاح الدين الأيوبى لعب ابن شداد دوراً بارزاً فى التقريب بين أبنائه من أجل العمل على تماسك الجبهة الإسلامية فى مواجهة الصليبيين، وقد ألف ابن شداد عدداً من المؤلفات مثل دلائل الأحكام، ومبدأ الحطام عند التباس الأحكام، ودروس فى الحديث، وكتاب العصا (المقصود موسى وفرعون) وفضائل الجهاد، وأسماء الرجال الذين فى المهذب للشيرازى، والنوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية. عن بهاء الدين بن شداد أنظر :

تقديم جمال الدين الشيال، لكتاب النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، ط. القاهرة ١٩٦٤، ص٣-١٠، ابن خلكان، وفيات الأعيان، جـ٧، تحقيق إحسان عباس، ص٨٤.

(١٦) من الباحثين الذين خلطوا بين بهاء الدين بن شداده (ت ٦٣٢هـ/ ١٢٣٩م)، وعز الدين بن شـداد (ت ٦٨٤هـ/ ١٢٨٥م)، ماجـد، العـلاقات بين الشرق والغرب فى العصور الوسطى، ط. بيروت ١٩٦٦م، ص٢٧١؛ على أحمد، الأندلسيون والمغاربة فى بلاد الشام، ط. دمشق ١٩٨٩م، ص٣٢٨؛ السعيد الورقى، مصادر التراث العربى، ط. الاسكندرية ١٩٩٠م، ص١٥٦. والأخير يقول إن بهاء الدين بن شداد له مؤلف الأعلاق الخطيرة فى تاريخ الجزيرة، فأخطأ بالتالى فى نسبة المؤلف إلى كتابه وكذلك فى عنوان الكتاب الذى هو الأعلاق الخطيرة فى ذكر أمراء الشام والجزيرة.

(١٧) اليعقوبى، هو أحمد بن أبى يعقوب جغرافى ومؤرخ عاش فى القرن الثالث الهجرى/ التاسع الميلادى، قام بعدة رحلات إلى مناطق أرمينيا وإيران والهند ومصر وبلاد المغرب، وقد ألف كتابه البلدان، وكتب فيه ملاحظاته على المناطق التى قام بمشاهدتها كما أن له كتاباً فى مجال التاريخ ويعرف بتاريخ اليعقوبى عنه أنظر :

تقديم تاريخ اليعقوبي، ط. بيروت ب-ت، الموسوعة العربية الميسرة، بإشراف شفيق غربال، ط. القاهرة، ١٩٦٥م، ص١٩٨٣ . أنظر : الإفادة منه في الأعلاق، حـ١/ق ص٣٧-٣٨.

(١٨) البيروني، هو أبو الريحان محمد بن أحمد، مؤلف عربي من أصل فارسي، وقد ولد في ذى الحجة عام ٣٦٢هـ/ سبتمبر ١٩٧٣م، بنواحي خوارزم، وقد درس الرياضيات والفلك والطب، والتقاويم والتاريخ، وألف البيروني العديد من المؤلفات كشفت عن موسوعية تكوينه العلمي، منها الآثار الباقية عن القرون الخالية، وكتاب تعريف ما للهند من مقولة، مقبولة للعقل أو مرذولة أو تاريخ الهند، وكتاب القانون السعودى في الهيئة والنجوم كما أن له رسالة بعنوان التفهيم لأوائل صناعة التنجيم، وقد توفى البيروني في ٣ رجب ٤٤٨هـ/ ١٣ ديسمبر ٣٤٨م. عنه أنظر :

دائرة المعارف الإسلامية، «مادة البيروني»، حـ٩، ص٣-٥؛ محمد جمال الدين الفندى، من العطاء العلمي للإسلام، ط. القاهرة ١٩٩٤م، ص٦٥-٧٠. أنظر الاستعانة به في الأعلاق. حـ١/ق١، ص٤٤.

(١٩) المهلبي، هو على بن أحمد المهلبي، كان إماماً في النحو واللغة ورواية الأخبار، وقد عاصر الخليفة الفاطمي العزيز بالله، وطلب منه الأخير تأليف كتاب جغرافي، فكان كتابه العزيزى الذى وصف فيه السودان وصفاً دقيقاً، ووصف بأنه كان رائد المؤلفات في مجاله، ونجد أن عدداً من الجغرافيين المسلمين الذين أتوا من بعده قد أفادوا منه، عن المهلبي وكتابه أنظر :

ياقوت، معجم الأدباء، حـ١١، ط. بيروت ١٩٨٠م، ص٢٢٤-٢٢٦؛ خضر أحمد عطا الله، الحياة الفكرية في مصر في العصر الفاطمي، ط. القاهرة ١٩٨٥م، ص٣٢٠؛ على عبدالله الدفاع، رواد علم الجغرافيا، ص١٢٢-١٢٣؛ سليمان الخطيب، منهج صاعد الأندلسي في دراسة الحضارات، بحث مقدم لحوليات كلية دار العلوم، جامعة القاهرة، عام ١٩٩٢م، ص١٢؛ على حسنى الخربوطلي، العزيز بالله الفاطمي، ط. القاهرة، ص١٢١؛ ومن أمثلة الاستعانة به أنظر، الأعلاق، حـ١/ق١، ص٣٢٩.

(٢٠) عن الهروى، أنظر الفصل الخاص به. أنظر، الاستعانة به في الأعلاق، حـ١/ ق١، ص١٦٩.

(٢١) عن ابن جبير، أنظر الفصل الخاص به. أنظر، الاستعانة به في الأعلاق، حـ١/ق١، ص٤١٢.

(٢٢) محبوب بن قسطنطين، هو محبوب بن قسطنطين الرومي المنجبي، وقد حقق فاسيليف كتابه ونشره فرعسان بطرسبرج عام ١٩٠٨م، من ذلك أنظر :

ابن شداد، المصدر السابق، حـ١/ق١، ص١٢٩، حاشية (١). ومن أمثلة الاستعانة به أنظر، ص١٢٩.

(٢٣) البلاذرى، هو أحمد بن يحيى بن جابر بن داود، وقد اختلف فى كنيته، فهناك من قال إنها جعفر، وهناك من ذكر أنها أبا الحسن، وقد ولد فى بغداد، فى حوالى مطلع القرن الثالث الهجرى/ التاسع الميلادى، حيث كانت تزدهر فيها الحياة العلمية والأدبية بوصفها عاصمة الخلافة العباسية. وقد قام البلاذرى بزيارات لمناطق فى بلاد الشام مثل دمشق، وحمص، وأنطاكية، واستمع إلى عدد من العلماء المعاصرين له مثل محمد بن سعيد، والمدائنى، ومصعب الزبيرى، وغيرهم، ووصف البلاذرى بأنه كان مقرباً من الخليفة المتوكل، كما أنه كان صاحب موهبة شعرية، وقد توفى البلاذرى عام ٢٧٩هـ/ ٨٩٢م. عنه أنظر :

البلاذرى، فتوح البلدان، تحقيق رضوان محمد رضوان، ط. بيروت ١٩٨٣م، ص٦-١٦؛ ابن النديم، الفهرست، ط. بيروت ب-ت، ص١٦٤؛ ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، حـ٣، ص٨٣؛ ابن كثير المصدر السابق، حـ١١، ص٦٥-٦٦؛ إحسان صدقى العمد، البلاذرى، أحمد بن يحيى بن جابر، ط. الكويت ١٩٧٨، (رسالة دكتوراه هامة للغاية عن ذلك المؤرخ)؛ محمد جاسم المشهدانى، موارد البلاذرى عن الأسرة الأموية فى أنساب الأشراف، ط. مكة المكرمة ١٩٨٦م؛ عبدالستار فراج، البلادزرى، مجلة العربى، العدد (٩٩)، الكويت، فبراير ١٩٦٧م، ص٤٥-٤٩؛ فؤاد سزكين، تاريخ التراث العربى، م (١)، ت. محمود فهمى حجازى وفهمى أبو الفضل، ط. القاهرة ١٩٧٧م، ص٥١٣-٥١٤؛ صلاح الدين المنجد، أعلام التاريخ والجغرافيا عند العربى، ص١٧؛ حمد الجاسر، أنساب الأشراف للبلاذرى، الفيصل، العدد (٢٠٢)، ربيع الآخر ١٤١٤هـ/ سبتمبر - أكتوبر ١٩٩٣م، ص٤٤؛ عبد الأمير عيد دكش، الخلافة الأموية (٦٥-٨٦هـ/ ٦٨٤-٧٠٥م)، ط. بيروت ١٩٨٣م، ص١٠.
Sauvaget, Les Historiens Arabes, paris 1946, pp. 12-17.

ومن أمثلة الإفادة من مؤلفات البلادزرى أنظر : الأعلاق، حـ١/ ق١، ص٤٢، ٥٥، ٦٦، ٦٧ وغيرها كثير.

(٢٤) العظيمى، هو أبو عبدالله محمد بن أحمد العظيمى التنوخى الحلبى، ولد فى عام ٤٨٣هـ/ ١٠٩٠م، وقد نشأ فى أسرة كبيرة امتدت جذورها إلى قبيلة تنوخ العربية، وهناك من يقرر أنه من بيت شارك فى الأحداث السياسية التى مرت بها مدينة حلب بشمال الشام فى المرحلة السلجوقية، وقد اختار أن يقوم بتعليم الصبيان فصارت مهنته، وبرع فى الشعر، وعندما وثق فى

موهبته الشعرية سافر إلى دمشق وامتدح حكامها، كما أنه امتدح الأراتقة، وفيما بعد اختص بالأتابك عماد الدين زنكي في حلب، حيث صار شاعراً ضمن حاشيته. وقد ألف العظمى عدة مؤلفات في مجال التاريخ، تتمثل في تاريخ العظيمي، وهو تاريخ عام يغلب عله طابع الاختصار وجعله على الأساس الحولي، ثم كتاب تاريخ حلب، ويبدو أنه كان يقع في مجلدين، ثم كتاب الموصل على الأصل الموصل وهو من كتب التراجم، وقد توفي العظيمي عام ٥٥٨هـ/ ١١٦٣م. عنه أنظر :

ابن العديم، بغية الطلب في تاريخ حلب، القسم الخاص بالأمراء السلاجقة، تحقيق على سويم، ط. أنقرة ١٩٧٦م، ص١٠٨-١٢٨؛ عباس العصيمي، الدولة البورية وعلاقتها بالصليبيين (٤٩٧-٥٤٩هـ/ ١١٠٢-١١٥٤م) رسالة ماجستير غير منشورة، كلية العلوم الاجتماعية، جامعة الإمام، الرياض ١٩٨٧م، ص «هـ» من المقدمة.

Cahen, "La Chronique A Breyée d'Al. Azimi" J.A., 1938, p. 354, Savin, Azimi Tarihi, Ankaru 1988, p. 1 - X.

محمد مؤنس أحمد عوض، المؤرخ الحلبي العظيمي (ت ٥٥٨هـ/ ١١٦٣م) حياته، ومنهجه في الكتابة التاريخية عن بلاد الشام في عصر الحروب الصليبية، مركز بحوث الشرق الأوسط، جامعة عين شمس عام ١٩٩٣م. ومن أمثلة الإفادة من العظيمي أنظر، الأعلاق، جـ١/ ق١، ص١٢٢.

(٢٥) ابن عساكر، هو أبو القاسم على بن الحسن بن هبة الله الشافعي الدمشقي، ولد عام ٤٩٩هـ/ ١٠٠٥، ويعد إمام أهل الحديث في زمانه، وجمع بين معرفة الأسانيد والمتون، وقد طاف بالعديد من أقطار العالم الإسلامي لاسيما بلدان الشرق الإسلامي، طلباً للعلم ولقاء العلماء، ومن بعد ذلك رجع إلى دمشق عام ٥٣٣هـ/ ١١٣٨م، وبلغ عدد الشيوخ الذين أخذ عنهم العلم ما يزيد على ألف ومائتين شيخ بالإضافة إلى ثمانين إمرأة، وقد ألف عدداً كبيراً من المؤلفات مثل التاريخ الكبير في ثمانين مجلد، وتبين كذب المفترى فيما نسب إلى الإمام أبي الحسن الأشعري، كما ألف كتاباً في الشيوخ الذين أخذ عنهم العلم، وقد توفي عام ٥٧١هـ/ ١١٧٦م. عن ابن عساكر أنظر :

ياقوت، معجم الأدباء، جـ٥، ط. القاهرة ب-ت، ص١٣٩-١٤٦؛ مجموعة من الباحثين، ابن عساكر، وقائع المؤتمر الذى عقد في دمشق عن ابن عساكر، ط. دمشق ١٩٧٩م؛ أحمد رمضان، المسجد الأموى بدمشق بين الحقيقة والأسطورة كما جاء في تاريخ ابن عساكر،

الدارة، العدد (٤)، السنة (٥) عام ١٩٨٠م، ص٩٣-١١٤؛ صلاح الدين المنجد، أعلام التاريخ والجغرافيا عند العرب، ط. بيروت ١٩٦٠م، ص٨٨-١٥٧؛ مرجليوث، المؤرخون العرب، ت. حسين نصار، ط. بيروت ب-ت، ص١٦٦؛ كردعلي، الشاميون والتاريخ، مجلة المجمع العلمي بدمشق، م (١٧)، حـ (٣)، حـ (٤)، ص٩٩-١٠٠؛ محمود ماضي، الإمام ابن عساكر، عالم الفكر، م (١٥)، العدد (٤)، محرم - صفر ١٩٩٤م، ص٣٦٩-٣٧٢.

Elisseeff, La Deseription de Damas d'Ibn Asakir, Damas 1959, pp. XVII - XXVIII.

ومن أمثلة الإفادة من ابن عساكر وتاريخه أنظر : الأعلاق، حـ١/ ق١، ص١٩-٢٢.

(٢٦) ابن العديم الحلبي، هو كمال الدين بن العديم، ينتمي إلى أسرة حلبية عريقة، وقد درس العلوم الدينية منذ حداثة عمره، وبرع في التاريخ على نحو خاص، وتعددت مؤلفاته فيه، وفي غيره من العلوم والمعارف، وألف عدة مؤلفات، مثل بغية الطلب في تارخ حلب، وزبدة الحلب من تاريخ حلب، وكتاب الذرارى في الذرارى، وكتاب نفح الطيب في ذكر الطيبات والطيب، وقد توفى ابن العديم في عام ٦٦٠هـ/ ١٢٦١م. عن ابن العديم أنظر :

ابن العديم، بغية الطلب في تاريخ حلب، حـ١، تحقيق سهيل زكار، ط. دمشق ١٩٨٨م، ص٩-١٢؛ ياقوت، معجم الأدباء، حـ٦، ط. القاهرة، ص٥؛ ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، حـ٧، ط. القاهرة، ص٢٠٨؛ اليونيني البعلبكي، المصدر السابق، حـ١، ص٥١٠؛ اليافعي، مرآة الجنان وعبرة اليقظان، حـ٤، ط. حيدر آباد الدكن عام ١٣٤٨هـ، ص١٥٨؛ ابن شاكر الكتبي، فوات الوفيات، حـ٣، تحقيق إحسان عباس، ط. بيروت ١٩٧٣م، ص١٢٦-١٢٩؛ السيد عبدالعزيز سالم، التاريخ والمؤرخون العرب، ص١٢٢-١٢٣؛ محمد مؤنس أحمد عوض، مصادر تاريخ الزلازل في بلاد الشام في النصف الثاني من القرن السادس الهجرى/ الثاني عشر الميلادى، مركز بحوث الشرق الأوسط، جامعة عين شمس، سلسلة دراسات من الشرق الأوسط، ط. القاهرة ١٩٩٢م، ص٣٠-٣١. ومن أمثلة الاستعانة بما ألفه ابن العديم أنظر :

الأعلاق، حـ١/ ق١، ص٢٦، ٤٢، ٥٤، ١٠٨، ١١١ وغيرها كثير ويعد من أكثر المؤرخين الذين أفاد منهم عزالدين بن شداد في تأليفه للأعلاق.

(٢٧) ابن أبي طيء، هو يحيى بن أبي طيء، النجار الغساني الحلبي، ولد في عام ٥٧٥هـ/ ١١٨٠م، كان والده رئيساً لإحدى النقابات في مدينة حلب، وأحد الزعامات الشعبية بها. وقد عارض السلطان الملك العادل نور الدين محمود معارضة أدت إلى إبعاده عن حلب في عام ٥٤٣هـ/ ١١٤٨م، كذلك تم نفيه إلى حران عام ٥٥٢هـ/ ١١٥٧م. وقد ألف ابن أبي طيء العديد من

المؤلفات التاريخية منها كنز الموحدين في سيرة صلاح الدين وكتاب معدن الذهب فى تاريخ حلب، وذيله، وكتاب سيرة ملوك حلب وكتاب سلك النظام فى تاريخ الشام، وكتاب تاريخ مصر، عنه أنظر :

ابن شاكر الكتبى، فوات الوفيات، حـ٤ ، تحقيق إحسان عباس، ط. بيروت ١٩٧٣م، ص٢٦٩-٢٧٠؛ حسين عاصى، أبو شامة وكتابه الروضتين فى تاريخ الدولتين النورية والصلاحية، ط. بيروت ١٩٩١م، ص١٧٤-١٧٥؛ حسن إبراهيم، تاريخ الإسلام السياسى والدينى والثقافى والاجتماعى، حـ١ ، ط. بيروت ب-ت، ص٥٥٥، حاشية (١)

Caben, "Une Chronique chrite au Temps des croisades", comptes rendus de L'academie des inscriptions et belles lettres, Paris 1935, pp. 253-269.

ومن نماذج الإفادة بما ألفه ابن أبى طئ أنظر : الأعلاق، حـ١ ، ق١ ، ص١١٢، ١٤٥، ١٥٠، ١٥٢، ٣٥٧.

وتعد استعانة عزالدين بن شداد بما ألفه ابن أبى طئ هامة على اعتبار فقه مؤلفات ذلك المؤرخ الحلبى الشيعى، وعدم وصولها إلينا إلا من خلال تقول بعض المؤرخين الشاميين مثل ابن شداد، وكذلك أبى شامة المقدسى، الذى أكثر من الاستعانة بما أورده ابن أبى طئ وضمنه كتابه الروضتين فى تاريخ الدولتين النورية والصلاحية.

(٢٨) ابن الأثير، هو أبو الحسن على ابن أبى الكرم محمد بن محمد بن عبدالكريم بن عبدالواحد الشيبانى المعروف بابن الأثير الجذرى، الملقب عزالدين، ولد عام ٥٥٥هـ/ ١١٦٠م، بجزيرة عمر الواقعة على نهر الفرات، حيث كان والده يعمل بوظيفة هامة، ورحلت أسرته إلى الموصل فى خدمة أمراء البيت الزنكى، ونشأ ابن الأثير نشأة علمية ارستقراطية اقطاعية، فى ظل حكم الزنكيين وأهم مؤلفاته الكامل فى التاريخ والباهر فى الدولة الاتابكية، والباب فى تهذيب الأنساب، وأسد الغابة فى معرفة الصحابة، وقد توفى ابن الأثير، عام ٦٣٠هـ/ ١٢٣٨م. عن ابن الأثير أنظر :

أبو الفداء، المختصر، حـ٤ ، ط. بيروت، ص٣٨٩؛ السبكى، طبقات الشافعية الكبرى، حـ٥، ط. القاهرة ب-ت، ص١٢٧ ؛ عبدالقادر طليمات، المؤرخ ابن الأثير، رسالة دكتوراه، كلية الآداب، جامعة عين شمس عام ١٩٦٧م؛ فيصل السامر، ابن الأثير، ط. بغداد ١٩٨٦م؛ نظير حسان سعداوى، المؤرخون المعاصرون لصلاح الدين الأيوبى، ص٦-١٣ ؛ محمد عبدالله الحمدان، ابن الأثير، الفرسان الثلاثة، ط. الرياض ١٩٧٤م، ص٦٣-٦٧.

ومن أمثلة الإفادة من ابن الأثير أنظر : الأعلاق، حـ١/ ق١ ، ص٣٢٠.

(٢٩) المرجع السابق، ص٤٠٣.

(٣٠) أنظر : الأعلاق، حـ١/ ق١، ص٢٩٨.

(٣١) نفسه، ص١١٣.

(٣٢) نفسه، ص٤١، ٥٠، ١٠٣، ١١١، وقد أفاد عزالدين بن شداد عدة مرات من بهاء الدين الخشاب الحلبي.

(٣٣) نفسه، حـ١/ق١، ص٢٧٤.

(٣٤) نفسه، حـ١/ق١، ص٤٥.

(٣٥) نفسه، حـ١/ق١، ص١٧٣.

(٣٦) نفسه، حـ١/ق١، ص١٤١.

(٣٧) نفسه، حـ١/ق١، ص١١٨–١٢٠، وكذلك أنظر ص١٦١، ٣٣١–٣٣٨، ٣٦٥–٤٠٦.

(٣٨) نفسه، حـ١/ق١، ص٢٠٤–٢١٠.

(٣٩) نفسه، حـ١/ق١، ص٢١١–٢١٩.

(٤٠) نفسه، حـ١/ق١، ص٢٢٦–٢٣٣.

(٤١) نفسه، حـ١/ق١، ص١٠٧.

(٤٢) نفسه، حـ١/ق١، ص٦٩–٨٠.

(٤٣) ابن شداد، الأعلاق، تحقيق سامي الدهان، ص١٧٢.

(٤٤) نفسه، نفس المصدر، والصفحة.

(٤٥) نفسه، نفس المصدر، ص١٧٦.

(٤٦) نفسه، نفس المصدر، ص١٦٣.

(٤٧) نفسه، نفس المصدر، ص١٧١.

(٤٨) نفسه، نفس المصدر، ص٢٥٥.

(٤٩) نفسه، نفس المصدر، ص ٢٥٠.

(٥٠) نفسه، نفس المصدر، ص٩٨.

(٥١) نفسه، نفس المصدر، ص١٧٧.

(٥٢) نفسه، نفس المصدر، ص١٠١.

(٥٣) نفسه، نفس المصدر، ص١٠٤.

عن زراعة قصب السكر في طرابلس في عصر الحروب الصليبية، نعرف أن الصليبيين عملوا على الاهتمام بزراعته، ولا أدل على ذلك من أنهم قاموا بإعفائه من الضريبة المفروضة على انتاجه على نحو أدى إلى اتساع المساحة المزروعة به من طرابلس إلى صور، عن ذلك أنظر :

زكي نقاش، العلاقات الاجتماعية والثقافية والاقتصادية بين العرب والفرنج خلال الحروب الصليبية، ط. بيروت ١٩٥٨م، ص١٧٦.

(٥٤) ابن شداد، الأعلاق الخطيرة، ص١٠١.

(٥٥) نفسه، نفس المصدر، ص١٦٣.

(٥٦) نفسه، نفس المصدر والصفحة

(٥٧) نفسه، نفس المصدر، ص٥٠.

(٥٨) نفسه، نفس المصدر، ص٩٨.

(٥٩) أنظر : الفصل الأول، حاشية ( ).

(٦٠) ابن شداد، المصدر السابق، حـ١/ ق٢، ص٣٩٧.

(٦١) نفسه، نفس المصدر، ص٨٥.

(٦٢) نفسه، نفس المصدر، ص٥٨.

(٦٣) وقعت أنب ضمن أعمال عزاز في شمال الشام، عنها أنظر :

كردعلي، خطط الشام، حـ٢، ط. دمشق ١٩٢٥م، ص٢٣؛ وأورد حسين مؤنس التسمية على أنها أناب وهي تسمية لم ترد في أي من المصادر العربية المعاصرة أو اللاحقة على هذا النحو، أنظر : حسين مؤنس، صور من البطولة، ط. القاهرة ١٩٤٨م، ص١٧٣.

(٦٤) عن تفاصيلها أنظر :

Anonymous Syriae Chronicle, Trans, by Tritton, J.R.A.S., 1933, p. 300.

ابن القلانسى، ذيل تاريخ دمشق، ص٣٠٤؛ العماد الأصفهانى، تاريخ دولة آل سلجوق، ط. القاهرة ١٣١٨هـ، ص٢٠٧؛ ابن الأثير، الباهر، ص٩٨-٩٩؛ الكامل، حـ١١، ص٥٨-٥٩؛ ابن واصل، مفرج الكروب، حـ١، ص١٢٠-١٢١.

Elisseeff, Nur A-Din, un prince musulman au Temps des croisades, T. II, Damas 19 , p. 430-432; Gibb, The Career of Nur Al-Din, p. 515; Stevenson, The Crusaders, p. 165.

أنتونى بردج، الحروب الصليبية، ت. سبانو وزميله، ط. دمشق ١٩٨٥م، ص١٥٩؛ العروسى المطوى، الحروب الصليبية فى المشرقوالمغرب، ط. تونس ١٩٥٤م، ص٤٨.

(٦٥) ابن القلانسى، المصدر السابق، ص٣٠٤؛ ابن العدين. زبدة الحلب، حـ٢، ص٢٩٨-٢٩٩.

(٦٦) ابن الأثير، الباهر، ص١٥٤، ابن العبرى، تاريخ مختصر الدول، ص٢١٧؛ ابن العديم، المصدر السابق، حـ٢، ص٣٠١؛ ابن واصل، المصدر السابق، حـ١، ص١٢٣.

(٦٧) اختلفت المصادر والمراجع بشأن تاريخ أسر جوسلين الثانى، فهناك من ذكر أن ذلك حدث عام ٥٤٤هـ/ ١١٤٩م، ومن أصحاب ذلك الرأى سبط بن الجوزى، مرآة الزمان، حـ٢/ق١، ص٢٠٢.

ابن ايبك الدوادارى، الدرة المضنية فى أخبار الدولة الفاطمية، تحقيق صلاح الدين المنجد، ط. القاهرة ١٩٦١م، ص٥٥٥؛ واليسيف Elisseeff, Nur Al-Din, T. II, p. 453-454 .

وهناك اتجاه آخر يرى ذلك عام ٥٤٥هـ/ ١١٥٠م، وهو الأرجح فى تقديرى، وقد وجد تأييداً من المؤرخين المعاصرين مثل ابن القلانسى، ذيل تاريخ دمشق، ص٣١٠؛ العماد الأصفهانى، تاريخ دولة آل سلجوق، ص٢٠٧؛ وكذلك، ابن الأثير، الكامل، حـ٨، ص٦٢-٦٣؛ ابن العديم، .بدة الحلب، حـ٢، ص٣٠٢؛ ابن قاضى شهبة، الكواكب الدرية، ص١٣٦-١٣٧.

وتأييد المؤرخين المعاصرين تجعلنا نؤيد تاريخ عام ٥٤٥هـ/ ١١٥٠م؛ وقد أيده بعض المؤرخين المحدثين وحددوه بصورة أدق فى ٥ محرم ٥٤٥هـ/ ٥ مايو ١١٥٠م. أنظر : عاشور، الحركة الصليبية، حـ٢، ص٦٤٢.

عمران، السياسة الشرقية للإمبراطورية البيزنطية فى عهد الامبراطور مانويل كومنين، ط. الاسكندرية ١٩٨١م، ص١٧٩.

Stevenson, The Crusaders, p. 167.

وعن أسره أنظر :

Anonymous Syriae chronicle, p. 302; William of Tyre, Vol. II, p. 201.

(٦٨) وعن موته بعد سنوات الأسر أنظر :

William of Tyre, Vol. II, p. 201, note (26); Stevenson, The Crusaders, p. 181.

(٦٩) ابن العبرى، المصدر السابق، ص٢٠٨؛ ابن العديم، المصدر السابق، حـ٢، ص٣٠٢-٣٠٣؛ ابن واصل المصدر السابق، حـ١، ص١٢٤؛ سبط بن الجوزى، المصدر السابق، ص٢٠٢؛ ابن الشحنة، روضة الناظر فى تاريخ الأوائل والأواخر، بهامش الكامل لابن الأثير، ص٥٥٠.

(٧٠) كردعلى، المرجع السابق، حـ٢، ص٣٧.

(٧١) Stevenson, Op. Cit., p. 148.

(٧٢) تتمة المختصر، ص٥٠.

(٧٣) المصدر السابق، حـ٢، ص٣٠٢-٣٠٣.

(٧٤) ابن القلانسى، المصدر السابق، ص٣١٠؛ العماد الأصفهانى، المصدر السابق، ص٢٠٧.

(٧٥) ابن واصل، المصدر السابق، حـ١، ص١٢٥.

(٧٦) وقعت حارم ضمن حدود إمارة أنطاكية على بعد عشرة أميال غربها، وهى حالياً من مناطق محافظة أولبا فى شمال سوريا، وتبعد عن أولبا بمسافة ٥٣ كيلو متر مربع. عنها أنظر :

William of Tyre, Vol. II, p. 306-308; Jacques de Vitry, p. 94.

عمران، المرجع السابق، ص٢٨٥. وعن معركة حارم بالتفصيل أنظر :

Anonymous Syriae chronicle, p. 303; William of Tyre, Vol. II, p. 306-308; Jacques de Vitry, p. 94.

ابن الأثير، الباهر، ص١٢٤؛ العماد الأصفهانى، البستان الجامع، ص١٣٥؛ العدوى، الزيارات، تحقيق صلاح الدين المنجد، ط. دمشق ١٩٥٦م، ص٤٠؛ عمران معركة حارم، مجلة المؤرخ العربى، العدد (٨)، عام ١٩٧٧م، ص٩٠-١١٢.

(٧٧) Jacques de Vitry, p. 94.

(٧٨) ابن عساكر، ترجمة محمود بن زنكى، تحقيق : B.E.O., T. Année 19، ص١٣٨.

(٧٩) Anonymous syriae chronicle, p. 303.

ابن واصل، المصدر السابق، حـ١، ص١٤٣؛ ابن كثير، البداية والنهاية، حـ١٢، ص٢٤٨.

(٨٠) ابن العديم، المصدرالسابق، حـ٢، ص٣٢٠؛ ابن واصل، المصدر السابق، حـ١، ص١٤٥.

(٨١) سبط بن الجوزى، المصدر السابق، حـ٨/ق١، ص٢٤٧؛ أبو الفداء، المختصر، م (٢)، حـ (٥)، ص٥٦.

(٨٢) . Anonymous Syriac Chronicle, p. 304; William of Tyre, Vol. II, p.

الفتح البندارى، سنا البرق الشامى، ص١٩؛ أبو شامة، الروضتين، حـ٢/ق١، ص٣٣٩؛ ابن واصل، المصدر السابق، حـ١، ص١٤٥؛ ابن العماد الحنبلى، شذرات الذهب، حـ٤، ص١٨٦.

(٨٣) Anonymous syriac Chronicle, p. 204; William of Tyre, Vol. II, p. 308.

(٨٤) Chen, La Syrie du nord à L'epoque des croisades, Paris 1940, p. 204.

يقول عنها : " Le desastre de Harim " .

(٨٥) ابن الأثير، الباهر، ص١٢٥، ابن العديم، المصدر السابق، حـ٢، ص٣٢٠.

(٨٦) William of Tyre, Vol. II, p. 308-310. ؛ ابن العديم، المصدر السابق، ص٣٢١.

(٨٧) ابن شداد، المصدرالسابق، ص١١٦.

(٨٨) نفسه، نفس المصدر والصفحة.

(٨٩) عزيز سوريال عطية، العلاقات بين الشرق والغرب فى العصور الوسطى، ثقافية، تجارية، صليبية، ت. فيليب صابر، ط. القاهرة ١٩٧٣م، ص٥٤.

ويلاحظ أن كلمة كراك Crac، تحريف للفظة الأكراد، وتختلف عن كلمة Crac، الواردة فى Crac de Montrial، Crac des Moabites، وهذين الإسمين تحريف للفظة آرامية هما «كرخا» ومعناها مدينة، عن ذلك أنظر :

فيليب حتى، لبنان فى التاريخ، ط. بيروت ١٩٦٠م، ص٣٤٦.

(٩٠) هنرى لامنس، دولة العلويين، المشرق، العددان (٨)، (٩)، م (٢٧)، عام ١٩٢٩م، ص١٦٨.

(٩١) عبدالرحمن زكى، العمارة العسكرية فى العصور الوسطى، المجلة التاريخية المصرية، م (٧)، عام ١٩٥٨م، ص١٢٨، حاشية (٣).

(٩٢) يوسف سمارة، جولة فى الإقليم الشمالى، ط. القاهرة ١٩٦٠م ص٦٢.

(٩٣) عبدالله عنان، قلاع الصليبيين والمسلمين فى سوريا ولبنان، مجلة الهلال، حـ (٥)، السنة (٤٢) عام ١٩٣٣م، ص٥٥٤.

(٩٤) ابن القلانسى، المصدر السابق، تحقيق أميدروز، ص١٦٢.

(٩٥) مفضل بن أبى الفضائل، النهج السديد والدر الفريد فيما بعد تاريخ ابن العميد، تحقيق بلوشبه P.O., T. XII ط. باريس، ص٥٢٨.

(٩٦) King, "The Taking of Le krak des chevaliers in 1271", Antiquity, Vol. XXIII, p. 89; Lawrence, Crusader Castles, Vol. I, London 1936, p. 47.

(٩٧) King, The Taking, p. 39.

(٩٨) Riley, Smith, A History of The Order of the knights of St. John of Jerusalem, London 1967, p. 37; Fedden, Crusader Custles, p. 50.

(٩٩) المقريزى، السلوك لمعرفة دول الملوك، حـ١/ ق١، تحقيق مصطفى زيادة، ط. القاهرة، ص٥٩١.
عبدالقادر المغربى، الظاهر بيبرس، مجلة المجمع العلمى بدمشق، م (٢١)، حـ (٥)، حـ (٦)، عام ١٩٤٦م، ص٢٣٥.

King, The knight, Hospitallers in the Holy Land, London 1930, p. 270.

وعن حصن الأكراد بصفة عامة أنظر :

مرفت محمد سعيد، حصن الأكران ودوره فى الصراع الصليبى/ الإسلامى (٥٨٩-٦٩٨هـ/ ١١٩٣-١٢٩١م)، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب، جامعة الاسكندرية عام ١٩٩٢م؛ سميل، الحروب الصليبية، ت. سامى هاشم، ط. بيروت ١٩٨٢م، ص٢٥٧؛ نقولا زيادة، صور من التاريخ العربى، ط. القاهرة ١٩٤٦م، ص١٠٥؛ جمال الدين سرور، دولة الظاهر بيبرس فى مصر، ط. القاهرة ١٩٦٠م، ص٨١-٨٢؛ عبدالعزيز عبدالدايم، إمارة طرابلس الصليبية فى القرن الثانى عشر الميلادى، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب، جامعة القاهرة، عم ١٩٧١م، ص٤١.

Rchard, Le Conte de Tripoli sous le Dynastie Toulousaine (1102-1187), Paris 1945, p. 2; Deschamps, Les chateaux des croisés, Crac des chevaliers, Paris 1934; Rihaoui, Le Crac des chevaliers, Guide Touristique et Archaeologique, Damas 1975.

(١٠٠) ابن شداد، المصدر السابق، ص١١٦-١١٧.

(١٠١) نفسه، نفس المصدر، ص١١٧.

(١٠٢) نفسه، نفس المصدر والصفحة.

(١٠٣) نفسه، نفس المصدر والفحة.

(١٠٤) نفسه، نفس المصدر، ص٦٩.

(١٠٥) نفسه، نفس المصدر، والصفحة.

(١٠٦) نفسه، نفس المصدر، ص٧٠.

(١٠٧) ابن شداد، المصدر السابق، حـ٢، ص٦٩، النابلس، رحلتان إلى لبنان، تحقيق صلاح الدين المنجد واسطفان فيلد، ط. بيروت ١٩٧٩م، ص٧٢؛ يوسف درويش غوانمه، التاريخ الحضارى لشرقى الأردن فى العصر المملوكى، ط. عمان ١٩٨٢، ص٢٥٩؛ إمارة الكرك الأيوبية، ط. عمان ١٩٨٢م، ص٥٥؛ لانكستر هاردنغ، آثار الأردن، ت. سليمان موسى، ط. عمان ١٩٦٥م، ص١٠٤-١٠٧.

(١٠٨) حمود القثامي، الآثار في شمال الحجاز، حـ١، ط. القاهرة ١٩٧٦م، ص٢٧٦.

(١٠٩) يوسف درويش غوانمه، التاريخ الحضارى، ص٢٦٣.

(١١٠) ابن شداد، المصدر السابق، ص١٥٢.

(١١١) عن موقع قلعة تبنين أنظر :

ياقوت، معجم البلدان، حـ١، تحقيق وستنفيلد، ط. ليزج ١٨٨٩م، ص٨٢٠؛ العثمانى، تاريخ صفة، ص٤٨٢.

Jipejian, Sidon, Through the ages, Beirut 19 , p. 104.

(١١٢) William of Tyre, Vol. i, p. 449. ، أنظر أيضاً :

Rey, Les colonices Franques, p. 499.

(١١٣) Riley-Smith, Op. Cit., p 37 .

(١١٤) ابن الأثير، الكامل، حـ١١، ص٥٤٢؛ ابن خلكان، وفيات الأعيان، حـ٣، ص١٧٧؛ الفتح البندارى، سنا البرق الشامى، ص٣٠٤.

Ernoul, p. 51.

(١١٥) ابن شداد، النوادر السلطانية، ص٨٠؛ ابن خلكان، المصدر السابق، حـ٧، ص١٧٧؛ ابن الأثير، لمصدر السابق، حـ١، ص٥٤٢؛ الفتح البندارى، المصدر السابق، ص٣٠٤.

(١١٦) ابن شداد، المصدر السابق، حـ٢، ص١٥٣.

(١١٧) نفسه، نفس المصدر، حـ٢، ص١٥٣؛ حامد غنيم، الجبهة الإسلامية، حـ٣، ص١٤٣.

(١١٨) ابن شداد، المصدر السابق، ص١٥٤.

(١١٩) سليمان مظهر، قلعة شقيف أرنون، مجلة المجمع العلمي بدمشق، عدد عام ١٩٤٤م، ص٤٢٤.

(١٢٠) ابن الفرات، تاريخ الدول والملوك، م٥/ حـ١، تحقيق الشماع، ط. البصرة ١٩ م، ص٢٢١، حاشية (٩٠٠)؛ حتى، المرجع السابق، ص٣٥٨.

(٢١) سليمان مظهر، المرجع السابق، ص٤٣٠.

(١٢٢) أحمد رمضان، المجتمع الإسلامي، ص٣٢٥.
ابن عبدالظاهر، الروض الزاهر، ص٢٩٨.

Ruhricht, E Tude Sur Les derniers Temps de Royaume de Jerusalen, Les combates de Sultan Bibars contre les chretiens en Syrie, A.O.L., T. II, p. 390-391.

(١٢٣) ابن شداد، المصدر السابق، حـ٢، ص١٤٦.

(١٢٤) عاشور، الحركة الصليبية، حـ٢، ص٦٠٠-٦٠١؛ الطراونة، مملكة صفة، ص٨٦.

(١٢٥) ابن شداد، المصدر السابق، حـ٢، ص١٤٦؛ وقدايده الطراونة، المرجع السابق، ص٨٥.

(١٢٦) العثماني، المصدر السابق، ص٤٧٩.

(١٢٧) عاشور، المرجع السابق، حـ٢، ص٦٩٣.

(١٢٨) Prawer, The Latin Kingdom of Jerusalem, p. 260.

(١٢٩) ابن عبدالظاهر، المصدر السابق، ص٢٦١؛ مفضل ابن أبي الفضائل، المصدر السابق، ص٤٩٠؛ ابن كثير، المصدر السابق، حـ١٣، ص٢٤٧؛ ابن الشحنة، المصدر السابق، ص١٣٢؛ المقريزي، المصدر السابق، حـ١/ق١، ص٥٤٣.

(١٣٠) ابن شداد، المصدر السابق، ص٨٠.

(١٣١) نفسه، نفس المصدر، ص٨٢.

(١٣٢) نفسه، نفس المصدر والصفحة.

(١٣٣) نفسه، نفس المصدر والصفحة.

(١٣٤) نفسه، نفس المصدر، ص١٦٢.

(١٣٥) نفسه، نفس المصدر، ص١٧٠.

ويوشع بن نون هو الذى تولى قيادة بنى إسرائيل بعد وفاة موسى عليه السلام، وهناك سفر خاص به يحمل اسمه فى العهد القديم، وهو سفر يشوع، ويمكن تقسيم حياة يشوع أو يوشع إلى قسمين، الأول ويطلق عليه مرحلة الصحراء، وفيها نجده بمثابة مساعد ومعين للنبى موسى عليه السلام، أما القسم الثانى فيتمثل فى دوره فى قيادة بنى إسرائيل بعد وفاة موسى، وفى المجال الآخر نجده يرتبط ارتباطاً وثيقاً باتجاههم نحو غزو أرض كنعان Canaan والاستقرار فيها، وقد تمكن من عبور الأردن والنزول بفلسطين، وتم الاستيلاء على أرض Jericho، وأعقب ذلك مذبحة كبرى قتل فيها كل من وجده فيها تقريباً من السكان. ويقرر البعض أن يوشع قد جعل مبدأه قانون القوة، فتصور أن أكثر الناس سفكاً للدماء، هو الذى يبقى على قيد الحياة. عن يوشع بن نون أنظر : سفر يشوع، من ١ : ٣.

Petachia of Ratisbon, Tour du Monde, Ou voyage de Rabbi petachia, ed. Carmoly, J.a., T. VIII, Paris 1831, p. 391; U.J.E., Joshua, Vol. VI, New York 1969, pp. 202-206; E.B., Joshua, Vol. VIII, U.S.A., p. 153; C.E., Joshua, Vol. VIII, London 1973, p. 140; D.E.q., "Joshua", T. II, Paris, 1953, p. 3027.

عبدالحميد زايد، القدس الخالدة، ص٤٤–٤٥؛ أحمد شلبى، اليهودية، ط. القاهرة ١٩٨٤م ص٦٩.

(١٣٦) ابن شداد، المصدر السابق، ص١٩٩.

(١٣٧) نفسه، نفس المصدر، ص٢٨٧.

(١٣٨) نفسه، نفس المصدر والصفحة.

(١٣٩) نفسه، نفس المصدر والصفحة.

(١٤٠) نفسه، نفس المصدر والصفحة.

(١٤١) نفسه، نفس المصدر والصفحة.

ووادى جهنم، وقع شرق بيت المقدس بين جبل الزيتون شرقاً وجبل صهيون غرباً، وخلال العصور الوسطى، أطلق عليه المؤرخون أسماء متعددة مثل : وادى مريم، أو وادى النار،

أو وادى سلوان، أو وادى يوسفات. ويلاحظ أن هناك إشارات متعددة عن ذلك الوادى فى مؤلفات الرحالة الأوروبيين الذين زاروا مملكة بيت المقدس الصليبية خلال القرن الثانى عشر الميلادى/ السادس الهجرى وفيما بعد، وقد احتوى وادى جهنم خلال تلك المرحلة على العديد من النساك الذين أقاموا فيه. عن وادى جهنم أنظر :

William of Tyre, Vol. I, p. 341; John of Wurzburg, p. 50-51; Burchard of Mont Sion, Trans. by Aubrey stewart, P.P.T.S., Vol. XII, London 1896, p. 69, p. 71; Ludolph Von Suchem, Description of the Holy Land, Trans. by Aubrey stewart, Vol. XII, London 1895, p. 97, p. 110; Felix Fabri, The wanderings of Felix Fabri, Trans, by Aubrey Stewart, P.P.T.S., Vol. VII, Part II, London 1893, p. 458.

سعيد البيشاوى، الممتلكات الكنسية، ص١٣٢.

(١٤٢) ابن شداد، المصدر السابق، ص٢٦٤.

(١٤٣) نفسه، نفس المصدر، ص١٤٣، ١٥٦-١٥٧، وغيرها.

(١٤٤) نفسه، نفس المصدر، ص١٧٠.

(١٤٥) نفسه، نفس المصدر، ص١٣١.

(١٤٦) نفسه، نفس المصدر، ص١٢٩-١٣٠.

(١٤٧) نفسه، نفس المصدر، ص١٤٠.

(١٤٨) نفسه، نفس المصدر، حـ١/ق١، والصفحة.

(١٤٩) نفسه، نفس المصدر والصفحة.

(١٥٠) ابن القلانسى، المصدر السابق، ص٢١٥؛ سبط بن الجوزى، مرآة الزمان، حـ٨/ق١، ص١١٨؛ ابن شداد، المصدر السابق، حـ٢، ص١٤٠.

(١٥١) ابن القلانسى، المصدر السابق، ص٢١٥؛ ابن شداد، المصدر السابق، حـ٢، ص١٤٠.

(١٥٢) ابن القلانسى، المصدر السابق، ص٢١٥.
ابن قاضى شهبة، الكواكب الدرية، ص٩٥.

(١٥٣) بانياس، تقع إلى جهة الغرب مع ميل إلى الجنوب من دمشق، وكانت تطل على إقليم يعرف بإقليم الحولة الذى اشتمل على مائتى قرية على حد قول ابن شاهين وتعرف أحياناً بالصبيبة، وقد يخلط بينها وبين بانياس الواقعة على الساحل الشامى. عن بانياس أنظر :

أبو الفدا، تقويم البلدان، ص٢٣٨-٢٣٩؛ ابن شاهين، زبدة كشف الممالك، ص٤٦؛ الخالدى، المقصد الرفيع المنشأ، ورقة (٨٨)؛ عمر كمال توفيق، مقدمات العدوان الصليبى، ط. الاسكندرية ١٩٦٦م، ص١٩٤-١٩٥.

(١٥٥) ابن الأثير، الكامل، حـ١٠، ص٢٢٥؛ ابن قاضى شهبة، المصدر السابق، ص٩١؛ العماد الأصفهانى، البستان الجامع، ص١٢٠.

(١٥٦) مصطفى غالب،أعلام الاسماعيلية، ط. بيروت ١٩٦٩م، ص١٧٢.

(١٥٧) الكامل، حـ١٠، ص٢٥٠.

(١٥٨) أنظر عن أحداث الصدام بين الدروز والاسماعيلية؛ ابن القلانسى، المصدر السابق، ص٢٢١؛ ابن الأثير، المصدر السابق، حـ١٠، ص٥٠؛ العماد الأصفهانى، البستان الجامع، ص١٤١؛ ابن شداد، المصدر السابق، حـ٢، ص٤٠؛ رنسيمان، الحروب الصليبية، حـ٢، ص٢٨٦.

Cahen, Op. Cit., p. 347.

(١٥٩) اعزاز، ويقال عزاز، بلدة تقع بشمال حلب على بعد مرحلة منها، عنها أنظر : أبو الفداء، المصدر السابق، ص٢٣١.

(١٦٠) مفرج الكروب، حـ٢، ص٤٥.

(١٦١) أبو شامة، الروضتين، حـ١/ ق٢، ص٦٦٠؛ سبط بن الجوزى، المصدر السابق، حـ٨/ق١، ص٣٣٥. وعن محاولة الاغتيال أنظر :

ابن شداد، النوادر السلطانية، ص٥٢؛ العماد الأصفهانى، البستان الجامع، ص١٤١.

Runcimn, The Crusades, p. 409; Stevenson, The Crusaders, p. 212.

(١٦٢) ابن شداد، المصدر السابق، حـ١/ق١، ص .

(١٦٣) نفسه، نفس المصدر، ص .

(١٦٤) نفسه، نفس المصدر، ص١٠٣.

(١٦٥) نفسه، نفس المصدر، ص١٠٤.

(١٦٦) نفسه، نفس المصدر، والصفحة. وعن إحراق المجد الجامع فى حلب من جانب الاسماعيلية النزارية أنظر :

بيشوف، تحفة الأنباء بتاريخ حلب الشهباء، ط. بيروت ١٨٨٥م، ص١٣٧ .وعن ذلك المسجد الجامع :

ابن جبير، الرحلة، ص٢٤٠، ابن بطوطة، الرحلة، ص٧٠ 'أحمد رمضان، العمائر الدينية فى بلاد الشام فى العصرين الأيوبى والمملوكى، ضمن كتاب الاحتفال الخمسينى لكلية الآثار، جامعة القاهرة، ط. القاهرة ١٩٧٨م، ص١٣٢-١٣٣.

(١٦٧) ابن شداد، المصدر السابق، ص١٠٤.

(١٦٨) نفسه، نفس المصدر، ص١٠٧.

(١٦٩) نفسه، نفس المصدر، ص٢٣٣.

(١٧٠) نفسه، نفس المصدر، والصفحة. عنها أنظر أيضاً :

ابن العجمى، كنوز الذهب فى تاريخ حلب، مخطوط بدار الكتب المصرية، تحت رقم (٨٣٨) تاريخ تيمور؛ حامد زيان، حلب في العصر الزنكى، رسالة ماجستير، كلية الآداب، جامعة القاهرة، عام ١٩٧٠م، ص٧٣؛ أسعد طلس، الآثار الإسلامية والتاريخية فى حلب، ط. دمشق ١٩٥٦م، ص٢٥١.

(١٧١) ابن شداد، المصدر السابق، ص٢٣٦.

(١٧٢) نفسه، نفس المصدر، ص٢٣٧.

(١٧٣) نفسه، نفس المصدر، والصفحة.

(١٧٤) نفسه، نفس المصدر، ص٢٣٨.

(١٧٥) نفسه، نفس المصدر، والصفحة.

٥ - ابن سعيد المغربى

(ت ٦٨٥هـ/١٢٨٦م)

يتناول هذا الفصل بالدراسة أحد الجغرافيين المسلمين الأندلسيين، الذين عاصروا القرن السابع الهجرى/ الثالث عشر الميلادى وتناولوا بلاد الشام، وهو ابن سعيد المغربى(١) (ت٦٨٥هـ/ ١٢٨٦م)، وقد احتلت بلاد الشام أهمية متميزة فى مؤلفات ذلك الجغرافى ومن ثم سلط الأضواء الكاشفة على العديد من جوانب حياتها خلال عصر الحروب الصليبية ولاسيما خلال القرن السابع الهجرى/ الثالث عشر الميلادى.

وابن سعيد المغربى؛ هو أبو الحسن على بن موسى بن محمد بن عبدالملك(٢)، ولد فى ليلة عيد الفطر من عام ٦١٠هـ/ ١٢١٤م، فى قلعة يحصب Alcala La Real الواقعة على بعد ٥٢ ك.م من غرناطة بالأندلس(٣)، وانتسب إلى أسرة عريقة، اتصل أفرادها بعدد من الملوك، والأمراء، كما أن صفة العلم، والأدب، لازمت العديد من أفراد تلك الأسرة.

وتجدر الإشارة إلى أن جده لوالده أبدى ولاءه لدولة المرابطين، على نحو أثار غضب وحقد أهل الأندلس عليه وعلى أسرته عام ٥٦٩هـ/ ١٩٧٣م، فاضطر إلى اللجوء إلى قلعة يحصب المذكورة، ثم اتجه نحو تأييد الموحدين من بعد ذلك(٤)، أما والده أبوموسى؛ فكان عالمًا بارعًا فى العديد من الفنون لاسيما فنون الأدب.

وهناك من يرى أن ابن سعيد المغربى قد خرج إلى المشرق فى رحلتين، وفى الرحلة الأولى اتجه صوب مصر والشام، والعراق، وأرمينية، وتجول فى تلك المناطق، وذلك على

مدى أكثر من عشر سنوات كاملة[٥]، وذلك قبل توجهه إلى جزيرة العرب من أجل تأدية فريضة الحج، وذلك قبل العودة إلى تونس، وفي الرحلة الثانية، خرج ابن سعيد صوب مصر، وأرمينية، وإيران، وتجول في تلك المناطق، على مدى ثلاث سنوات. وذلك قبل أن يعاوده الحنين إلى تونس فذهب إليها مرة أخرى[٦].

وقد اختلف المؤرخون فى تحديد مكان وفاة ابن سعيد المغربى وزمانها، فهناك من يرى أنه توفى بدمشق فى عام ٦٧٣هـ/ ١٢٧٤م[٧]، كما أن هناك من يرى أنه توفى بعد ذلك فى عام ٦٨٥هـ/ ١٢٨٦م[٨]، فى تونس، غير أن هذه الناحية لاتزال موضع اختلاف بين الباحثين وليس من اليسير ترجيح أحد الرأيين.

وقد ألف ابن سعيد العديد من المؤلفات فى مجال الجغرافيا، والرحلات، والأدب، والتاريخ، على نحو عكس ارتفاع شأنه فى تلك العلوم، والفنون، ومن تلك المؤلفات لذة الأعلام فى تاريخ الأمم الأعجام، وريحانة الأدب، نتائج القرائح فى مختار المراثى والمدائح، والشهب الشافية فى الأنصاف من المشارقة والمغاربة، الطالع السعيد فى تاريخ بنى سعيد، والنفحة المسكية فى الرحلة المكية، ونشوة الطرب فى تاريخ جاهلية العرب. والقدح المعلى، والمرزمة فى الفوائد الأدبية والإخبارية، وكذلك المشرق فى حلى المشرق، والمغرب فى حلى المغرب[٩]، وكتاب الجغرافية، وكتاب بسط الأرض فى الطول والعرض.

وتجدر الإشارة إلى أن هناك من اعتقد أن كتاب بسط الأرض فى الطول والعرض؛ هو كتاب الجغرافيا[١٠]، غير أن إسماعيل العربى قد أثبت أن الكتابين مختلفان، وأن بسط الأرض يمثل اختصاراً لكتاب الجغرافيا[١١].

وتجدر الإشارة، إلى أن كتاب بسط الأرض فى الطول والعرض، قد حققه خوان خنيس، وصدر فى تطوان عام ١٩٥٨م أما كتاب الجغرافيا فقد حققه إسماعيل العربى؛ وصدر فى بيروت عام ١٩٧٠م، ويخلط أحد الباحثين بين الأمرين حيث يتصور أن خوان خنيس قد حقق كتاب الجغرافيا[١٢].

وهناك ناحية هامة، تتمثل فى المصادر التى اعتمد عليها ابن سعيد المغربى فى كتابه الجغرافيا، ويرى البعض أن جغرافية ابن سعيد تعتمد إلى حد كبير على الإدريسى فى مادتها الأساسية(١٣). ومع ذلك فلا يمكن أن نعتبر الإدريسى هو المصدر الوحيد لأن هناك مصادر أخرى مثل المشاهدة الشخصية، بالإضافة إلى المعارف الجغرافية اليونانية مثل ما ألفه بطليموس القلوزى (ق ٣٢) تحت عنوان المجسطى Al Mageste(١٤) والذى ترجمه حنين بن اسحاق فى العصر العباسى الأول، ومثل أحد أهم مصادر العلماء الجغرافيين العرب على مدى العصور الوسطى.

أضف إلى ذلك، اعتماده على أحد الرحالة الذين فقدت مؤلفاتهم وهو ابن فاطمة؛ خاصة فيما يتصل برحلاته فى جنوب الساحل المراكشى(١٥).

أما بالنسبة لبلاد الشام، فمن المرجح أن ابن سعيد قد أفاد من مؤلفات الجغرافيين المسلمين السابقين مثل الإدريسى وغيره بالإضافة إلى المشاهدات الشخصية، التى تركت بصماتها على رؤيته لبلاد الشام وإن جاءت فى صور مقتضبة.

والواقع أننا لا يمكن أن نقبل القول بأن ابن سعيد فى «الجغرافيا» قد اعتمد إلى حد كبير على الإدريسى، لوجود اختلافات بين منهجى كل من الجغرافيين المسلمين الكبيرين، ومن أمثلتها ثراء الإشارات التى يقدمها الإدريسى عن بلاد الشام، إذا ما قورنت بما أورده ابن سعيد، بالإضافة إلى أن الإدريسى يهتم بدرجة كبيرة بذكر المزارات الدينية المسيحية فى فلسطين، بينما نجد أن ابن سعيد لا يعتنى بها، ولا يبرزها البتة، وفى حالة افتراض اعتماده بصورة كبيرة على مؤلف نزهة المشتاق لتأثر به فى تلك النواحى، الأمر الذى لم يحدث، وأغلب الاحتمال أن ابن سعيد اعتمد على الإدريسى مثل اعتماده على المصادر الجغرافية الأخرى، مع عدم إغفال رؤيته الشخصية، وهى التى تحتل أهميتها فيما يتصل بوصفه لبلاد الشام، على الرغم من طابع الإيجاز الغالب على ذلك الوصف.

أما إذا نظرناإلى رؤية ابن سعيد المغربى لبلاد الشام، فنجد أنه قد حرص على إيراد الأطوال، والأبعاد بين مدن الشام دون أن يقدم التفاصيل المتوقعة منه فى هذا المجال. ونجد مثالا دالا على ذلك عند تناوله لمدن قيسارية، وطرابلس، واللاذقية، حيث اكتفى بتحديد المسافات بينها، ولم يتحدث عنها بأية إشارة.

بيد إنه لم يستمر على ذلك المنهج، إذ أنه عندما تناول عكا وصفها بأنها «ركاب الفرنج ومجمع تجارتهم وحجاجهم»(١٦) ومن الواضح أنه أجمل بذلك التناول الخاص بها، من حيث أهميتها التجارية، ومكانتها بوصفها ميناء للحج، مع ملاحظة أن ميناء يافا مثل هو الآخر ميناء يصل إليه الحجاج المسيحيون من أجل الوصول بعد ذلك إلى المواضع المقدسة فى فلسطين، مع ملاحظة أن إشارته بشأن عكا تظل مختصرة للغاية، ولا تتناسب مع مكانة تلك المدينة الهامة والحيوية والتى مثلت يوماً ما القلب التجارى للوجود الصليبى فى بلاد الشام.

أما فيما يتصل بمدينة صور فنجد أنه يشير إلى حصانتها ومناعتها. وقد ذكر أنها لا ترام من ناحية البر، كما أن الصليبيين أداروا البحر حولها. من أجل إحكام حصانتها(١٧). أما بيروت فقد قدم إشارة هامة عنها عندما قرر أنها ميناء دمشق(١٨)، وهذا يوضح كيف أن المدن الشامية الداخلية البرية اعتمدت على مدن ساحلية من أجل تصريف منتجاتها وتجارتها. وعندما تناول يافا، فإنه لم يقدم عنها إلا القليل النادر، وذكر أنها من الفرض المشهورة. وفى إشارته لغزة نجد أنه لا يقدم إلا عبارة أن بينها وبين البحر، أكوام من الرمال(١٩).

ومن الواضح الجلى، أن إشارات ابن سعيد لمدن الساحل الشامى، إشارات محدودة ليست ذات ثقل، وتقل بكثير فى أهميتها عما ورد بشأن نفس المنطقة الهامة، لدى مؤلفات الجغرافيين المسلمين الذين قدموا إلى بلاد الشام خلال ذلك العصر.

أما النشاط الاقتصادى فى بلاد الشام، والذى تعرض إليه ابن سعيد المغربى، فنجده من خلال زاويتين؛ الأولى الزراعة والثانية التجارة، أما الزراعة، فنجد أنه يقرر اشتهار حارم بإنتاج نوع جيد من الرمان يمتاز بكثرة المياه[٢٠]، أما معرة النعمان فنجد أنه يقرر اشتهارها بزراعة الزيتون والتين والفستق[٢١] وغيرها من المنتجات، وبالنسبة لحلب نجده يقرر أنها تنتج القطن، وكذلك الفستق الكبير[٢٢]، ومن الواضح أهمية إشارته بشأن القطن، على اعتبار أنه يدخل فى صناعة المنسوجات.

أما التجارة فنجد أنه يشير إلى أن القطن الذى ينتج فى حلب يدخل فى نطاق تجارة البحر المتوسط فيصل إلى سبتة بالمغرب الأقصى[٢٣]، ويبدو أن حلب اعتمدت على ميناء السويدية، أو غيره من الموانئ على الساحل الشرقى للبحر المتوسط من أجل تصريف منتجاتها، مع ملاحظة أن عالم البحر المتوسط فى عصر الحروب الصليبية كان بمثابة منطقة تجارية واحدة ومشتركة بين قسميه الشرقى والغربى، ولعل مقولة ابن سعيد بشأن قطن حلب خير شاهد على ذلك.

ومن جهة أخرى، نجده عندما يذكر مدينة الباب الواقعة فى وادى بطنان، شمال شرق حلب، نجد أنه يذكر دورها فى حركة التجارة ويقرر أن بها نشاط تجارى للبزازين أى تجار الأقمشة وكذلك العطارين[٢٤]، وتجدر الإشارة إلى أن أنواع العطارة قد تزايدت فى بلاد الشام بشكل واضح فى ذلك العصر، ففى القرن السابق على زيارة ابن سعيد المغربى لبلاد الشام ونعنى به القرن السادس الهجرى/ الثانى عشر الميلادى، عدد ابن القلانسى[٢٥] نحو ثلاثمائة وثمانين صنفاً من أصناف العطارة لدى أحد العطارين بمدينة دمشق[٢٦]، حقيقة أن أسواق الباب، لا يمكن أن تقارن بأسواق دمشق المزدهرة تجارياً، لكن من المنطقى تصور أن الازدهار التجارى قد أصاب أسواق تلك المدينة وإن كان بصورة أقل بالطبع.

أما إذا ما اتجهنا إلى وجهة أخرى، ونعنى بها مصادر المياه فنجد أن ابن سعيد قد اهتم بها، وأورد عدداً من أنهار بلاد الشام، بل وتتبع مسار بعضها، ومن أمثلة ذلك نهر الأردن، وقد أشار إلى أنه يخرج من بحيرة طبرية، ويمر بالغور إلى أن يصب فى البحيرة الميتة(٢٧). أما نهر قويق، فقد ذكر أنه يأتى من جهة عزاز(٢٨)، أما نهر العاصى فإنه يقرر أنه ينزل من جهة بعلبك، ويعنى بذلك أنه ينبع من هناك، ويمر على شمالى حمص، وحماة، وشيزر، ثم يسير إلى الشرق من أنطاكية، وشماليها(٢٩) إلى أن يصل إلى البحر المتوسط.

ومن الطبيعى أن نلاحظ اهتمام ابن سعيد بمسألة المياه خاصة أنهار الشام بحكم أهميتها لمظاهر الحياة المتعددة، غير أنه لم يظهر تباين أقاليم بلاد الشام فى الرى بمياه الأمطار والعيون والينابيع ومياه الأنهار الأمر الذى وجدناه لدى الجغرافيين المسلمين السابقين مثل الإدريسى وياقوت والقزوينى.

أما المزارات الدينية والعلاجية، فقد أشار إليها ابن سعيد بإيجاز، ومن أمثلة النوع الأول، أنه تناول بالحديث وجود جعفر الطيار فى مؤتة، وكذلك قبور أصحابه(٣٠)، ويبدو أنه لم يعترض على ذلك، ولم يشك فيه، أما فى غزة فنجده يقرر أن هناك من يزعم بأن جد النبى عليه السلام مدفون بها، ومن الواضح عدم اقتناعه بذلك بدليل إشارته للأمر على أساس أنه زعم(٣١) ولا يدخل فى نطاق الحقائق المؤكدة، وإن لم تتوافر لدى ابن سعيد المغربى ذات الشجاعة التى كانت لدى ياقوت الحموى.

وفيما يتصل بالمزارات العلاجية نجد أنه يقرر أمر عيون طبرية الساخنة، ويبدو أنه لم يدرك دورها العلاجى، واعتبرها بديلاً عن الحمامات(٣٢)، ولعل ابن سعيد يكاد يكون من الجغرافيين المسلمين القلائل فى ذلك العصر الذين لم يشيروا إلى الخاصية العلاجية لعيون طبرية.

أما الخريطة المذهبية والعقائدية لبلاد الشام فى القرن السابع الهجرى/ الثالث عشر الميلادى، فنجد أن ابن سعيد قد ألقى الضوء على العناصر الشيعية؛ ولاسيما الإسماعيلية والنصيرية، فبالنسبة للاسماعيلية أشار إلى أنه يتصل بجبل الإسماعيلية، وعلى نفس مذهبهم العقائدى جبل السماق وتكثر به العناصر الإسماعيلية، وقد عبر عن تلك الكثافة السكانية لأصحاب ذلك المذهب بقوله «هو ملآن بالاسماعيلية»(٣٣)، ومن ناحية أخرى، عندما تعرض لمدينة سلمية، لم يفته أن يذكر تاريخها ودورها فى بداية الدعوة الاسماعيلية، فقد ذكر أنه خرج منها عبدالله المهدى فأقام دعوتهم فى بلاد المغرب ثم توالى أمرهم إلى أن أزال دولتهم السلطان الناصر صلاح الدين الأيوبى(٣٤).

وإلى جانب الإسماعيلية، نجد أن ابن سعيد المغربى قد سلط الضوء على النصيرية، وعمل على تحديد موقعهم الجغرافى. إذ أنه أشار إلى جبل النصيرية الذى يظهر قائماً على جبلة واللاذقية. وقد أوضح أنهم ينسبون إلى نصير مولى الإمام على بن أبى طالب - رضى الله عنه - كما أنه تعرض لبعض عقائدهم الباطلة مثل تصورهم أن الشمس وقفت له كما وقفت ليوشع بن نون، وأنهم غالوا فى تأليهه. وقد قدم إشارة هامة لتوزيعهم الجغرافى، عندما أوضح أنهم يوجدون أيضاً فى جزيرة عانا، من طرف الجزيرة التى تلى العراق على حد تحديده. أى أن وجودهم الجغرافى تجاوز الشام، واشتمل على مناطق فى العراق أيضاً(٣٥).

وتجدر الإشارة، إلى أن إشارات المصادر العربية المعاصرة لعصر الحروب الصليبية فى بلاد الشام، أشارت إلى الاسماعيلية إشارات هامة ووافية إذا ما قارناها بتناولها لعناصر النصيرية. ومن ثم تأتى أهمية ما أورده ابن سعيد المغربى فى هذا الصدد.

وهكذا، أفادت إشارات ابن سعيد المغربى من خلال تناوله بلاد الشام، أفادت فى إلقاء الضوء على جوانب متعددة عن أوضاع بلاد الشام خلال القرن السابع الهجرى/ الثالث عشر الميلادى. على نحو كشفت عنه الصفحات السابقة.

الهوامش

(١) عن مصادر ومراجع ترجمة ابن سعيد المغربي أنظر :

ابن سعيد المغربي، المقتطف من أزاهر الطرف، تحقيق سيد حنفي حسنين، ط. القاهرة ١٩٨٣م، ص١١٦؛ المقرى، نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب، حـ٢، تحقيق إحسان عباس، ط. بيروت ١٩٦٨م، ص٢٧١؛ محسن العبادى، ابن سعيد الأندلسي، حياته وتراثه الفكرى والأدبى (٦١٠-٦٨٥هـ/ ١٢١٤-١٢٩٤م)، ط. القاهرة، ١٩٧٢م؛ عبدالرحمن زكى، أعلام العرب في الجغرافى، المجلة العربية، السنة (٣)، العدد (١) ديسمبر ١٩٧٨م، ص٥٣؛ عبدالرحمن حميدة، أعلام الجغرافيين العرب، ص٤٨٩-٤٩١؛ على عبدالله الدفاع، رواد علم الجغرافيا، ص١٨٨؛ أحمد رمضان، الرحلة والرحالة المسلمون، ص١٨٩؛ محمد أحمد العقيلى، جهود الجغرافيين المسلمين في رسم الخرائط، ص١٦٨؛ بالنثيا، تاريخ الفكر الأندلسى، ص٢٤٤.

Brockelmann, Geschichte der Arabischen Literature, Vol. I, p. 410.

وعن أسرة بنى سعيد بصفة عامة، أنظر هذه الدراسة الهامة :

Potiron, elements de Biographie et de geneologie des Banu, Sa' id, R.E.A., T. XII, Année 1965, pp. 78-91.

(٢) المقرى، المصدر السابق، حـ٢، ص٢٧٠؛ على عبدالله الدفاع، المرجع السابق، ص١٨٨.

(٣) المقرى، المصدر السابق، حـ٢، ص٢٧٠؛ على عبدالله الدفاع، المرجع السابق، ص١٨٨.

(٤) أحمد رمضان، المرجع السابق، ص١٨٩.

(٥) صلاح الدين الشامى، الفكر الجغرافي سيرة ومسيرة، ص٢٦١.

(٦) نفسه، نفس المرجع والصفحة.

(٧) عبدالرحمن حميدة، المرجع السابق، ص٤٩٠.

(٨) عبالرحمن حميدة، المرجع السابق، ص٣٩٧؛ بالنثيا، المرجع السابق، ص٢٩٤.

(٩) المقرى، المصدر السابق، حـ٢، ص٢٧١؛ على عبدالله الدفاع، المرجع السابق، ص١٩٠-١٩١.

عبدالرحمن زكى، المرجع السابق، ص٥٣؛ عبدالرحمن حميدة، المرجع السابق، ص٣٩٧.

(١٠) على عبدالله الدفاع، ابن سعيد المغربى، مجلة الدفاع، العدد (٣٧)، السنة (٢٨)، جمادى الآخرة ١٤١٠هـ/ يناير ١٩٩٠م، ص١٠٣. أنظر أيضاً : محمد المنوفى، الجزيرة العربية فى الجغرافيات والرحلات المغربية، ص١٦٦.

وعلى سبيل المثال نجد الباحث الأخير يقرر عن كتاب بسط الأرض فى الطول والعرض ما معناه أنه نشر مرتين مرة بتحقيق خوان خنيس، معهد مولاى الحسن تطوان ١٩٥٨م، والثانية فى بيروت ١٩٧٠م، بتحقيق إسماعيل العربى.

(١١) أنظر : مقدمة تحقيق إسماعيل العربى للكتاب الجغرافيا، ط. بيروت ١٩٧٠م، ص٢٥.

(١٢) على عبدالله الدفاع، رواد علم الجغرافيا، ص١٩٠.

(١٣) عبدالرحمن حميدة، المرجع السابق، ص٤٩١.

(١٤) محسن العبادى، المرجع السابق، ص٢٤٤-٢٤٥.

وبطلميوس هو بطليموس القلوذى Claudius Ptolemaeus، ويعد أكبر شخصية جغرافية فى العصر الرومانى، عاش فيما بين ٨٧-١٦٥م،وكان عالماً رياضياً فلكياً، ويعد من علماء الاسكندرية فى القرن الثانى الميلادى، ويلاحظ أنه لم يكن رومانى الأصل بل كان مثل استرابون Strabo افريقياً، وأهم أعمال بطلميوس رسالة فى الفلك تقع فى ١٣ مقالة تعرف باسم المجسطى Al Mageste كذلك كتاب المرشد إلى الجغرافى أو المدخل إلى الجغرافيا، وتعد جهوده أهم محاولة قديمة من أجل وضع دراسة الجغرافيا على أساس علمى، وهناك من يقرر أن كتابات بطلميوس، كانت أدق من كتابات سترابون فى موضوعها، كما أنه رسم أفضل خرائط ذلك العصر، ويلاحظ أن المسلمين عملوا على تصويب الأخطاء التى وقع فيها بطلميوس فى كتابه المجسطى وألفوا مؤلفات للرد عليه، عن بطلميوس القلوذى أنظر :

Fisher, Geogrophy of Claudius Ptolemy, Trans. by Stevenson, New York 1932.

شريف محمد شريف، تطور الفكر الجغرافى، حـ١، العصور القديمة. ط. القاهرة ١٩٦٩م، ص٣٩١-٣٩٣؛ وود، الارتياد والكشف الجغرافى، ت. شاكر خصباك، ط. صيدا ب-ت، ص١٧-٣١؛ دولت صادق والبناو امبابى، أسس الجغرافيا العامة. ط. القاهرة ١٩٨٥م، ص٨؛ البشير صقر، الجغرافيا عند العرب، نشأتها وتطورها، ت. جماد الساحلى، ط. بيروت ١٩٨٤م، ص١٨-١٩؛ ضياء الدين علوى، الجغرافيا العربية فى القرنين التاسع والعاشر الميلاديين (الثالث والرابع الهجريين)، ت. عبدالله يوسف الغنيم وطه محمد جاد، ط. جدة ١٩٨٤م،

ص٣٢-٣٣؛ على عبدالله الدفاع، لمحات من تاريخ الحضارة العربية الإسلامية، ط. الرياض ١٩٨١م، ص٩١؛ جورج فاضلو حوراني، العرب والملاحة فى المحيط الهندى، ت. يعقوب بكر، ط. القاهرة ب-ت، ص٨٧؛ محمد عبدالرحمن مرحبا، الموجز فى تاريخ العلوم عند العرب، ط. بيروت ١٩٨١م، ص١٣٨.

(١٥) محسن العبادى، المرجع السابق، ص٢٤٥.

وابن فاطمة، رحالة من أهل السودان الغربى، ومن المحتمل أن يكون أصله مما يعرف اليوم بالسنغال أو ما يليه جنوباً، وربما كان من أهل غانة الإسلامية، على اعتبار أن نسبة الناس إلى أمها كان شائعاً فى تلك النواحى على نحو خاص، ولدينا أمثلة على ذلك فى صورة ابن الصحراوية، وابن غانية، وابن عائشة، وابن فنو بنت يوسف بن تاشفين وجميعها تتشابه مع اسم ابن فاطمة، وقد عاصر ذلك الرحالة القرن السادس الهجرى/ الثانى عشر الميلادى على ما هو مرجح، وقام برحلة بحرية جنوب مراكش، بيد أن سفينته غرقت عند الرأس الأبيض (جنوب ساقية الذهب، ريودو أورو) وذلك بعد أن توغل فى كشف الساحل الأفريقى الغربى إلى أبعد مما كان يعرفه الأوروبيون حينذاك عن تلك المنطقة، وهناك من يقرر أن ما ألفه ابن فاطمة يعد أفضل ما ألفه المسلمون عن المناطق الواقعة جنوب الصحراء الكبرى. ويلاحظ أن كتابات ذلك الرحالة فقدت بيد أن قسماً مهماً منها، أورده ابن سعيد المغربى فى مؤلفاته.

والجدير بالذكر، أن حسين مؤنس قد اعتقد أن ابن فاطمة قد توفى عام ٧٣١هـ/ ١٣٣١م (أنظر : الجغرافية والجغرافيون، ص٢٧٩)، وفى موضع آخر يذكر أن ذلك الرحالة كان سابقاً على ابن سعيد بقليل أى أنه من أهل القرن السادس الهجرى/ الثانى عشر الميلادى فى الأغلب، (أنظر : ص٥٠٧)، والواقع أن التحديد الذى ذكره والخاص بعام ٧٣١هـ/ ١٣٣١م لا يمكن قبوله البتة، لأن ابن سعيد المغربى توفى عام ٦٨٥هـ/ ١٢٨٦م، ومن المستحيل أن يعتمد على ما ألفه ابن فاطمة بمثل التصور السابق، والأرجح أنه كان معاصراً لمرحلة زمنية قبل عصر ابن سعيد - بدليل استعانة الأخير بما ألفه - ومن المحتمل أن ذلك كان خلال القرن السادس الهجرى/ الثانى عشر الميلادى، وأمام الاعتبارات السابقة، أجدنى أخالف ما ذهب إليه د. حسين مؤنس بشأن وفاة ابن فاطمة عام ٧٣١هـ/ ١٣٣١م. عن ابن فاطمة أنظر :

عبدالرحمن حميدة، أعلام الجغرافيين العرب، ص٤٩٠؛ حسين مؤنس، الجغرافية والجغرافيون فى الأندلس، ط. القاهرة ١٩٨٦م، ص٥٠٦-٥٠٧، ٥١٦؛ كراتشكوفسكى، تاريخ الأدب الجغرافى العربى، ص٣٧٦.

(١٦) ابن سعيد، كتاب الجغرافيا، ص١٥٠.

(١٧) نفسه، نفس المصدر، والصفحة.

(١٨) نفسه، نفس المصدر والصفحة.

(١٩) نفسه، نفس المصدر، ص١٤٩.

(٢٠) نفسه، نفس المصدر، ص١٥٤.

(٢١) نفسه، نفس المدر، ص١٥٣.

(٢٢) نفسه، نفس المصدر، ص١٥٤؛ وعن زراعة القطن فى حلب أنظر : ابن البيطار، الجامع لمفردات الأدوية والأغذية، حـ٤، ط. القاهرة ١٢٩١هـ، ص١١، ٢٤.

(٢٣) ابن سعيد، كتاب الجغرافيا، ص١٥٤.

(٢٤) نفسه، نفس المصدر والصفحة.

والباب، بلدة صغيرة، وقعت فى شمال الشام، وبالتحديد فى وادى بطنان الواقع بدوره فى شمال شرق حلب، وقد وصفت الباب بأنها ذات سوق، وحمام، ومسجد جامع، ووجدت فيها بساتين عديدة، ومن الملاحظ أن بعض مصنوعات الباب؛ تم إرسالها إلى أنحاء الشام الأخرى، وكذلك مصر مما عكس جودتها بحيث دخلت فى مجال التجارة الخارجية. عن الباب أنظر :

ياقوت، معجم البلدان، حـ١، ص٣٠٣؛ أبو الفداء، تقويم البلدان، ص٢٩٦-٢٩٧؛ ابن جبير، الرحلة، ط. بيروت ١٩٦٤م، ص٢٢٤-٢٢٥؛ ابن عبدالحق البغدادى، مراصد الإطلاع، حـ١، ص١٤٢؛ شيخ الربوة، نخبة الدهر، ص٢٨.

(٢٥) ابن القلانسى، هو حمزة بن أسد المعروف بأبى يعلى، وقد انتمى إلى أسرة دمشقية عريقة انحدرت فى نسبها إلى قبيلة تميم العربية، وتلقى تعليمه منذ حداثة عمره لاسيما العلوم الدينية، وصارت لديه خلفية فكرية متسعة، فى مجال علوم الفقه، والشريعة، والتحق بالعمل فى ديوان الرسائل، وتقدم فيه حتى صار عميداً للديوان. كذلك، فإنه تولى منصباً هاماً، ألا وهو رئيس مدينة دمشق، وقد ألف كتابه ذيل تاريخ دمشق الذى جعله بمثابة ذيل على ما ألفه ابن هلال الصابى، وهو الأثر الأدبى الوحيد الذى قام بتأليفه كما يلاحظ هاملتون جب Hamilton Gibb، وقد توفى ابن القلانسى فى عام ٥٥٥هـ/ ١١٦٠م، عنه أنظر :

ياقوت، معجم الأدباء، حـ٤، ص١٤٥؛ أبو شامة، الذيل على الروضتين، ط. القاهرة ١٩٦٦م، ص١٣٥؛ ابن تغرى بردى، المنهل الصافي المستوفى بعد الوافى، حـ١، تحقيق أحمد يوسف نجاتى، ط. القاهرة ١٩٦٥م، ص٣٦. النجوم الزاهرة، حـ٥، ص٣٣٢؛ لويس شيخو، تاريخ دمشق لابن القلانسى، المشرق، عدد (٨) عام ١٩٠٨م، ص٦١٩؛ هاملتون جب، تاريخ دمشق، ضمن كتاب صلاح الدين الأيوبى، دراست فى التاريخ الاسلامى، ت. يوسف أيبس، ط. بيروت ١٩٧٣م، ص٤٠؛ صلاح الدين المنجد، المؤرخون الدمشقيون وآثارهم المخطوطة، مجلة معهد المخطوطات العربية، م (٢)، حـ١، عدد مايو ١٩٥٦م، ص٨٠؛ معجم المؤرخين الدمشقيين، ط. بيروت ١٩٧٤، ص٣٤؛ روزنتال، علم التاريخ عند المسلمين، ت. صالح العلى، ط. بيروت ١٩٨٣م. ص٢٠٣؛ يسرى عبدالغنى عبدالله، معجم المؤرخين المسلمين حتى القرن الثانى عشر الهجرى، ط. بيروت ١٩٩١م، ١٤٠-١٤١؛ محمد على مسيرى، أبو الحسن الخزرجى وآثاره التاريخية، رسالة دكتوراه غير منشورة، كلية اللغة العربية بالرياض، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، عام ١٩٨٦م، ص٢٨٥.

Cahen, La Syrie du nord à L'epoque de croisades, p. 39-40.

(٢٦) ذيل تاريخ دمشق، تحقيق أميدروز، ط. بيروت ١٩٠٨م، ص٣١٩؛ محمد مؤنس أحمد عوض، الأسواق التجارية فى عهد الدولة النورية، الدارة، السنة (١٦)، العدد (٢) عام ١٤١١هـ، ص٧٧.

(٢٧) ابن سعيد، المصدر السابق، ص١٥١.

(٢٨) نفسه، نفس المصدر، ص١٥٤.

(٢٩) نفسه، نفس المصدر، ص١٥٠.

(٣٠) نفسه، نفس المصدر، ص١٥١.

(٣١) نفسه، نفس المصدر، ص١٤٩.

(٣٢) نفسه، نفس المصدر، ص١٥١.

(٣٣) نفسه، نفس المصدر، ص١٥٣.

(٣٤) نفسه، نفس المصدر والصفحة.

(٣٥) نفسه، نفس المصدر والصفحة.

٦ - أبو الفـداء

(ت ٧٣٢هـ/ ١٣٣١م)

يتعـرض هـذا الفصـل بالدراسـة لأحـد الجغـرافيـين الشـاميين البـارزين، وهـو أبو الفداء[١] (ت ٧٣٢هـ/ ١٣٣١م)، وأهم ما ورد فى كتاباته عن أوضاع بلاد الشام لاسيما خلال عصر الحروب الصليبية، وفى النصف الثانى من القرن السابع الهجرى/ الثالث عشر الميلادى.

وأبو الفداء؛ هو إسماعيل بن على بن محمود بن شاهنشاه بن أيوب عماد الدين الأيوبى[٢]، وينتمى إلى البيت الأيوبى، وقد ولد فى دمشق عام ٦٧٢هـ/ ١٢٧٣م، حيث كان قد فر أبوه الملك الأفضل، أخو أمير حماة الملك المنصور من وجه القوات المغولية[٣]، ويلاحظ أن أسرته استردت مجدها فى عهد السلطان المملوكى الناصر محمد بن قلاوون الذى قام بتعيين أبا الفداء حاكماً عام ٧١٠هـ/ ١٣١٢م. ثم صار ملكاً عام ٧١٢هـ/ ١٣١٤م، وفيما بعد صار سلطاناً لمملكة حماة، وتم تلقيبه بالملك المؤيد، فى عام ٧٢٠هـ/ ١٣٢٠م[٤].

وتجدر الإشارة إلى أن أبا الفداء اهتم بتحصيل العلم، فوصف بأنه كان جامعاً لأشتات العلوم، والمعارف فى عصره، وقد درس علوم الفقه، والتفسير، والنحو، والعروض، وعلم الميقات، والمنطق، والطب، والفلسفة، والتاريخ، والجغرافيا، بالإضافة إلى براعته وموهبته فى مجال الشعر[٥].

وقد ألف أبو الفداء عدة مولفات فى مجال الجغرافيا متمثلة فى كتاب رسم الربع

المعمور(٦)، وكتاب الطول والعرض(٧)، وكتاب تقويم البلدان(٨)، ويفيدنا فى المقام الأول الكتاب الأخير لاحتوائه على مادة تاريخية وجغرافية هامة عن بلاد الشام فى عصر الحروب الصليبية.

ومن الجوانب الهامة فى دراسة أبى الفداء، معرفة المصادر التى استقى منه مادته الجغرافية عن العديد من الأقطار الإسلامية وكذلك بلاد الشام، وفى هذا المجال نعرف أنه اعتمد على ثلاثة مصادر ألا وهى المشاهدة والمعاينة وكذلك مؤلفات الجغرافيين المسلمين السابقين، بالإضافة إلى المصادر الشفهية.

وأول المصادر التى اعتمد عليها أبو الفداء، هى المشاهدة(٩) والمعاينة، إذ أنه بحكم شاميته وارتباطه ببلاد الشام مولداً ونشأة، مثلت المشاهدة، والمعاينة، أحد مصادر كتابه الهامة. خاصة إذا ما لاحظنا أنه طاف فى مناطق متعددة فى أنحاء بلاد الشام. وهو فى ذلك يتشابه مع جغرافى شامى سابق ونعنى به عز الدين بن شداد الحلبى الذى ارتبط ببلاد الشام ولم يكن وافداً عليها.

أما ثانى المصادر؛ فتتمثل فى ما ألف من جانب الجغرافيين المسلمين؛ الذين وجدوا من قبله وتركوا مؤلفات هامة فى هذا المجال(١٠)، وفى هذا المقام نذكر أنه استفاد مما ألفه ابن حوقل فى كتابه المسالك والممالك، وكذلك الإدريسى فى صورة كتابه نزهة المشتاق(١١)، وابن سعيد ومؤلفه الجغرافيا(١٢)، والبلاذرى وكتابه فتوح البلدان، وياقوت الحموى خاصة كتابه المشترك وضعاً والمفترق صقعاً(١٣).

وإذا كانت المصادر الجغرافية السابقة قد وصلت إلينا فإن أبا الفداء اعتمد أيضاً على مصدر جغرافى هام فقد، ومعرفتنا به صارت متمثلة فى النقول التى أوردها فى كتابه تقويم البلدان، ونعنى بذلك ما ألفه المهلبى (ق ٤هـ/ ١٠م) تحت عنوان كتاب المسالك والممالك أو كتاب العزيزى الذى ألفه للخليفة الفاطمى العزيز بالله فى عام ٣٧٥هـ/ ٩٨٥م(١٤).

ومن الملاحظ أن أبا الفداء يكثر من الاستعانة بما أورده المهلبى فى كتابه المذكور(١٥)، على نحو يعطى كتابه قيمة خاصة إضافة إلى قيمته الأصلية.

أما ثالث المصادر فهى المصادر الشفوية، إذ أنه كان يسأل التجار والرحالة عما رأوه فى البلدان التى قاموا بزيارتها(١٦)، ولا نزاع فى أن المصادر الشفوية أفادت أبا الفداء فائدة كبرة، بالإضافة إلى المصادر السابقة، وجعلت أمامه مادة علمية غزيرة، مكنته من أن يؤلف كتابه البارز تقويم البلدان.

ومن الأمور الهامة ملاحظـة أن ذلك الجغرافى؛ قد جعل عنوان كتابه تقويم البلدان متأثراً فى لك بأحـد الأطباء العراقيين ألا وهو؛ ابن جزلة(١٧) (ت٤٩٣هـ/ ١١٠٠م)، الذى وضـع كتاباً فى الطب، أسماه تقويم الأبدان، وجعل فيه الأمراض، وأعراضها، وعلاجها فى صورة جداول، وقد أقر أبو الفداء نفسه، هذا التأثر فى مقدمة كتابه المذكور.

ويلاحظ أن أبا الفداء قد رغب من وراء كتابه هذا فى أن يصحح بعض الأخطاء المذهبية التى وقع فيها الجغرافيون المسلمون السابقون، وقد نقدهم موضحاً أن ابن حوقل، وابن خرداذبه، والإدريسى قد كتبوا مؤلفاتهم، ولم يحققوا الأسماء، وغيرهم لم يحققوا الأطوال، أما هو فقد جمع بين تحقيق الأسماء، والأطوال(١٨). وكل ذلك من خلال أسلوب الجداول، وهناك من يقرر أنه يعد أول من اتبع طريقة الجداول فى علم الجغرافيا(١٩). ومن خلال الجداول نجد أن المؤلف قد جعلها تحتوى أسماء الأماكن، والمصادر، والطول، والعرض، وخلاصة وصفية للمكان(٢٠).

وجدير بالذكر أن أبا الفداء، حرص على تناول العديد من الجوانب المتصلة ببلاد الشام، ومن ثم أفرد لها قسماً هاماً فيما ألفه عن البلدان المختلفة، من ذلك تناوله للساحل الشامى بمدنه المتعددة، ومدى ما أصابها من تخريب فى وقته، وكذلك العمائر الحربية هناك سـواء الإسلامية أو الصليبية، ثم تعرض للجوانب الاقتصادية سـواء مصادر

الثروة المائية أو النشـاط الحرفى والتجـارى، وبالإضافة إلى ذلك تعرض للخريطـة العقـائدية لبلاد الشـام فى عصره، ثم العمائر الدينية الإسلامية والمسيحية، وكذلك المزارات الدينية هناك.

مهما يكن من أمر، فإن أبا الفداء، تناول أمر الساحل الشامى، وهى منطقة لقيت اهتماماً تقليدياً من جانب الجغرافيين والرحالة المسلمين وكذلك الرحالة الأوروبيين، وقد اختلفت طريقة تناوله لمدن ذلك الساحل، فأحياناً تعرض لمدن بإيجاز، وأحياناً أخرى تناول بعضها بمادة ثرية. ومن الواضح أن تعليل ذلك يرجع إلى مدى أهمية كل مدينة أو عدم ذلك، وخاصة على الصعيد الاقتصادى التجارى، وخاصة إذا كانت المدينة التى يتناولها بمثابة ميناء التصدير لمدن داخلية برية حبيسة ليست لها منافذ بحرية. كذلك فإن الوضع القائم الذى كانت عليه بعض المدن الشامية الساحلية فى وقت أبى الفداء، أدت إلى أن تناولها المختلف من جانبه تفصيلاً وإيجازاً.

ومن ناحية أخرى تفيد الإشارات التى قدمها لنا أبو الفداء فى تقويم البلدان، فى توضيح مظاهر التخريب الذى لحق ببعض المدن الساحلية الشامية من خلال الصراع الإسلامى/ الصليبى. وبعد أن نجح المسلمون فى عهد دولة المماليك البحرية من طرد بقايا الصليبيين من آخر معاقلهم فى الساحل وخاصة عكا – المعقل الأخير – وذلك فى عام ٦٩٠هـ/ ١٢٩١م[٢١].

ونجد أنه يتناول مدينة بيروت فيوضح أنها على ساحل البحر، وأنها ذات برجين، ويشير إلى امتلاكها ميناء جليل[٢٢]، أما عسقلان، وهى التى وصفت من قبل بأنها فريدة بين مدن الشام أحياناً وعروس الشام أحياناً أخرى، نجده يذكر عندها أنها فى زمانه خراب خالية من السكان[٢٣].

ومن الواضح أن إشارته تفيد فى توضيح أن مدن الساحل الشامى، لم تكن دائمة الازدهار، وأن منها ما تراوح بين الازدهار تارة والأفول تارة أخرى، ومن الأمثلة الواضحة

الدالة على ذلك مثال عسقلان السالف الذكر، وهكذا يمكن أن نلاحظ أن أبا الفداء يعد الجغرافى المسلم الذى كان شاهد عيان على أفول عدد من مدن ذلك النطاق الساحلى التى ازدهرت من قبل ازدهاراً كبيراً شهدت به نصوص مؤلفات الجغرافيين والرحالة المسلمين والأوروبيين الذين زاروا المنطقة خلال عصر الحروب الصليبية فيما قبل عصر أبى الفداء.

ومن المحتمل – دون أن نستطيع التأكيد – أن التخريب الذى تعرضت له عسقلان فى أخريات القرن السادس الهجرى/ الثانى عشر الميلادى فى ختام الحملة الصليبية الثالثة قد أثر بدوره – وإلى حد ما – فى حجم الخراب الذى حل بها، ولم تتناولها يد التعمير فى المرحلة التالية على نحو جعل أبا الفداء يصفها بذلك الوصف؛ فى معرض حديثه عن مدن الساحل الشامى بالإضافة إلى ما شهدته المنطقة من عمليات حربية لطرد الصليبيين من المنطقة.

أما مدينة يافا؛ فهى عنده مزدهرة اقتصادياً ولاسيماعلى الصعيد التجارى، ولذا فإنه أشار إلى أسواقها العامرة، وإلى الوكلاء التجاريين الذين يقومون بأمر حركة تجارة الصادرات والواردات، وقد أشار إلى أنها مقر ميناء كبير فيه مرسى المراكب الواردة إلى فلسطين[٢٤]، وهذا وضع منطقى من خلال ملاحظة أن يافا على مدى عصر الحروب الصليبية وصفت باستمرار بأنها ميناء بيت المقدس، وفى ذلك العصر كان الحجاج يقدمون إلى ذلك الميناء من أجل الوصول إلى المدينة المقدسة للقيام بالحج هناك.

فإذا نظرنا إلى تناوله لمدينتى قيسارية[٢٥] وكذلك أرسوف[٢٦]؛ نجد أنه يشير إلى أنهما تجاريتان، شأنهما فى ذلك شأن عسقلان، ولم يفته أن يذكر أن قيسارية كانت من أمهات المدن العظام[٢٧]، وأن أرسوف كانت من قبل مسكونة[٢٨]، على نحو عكس تغير أوضاع تلك المدن ازدهاراً واضمحلالاً.

أما تعرضه لطرابلس، فنجد أنه يشير إلى ثرواتها الزراعية مثل البساتين، والأشجار، وزراعة قصب السكر بها، ولا يقدم تناولاً لدور الميناء نفسه فى الحركة التجارية ويكتفى بأن يقول عنها عبارة «لها ثغر»[٢٩]، وعندما تناول أنطرطوس، أشار إلى أنها ثغر لأهل حمص[٣٠]، وبالتالى عمق فكرة أن المدن الساحلية الشامية كانت منافذ للمدن الداخلية الحبيسة وأنها لعبت دوراً هاماً فى تصريف منتجاتها المتعددة. وهو أمر أورده من قبل جغرافيون مسلمون زاروا بلاد الشام من قبل مثل الإدريسى.

أما مدينة عكا، وهى القلب التجارى للوجود الصليبى فى مملكة بيت المقدس الصليبية، فنجد أن أبا الفداء يذكر أنها مدينة كبيرة على ساحل الشام[٣١]، ويهتم بإيراد الأطوال والأبعاد بينها وبين المدن الأخرى مثل طبرية وصور على سبيل المثال، ولا يقدم لنا وصفاً لدورها التجارى، وكثافات السكان بها، كما لاحظنا ذلك لدى الإدريسى[٣٢] أو ابن جبير[٣٣]، وتعليل ذلك واضح وهو أن أبا الفداء يشير صراحة إلى أنها خراب[٣٤]، وهى بالتالى تكون قد شاركت عسقلان، وقيسارية، وأرسوف ذات المصير التخريبى.

وإشارة ذلك الجغرافى، لها أهميتها الخاصة، وتعليل ذلك يرجع إلى أنه اشترك بصورة فعلية، فى قتال الصليبيين بها وذلك فى عام ٦٩٠هـ/ ١٢٩١م[٣٥]، وكان من شهود العيان للأحداث الحربية العنيفة والمقاومة الكبيرة التى أبداها الاستبارية Hospitallers، والداوية Templars[٣٦] لقوات الأشرف خليل بن قلاوون عندما حاصرت المدينة، فهو بذلك يشبه بيبرس الداوادارى، صاحب كتاب زبدة الفكرة من تاريخ الهجرة، الذى كان شاهد عيان معاصر لتلك الأحداث، بيد أن أبا الفداء لم يفصل فى أمر عكا فى كتابه تقويم البلدان، وإنما ذكر تفاصيل الأحداث التى شاهدها، وشارك فيها فى كتابه التاريخى.. المختصر فى أخبار البشر.

وكل ذلك يعنى أن مدينة عكا، تلك المدينة التى وصف ازدهارها الرحالة المسلمون

وكذلك الأوروبيون الذين زاروها على مدى القرنين ٦، ٧هـ/ ١٢، ١٣م، تعرضت لمرحلة من انخفاض ذلك الازدهار، وهو ما كان عليه أبو الفداء شاهداً، وجاء ذلك بالطبع من خلال أحداث الصراع بين المماليك وبقايا الصليبيين فى بلاد الشام.

أما إذا ما اتجهنا إلى رؤية أبى الفداء لإحدى المدن الساحلية اللبنانية ونعنى بها مدينة صور، فنجد أنه يقرر صراحة أنها «أحصن الحصون على ساحل البحر»(٣٧) ومن المعروف أن تلك المدينة الحصينة، وصفت بذات الصفة من جانب كافة الجغرافيين المسلمين الذين وصفوها من خلال مقدمهم ووجودهم فى بلاد الشام فى عصر الحروب الصليبية وعلى مدى القرنين ٦، ٧هـ/ ١٢، ١٣م.

ويلاحظ أنه يذكر أنه كان يصور مرسى للسفن، وأن عليه سلسلة من أجل منع السفن من الدخول(٣٨)، وهو بذلك لا يختلف عن وصف الجغرافيين السابقين، لأمر ذلك المرسى، والاحتياطات الأمنية المتوافرة فيه.

ومن ناحية أخرى يشير أبو الفداء إلى ناحية تاريخية تتصل باستيلاء المماليك على صور، وذلك فى عام ٦٩٠هـ/ ١٢٩١م، أى فى نفس العام الذى شهد سقوط مدينة عكا، وأضاف ناحية هامة ألا وهى أن صفة الخراب لحقت بها(٣٩)، وبالتالى يمكن القول إن مدن عسقلان، وأرسوف، وقيسارية، وعكا، وصور، عندما وصفها أبو الفداء وجدها على جانب من الخراب.

وهناك ملاحظة خاصة بوصف أبى الفداء لصور، إذ أنه لا يكتفى بتصوراته الشخصية أو مشاهداته وإنما نجده يستعين بمؤلفات جغرافيين سابقين مثل ابن سعيد، وكذلك المهلبى، وربما هذا يدل على أنه على الرغم من إدراكه العام لكافة مناطق بلاد الشام، إلا أنه يسعى إلى تدعيم رؤيته من خلال مؤلفات الرحالة والجغرافيين المسلمين السابقين وهو أمر كانت له أهميته الواضحة خاصة فى حالة استعانته بمؤلفات مفقودة حالياً للباحثين.

وهكذا، أفادت إشارات أبى الفداء فى توضيح الوضع العمرانى والنشاط التجارى للمدن الساحلية الشامية بعد أن خاضت معركة التخلص من الوجود الصليبى الدخيل، وهو وضع كان متردياً كما تكشف عن ذلك نصوص تقويم البلدان.

وإذا كان مؤلف تقويم البلدان قد أورد إشارات هامة، عن الخراب الذى لحق بالمدن الساحلية الشامية، فهذا مرجعه إلى الصراع الإسلامى/ الصليبى من جهة، ثم الكوارث الطبيعية التى كانت تحدث بين الحين والآخر مثل الزلازل التى نكبت بها بلاد الشام، ولم تنج من آثارها تلك المدن الساحلية الكبيرة، وإن لم يشر أبو الفداء صراحة إلى دور الهزات الزلزالية، فى ذلك الدور التخريبى، وإن كنا نفهمه ضمنياً من خلال نصوص المصادر التاريخية الأصلية المعاصرة، واللاحقة، وكذلك الدراسات التاريخية الحديثة المتخصصة(٤٠).

أما إذا نحينا جانباً زاوية الساحل الشامى، فإننا نجد أن أبا الفداء اهتم بإيراد أمر القلاع المتناثرة فى بلاد الشام، والتى كان جزء هام وكبير منها تابعاً للسيادة الصليبية، واسترده المسلمون فى عهد دولة المماليك البحرية. وفى هذا المجال نجده يذكر أمر حصن الكرك ويقرر أنه عالى المكان وهو أحد المعاقل القوية فى بلاد الشام التى لا ترام(٤١)، كما أن قلعة الشوبك على طرف الشام من جهة الحجاز، وهى مبنية بالحجر الأبيض، وتقع على تل مرتفع(٤٢)، ونجده يقرر أن قلعة صهيون حصينة لا ترام وهى من القلاع المشهورة فى بلاد الشام(٤٣)، أما قلعة المرقب فهى قلعة حصينة حسنة البناء وأشار إلى إشرافها على البحر المتوسط(٤٤). ونجد أنه يقرر أن قلعتى بغراس(٤٥) ودربساك(٤٦) قلعتان مرتفعتان، وبالنسبة لحصن الأكراد نراه يقرر أمر حصانته ويحدد موقعه بأنه مقابل حمص من غربها(٤٧).

ثم أنه أوضح أن الصبيبة قلعة بانياس، وأنها تعد من الحصون المنيعة(٤٨)، أما قلعة صفد فقد أوضح أنها ذات بناء متين، وأشرفت على بحيرة طبرية. وأن السلطان الظاهر

بيبرس بعد إخضاعها وانتزاعها من قبضة الصليبيين جعلها مركز الجيش الذى يقوم بحفظ المدن الساحلية التى تشرف القلعة عليها[٤٩].

كما تناول أمر القلاع الإسلامية، وفى هذا الصدد أشار إلى قلعة حلب وذكر ارتفاعها وحصانة بنائها وتشييدها على تل على نحو صارت معه لا ترام من جانب أعدائها[٥٠]، كذلك تعرض لقلعة شيزر، ولم يزد عن وصفها بالحصانة[٥١]، مع ملاحظة أنه أغفل ذكر الزلزال المروع الذى دمر شيزر، وأثر على قلعتها، والذى وقع فى عام ٥٥٢هـ/ ١١٥٧م[٥٢]. وبالإضافة إلى ذلك تعرض لإحدى قلاع الاسماعيلية النزارية فى بلاد الشام ألا وهى قلعة مصياف. والتى كانت مركز دعوتهم هناك[٥٣] مع عدم إغفال أهمية قلاع الدعوة الأخرى هناك.

ومن جهة أخرى، اهتم أبو الفداء بتناول الجوانب الاقتصادية سواء الثروة المائية أو النشاط الحرفى والتجارى، وفى هذا المجال عمل على التعرض لمصادر المياه المتعددة فى بلاد الشام واختلاف أوضاع كل منطقة حيال تلك الناحية، فهو يلاحظ مثلا أن بيت المقدس ليست فيها مياه جارية إلا العيون، وهى لا تتسع لأمر المزروعات وريها[٥٤]، وهو يقرر - بصورة عامة - أن فلسطين ماؤها يتمثل فى الأمطار[٥٥]، وذات الأمر نجده فى سرمين؛ التى حرص أهلها على تخزين مياه الأمطار عن طريق الصهارية[٥٦]، أما إذا ما اتجهنا إلى معرة النعمان؛ فنجده يقرر أن أهلها يعتمدون على مياه الآبار، وليست الأمطار أو الأنهار[٥٧].

وإذا كانت المدن السابقة عند أبى الفداء اعتمدت على مياه الأمطار أو الآبار، فإن هناك عدداً من المدن اعتمد على مياه الأنهار، ومن أمثلتها مدينة حمص التى تروى من نهر العاصى[٥٨]، وكذلك الأمر بالنسبة لمدينة حماة التى يقرر أن العاصى يستدير على أغلبها من الجهتين الشرقية، والغربية[٥٩].

وقد حرص ذلك الجغرافى، على إيراد وسائل الرى بالنسبة للمدن التى تستفيد من مياه الأنهار، ومن أمثلة ذلك أنه أشار إلى النواعير وقد ذكر أنها توجد بكثرة فى كل من حماة(٦٠) وشيزر(٦١) وذلك دون غيرها من مدن بلاد الشام الأخرى.

أما إذا ما اتجهنا إلى الناحية الاقتصادية، ولاسيما النشاط الحرفى والصنعى، نجد أن أبا الفداء لا يقدم مادة غزيرة فى هذا المجال، فباستثناء إشاراته عن أسواق عدد قليل من مدن الساحل الشامى، التى أسلفت الإشارة إليها، نجد أنه أورد إشارات خاصة بصناعة القدور الخزفية فى كفر طاب(٦٢) وأنه يتم تصديرها إلى المناطق الأخرى التى تحتاجها، كما أنه أشار بصورة مقتضبة إلى أسواق مدينة سرمين(٦٣). ثم أنه عندما أورد ذكر مدينة الباب، أشار إليها أيضاً من خلال أن لها سوقها(٦٤)، كما أنه عندما تناول مدينة البيرت، على حافة نهر الفرات، أشار إلى سوقها كذلك(٦٥) وحرص أبى الفداء على إيراد أسواق تلك المدن أمر لا يخلو من دلالة لأنها - على ما هو متوقع - كانت بمثابة مراكز هامة للنشاط الاقتصادى التجارى بين بلاد الشام والعراق، ومن ثم تناولها بمثل ذلك الإلحاح الملحوظ، خاصة أنه لم يلحق بها التخريب الذى لحق بالمدن الشامية الساحلية الأخرى.

ومن ناحية أخرى احتوت إشارات أبى الفداء على جوانب هامة، فيما يتصل بالخريطة المذهبية والعقائدية لبلاد الشام، ويستفاد مما أورده بشأن السامرة وارتباطهم بنابلس، وأنهم يحجون إلى جبل صغير بظاهر نابلس ذاتها(٦٦)، ومن الملاحظ أن تلك الإشارة كانت ترددت من قبل لدى عدد من الجغرافيين المسلمين الذين زاروا بلاد الشام من قبل عصر أبى الفداء، وإن كانت قيمة روايته فى هذا الشأن فتتمثل فى استمرارية تلك الناحية حتى ذلك الحين. وهكذا فإن ارتباط السامرة بنابلس، والذى تصور الإديسى من قبل أنه مجرد زعم، تأكد على مدى القرنين السادس والسابع الهجرى/ الثانى عشر والثالث عشر الميلادى. وجاءت إشارة أبى الفداء لتوضح أن السامرة ارتبطوا بذلك الوضع حتى بعد إنصرام عصر الحروب الصليبية فى بلاد الشام.

ومن جهة أخرى، تناول أبو الفداء، عناصر الصابئة؛ وأشار إليهم فى معرض حديثه عن مدينة بعلبك، وقد ذكر أن بها مذبحاً يقولون أنه من بيوتهم، وأنه معظم لديهم بدرجة كبيرة للغاية(٦٧).

والواقع أن قيمة تلك الرواية تتمثل فى أن الصابئة ندر الاهتمام بهم من جانب الجغرافيين المسلمين الذين قدموا إلى بلاد الشام فى ذلك العصر، وحتى عندما تناولوا مدينة بعلبك فى سهل البقاع بلبنان، لم يذكروا عنها إلا أبنيتها الضخمة العجيبة العديمة النظير ولم يعنوا بتناول التوزيعات العقائدية بها، كما يلاحظ أن عبارات أبى الفداء حيال الصابئة تدل على تسامح المسلمين حيالهم، وعدم وجود أية مواقف عدائية تجاههم.

وجدير بالذكر، أن ذكر أبى الفداء لوجود كيان محلى للصابئة فى بعلبك يجعلنا نرجح احتمال أنهم وجدوا فى ذلك الوضع من قبل عصر أبى الفداء بزمن طويل، إذ أن تلك التكوينات العقائدية؛ حافظت على أماكن توزيعاتها لأمد طويل، خاصة إذا لم تجد قوى مناوئة ومتصارعة معها مذهبياً، ويصدق ذلك على عناصر الصابئة.

مهما يكن من أمر، فعلى الرغم من أن ذلك الجغرافى الشامى تناول توزيعات السامرة، والصابئة، إلا أنه لم يقدم إشارات هامة فيما يتعلق بالتوزيعات الإسلامية السنية والشيعية فى بلاد الشام فى عصر، وبالتالى لم يساعدنا على معرفة حجم توزيعات العناصر الشيعية بالذات، وهل حافظت على نفس مواقعها القديمة التقليدية أم أن تغييراً ما لحق بها، وفى حالة إيراده لذلك، لتزايدت قيمة ما أورده فى تقويم البلدان فيما يتعلق بالخريطة المذهبية، والعقائدية فى بلاد الشام، فى ذلك العصر. ومع ذلك؛ فإن ذلك النقص؛ يمكن معالجته من خلال المصادر التاريخية المعاصرة الأخرى، بطبيعة الحال.

وإلى جانب الزوايا السابقة، نجد أن أبا الفداء قد عنى بإيراد مواضع الزيارات الدينية فى ذلك العصر، سواء لدى المسلمين أو المسيحيين، وهو أمر اهتم به كافة الجغرافيين

والرحالة المسلمين الذين قدموا إلى بلاد الشام فى ذلك العصر، معـبرين عن ظاهرة دينيـة عامة سيطرت على عقول وقلوب المعـاصرين، على اختلاف دياناتهم، مع ملاحظة أنهم أنفسـهم لم ينفصلوا عن ذلك العصر ومن ثم عبرت أقلامهم عن ظواهره العامة المشتركة.

وفيما يتصل بمزارات المسلمين، نجد أنه تعرض لذكر قبر هاشم بن عبد مناف فى غزة(٦٨)، كما ذكر وجود قبر لعقيل بن أبى طالب(٦٩) فى بزاغة فى شمال شرق حلب، أما فى المدينة الأخيرة؛ فقد أورد وجود مقام لإبراهيم الخليل بها(٧٠)، كذلك أورد قبر إبراهيم بن أدهم فى مدينة جبلة(٧١)، كما لم يفته أن يشير إلى وجود قبر إبراهيم، وإسحاق، ويعقوب، فى صف واحد وكذلك نسائهم فى صف آخر، فى مدينة بيت جبرين(٧٢).

ومن الملاحظ أن أبا الفداء، آثر السلامة. مثلما حدث بالنسبة لعدد من الجغرافيين المسلمين السابق دراستهم – فيما يتصل باعتقادات العامة بشأن تلك القبور، والأضرحة. ولم يحاول نقدها، على عكس ما اتجه إليه ياقوت الحموى، من قبل.

وكإمتداد لما سبق، نجد أبا الفداء يتناول المزارات والعمائر الدينية الإسلامية الشهيرة، كتعرضه للمسجد الأقصى، وقبة الصخرة، وتعرض لوصفها بتفصيل(٧٣) يفوق المزارات الأخرى بطبيعة الحال. وإن لم يقدم فى هذا المجال أكثر مما زاد باستمرار فى ذلك العصر عن تلك العمائر الدينية الإسلامية، وفى المقابل، تعرض للمزارات، والعمائر الدينية المسيحية، من ذلك تناوله لكنيسة القيامة، وذكره تعظيم المسيحيين لها(٧٤)، وهى كنيسة حظيت باهتمام الجغرافيين المسلمين منذ وقت مبكر، وتعرض لها حتى جغرافيو القرن الرابع الهجرى/ العاشر الميلادى.

وزيادة على ذلك، تعرض ذلك الجغرافى الشامى للمزارات الاستشفائية التى قدم إليها المعاصرون للعلاج ولذلك تناول مزارات طبرية العلاجية(٧٥) والتى طالما ترددت فى مؤلفات الجغرافيين المسلمين السابقين الذين قدموا إلى بلاد الشام فى ذلك العصر منذ عصر الإدريسى.

وهكذا يتضح لنا بجلاء أن أبا الفداء قدم لنا العديد من الجوانب الهامة عن بلاد الشام فى عصره، وقد تناول أوضاع المدن الساحلية الشامية، والجوانب الاقتصادية وكذلك القلاع والمزارات الدينية والخريطة العقائدية والمذهبية لتلك المنطقة الهامة والحيوية.

ومع ذلك، هناك أوجه النقد التى يمكن أن توجه إلى عمل أبى الفداء، ويمكن إجمالها فى الآتى :

أولاً : على الرغم من أنه نقد الجغرافيين، والرحالة المسلمين السابقين؛ إلا أنه لم يقدم لنا رؤية تفوقهم أو تميزه عنهم، وذلك باستثناء الجانب التنظيمى، الذى أخذ على عاتقه تبنيه فى صورة الجداول. ولذلك فليس من اليسير أن نقبل ما قال به أحد كبار الباحثين فى مجال الرحلات والجغرافيا الإسلامية فى العصور الوسطى، عندما رأى أن كتاب أبى الفداء يصح أن يعتبر تاريخاً انتقادياً للكتابة الجغرافية العربية إلى عصره (القرن الثامن الهجرى/ الرابع عشر الميلادى)(٧٦) لأن الطبيعة النقدية لم تتوافر فى داخل الكتاب ذاته؛ وإنما وجدت فى صدره فقط تقريباً، ولذلك من الممكن أن أؤيد ما ذهب إليه باحث آخر عندما رأى فيه أنه لم يكن من المجددين(٧٧)، باستثناء الجانب التنظيمى السالف الذكر.

ثانياً : إن طابع الإيجاز، والاختصار الذى أخذ به أبو الفداء؛ جعله لا يقدم التفاصيل المسهبة التى تشفى غليل الباحث، ثم أنه عندما كان يكثر من الاستعانة بالمصادر الجغرافية الأخرى السابقة عليه، أعاق تقديم رؤيته نفسه كشاهد عيان لتلك

المناطق الجغرافية. وكان من المتوقع أن يقدم لنا مادة جغرافية، وتاريخية أكثر ثراء مما قدم ولكن ذلك لم يحدث.

ثالثاً : على الرغم من تأخر أبى الفداء الزمنى إلا أنه لم يفق بعمل «تقويم البلدان» عمل السابقين، وإذا ما قارنا بين أبي الفداء (ت ٧٣٢هـ/ ١٣٣١م) وأحد الجغرافيين المسلمين السابقين عليه، ونعنى به ياقوت الحموى (ت ٦٢٦هـ/ ١٢٢٨م)، نجد أن ياقوتا الحموى قد تفوق على أبى الفداء، على الرغم من الفارق الزمنى الكبير بين العلمين الجغرافيين الذى يبلغ حوالى قرن كامل من الزمان، ونجد أن ياقوتا فى معجم البلدان يمتاز بالتفاصيل الثرية، بينما نجد طابع الاختصار بمثابة السمة الغالبة على تقويم البلدان، وإضافة إلى ذلك امتاز معجم البلدان، بثراء مادته الجغرافية، والتاريخية، والأدبية، والفلكلورية(٧٨)، بينما لا نجد ذلك لدى ما ألفه أبو الفداء.

وما ذكرناه، يدل دلالة واضحة، على أن ياقوتا بعد قرن كامل من تأليفه لكتابه، لم يستطع أبو الفداء – على الرغم من طموحاته الواضحة فى مقدمة كتابه – أن يتفوق عليه، وقد يرى البعض أن الظروف التاريخية التى واكبت كل علم من العلمين تباينت، وأن ياقوتا قد أفاد من خزائن الكتب التى عمر بها المشرق الإسلامى، على نحو لا نعلم أنه توافر لأبى الفداء، الذى لم يذهب صوب تلك المناطق، كما أن الطبيعة التجارية لياقوت أفادته، وهو ما لم يتوافر لدى أبى الفداء. ولكن ينبغى أن نلاحظ أن جهد ياقوت كان متوافراً لدى أبى الفداء، بل إنه استفاد منه، غير أنه لم يتمكن من أن يزيد عليه، إلا الجانب التنظيمى الذى اتبعه من خلال أسلوب الجداول، الذى يعد الإسهام الحقيقى لأبى الفداء، والذى تميز به – بحق – عن الجغرافيين المسلمين السابقين.

أياً كان الأمر، فعلى الرغم من النقاط الانتقادية السابقة، يظل إسهام أبى الفداء يجعله يحتل مكانة هامة من بين الجغرافيين المسلمين فى بلاد الشام فى عصر الحروب الصليبية، ولاسيما خلال القرن السابع الهجرى/ الثالث عشر الميلادى.

الهوامش

(١) عن أبى الفداء، أنظر المصادر والمراجع التالية :

ابن كثير، البداية والنهاية، حـ١٤، ص١٥٨؛ ابن تعزى بردى، النجوم الزاهرة، حـ٩، ص٢٩٢-٢٩٣؛ ابن حجر العسقلانى، الدرر الكامنة، حـ١، ص٣٧٢؛ الزبيدى، ترويح القلوب فى ذكر الملوك بنى أيوب، تحقيق صلاح الدين المنجد، ط. بيروت ١٩٨٣م، ص٤٧؛ ابن العماد الحنبلى، شذرات الذهب، حـ٦، ص١٩٨؛ نفيس أحمد، الفكر الجغرافى فى التراث الإسلامى، ت. فتحى عثمان ط. الكويت ١٩٧٨م، ص١١١-١١٢؛ محمد محمود محمدين، التراث الجغرافى الإسلامى، ص١٩٤؛ عمر فروخ، تاريخ الفكر العربى إلى أيام ابن خلدون، ص٥٦٣؛ صلاح الدين المنجد، أعلام التاريخ والجغرافيين عند العرب، حـ٣، ص١٧؛ على عبدالله الدفاع، الموجز فى التراث العلمى العربى الاسلامى، ص٤٥؛ حسين أحمد أمين، الحروب الصليبية فى كتابات المؤرخين المعاصرين لها، ط. القاهرة ١٩٨٣م، ص٢٠-٢١؛ أحمد حسن الزيات، تاريخ الأدب العربى، ط. بيروت ب-ت، ص٤٠٨-٤٠٩؛ على إبراهيم حسن، استخدام المصادر وطرق البحث فى التاريخ الاسلامى العام وفى التاريخ المصرى الوسيط، ط. القاهرة ١٩٨٠م، ص١٥٨-١٦١؛ محمود عاصم الميدانى، المعجمات الجغرافية العربية ودورها الثقافى، مجلة التوباد، السنة (٤)، العدد (١٣)، الرياض ربيع الأول ١٤١٢هـ/ أكتوبر ١٩٩١م، ص١١٥؛ صلاح الدين الشامى، الإسلام والفكر الجغرافى العربى، ص١٣٠؛ عبدالفتاح وهيبة، جغرافية العرب فى العصور الوسطى، ص١٥؛ نوفل الطرابلسى، صناجة الطرب فى تقدمات العرب، ط. بيروت ١٩٨٢م، ص٤٣٣.

De Slane, Autobiographie d'Aboul Feda, Extraite de sa chronique, R.H.C., T. I, p. 169-186; Reinaud et de Slane, Geographie d'Aboulfeda, Paris 1848, pp. VVI - XL VIII; Brockelmann, Geschichte der Arabischen Literature, Vol. II, p55.

(٢) نفيس أحمد، المرجع السابق، ص١١١-١١٢.

(٣) نفسه، نفس المرجع، ص١١٢.

(٤) أحمد رمضان، المرجع السابق، ص١٩٧؛ جلال مظهر، حضارة الإسلام وأثرها فى الترقى العالمى، ص٤٠٣.

(٥) ابن حجر العسقلاني، المصدر السابق، حـ١، ص٣٧٢.

(٦) على عبدالله الدفاع، المرجع السابق، ص٤٥.

(٧) نفسه، نفس المرجع والصفحة.

(٨) تجدر الإشارة إلى أن كتاب تقويم البلدان قد ترجم إلى اللغة اللاتينية، وظهرت هذه الترجمة فى عام ١٧٧١م، على يد ريسكه Reiske، كما أنه نشر كاملاً على يدى رينو، ودى سلان Renaud et de Slan، وذلك فى باريس عام ١٨٤٨م، وعنوان تحقيقهما هو :

Geographie d'Aboul Feda, Texte Arabe publie d'Apres Les manuscrits de Paris et de Leyde aux Frais de La societe Asiatique par M. Reinaud et M. le B. Mac Guckin de Slan, Paris M.D. CCCXL. (1848).

ومن الواضح أن عملهما قد اعتمد على مخطوطات باريس وليدن، ويلاحظ أن صلاح الدين المنجد رأى أن هذه الطبعة، لم تعد صالحة الآن، على اعتبار ظهور نحو (١٦) أصل مخوط فى مكتبات العالم، من تقويم البلدان، وأنه من الضرورة بمكان، أن يتم تحقيق الكتاب مرة أخرى.

ويلاحظ أننى أعتمد على التحقيق المذكور للكتاب على اعتبار عدم وجود تحقيق آخر له، وفى تقديرى المتواضع أن جهد رينو، ودى سلان، كان قيماً عندما ظهر فى منتصف القرن التاسع عشر الميلادى، وبالتحديد فى عام ١٨٤٨م، وأن هذه كانت إمكانيات الاستشراق الفرنسى فى ذلك الوقت، أما الحاجة إلى عمل تحقيق جديد آخر لذلك الكتاب، فهى ضرورية فى ضوء إشارة صلاح الدين المنجد، وهو من كبار المحققين العرب، إلى وجود ذلك العدد الكبير من النسخ المخطوطة فى مكتبات العالم، والأمل معقود فى أن يظهر مثل ذلك التحقيق من جانب أحد مراكز الأبحاث العلمية فى الوطن العربى، بدلاً من أن يكون ذلك الفضل للباحثين الغربيين الذين قاموا بدور كبير فى تحقيق مؤلفات الجغرافيين والرحالة المسلمين فى العصور الوسطى. عن رأى صلاح الدين المنجد أنظر :

أعلام التاريخ والجغرافيا عند العرب، حـ٣، ص٥٠.

(٩) صلاح الدين المنجد، المرجع السابق، ص٤١.

(١٠) نفسه، نفس المرجع والصفحة.

(١١) أبو الفداء، تقويم البلدان، تحقيق رينو ودى سلان، ط. باريس ١٨٤٨م، ص٢٤٣.

(١٢) نفسه، نفس المصدر، ص٢٣٣.

(١٣) نفسه، نفس المصدر، ص٢٤٨.

(١٤) آدم متز، الحضارة الاسلامية فى القرن الرابع الهجرى، حـ٢، ص١٦.

(١٥) أبو الفداء، المصدر السابق، ص٢٢٧، ٢٥٥.

(١٦) صلاح الدين المنجد، المرجع السابق، ص٤٣.

(١٧) ابن جزلة، هو يحيى بن عيسى بن على، وكنيته أبو على، أحد نصارى بغداد خلال القرن الخامس الهجرى/ الحادى عشر الميلادى، وقد عاصر عهد الخليفة المقتدى بالله العباسى (٤٦٨-٤٨٧هـ/ ١٠٨٣-١٠٩٢م). واعتنق الاسلام وذلك على يدى استاذه على بن الوليد المعتزلى، وذلك حوالى عام ٤٦٦هـ/ ١٠٧٣م، ويلاحظ أن ابن جزله، كان يطبب أهل محلته، وسائر معارفه احتسابا لوجه الله تعالى. بل إنه كان يحمل اليهم الأدوية بغير عوض، وقد ألف ابن جزلة عدة مؤلفات فى مجال الطب، وكذلك فى الرد على النصارى، منها كتاب تقويم الأبدان، وقد ألفه للخليفة المقتدى بالله. واستعمل فيه أسلوب الجداول من أجل شرح الحالة المرضية، وأعراضها، وتشخيصها، والعلاج المحدد لها، ويفيد ابن جزلة أول من ابتكر أسلوب الجداول فى هذا الصدد، ثم أنه ألف كتاب منهاج البيان فيما يستعمله الإنسان، وكتاب الإشارة فى تلخيص العبارة، فيما يستعمل من القوانين الطبية، وتدبير الصحة، وحفظ البدن. ورسالة فى فضائل الطب وموافقته للشرع، والرد على من طعن فيه، ويضاف إلى تلك المؤلفات الطبية؛ هناك كتابه فى الرد على النصارى، ويقال إنه كتبه لإليا القس، ويلاحظ أن ابن جزلة قد توفى فى عام ٤٩٣هـ/ ١٠٩٩م. عن مصادر ومراجع ترجمة ابن جزلة أنظر :

ابن خلكان، وفيات الأعيان، حـ٦، ص٢٦٧-٢٦٨؛ القفطى، تاريخ الحكماء، ط. بيروت ب-ت، ص٣٦٥؛ ابن أبى أصيبعة، عيون الأنباء فى طبقات الأطباء، تحقيق نزار رضا، ط. بيروت ١٩٦٥م، ص٣٤٣؛ كمال السامرائى، مختصر تاريخ الطب العربى، حـ١، ط. بغداد ١٩٨٤م، ص٢٧٨، ٥٨٢؛ حنيفة الخطيب، الطب عند العرب، ط. بيروت ١٩٨٨م، ص ؛ محمد حسين الزبيدى، ملامح من النهضة العلمية فى العراق فى القرنين الرابع والخامس الهجريين، ط. بغداد ١٩٨٠م، ص٩١-٩٢؛ محمود الحاج قاسم، تاريخ طب الأطفال عند العرب، ط. جدة ١٩٨٣م، ص٦٤٠.

Sarton, An Introduction to History of Science, Vol. I, Washington 194 , p.722; Brockelmann, Geschichte der Arabischen Literature, S., Vol. I, p. 887; Chompbell, Arabian Medicine, London 1926, p. 82.

(١٨) أبو الفداء، المصدر السابق، ص٣.

عن ابن حوقل، أنظر الفصل الأول، حاشية (٢٣) :

ابن خرداذبة، هو أبو القاسم عبيد الله بن عبدالله بن خردازبة، وقد اعتنق جده الإسلام، وعمل والده عام ٢٠١هـ/ ٨١٦م والياً على طبرستان نشأ فى بغداد، ودرس الموسيقى والأدب على يد إسحاق الموصلى (ت ٢٣٥هـ/ ٨١٩م) وتولى فيما بعد البريد فى نواحى الجبل خلال الرحلة من ٢٣٠-٢٣٤هـ/ ٨٤٤-٨٤٨م، وقد عاصر عهد الخليفة العباسى المعتمد، كما شهد ثورة الزنج وغيرها من الأحداث التاريخية. وقد استفاد ابن خرداذبة من صلاته القوية بولاة الأمر، فحصل على العديد من الوثائق الرسمية التى استخدمها فى مؤلفاته، وقد ألف ابن خرداذبة كتابه الشهير المسالك والممالك، ويقدم فيه ملخصاً للطرق الرئيسية للتجارة فى أنحاء العالم الإسلامى، وتطرق للأقاليم الثانية مثل الصين، وكوريا، واليابان، كما قدم عرضاً فصلا لبعض البلدان الاسلامية الهامة مثل الجبال، والعراق، والجزيرة (شمال العراق)، ومع ذلك يأخذ بعض الباحثين عليه خلطه بين الحقيقة، والخيال، والشائعات فيما ألفه، وهو أمر نجده فى مؤلفات الفكر الجغرافى العربى بنسب متفاوتة طوال مرحلة العصور الوسطى. عن ابن خرداذبة أنظر :

حاجى خليفة، كشف الظنون، حـ٢/ ق١، ص١٦٦٤؛ حسين مؤنس، مكان المسلمين فى التاريخ العام لعلم الجغرافيا، ص٢٤٢؛ كارل بروكلمان، تاريخ الأدب العربى، حـ٤، ص٢٣٤؛ آدم متز، الحضارة الإسلامية، حـ٢، ص٧؛ أحمد رمضان، الرحلة والرحالة المسلمون ص٥٥؛ على عبدالله الدفاع، رواد علم الجغرافية، ص٧٥؛ نفيس أحمد، الفكر الجغرافى، ص٥٧؛ ضياء الدين علوى، الجغرافية العربية فى القرنين التاسع والعاشر الميلادى، ص٦٢؛ عصام الدين عبدالرؤوف، الحواضر الإسلامية الكبرى، ط. القاهرة ١٩٧٦م، ص٢٨٣.

(١٩) محمود عاصم الميدانى، المرجع السابق، ص١١٥.

(٢٠) أحمد رمضان، المرجع السابق، ص٢٠٠.

(٢١) عن ذلك أنظر : بيبرس الدوادارى، التحفة الملوكية فى الدولة التركية، تحقيق عبدالحميد صالح حمدان، ط. القاهرة ١٩٨٧، ص١٢٦-١٢٧؛ زبدة الفكرة من تاريخ الهجرة، تحقيق زبيدة عطا، رسالة دكتوراه، كلية الآداب، جامعة القاهرة عام ١٩٧٢م، ص٢٢٥؛ مفضل بن أبى الفضائل، النهج السديد والدر الفريد فيما بعد تاريخ ابن العميد، نشر بلوشيه P.O., T. XII، ص٥٤٧.

(٢٢) أبو الفداء، المصدر السابق، ص٢٣٧.

(٢٣) نفسه، نفس المصدر، ص٢٣٨.

(٢٤) نفسه، نفس المصدر، ص٢٣٩.

(٢٥) نفسه، نفس المصدر والفحة.

وقيسارية، تكتب قيسرية أو قيسارية، وتقع على الساحل الفلسطينى، وتبعد عن يافا من الناحية الشمالية نحو ثلاثين ميلاً، وهى على بعد اثنين وستين ميلاً من شمال غرب بيت المقدس. وهناك مدينة أخرى باسم قيسارية ولكن فى كبادوكيا Capadocia، فى آسيا الصغرى، Asia Minor، وتجدر الإشارة إلى أن قيسارية فلسطين – التى نحن بصدد تناولها – استولى عليها الصليبيون فى عام ١١٠١م/ ٤٩٥هـ. عن قيسارية أنظر :

ابن القلانسى، ذيل تاريخ دمشق، ص٢٢٥؛ أبو الفداء، المصدر السابق، ص٢٣٨.

Anonymous, The deeds of The Franks, p. 87; Fulcher of Chartres, p.153-154; William of Tyre, vol. I, p. 435-436.

حسن عبدالوهاب، تاريخ قيسارية الشام فى العصر الاسلامى، ط. الاسكندرية ١٩٩٠م؛ أسامة زكى زيد، صيدا ودورها فى الصراع الصليبى/ الاسلامى، ط. الاسكندرية ١٩٨١م، ص١٠٠، حاشية (٥).

(٢٦) أبو الفداء، المصدر السابق، ص٢٣٩.

(٢٧) نفسه، نفس المصدر والصفحة.

(٢٨) نفسه، نفس المصدر والصفحة.

(٢٩) نفسه، نفس المصدر والصفحة.

(٣٠) نفسه، نفس المصدر، ص٢٢٩.

(٣١) نفسه، نفس المصدر، ص٢٤٣.

(٣٢) أنظر الفصل الخاص بالإدريسى.

(٣٣) أنظر الفصل الخاص بابن جبير.

(٣٤) المصدر السابق، ص٢٤٣.

(٣٥) وفى ذلك يقول أبو الفداء «وحضرت فتوحها وحصل لى فيها الغزاة». أنظر : المصدر السابق، ص٢٤٣، المختصر فى أخبار البشر، حـ٤، ص٢٦.

(٣٦) عن ذلك أنظر هذه الوثيقة :

John de Villiers, A Letter of John de Villiers Master of Hospital describing the Fall of Acre in King, The knights Hospitallers in the Holy Land, London 1930, pp. 301-303.

والاسبتارية Hospitallers هم فرسان المستشفى، وقد أسس تلك المستشفى الأمالفيون أهل مدينة أمالفى Amalfi، وهى إحدى المدن التجارية الايطالية الهامة فى عالم البحر المتوسط، فى مدينة بيت المقدس من قبل مقدم الصليبيين إلى المنطقة، وعند مقدمهم إلى بيت المقدس كان يدير المستشفى رجل يسمى جيرارد Gerard، وأهتمت المستشفى المذكورة بعلاج المرضى والجرحى، وقامت بدور كبير فى هذا المجال، ومع مضى الوقت تحولت هيئة الاسبتارية إلى أن تكون هيئة حربية إلى جانب قيامها بدورها العلاجى، ويعتقد بعض الباحثين أن ذلك تم حوالى عام ١١٣٧م عندما عهدت مملكة بيت المقدس الصليبية بأمر قلعة بيت جبرين، والدفاع عنها، وعن المنطقة المجاورة لها، وفيما بعد سيطرت هيئة الاسبتارية على عدد كبير من القلاع الصليبية تناثرت على مدى امتداد طول المملكة وعرضها، كذلك شاركت فى العديد من المعارك الحربية التى خاض غمارها الصليبيون ضد المسلمين سواء فى بلاد الشام، أو فى مصر، وتزايدت الهبات والعطايا التى قدمت للهيئة المذكورة. وقد ظلت تلك الهيئة تدعم الوجود الصليبى حتى اللحظات الأخيرة خلال حصار المماليك لمدينة عكا عام ١٢٩١م/٦٩٠هـ. عن مدينة أمالفى الايطالية التى أسس تجار منها مستشفى الاسبتارية فى بيت المقدس أنظر:

Pirenne, Mohammed and Charlemagne, London 1954, p. 152; Citarello, "The relatvons of Amalfi with the Arab world before the crusades, Speculum, Vol. XVII, pp. 299-312; Krueger; The Italron cities and The Arabs before 1095, in setton, A History of the Crusades, Vol. I, pennsylvania 1958, p. 52.

أرشيبالد لويس، القوى البحرية والتجارية فى حوض البحر المتوسط، ت. أحمد عيسى، ط. القاهرة ١٩٦٠م، ص٣٢٩-٣٤٠؛ عمر كمال توفيق، مملكة بيت المقدس الصليبية، ط. الاسكندرية ١٩٥٨م، ص١٩٣؛ راشد البراوى، حالة مصر الاقتصادية فى العصر الفاطمى، ط. القاهرة ١٩٤٨م، ص١٢٨. وعن هيئة الاسبتارية أنظر :

William of Tyre, Vol. II, p. 82; King, The Knights Hospitallers in The Holy Land, London 1930; Riley-Smith, A History of the Hospital of St. John of Jerusalem, London 1967.

سامى سلطان سعد، الاسبتارية فى رودس، رسالة دكتوراه غير منشورة، كلية الآداب، جامعة القاهرة عام ١٩٧٧م؛ محمد مؤنس أحمد عوض، التنظيمات الدينية، ص٣٥٤-٣٧٣؛ رايلى سميث، ما هى الحروب الصليبية، ت.فتحى الشاعر. ط. القاهرة ١٩٩٠م، ص٧٤. ومن أمثلة

الهبات والعطايا التى قدمت لهيئة الاستبارية أنظر :

Delaville Le Roulx, "Trois Chartres de XII siecle concernant L'Ordre de St. Jean de Jerusalem, A.O.L., T. I, Année 1893, "Invontaire de pieces Terre de L'Ordre de L'\Hospital", R.O.L., T. II, Année 1895.

(٣٧) أبو الفداء، المصدر السابق، ص٢٤٣.

(٣٨) نفسه، نفس المصدر والصفحة.

(٣٩) نفسه، نفس المصدر والصفحة.

(٤٠) عن مصادر ومراجع الزلازل الشامية فى عصر الحروب الصليبية أنظر :

ابن القلانسى، ذيل تاريخ دمشق، تحقيق سهيل زكار، ط. دمشق ١٩٨٣م، ص٥١٥، ٥١٨، ٥٢٥، ٥٢٦؛ الاصفهانى، البستان الجامع لجميع تواريخ الزمان، ص١٢٨؛ عبداللطيف البغدادى، الإفادة والاعتبار فى الأمور المشاهدة والحوادث المعاينة بأرض مصر، تحقيق غسان سبانو، ط. دمشق ١٩٨٣م، ص٩٩؛ ابن الوردى، تتمة المختصر فى أخبار البشر، حـ٢، ط. بيروت ١٩٧٠م، ص١٢٠؛ ابن الراهب، تاريخه، تحقيق سركيس، ط. بيروت ١٩٠٧م، ص٧٤.

Fulcher of Chartres, p. 208, 210; Anonymous Syriac Chronicle, Trans. by Tritton, J.R.A.S., April 1933, Part II, p. 303; William of Tyre, Vol. II, p. 370; Gibb, "The Career of Nur Al-Din", in Setton, A History of The Crusades, Vol. I, pennsylvania 1958, p. 520; Mayer, Two unpublished letters about the earthquake of 1202", Historisches Seminor des Universitate Kiel, in Medieval and mear eastern studies, Ledien 1972, pp. 295-310.

مصطفى أنور، نصوص تاريخية لمؤرخين دمشقية عن زلازل القرن الثانى عشر، B.E.O., T.XXVIII Année 1974، ص٥٥؛ أشتور، التاريخ الاقتصادى والاجتماعى للشرق الأوسط، ص٢٨١.

(٤١) أبو الفداء، المصدر السابق، ص٢٤٧.

(٤٢) نفسه، نفس المصدر، ص٢٣٧.

(٤٣) نفسه، نفس المصدر، ص٢٥٧.

(٤٤) نفسه، نفس المصدر، ص٢٥٥.

(٤٥) نفسه، نفس المصدر، ص٢٥٩.

(٤٦) نفسه، نفس المصدر، ص٢٦١.

(٤٧) نفسه، نفس المصدر، ص٢٥٩.

(٤٨) نفسه، نفس المصدر، ص٢٤٩.

(٤٩) نفسه، نفس المصدر، ص٢٤٣.

(٥٠) نفسه، نفس المصدر، ص٢٦٧.

(٥١) نفسه، نفس المصدر، ص٢٦٣.

(٥٢) عن ذلك أنظر :

ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، تحقيق زكار، ص٥٢٦؛ ابن قاضي شهبة، الكواكب الدرية في السيرة النورية، تحقيق محمود زايد، ط. بيروت ١٩٧١م، ص١٥٣؛ ابن الفرات، تاريخ الدول والملوك، م ٣/ ق١، تحقيق حمدى حمدى أنور السيد، ص١٧٣؛ السيوطي، كشف الصلصلة عن وصف الزلزلة، تحقيق محمد كمال الدين عز الدين، ط. بيروت ١٩٨٧م، ص١٨٨.

Tsugitako, The Syrian coastal Twon of Jabala, its history and present situation, Toky, 1988, p. 47.

محمد أحمد حسين، أسامة بن منقذ، صفحة من تاريخ الحروب الصليبية، ط.القاهرة ١٩٤٦م، ص١٢، ٦٨-٦٩؛ عبدالرحمن حميدة، أعلام الجغرافيين العربي، ص٣٠٨؛ حسن عباس، أسامة بن منقذ، حياته وشعره، ط. الاسكندرية ١٩٧٩م، ص٤٣.

(٥٣) أبو الفداء، المدر السابق، ص٢٣٠. عن قلعة مصياف أنظر، الفصل الأول، الباب الأول، حاشية رقم (٧٥).

(٥٤) أبو الفداء، المصدر السابق، ص٢٢٧.

(٥٥) نفسه، نفس المصدر والصفحة.

(٥٦) نفسه، نفس المصدر، ص٢٦٥.

(٥٧) نفسه، نفس المصدر والصفحة.

(٥٨) نفسه، نفس المصدر، ص٢٦١.

(٥٩) نفسه، نفس المصدر، ص٢٦٣.

(٦٠) نفسه، نفس المصدر، ص٢٦٣.

ومن المقرر أن حماة، اشتهرت بأنها مدينة النواعير، وهناك من يذكر أن اسم الناعورة،

مشتق من نعيرها، وهو مأخوذ من نعرت الدابة إذا صوتت، وفكرة الناعورة فكرة موغلة في القدم، ويقال إن أقدم مصدر تاريخي لها هو لوح من الفسيفساء تم العثور عليه، أثناء عملية تنقيب أثرى في مدينة أفامية السورية، ويعود ذلك اللوح إلى القرن الخامس الميلادى، ويشاهد عليه صورة لناعورة تتشابه إلى حد كبير مع الناعورة الحالية، ويوجد ذلك اللوح في المتحف الوطنى بدمشق. ومن الملاحظ أن مثل تلك النواعير وجدت في مدن أخرى من بلاد الشام مثل شيزر في الرحلة موضوع دراستنا، وكان يتم الاشتراط لإقامتها أن توضع على مكان مرتفع حتى تتمكن من أن تسقى كافة المناطق الأخرى، ووجدت أنواع من النواعير تقوم بحمل ثمانين من أوانى حمل المياه، وكل إناء حمل خمسة عشر رطلا، أى أنها حملت ألف ومائتى رطل من المياه. عن النواعير وتاريخها ووجودها في حماة أنظر :

ابن منظور، لسان العرب، حـ٦، تحقيق يوسف خياط، ط. بيروت ١٩٨٨م، ص٦٧٠؛ ابن سعيد، كتاب الجغرافيا، ص١٥٣؛ أبو الفداء، المصدر السابق، ص٢٦٧؛ شيخ الربوة، نخبة الدهر، ص٢٠٦؛ أحمد الكيلانى، حماة مدينة النواعير، ط. حماة ب-ت، ص٣-٦؛ عبدالرزاق زقزوق، النواعير أهم وسائل الرى القديمة، ط. دمشق ١٩٩٢م؛ هشام عدره، النواعير في حماة، المنهل، العدد (٥١٢)، م (٥٥)، شعبان ١٤١٤هـ/ يناير - فبراير ١٩٩٤، ص٩٦-١٠٣؛ أحمد رمضان، الرحلة والرحالة المسلمون، ص١٠٧.

Cahen, "Le service de irregation en Iraq sur debut du XI Siecle", B.E.O., T. XIII, Années 1949-1951, p. 118.

(٦١) أبو الفداء، المصدر السابق، ص٢٦٣.

(٦٢) نفسه، نفس المصدر، ص٢٦٣.

(٦٣) نفسه، نفس المصدر، ص٢٦٥.

(٦٤) نفسه، نفس المصدر، ص٢٦٧.

(٦٥) نفسه، نفس المصدر، ص٢٦٩.

من المقرر أن هناك عدة مواقع حملت اسم البيرة؛ فهناك البيرة على بعد ١٦ كيلو متر إلى الشمال من القدس، على الطريق المؤدى إلى مدينة نابلس، وقد شملت سهلا فسيحاً، وامتازت بتوافر الينابيع، وخصوبة تربتها الزراعية، وهناك البيرة الواقعة قرب سميساط بين حلب والثغور البيزنطية، وقد وصفت بأنها قلعة حصينة، ثم هناك موضع آخر على شط الفرات بين أعمال الجزيرة، فوق جسر منبج، وبالإضافة إلى ذلك؛ توجد البيرة وهى الواقعة في الأندلس، وتكتب

أيضاً لبيرة، أو بليرة، وكانت العاصمة القديمة للكورة التى سميت فيما بعد بغرناطة، وفى أصلها بلدة أنشأها الإيبريون القدماء وذلك من قبل الرومان، واسمها هو Eliberri, Iliberi، وهو مكون مقطعين : iLi : مدينة و berri بمعنى قديمة. ثم قام الرومان بتعميرها وجعلوا منها قاعدة لمجلس بلدى، وعندما فتح المسلمون الأندلس، سكن البيرة العديد من الجند الشاميين، وموالى بنى أمية، ومن أمثلة القبائل العربية التى سكنت فى البيرة؛ قبائل قضاعة، وذبيان، وربيعة. عن البيرة الواقعة بين بيت المقدس ونابلس أنظر :

John of Wurzburg, p. 14, note (3); Theoderich, p. 60.

وعن المواقع المتعددة التى حملت اسم البيرة أنظر :

ابن حزم، طوق الحمامة فى الألفة والألاف، تحقيق الطاهر مكى، ط. القاهرة ١٩٧٧م، ص١٦٢، حاشية (١)؛ أبو الفداء، المصدر السابق، ص٢٦٨-٢٧٩؛ ياقوت، معجم البلدان، حـ١، ص٢٨٧؛ القزوينى، آثار البلاد، ص٥٠٢؛ شيخ الربوة الدمشقى، المصدر السابق، ص٣٨٧؛ ابن ناظر الجيش، تثقيف التعريف بالمصطلح الشريف، تحقيق رودلف فسلى، ط. المعهد الفرنسى للآثار الشرقية، ط. القاهرة ١٩٨٧م، ص٩٩-١٠١؛ ابن عبد الحق البغدادى، مراصد الاطلاع، حـ٣، ص٣٤٠-٣٤١؛ عبدالواحد ذنون طه، الفتح والاستقرار العربى الاسلامى فى شمال أفريقيا والاندلس، ط. بغداد ١٩٨٢م، ٢١٧-٢٢٠، ٢٤٨؛ مصطفى الدباغ، بلادنا فلسطين، حـ٨/ ق٢، ص٢٥٦-٢٥٧؛ مرمرجى الدومنيكى، بلدانية فلسطين العربية، ص٧٢، ١٧٦؛ حسين مؤنس، تاريخ الجغرافيا والجغرافيين فى الأندلس، ط. القاهرة ١٩٨٦م، ص٥٥٦، حاشية (١)؛ رحلة الأندلس، حديث الفردوس الموعود، ط. القاهرة ١٩٦٣م، ص١٦٦؛ شكيب أرسلان، الحلل السندسية فى الأخبار والآثار الأندلسية، حـ١، ط. بيروت ب-ت، ص١٨٠.

(٦٦) أبوالفداء، المصدر السابق، ص٢٤١.

(٦٧) نفسه، نفس المصدر، ص٢٥٥.

وبعلبك، تقع فوق هضبة البقاع بلبنان، ويقوم بريها ينبوع رأس العين الكبير، الذى ينبع من سلسلة جبال لبنان الشرقية، وقد سمى الرومان بعلبك باسم Heliopolis، أى مدينة الشمس Colonia Julia Augusta Heliopolis، والجزء الأول من اسم بعلبك هو B'el يعنى صاحب أو ملك أورب، والثانى وهو بك ويقال أنه يعنى اسم صنم، ويلاحظ أنه فى بعلبك وجدت قلعة كبيرة أشار إليها الجغرافيون المسلمون واعتبروها من عجائب المعمار، على مر العصور. عن بعلبك أنظر :

ياقوت، معجم البلدان، حـ٢، ص٢٢٦، العمرى، مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار، دراسة وتحقيق دوروتيا كرافو لسكى، ط. بيروت ١٩٨٦م، ص١٩١-١٩٢؛ قاسم رفاعى، بعلبك فى التاريخ، دراسة شاملة لتاريخها ومساجدها ومدارسها وعلمائها، ط. بيروت ١٩٨٤م، ص٢٧؛ أنيس فريحة، أسماء المدن والقرى اللبنانية، ص٢٧.

Dussaud, Topographie Historique de la Syrie Antique et medievale, Paris 1927, p. 403-404; Le Strange, palestine, p. 295-298.

(٦٨) أبو الفداء، تقويم البلدان، ص٢٣٩.

(٦٩) نفسه، نفس المصدر، ص٢٦٧.

(٧٠) نفسه، نفس المصدر والصفحة.

(٧١) نفسه، نفس المصدر، ص٢٥٥.

(٧٢) نفسه، نفس المصدر، ص٢٤١.

(٧٣) نفسه، نفس المصدر، ص٢٢٧.

(٧٤) نفسه، نفس المصدر، ص٢٤١.

(٧٥) نفسه، نفس المصدر، ص٢٤٣.

(٧٦) نقولا زيادة، الجغرافية والرحلات عند العرب، ص١٤.

(٧٧) أحمد رمضان، الرحلة والرحالة المسلمون، ص٢٠٠، ويتفق مع نفس الرؤية عبدالفتاح وهيبة إذ يقول «تعتبر مقدمته نقداً للفكر الجغرافى العربى، إلا أن الكتاب فى حد ذاته ليس به من جديد، فقد اعتمد أبو الفداء فى كتابه على آثار السلف». أنظر : جغرافية العرب فى العصور الوسطى، ص١٧.

(٧٨) أنظر الفصل الخاص بياقوت الحموى.

القسم الثانى

الرحالة المسلمون فى بلاد الشام
فى عصر الحروب الصليبية

١ - السـمعانى

(ت ٥٦٢هـ/ ١١٦٧م)

يتناول هذا الفصل بالدراسة أحد الرحالة المشارقة الذين وفدواعلى بلاد الشام ونعنى به السمعانى[١] (ت ٥٦٢هـ/ ١١٦٧م)، وقد ارتحل إلى هناك، وقدم لنا مادة مفيدة عن أوضاع بلاد الشام من كافة الجوانب، الأمر الذى سأتناوله مفصلاً على مدى الصفحات التالية.

والسمعانى هو عبدالكريم بن محمد بن المنصور التميمى ويلقب بالمروزى، ولد فى مدينة مرو عام ٥٠٦هـ/ ١١١٧م، من بيت علم وأدب، ويلاحظ أن والده سعد السمعانى؛ كان محدثًا وفقيها[٢]، ومن جهة أخرى نعرف أنه انتسب إلى إحدى كبريات القبائل العربية، ونعنى بها قبيلة تميم، ولذا عرف باسم التميمى[٣].

وقد ارتحل السمعانى إلى العديد من مدن المشرق من أجل أن يتلقى العلم على أيدى العلماء، والشيوخ، ومن أمثلة ذلك أنه ارتحل إلى بلاد ما وراء النهر، وخراسان، وقوس والرى، وهمذان، وأصبهان، وبلاد الجبل، والحجاز، والموصل، والجزيرة، والشام[٤]. وهذا الارتحال والانتقال إلى مناطق متعددة من أجل طلب العلم، كان بمثابة الصفة الغالبة على العديد من رجال العلم فى ذلك العصر، وقد توفى السمعانى فى عام (٥٦٢هـ/ ١١٦٧م)[٥].

وتجدر الإشارة إلى أن السمعانى قد ألف العدد الوفير من المؤلفات، ومن أمثلتها كتاب تاريخ مرو؛ وكان يقع فى ٢٠ مجلدا[٦]، وتحفة المسافر، أدب الإملاء

والاستملاء، وذيل تاريخ بغداد للخطيب البغدادى، والدعوات النبوية، والرسائل والمسائل، وسلوة الأحباب وترجمة الأصحاب، وطراز الذهب فى أدب الطلب، الأخطار فى ركوب البحار، فرط الغرام إلى ساكنى الشام[٧]، ويعكس الكتاب الأخير أهمية بلاد الشام فى فكر السمعانى على نحو جعله يؤلف كتاباً خاصاً عنها مثلما فعل من قبل مع مسقط رأسه مرو.

بيد أن أشهر ما ألفه السمعانى كتابه «الأنساب»[٨] وقد وقع فى ثمانية مجلدات، ووصف بأنه كان غزير المقال، ولذا اتجه المؤرخ ابن الأثير الجزرى (ت ٦٣٠هـ/ ١٢٣٢م) إلى اختصاره فى صورة كتاب اللباب فى تهذيب الأنساب، وقد فاق التهذيب الأصل فى الشهرة[٩]، ومن بعد ذلك اختصره السيوطى (ت٩١١هـ/ ١٥٠٥م) فى صورة كتاب لب الألباب فى تحرير الأنساب[١٠].

وتجدر الإشارة إلى أن السعى إلى تهذيب الكتاب واختصاره على مدى المرحلة منذ عصر ابن الأثير، وحتى عصر السيوطى، يعكس بالضرورة أهمية ورغبة المعاصرين، واللاحقين فى الإفادة منه فى صورة ميسرة.

ولعل أوضح ما تميز به كتاب الأنساب - وهو الذى اعتمد عليه بصورة أساسية فى هذا الفصل - تلك التراجم التى قام السمعانى بجمعها على حروف المعجم، والتى اهتم فيها بنسبة كل واحد منها إلى بلد، أو قبيلة، أو صناعة، أو تجارة، هذا بالإضافة إلى الحوادث الهامة التى جرت فى المواقع التى ترجم لأصحابها فى كتابه[١١].

وبالإضافة إلى ذلك فإن السمعانى قد أورد العديد من الإشارات الجغرافية الهامة، وكذلك نتاج رحلاته، على نحو يجعله أحد الرحالة المسلمين الذين وفدوا إلى بلاد الشام فى عصر الحروب الصليبية، وقد مر بالعديد من المدن فى وقت الاحتلال الصليبى لعدد كبير منها، وقدم وصفاً - وإن غلب عليه طابع الإيجاز - لها على نحو أفاد فى العديد من الجوانب المتعلقة بتاريخ بلاد الشام حينذاك.

وتثار ناحية هامة، وهى المصادر التى اعتمد عليها السمعانى فى كتابه، وخاصة القسم الخاص بالانتساب إلى المدن الشامية، والواقع أن رؤية متأنية لتلك الزاوية، تكشف أنه اعتمد فى المقام الأول على مشاهداته الشخصية، وفى أحيان كثيرة يقرر أنه أمضى فى المدينة التى يشير إليها، مدة زمنية معينة، قد تكون يوما(١٢)، أو يومين(١٣)، أو عشرة(١٤) أيام، وربما طالت لتكون أكثر من ذلك، وفق مقتضيات الحال، ثم هناك أيضاً المصادر التى ألفها الجغرافيون والرحالة المسلمون السابقون على عصر السمعانى، وإن لم يشر صراحة إلى الاستعانة بهم فيما يتعلق بتناوله لمدن الشام، وإن كنت أتصور أن مثل تلك المؤلفات كانت من المصادر التقليدية التى اعتمد عليها الرحالة المسلمون على اعتبار تواصل المعرفة الجغرافية الإسلامية وعدم انقطاعها أو انفصالها. وهكذا، فإن عنصر المشاهدة والمعاينة لم يكن هو المصدر الوحيد الذى استقى منه السمعانى مادته العلمية عن مدن الشام المتعددة.

وجدير بالذكر، أن السمعانى فى أحيان نادرة، نجده يذكر صراحة أنه لم ير المدينة التى يتناولها، ومن أمثلة ذلك مدينة بعلبك فى سهل البقاع بلبنان، التى يقرر صراحة أنه «لم يتفق له دخولها»(١٥)، بيد أن هناك مدناً أخرى، من الواضح أنه لم يمر عليها، ولم يقم بها، وفاته أن يذكر ذلك، أو أن الأمر اختلط عليه من كثرة ما مر بالمدن الشامية، أو أنه لم يسجل من فوره ملاحظاته عنها، ومن ثم وقع فى الخطأ، ومن أمثلة ذلك ذكره لموقع بغراس على اعتبار أنها على الساحل(١٦)، بينما الواقع الجغرافى خلاف ذلك.

ومع ذلك، فمن الطبيعى ألا نتوقع أن السمعانى يقدم لنا مادة جغرافية وتاريخية مفصلة عن المدن الشامية التى انتسب إليها أولئك الذين أشار إليهم فى كتابه، إذ أن حرصه على إيراد الأنساب شغله - على ما يبدو - عن الاهتمام بإيراد معلومات ضافية عن تلك المدن الشامية. بالإضافة إلى أنه جعل من تلك الزاوية الجغرافية والتاريخية الموجزة مقدمة للدخول فى موضوعه الأصلى فيما يتعلق بالأنساب وذكر أشهر الأعلام الذين انتسبوا إلى المدن التى تناولها.

مهما يكن من أمر، فإن السمعانى تناول العديد من الجوانب المتصلة بأوضاع بلاد الشام فى ذلك العصر، مثل تعرضه لمدن الساحل الشامى المتعددة، ومراكز الإمارات الصليبية، والحواضر الشامية الكبرى الداخلية الخاضعة للسيادة الإسلامية، ثم العمائر الدينية بالإضافة إلى الخريطة المذهبية لبلاد الشام والنشاط الاقتصادى؛ سواء الزراعى أو التجارى، ثم المزارات الدينية والعلاجية.

وإذا نظرنا إلى تناول السمعانى لمنطقة الساحل الشامى، نجد أنه يقدم لنا مادة موجزة عن عدد من المدن الساحلية هناك، وعلى سبيل المثال نجده يقرر أن عسقلان على حد مصر، وأنها تسمى عسقلان الشام(١٧)، كما أن هناك مدينة أخرى تحمل نفس الإسم عند بلخ من مدن المشرق(١٨)، وقد أوضح أن الإثنين يطلق عليهما العروسان نظراً لحسنهما، وأضاف أن الانتساب إلى عسقلان الشام هو الأكثر شيوعاً(١٩).

أما مدينة عكا، فلا يوضح عنها إلا أنها على الساحل، وأنه دخلها وهى تحت السيطرة الصليبية، وأشار إلى أنه نزل فى جامعها(٢٠)، ولا يقدم أية إشارات أخرى عنها سواء من الناحية الاقتصادية التجارية أو من خلال تفصيل أوضاع المسلمين الخاضعين للسيادة الصليبية. ومن المحتمل أن قصر مدة إقامته فى عكا وقف حائلاً دون أن يقدم لنا المزيد من التفاصيل بشأنها، ومن ثم أوجز الحديث عنها بمثل هذه الصورة على الرغم من أهميتها التقليدية لدى كافة الجغرافيين والرحالة المسلمين فى ذلك العصر.

ومن جهة أخرى، تفيد إشارته الموجزة فى توضيح أن المسلمين كانت أوضاعهم فى عكا سيئة، ولعل ذلك من أسباب إحجام السمعانى عن أن يفصل الحديث عنها، الأمر الذى كشف النقاب عنه بصورة أكثر تفصيلا رحالة من الأندلس هو ابن جبير(٢١). وهكذا، فإن ما أوجزه ذلك الرحالة المشرقى فصله من بعده رحالة من الغرب الإسلامى.

ولا نغفل ناحية هامة أخرى، وهي أن السمعاني قد أشار إلى أنه ذهب إلى جامع عكا وأقام فيه بعض الوقت[٢٢] في مدينة أقام فيها أصلا بعض يوم، على نحو يكشف بجلاء أن المسجد كان بمثابة مركز تلاقي المسلمين خاصة الغرباء الذين يقدمون على مدينة ليس لهم فيها أهل ولا أصحاب وخاضعة لاحتلال أجنبي.

فإذا ما ذهبنا إلى مدينة أخرى، وهي يافا، نجد أن السمعاني يشير إلى يافا إشارة جد موجزة، ويقرر أن النسبة إليها يافوني[٢٣]، أما أرسوف، فلا يشير السمعاني بشأنها سوى أنها مدينة على ساحل بحر الشام، وظهر منها عدد من العلماء، والمرابطين[٢٤]، أما إذا انتقلنا إلى مدينة أخرى من مدن الساحل الشامي وهي اللاذقية نجده يذكر أنها على الساحل المذكور ويوضح «استولى عليها الفرنج الساعة»[٢٥]. وذلك كجزء من مخططهم الاستراتيجي الرامي إلى إخضاع تلك المنطقة الهامة تجارياً واستراتيجياً من أجل خنق القوى الإسلامية الداخلية، وجعلها قوى برية حبيسة، تحتاج إلى التعامل مع الصليبيين، الذين صاروا بذلك يملكون دور الوسيط التجاري بكل الثراء الكبير الذي نالوه من جراء ذلك، على نحو دعم وجودهم في بلاد الشام، على مدى قرنين من الزمان.

ومن المعروف أن الصليبيين تمكنوا من السيطرة على اللاذقية ذات الموقع الاستراتيجي الحيوي الذي من خلاله يمكنهم الإشراف على كل وادي نهر العاصي، في عام ٤٩٢هـ/ ١٠٩٩م[٢٦]، ومن هنا تثار ناحية هامة. ألا وهي إشارة السمعاني بأن الفرنج استولوا عليها الساعة. إذ أنه في موضع آخر يذكر صراحة أن المسلمين قد استولوا على مدينة الرها وذلك في عام ٥٣٩هـ/ ١١٤٤م، ويفهم من ذلك بالطبع أنه قدم إلى بلاد الشام بعد التاريخ المذكور، ومن ثم فإن إشارته إلى اللاذقية، وتاريخ سقوطها في قبضة الصليبيين، لا يمثل تحديداً زمنياً دقيقاً، لأن إخضاعها لقبضتهم تم قبل مقدم السمعاني للمنطقة بعدة عقود من السنين دون إمكانية التحديد الزمني بدقة نظراً لصمت المصادر التاريخية فيما يتصل بتوقيت زيارته لبلاد الشام.

وبالنسبة لمدينة بيروت، نجد أن السمعانى يشير إلى موقعها الساحلى ويقرر أنها فى يد الإفرنج[٢٧]، أما بغراس، فقد ظن ذلك الرحالة أنها على الساحل ، بينما الواقع عكس ذلك لأنها من مدن الشام الداخلية البرية، ومثلت هى ودربساك، وحجر شغلن، مراكز دفاعية هامة بالنسبة لإمارة أنطاكية الصليبية.

ويضاف إلى المدن الشامية الساحلية السابقة. نجد رحالتنا السمعانى يشير إلى مدينة لبنانية حظيت بإهتمام الجغرافيين والرحالة المسلمين على مدى عصر الحروب الصليبية ونعنى بها صور، وقد أورد بشأنها عبارة موجزة مؤداها أنها كبيرة وأن الفرنج استولوا عليها بعد عام ٥١٠هـ/ ١١١٦م[٢٨]، ومن المعروف أن تلك المدينة قد سقطت فى أيديهم فى وقت متأخر بالمقارنة بالمدن الشامية الساحلية الأخرى نظراً لمناعتها وحصانتها، وقد حدث ذلك فى عام ٥٢١هـ/ ١١٢٦م، فى عهد الملك الصليبى بلدوين الثانى Baldwin II (١١١٧-١١٣١م/ ٥١١-٥٢٥هـ).

ومن الممكن القول، إن المثالين الخاصين باللاذقية، وصور، يدلان على أن السمعانى لم يكن دقيقاً بالدرجة الكافية فيما يتصل بالتحديد الزمنى لسقوط بعض مدن الساحل الشامى فى قبضة الصليبيين.

وفى تقديرى أن السمعانى لم يدخل مدينة صور لعدة اعتبارات، أولاً أنه أوجز الحديث عنها بمثل هذه الصورة، بالإضافة إلى أنه لم يقرر صراحة أنه دخل فيها وأقام بها مدة زمنية مثلما حدث مع المدن الأخرى التى ذكر مدة إقامتها بها، سواء كانت طويلة أم قصيرة، هذا بالإضافة إلى أنه لم يشر إلى حقيقة تكاد تكون بديهية عن تلك المدينة، وكثيراً ما ترددت لدى مؤلفات الرحالة المسلمين، وكذلك الأوروبيين الذين زاروها، ونعنى بها حصانتها البالغة. ومع ذلك يبقى الأمر محل افتراض دون أن نتمكن من تأكيده، لعدم وضوح النصوص، وصراحتها فى هذا الشأن.

أما مدينة طرسوس؛ فنجد أن السمعانى يفصل الحديث عنها بخلاف غيرها من مدن الساحل الشامى. ويبدو أنه أدرك أهميتها، نذكرها على ذلك النحو، وتفيد إشارته بشأنها من خلال توضيح اختلاف أوضاع المدن الإسلامية قبل وبعد خضوعها للسيادة الصليبية، لاسيما المدن الساحلية، وقد أوضح أنها كانت مزدهرة بمظاهر الحياة، والاحتفالات والأعياد، وتناول صلاة التراويح فيها واحتفالاتها بالعيد وأن أهلها يخرجون بالأسلحة الكثيرة والخيل الحسان لأنها أصلاً مدينة ثغرية(٢٩)، من أجل أن يصل الخبر إلى البيزنطيين فلا يهاجمونها، بالإضافة إلى الكثافة السكانية الكبيرة بها.

وإذا كان هذا هو شأنها قبل مقدم الصليبيين، فإنها اختلفت فيما بعد، ويبدو من خلال وصفه أن الكثافة السكانية المسلمة بها قد اختلفت وصار المسلمون قلة، وهذا وضع طبيعى مع غزو الصليبيين للمنطقة، واتجاه المسلمين إلى الفرار إلى المدن الإسلامية المجاورة. وقد عبر السمعانى عن ذلك صراحة بقوله «خف الناس»(٣٠)، ومثل ذلك الوضع الذى شهدته طرسوس؛ يمكن أن يكون نموذجاً للتعبير عن التغير الديموغرافى الذى شهدته المدن الشامية الساحلية وغيرها من المدن التى سيطر عليها الصليبيون.

ولا نزاع، فى أن تناول الرحالة السمعانى لأمر طرسوس، يعد من أعمق ما أورده فى كتابه عن أثر الغزو الصليبى على الناحية العددية للمسلمين فى المدن الشامية التى سيطر عليها الغزاة، وكذلك من ناحية الشعائر الدينية والمظاهر الاحتفالية للمسلمين، ومن الطبيعى أن نتوقع أن المقابل لذلك هو استعمال المظاهر الصليبية من صلبان، وكنائس، واحتفالات دينية مسيحية، الأمر الذى أوضحه رحالة آخر، وهو ابن جبير على نحو بارع.

ومن جهة أخرى، تناول السمعانى الإمارات الصليبية والمدن الخاضعة لسيادتهم فى داخل بلاد الشام، ومن أمثلة ذلك أنه تعرض لمدينة بيت المقدس، قلب المملكة الصليبية، وتحدث عن مكانتها الدينية بالنسبة للمسلمين، وأشار إلى أن الصليبيين استولوا عليها فى عام ٤٩٢هـ/ ١٠٩٩م(٣١)، وأنهى حديثه عنها بعبارة مؤثرة طالما وردت لدى الرحالة

المسلمين الذين زاروا المدن الإسلامية الخاضعة لسيطرة أعدائهم، وهذه العبارة هى «ردها الله تعالى إلى المسلمين»، ومنطقى أن نذكر، أن تلك التعبيرات الحزينة طالما ترددت قبل عام ٥٨٣هـ/ ١١٨٧م، عندما استعادها المسلمون لأول مرة بعد احتلال صليبى قارب التسعين عاماً.

كما تعرض السمعانى لأنطاكية ووصفها بأنها من أحسن البلاد، وأن الصليبيين استولوا عليها – ولم يحدد تاريخ ذلك، وأنها مقر ملكهم، أى أنها مقر إمارة صليبية هى إمارة أنطاكية(٣٢)، ومن المعروف أنها سقطت فى قبضة الصليبيين عام ١٠٩٨م.

كذلك فإنه تناول الرها، وذلك بعد أن استولى عليها المسلمون بقيادة المجاهد أتابك الموصل عماد الدين زنكى عام ٥٣٩هـ/ ١١٤٤م(٣٣). ونستشعر فى تعبيراته الروح المعنوية العالية بعكس الانكسار الذى لمسناه فى حديثه عن طرسوس، وبشأن الرها نجد أنه يذكر أن المسلمين ظفروا بها وانتصروا على الصليبيين «وخلص الله تلك البلدة على يدهم»(٣٤)، وهذا يعكس حقيقة هامة وهى أن نصوص الرحالة المسلمين إلى جانب احتوائها على دلالات تاريخية فإنها تحوى دلالات نفسية أيضاً لاسيما من خلال سيطرة الأعداء الصليبيين على المدن الإسلامية وكذلك تحريرها على أيدى المسلمين.

ومن جهة أخرى، حظيت المدن الإسلامية فى بلاد الشام بوصف السمعانى، ففى دمشق، نجده يشيد بها ويذكر أنها «أحسن مدينة بالشام»(٣٥)، ولاشك أن ذلك الوصف يعكس النمو الحضارى والعمرانى الكبير، الذى حققته تلك المدينة التى كانت يوماً عاصمة ملك الأمويين، واستعمال أسلوب التفضيل هذا، جاء من جانب رحالة طاف العديد من مدن الشام.

ويتناول السمعانى الكثافة السكانية فى دمشق ويعبر عن تزايد تلك الكثافة بقوله «أكثرها أهلاً»(٣٦) أى أنها أكثر مدن الشام سكاناً، وأشار إلى أن تاريخها قام بجمعه

صديقه ابن عساكر (ت٥٧١هـ/ ١١٧٦م)[٣٧]، ومن المعروف أن الأخير قد ألف كتابا ضخماً عن تاريخ مدينة دمشق.

ويلاحظ أن السمعانى لم يشر إلى المدة التى أقامها فى دمشق، ويبدو مع ذلك أنها لم تكن قصيرة، لأهميتها ولوجود عدد كبير من العلماء والفقهاء بها، بالإضافة إلى المميزات العديدة التى امتدحها بها حيث أورد أنها يضرب بها المثل فى الحسن، ولا ريب فى أن كافة تلك العوامل تدفعنا إلى التصور أنه أقام بها مدة كافية لأن يصفها بعد إقامة كافية بأنها أحسن مدينة بالشام. هذا بالإضافة إلى وجود صديق مثل ابن عساكر فى تلك المدينة، وإذا كان السمعانى قد أقام نحو عشرة أيام فى مدن أخرى لم يكن له بها أصدقاء فإن وجود عالم مثل ابن عساكر بدمشق يدعونا إلى تصور أن السمعانى أقام بها مدة كافية من الوقت ربما بلغت عدة أشهر.

أما حلب، فقد وصفها بأنها من ثغور المسلمين[٣٨]، وهذه العبارة تُفهم من خلال صراعها المستمر مع إمارة أنطاكية الصليبية، إذ أن ذلك الصراع شكل جزءاً هاماً من تاريخ مدينة حلب، وقد صرح ذلك الرحالة، أنه أقام بها عشرة أيام. أما حماة فقد استحسنها، وذكر عنها أنه أقام بها يومين[٣٩]، وفى حمص أقام أربعة أيام، ولم يصفها بأوصاف مميزة باستثناء ما فيها من قبور الصحابة[٤٠]. أما حوران فقد تحدث عن ثرواتها وخيراتها، وأقام بها أياماً لم يحددها[٤١].

والآن تثار ناحية هامة، وهى تتعلق بالمدد الزمنية التى أمضاها فى المدن الإسلامية التى دخلها، والواقع أن المدد تراوحت بين الطول والقصر، واختلفت حسب أهمية كل مدينة واحتياج السمعانى للالتقاء بالعلماء، والفقهاء بها، وفى تقديرى أن المدن التى أقام فيها مدة زمنية قصيرة، أحصاها بدقة مثلما حدث فى أمر حلب، وحماة، وحمص، أما المدن والمناطق التى أقامها فيها مدة طويلة وجدناه لا يذكرها، ومن أمثلة ذلك دمشق وحوران.

أما العمائر الدينية التى أوردها السمعانى، فنجد أنه اهتم بإيراد العمائر الدينية الإسلامية فى بعض الأحيان، فهو فى كل مدينة يدخلها يحرص أحيانًا على إيراد أمر جامعها، غير أنه فى دمشق، أغفل ذكر الجامع الأموى بها، على الرغم من أن الرحالة المسلمين الآخرين حرصوا على إيراده، والإعجاب الشديد بعمارته، كما أنه تحدث عن ظاهرة هامة ألا وهى الخانقاوات التى كانت مقرًا للمتصوفة، فأشار إلى الخانقاة السميساطية(٤٢) وقد أشار إلى أن الأوقاف التى بها، تم وقفها على المتصوفة، والعميان من أهل القرآن(٤٣).

ولا نزاع، فى أن ذلك العصر شهد تشييد العمائر الدينية الإسلامية المتعددة، لاسيما المساجد، والمدارس، والزوايا، والخانقاوات، ونجدها بكثرة فى المدن الشامية الكبرى مثل دمشق، وحلب، وغيرها من المدن التى مثلت حواضر هامة هناك.

أما الخريطة المذهبية لبلاد الشام، فإن السمعانى لم يقدم فيها إشارات وافية عن كافة القوى الدينية المتعددة هناك، وإنما اهتم على نحو خاص بعناصر الاسماعيلية النزارية، الذين لقبوا بالباطنية وأوضح أنهم تسموا بذلك لقولهم بأن لكل ظاهر باطن، وذكر أن مثل ذلك الاعتقاد مأخوذ من قول الجناحية والمنصورية وهم من غلاة الروافض، ووصفهم بأنهم استحلوا الحرمات(٤٤).

وتفيد إشارته فى توضيح نظرة الرحالة المشارقة لتلك الفرقة الشيعية التى وجدوا مثلها فى أنحاء المشرق الأخرى لاسيما فى بلاد فارس حيث مركزهم الأصلى فى قلعة ألموت جنوب بحر قزوين، وقد حرصوا على إيراد أمرهم خلال ترحالهم خارج نطاق بلادهم.

وعلى ما يبدو، فإن الأيام القليلة التى أمضاها فى المدن الشامية؛ لم تمكنه من أن يقدم التفاصيل الكافية عن تلك الفرقة الشيعية، أو أن يتعرض لباقى نواحى الخريطة العقائدية لبلاد الشام فى ذلك العصر، بالإضافة إلى أن كتابه كتاب مخصص أصلاً للأنساب.

ومن جهة أخرى، احتوت رحلة السمعانى إلى بلاد الشام والتى ضمنها كتابه الأنساب، على بعض الجوانب الاقتصادية سواء الزراعية أو التجارية، وفى هذا المقال، نجد أنه ذكر كثرة النخل الموجود فى بيسان(٤٥)، كما أن حوران تشتهر بالغلال وأن دمشق، تستفيد منها فى هذا المجال(٤٦) فى سد احتياجاتها نظراً لقرب موقعهما الجغرافى.

أما النشاط التجارى، فهو يذكره بالنسبة لمدينة ساحلية لبنانية وهى بيروت، وقد أشار إلى أن الكيزان البيروتية، التى تنسب إليها، تصدر منها إلى كافة أنحاء الشام(٤٧).

ومن الواضح أن حجم إشاراته عن النشاط الاقتصادى كان ضئيلا ولاسيما أنه لم يتناول ذلك النشاط بالنسبة للساحل الشامى وهو ميدان خصب لذلك النشاط، ويلاحظ أن الرحالة المسلمين الآخرين أكثر ثراء منه فى هذا المجال.

وتبقى ناحية أخرى، تتعلق بالمزارات الدينية والعلاجية، وفى هذا المقام نجده لا يشير إلا إلى أقل القليل منها؛ مثال ذلك أنه أشار إلى ضريح خالد بن الوليد فى حمص(٤٨)، ومن المحتمل أنه لم يكن مقتنعاً بها وبوجودها أصلاً ولذا لم يشر إليها - غير أن تأكيد ذلك ليس فى الإمكان أمام عدم وضوح النصوص التى قدمها.

زد على ذلك، أن المزارات العلاجية قد أشار إليها خاصة فيما يتعلق بطبرية وقدرة مياهها على شفاء الأمراض(٤٩) بإذن الله تبارك وتعالى، وقد أكد ما ذكره غيره من الرحالة المسلمين عندما أشار إلى أن حمامات طبرية تعد من عجائب الدنيا، ومع ذلك فإن وصفه لها كان موجزاً على عكس منهج الرحالة المسلمين الآخرين الذين فصلوا هذه الناحية، من أجل أن يرصدوا ذلك الواقع من ناحية، ومن أجل أن يستميلوا إعجاب المعاصرين من خلال إيراد عدد من العجائب فى رحلاتهم تضمن لهم الانتشار والشهرة.

وكامتداد لتلك الناحية العلاجية السابقة، نجد أن السمعانى، أشار إلى جانب علاجى آخر غير المياه الجوفية، ونعنى به الأعشاب، وفى هذا المجال نذكر أنه أوضح

اشتهار أنطاكية بالدواء المسهل الذى يطلق عليه الأنطاكى، وهو معروف باسم السقمونيا(٥٠)، ولا يوجد فى مكان إلا فى أنطاكية، مما أعطى لها أهمية علاجية خاصة.

وتجدر الإشارة إلى أن ذلك العصر اشتهر العلاج فيه من خلال الأعشاب، ووجد العديد من العشابين الذين برعوا فى معرفة الأعشاب، وأنواعها وصفاتها، وخصائصها العلاجية، ووصلت إلينا العديد من المؤلفات من ذلك العصر فى مجال العلاج بالأعشاب.

وهكذا، قدم لنا السمعانى من خلال ترحاله فى ربوع بلاد الشام العديد من الجوانب الهامة عن أوضاع المسلمين هناك، وصراعهم مع العدو الصليبى، وقد قدم رؤية رحالة مشرقى شاهد عيان على عصر الصراع الإسلامى الصليبى، واحتوت إشاراته على جوانب عن المزارات الدينية والعلاجية والنشاط الاقتصادى على نحو جعل لها قيمتها بين مؤلفات الرحالة المسلمين، الذين وفدوا إلى بلاد الشام فى عصر الحروب الصليبية.

الهوامش

(١) عن مصادر ومراجع ترجمة السمعانى أنظر :

السمعانى، الأنساب، حـ١، تحقيق عبدالرحمن العلمى، ط. بيروت ١٩٨٠م، ص١٨-٣٠؛ ابن خلكان، وفيات الأعيان، حـ٢، ص٢٧٨؛ مصطفى محمد أحمد رجب، الآراء التربوية فى كتاب أدب الإملاء والاستملاء للسمعانى فى ضوء الفكر التربوى الحديث، بحث مقدم للمشاركة فى المسابقة رقم (١٤) لنادى أبها الأدبى عام ١٤١٥هـ/ ١٩٩٤م، ص٦؛ على عبدالله الدفاع، رواد علم الجغرافيا فى الحضارة العربية الاسلامية، ص١٥٥-١٥٦؛ بروكلمان، تاريخ الأدب العربى، حـ٦، ت. عبدالحليم النجار، ط. القاهرة ١٩٧٧م، ص٦٤؛ أدوار براون، تاريخ الأدب فى إيران، ت. الشواربى، ط. القاهرة ١٩٥٨م، ص٥٩٥؛ أحمد رمضان، الرحلة والرحالة المسلمون، ص٢٦٦.

(٢) ابن خلكان، المصدر السابق، حـ٢، ص٢٧٨.

(٣) على عبدالله الدفاع، المرجع السابق، ص١٥٦.

(٤) أحمد رمضان، المرجع السابق، ص٢٨٠؛ بروكلمان، المرجع السابق، حـ٦، ص٦٤.

(٥) نفسه، نفس المرجع والصفحة.

(٦) حاجى خليفة، كشف الظنون، حـ١/ ق١، ص٣٠٣؛ ادوارد براون، المرجع السابق، ص٥٩٥.

(٧) على عبدالله الدفاع، المرجع السابق، ص١٥٧.

(٨) بدأ السمعانى وضعه فى عام ٥٥٠هـ/ ١١٥٥م، وذلك بنا على طلب من أحد أصدقائه وهو عمر بن على البسطامى، الذى قابله فى منطقة ما وراء النهر، وقد قام المستشرق مارجليوث D.S. Margoliouth بتصوير مخطوطة المتحف البريطانى B.M، ورقمها Add 23, 355، مع مقدمة فى سلسلة جب التذكارية، المجلد العشرين، الصادر فى لندن عام ١٩١٢م.

Gibb Memorial Series, No. XX, London 1912.

عن ذلك أنظر :

بارتولد، تركستان، ص١٠٥؛ بروكلمان، المرجع السابق، حـ٦، ص٦٤.

وقد اعتمدت فى هذا الفصل على طبعة صدرت فى بيروت بدون تاريخ.

ومن المفيد أن نذكر هنا أن التأليف فى مجال الأنساب، لم يبتدعه السمعانى، بل إنه كان ظاهرة تأليفية من قبله واستمرت من بعده، ونورد عدداً من المؤلفات فى هذا الصدد وهى كالآتى :

عبدالملك بن هشام صاحب السيرة المشهورة، (ت ٢١٣ه/ ٨٣٦م) وله كتاب أنساب حمير وملوكها، وأبو جعفر محمد بن حبيب البغدادى (ت ٢٤٥هـ/ ٨٠٤م) له كتاب أنساب الشعراء، أما الزبير بن بكار (ت ٢٥٦هـ/ ٨٧٩م) فله كتاب جمهرة نسب قريش وأخبارها، وقد حققه محمود شاكر وصدر عمله فى القاهرة عام ١٣٨١هـ، كذلك فإن البلاذرى (ت ٢٧٩هـ/ ٨٩٢م) له أنســاب الأشراف وقد تم تحقيقــه عدة مرات، ثم أن الحسين بن على الوزير المغربى (ت ٤١٨هـ/ ١٠٢٣م) ألف كتاباً بعنوان الإيناس فى علم الأنساب، وقد حققه حمد الجاسر، وصدر فى الرياض عام ١٩٨٠م، ثم أن أبا محمد عبدالله الرشاطى (ت ٤٦٦هـ/ ٩٧٥م) ألف كتاب اقتباس الأنوار والتماس الأزهار فى نسب الصحابة ورواة الآثار، أضف إلى ذلك أن ابن حزم ٠ت ٤٥٦هـ/ ١٠٦٤م) له كتاب جمهرة أنساب العرب، وقد حققه ليفى بروفنسال Levi Provencal، وصدر فى القاهرة عام ١٩٤٨م، ثم أن ابن القيسرانى (ت٥٠٧هـ) له كتاب الأنساب المتفقة، وقد صدر فى ليدن عام ١٨٦٥م، كما أن أحمد بن محمد الأشعرى القرطبى (ت ٥٥٠هـ/ ١٥٥م) له كتاب التعريف فى الأنساب والتنويه لذوى الأحساب، وقد حققه سعد عبدالمقصود ظلام، وصدر فى القاهرة عام ١٩٩٠م، ثم أبو محمد الحســن على المعــروف بالقاضى المهذب (ت ٥٦١هـ/ ١١٦٦م) له كتاب الأنساب، كذلك ألف موفق الدين المقدسى (ت ٦٢٠هـ/ ١٢٢٤م) كتابه التبيين فى أنساب القرشيين، وحققه محمد الديلمى، وصدر فى بغداد عام ١٩٨١م. ثم ألف محيى الدين محمد بن محمد بن النجار البغدادى (ت ٦٤٣هـ/ ١٢٤٧م) كتاب أنساب المحدثين، أما القلقشندى، (ت ٨٢١هـ/ ١٤١٨م)، فله كتاب نهاية الأرب فى معرفة أنساب العرب، أما الجيفرى (ت ق ٩ هـ/ ق ١٥م) فله كتاب الاكتساب فى تلخيص الأنساب، كما أن بامخرجة (ت ٩٤٧هـ/ ١٥٤٤م) له كتاب النسب إلى المواضع والبلدان، أما المؤلفات الخاصة بأنساب الحيوانات فأشهرها، كتاب ابن الكلبى (ت ٢٠٤هـ/ ٨١٧م) بعنوان أنساب الخيل فى الجاهلية والاسلام الذى حققه أحمد زكى، وصدر فى القاهرة عام ١٩٤٦م. عن ذلك أنظر :

حاجى خليفة، كشف الظنون، حـ١/ق١، ص١٧٩؛ إحسان النص، كتب الأنساب العربية، مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق، م (٦٦)، حـ (٣)، ذو الحجة ١٤١١هـ/ يوليو

١٩٩١م؛ حمد الجاسر، الاكتساب في تلخيص الأنساب، الفيصل، العدد (٢٠١)؛ رمضان ١٤١٤هـ/ مارس ١٩٩٤م، ص٤٣-٤٥؛ كتاب النسبة إلى المواضع والبلدان، الفيصل، العدد (٢١١)، محرم ١٤١٥هـ/ يونيو - يوليو ١٩٩٤م، ص٤٥.

(٩) بروكلمان، المرجع السابق، حـ٦ ، ص٦٤؛ وعن ابن الأثير أنظر، الفصل الرابع - الباب الثاني.

(١٠) بروكلمان، المرجع السابق، حـ٦ ، ص٦٤؛ على عبدالله الدفاع، المرجع السابق، ص١٥٦ .

السيوطي، هو عبدالرحمن بن أبي بكر بن محمد بن سابق الدين الخضيري السيوطي المصري، جلال الدين أبو الفضل، ولد عام ٨٤٩هـ/ ١٤٤٥م، نشأ بالقاهرة. وتلقى علومه الدينية بها، واتجه إلى الاسكندرية ودمياط وإلى الحجاز وتعلم على أيدى شيوخ العلم، وتولى أمر التدريس والافتاء، وله العديد من المؤلفات في العديد من العلوم والمعارف منها، الدر المنثور في التفسير بالمأثور، والاتقان في علوم القرآن، ولباب المنقول في أسباب النزول، وتناسق الدرر في تناسب السور، وطبقات المفسرين، والجامع الكبير والجامع الصغير، والحاوى في الفتاوى، وجزيل المواهب في اختلاف المذاهب، وحسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة، وقد توفي السيوطي عام ٩١١هـ/ ١٥٠٨م. عن السيوطي أنظر :

السيوطي، حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة، حـ١ ، ط. القاهرة ب-ت، ص١٨٨؛ محمد عبدالمنعم خاطر، جلال الدين السيوطي، ط. القاهرة ١٩٦٨م؛ عدنان محمد سلمان، السيوطي النحوي، ط. بغداد ١٩٧٦م، ص٦١-١١٩؛ محمد جلال أبو الفتوح، جلال الدين السيوطي، منهجه وآراؤه الكلامية، ط. بيروت ١٩٨١م، ص١١-٢٥؛ أحمد الخازندار ومحمد ابراهيم الشيباني، دليل مخطوطات السيوطي وأماكن وجودها، ط. الكويت ١٩٨٣م، ص٧-٢٥؛ محمد مصطفى زيادة، المؤرخون في القرن الخامس عشر الميلادي، ط. القاهرة، ١٩٦٢م ص٥٧؛ اسماعيل نوري الربيعي، منهج السيوطي التاريخي، المنهل، العدد (٥١٠)، المجلد (٥٥)، نوفمبر - ديسمبر ١٩٩٣م، ص١٦-٤٩؛ مجموعة من الباحثين، جلال الدين السيوطي، بحوث ندوة المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية، ط. القاهرة ١٩٧٨.

(١١) أحمد رمضان، المرجع السابق، ص٢٦٦.

(١٢) السمعاني، الأنساب، حـ١ ، ص٤٣٠.

(١٣) نفسه، نفس المصدر، حـ١ ، ص٢٦٧.

(١٤) نفسه، نفس المصدر، حـ٢، ص٤٦.

(١٥) نفسه، نفسه المصدر، حـ١، ص٣٧١.

(١٦) نفسه، نفس المصدر، حـ١، ص٣٧٣.

(١٧) نفسه، نفس المصدر، حـ٤، ص١٩٠.

(١٨) نفسه، نفس المصدر والصفحة.

وبلخ، مدينة وقعت على الشاطئ الجنوبى لنهر جيحون، فى السهل الشمالى المنبسط لجبل بابا، وقد أطلق عليها اليونانيون تعبير باكترا Baktra، وفى الفارسية القديمة اطلق عليها تعبير باخترس، ويلاحظ أن موقع بلخ قد جعلها على الطريق التجارى الهام الذى يصل الممرات الجبلية بنهر جيجون، ووصفت بأنها كانت القضية السياسية لولاية خراسان القديمة، وصارت فيما بعد المركز الثقافى، والدينى لمملكة طخارستان، ونجد أن ياقوت الحموى قد وصفها على اعتبار أنها من أجل مدن خراسان، وأكثرها خيراً، وأوسعها، ويتم ارسال غلتها إلى كافة أنحاء خراسان، وإلى خوارزم، كما أنها اشتهرت بانتاج البرتقال، وقصب السكر.

ويلاحظ أن بلخ قد افتتحت على يد الأحنف بن قيس، من قبل عبدالله بن عامر بن كريز، وذلك فى عهد عثمان بن عفان رضى الله تعالى عنه. وقد أشار أبو الفداء إلى أنها انجبت عالم لا يحصى من عناصر الأئمة، والعلماء والصالحين، ومن أشهر علمائها وأدبائها أبو القاسم الكلبى فى علم الكلام وأبو زيد البلخى فى البلاغة وسهل بن الحسن، ومحمد بن موسى فى الشعر.

ويجدر الاشارة إلى أن الجغرافيين المسلمين، يقدمون معلومات قليلة عن بلخ فى حالة مقارنتها بمدن أخرى من أقاليم المشرق، مثل بخارى، وسمرقند، ويلاحظ أن المغول قاموا بتخريبها عام ٦١٧هـ/ ١٢٢٧م، ويقال إنها لم تقم لها قائمة بعد ذلك. عن بلخ أنظر :

مجهول، حدود العالم

Hudud al-Alam, The regions of The World, a persian geography 372 A.H. 982 A.D., Translated and explaned by V. Minorestry, Oxford 1937, p. 108.

إسحاق بن الحسين، آكام المرجان، ص٨٢، أبو الفداء، تقويم البلدان، ص٣٦٠-٣٦١؛ ياقوت، معجم البلدان، حـ١، ص٤٧٩-٤٨٠؛ المشترك وصفاً والمفترق صقعاً، ص٢٣، ٢٧؛ دائرة المعارف الإسلامية، مادة «بلخش»، حـ٧، ص٢٥٠-٢٥٣؛ فاسيلى بارتولد، تركستان من الفتح العربى حتى الغزو المغولى، ت. صلاح الدين عثمان هاشم، ط. الكويت ١٩٨١م،

ص١٦١-١٦٥؛ حسن محمود، الإسلام والحضارة العربية فى آسيا الوسطى بين الفتحين العربى والتركى، ط. القاهرة ب-ت، ص١٦٤؛ أرمينبوس فاميرى، تاريخ بخارى، من أقدم العصور حتى العصر الحاضر، ت. أحمد الساداتى، ط. القاهرة ب-ت، ص١٧٦.

Barthold, An Historical geography of Iran, Translated by Svat Soucek, Princeton 1984, pp. 12-21.

(١٩) السمعانى، المصدر السابق، حـ٤، ص١٩٠.

(٢٠) نفسه، نفس المصدر، حـ٤، ص٢٢٠.

(٢١) أنظر، الفصل الخاص بابن جبير.

(٢٢) السمعانى، المصدر السابق، حـ٤، ص٢٢٠.

(٢٣) نفسه، نفس المصدر، حـ٥، ص٦٧٦.

(٢٤) نفسه، نفس المصدر، حـ١، ص١١٢.

(٢٥) نفسه، نفس المصدر، حـ٥، ص٦٦٣.

(٢٦) عن خضوع اللاذقية للصليبيين عام ٤٩٢هـ/ ١٠٩٩م.

أنظر: Fulcher of Chartres, p. 175.

عاشور، الحركة الصليبية، حـ١، ص٣٧٢؛ عبدالحفيظ محمد على، المسلمون والبيزنطيون فى شرقى البحر المتوسط، فيما بين القرنين ٣-٦هـ/ ٩-١٢م، ط. القاهرة ١٩٨٢م، ص٤٥.

(٢٧) السمعانى، المصدر السابق، حـ١، ص٤٢٨.

(٢٨) السمعانى، المصدر السابق، حـ٣، ص٥٦٤. وعن سقوط صور فى قبضة الصليبيين عام ٥٢٠هـ/ ١١٢٦م أنظر :

Fulcher of Chartres, p. 266; William of Tyre, Vol. II, p. .

ابن القلانسى، ذيل تاريخ دمشق، ص٢١٧؛ ابن الأثير، الكامل، حـ١٠، ص٦٢١-٦٢٢؛ ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، حـ٥، ص١٨٢-١٨٣.

Runciman, A History of The Crusades, Vol. II, p. 169-171.

(٢٩) السمعانى، المصدر السابق، حـ٤، ص٦٠.

(٣٠) نفسه، نفس المصدر والصفحة.

(٣١) نفسه، نفس المصدر، حـ٥، ص٣٦٣.

وعن سقوط بيت المقدس في قبضة الصليبيين عام ٤٩٢هـ/ ١٠٩٩م، أنظر :

Anonymous, The deeds of the Franks, p. 51; Fulcher of Chartres, p. 122; Raymond d'Aghilliers, in peters, The first Crusade, pennsylvania 1971, p. 209.

ابن القلانسي، المصدر السابق، ص١٣٧؛ ابن العبرى، تاريخ مختصر الدول، ط. بيروت ١٨٩٠م، ص١٩٧؛ ابن الجوزى، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، حـ٩، ط. حيدر آباد الدكن ١٣٥٩هـ، ص١٠٨؛ عاشور، أضواء جديدة على الحروب الصليبية، ط. القاهرة ١٩٦٤م، ص٥٧-٥٨؛ قاسم عبده قاسم، الحروب الصليبية، نصوص ووثائق، ط. القاهرة ١٩٨٢م، ص٢٧٦؛ حسن حبشي، الحرب الصليبية الأولى، ط. القاهرة ١٩٥٨م، ص١٧٩؛ عبدالله يوسف الشبل، القدس في عهد الاحتلال الصليبي، المؤرخ العربي، العدد (٢٣)، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م، ص١٥.

(٣٢) السمعاني، المصدر السابق، حـ١، ص٢٢٠. وعن سقوط أنطاكية في قبضة الصليبيين أنظر :

Fulcher of Chartres, p. 110; William of Tyre, Vol. I, p .

ابن القلانسي، المصدر السابق، ص١٣٥؛ ابن العديم، زبدة الحلب، حـ٢، ص١٣٣-١٣٥؛ انتوني براج، تاريخ الحروب الصليبية، ت. سبانو والجيرودى، ط. بيروت ١٩٨٥م، ص٩٢، ٩٤؛ سعيد برجاوى، الحروب الصليبية في الشرق، ص١٣٨؛ على عودة الغامدى، بلاد الشام قبيل الغزو الصليبي (٤٦٢-٤٩١هـ/ ١٠٧٠-١٠٩٨م)، ط. مكة المكرمة ١٩٨٤م، ص٣٤٤.

(٣٣) السمعاني، المصدر السابق، حـ٣، ص١٠٨. وعن استيلاء المسلمين بقيادة عماد الدين زنكي على الرها أنظر :

ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، تحقيق زكار، ص٢٣٦، ٤٣٧؛ ابن الأثير، التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية بالموصل، تحقيق عبدالقادر طليمات، ط. القاهرة ١٩٦٣م، ص٦٦-٧١. الكامل، حـ٩، ط. بيروت ١٩٦٧م، ص٨-٩.

Anonymous Syriac Chronicle, p. 296; William of Tyre, Vol. II, p. ; Gibb, "Zengi and The Fall of Edessa", in Setton, A History of the Crusades, Vol. II, pennsylvania 1955, pp. 449-462.

عماد الدين خليل، عماد الدين زنكي، ط. بيروت ١٩٨٢م، ص١٤٩-١٥٦؛ علية عبدالسمع الجنزورى، إمارة الرها اصليبية، ط. القاهرة ١٩٧٥م؛ على عبدالحليم محمود، الغزو

الصليبى والعالم الاسلامى، ط. جدة ١٩٨٢م، ص١٩٤؛ فايد حماد عاشور، جهاد المسلمين فى الحروب الصليبية، ط. بيروت ١٩٨٥م، ص٢٠٠؛ قاسم عبده قاسم، ماهية الحروب الصليبية، ص١٣٧؛ عصام الدين عبدالرؤوف، بلاد الجزيرة فى أواخر العصر العباسى، ط. القاهرة ب-ت، ص١٦٨؛ رينيه جروسيه، رصيد التاريخ، ت. محمد الباشا، ط. بيروت ب-ت، ص١٢٦؛ محمد على الهرقى، الحروب الصليبية وأثرها فى الشعر العربى. ط. الرياض ١٩٨٠م، ص٢١.

(٣٤) السمعانى، المصدر السابق، جـ٣، ص١٠٨.

(٣٥) نفسه، نفس المصدر، جـ٢، ص٤٩٢.

(٣٦) نفسه، نفس المصدر والصفحة.

(٣٧) نفسه، نفس المصدر والصفحة.

وعن ابن عساكر، أنظر : الفصل الرابع – الباب الأول.

(٣٨) نفسه، نفس المصدر، جـ٢، ص٢٤٧.

(٣٩) نفسه، نفس المصدر، جـ١، ص٢٦٧

(٤٠) نفسه، نفس المصدر، جـ١، ص٢٦٣.

(٤١) نسه، نفس المصدر، جـ٢، ص٢٨٧.

(٤٢) نفسه، نفسه المصدر، جـ٣، ص٣٠٨.

والخانقاة السميساطية، توجد عند باب الجامع الأموى الشمالى، وكان ذلك الباب يسمى باب الناطقين وكان فى بدء أمرها داراً لعبدالعزيز بن مروان بن الحكم، ثم انتقلت من بعده لابنه عمر بن عبدالعزيز، وتناولتها الأيدى على مر الزمن إلى أن قدم إلى دمشق أبو القاسم السميساطى، وقد سكن درب الخزاعية، وقام بشراء الدار المذكورة، وقد أوقفها على الفقراء الصوفية، واستمرت مقررة على عناصر الصوفية وكان النظر فيها لمن يلقب بشيخ الشيوخ حتى عام ٨٢٤هـ/ ١٤٢٨م، وفى هذا العام أسقط نجم الدين بن حجى عناصر المتزوجين من الخانقاة السميساطية وأهل البلد، وقرر أن يكون فيها عزاباً وغرباء، وهناك من يذكر أن من مشاهير الصوفية الذين ارتبط اسهم بالخانقاة السميساطية سعيد بن سعل محمد المعروف بالفلكى النيسابورى (ت ٥٧٨هـ/ ١١٨٢م)، وعلى بن عبدالقادر المراغى (ت ٧٨٨هـ/ ١٣٩٢م).

عن الخانقاه السميساطية أنظر :

ابن عساكر، ولاة دمشق فى العهد السلجوقى، ص٥٥٤؛ الذهبى، العبر، جـ٥، ص١٧٢؛ البقاعى، مسجد دمشق، تحقيق صلاح الدين المنجد، ط. دمشق ١٩٤٨م، ص٥٢، حاشية (١٥)؛ النعيمى، الدارس، جـ٢، ص١٥١؛ دور القرآن فى دمشق، تحقيق صلاح الدين المنجد، ط. دمشق ١٩٤٦، ص١٥١؛ المنينى، الأعلام بفضائل الشام، ورقة (٦٢)؛ عبدالقادر بدران، منادمة الاطلال ومسامرة الخيال ط. دمشق ب-ت، ص٢٧٦-٢٧٨.

Sauvaget, "Notes Sur queIques monuments musulmans de syrie a propos d'une etudes recente", S., T. XXIV, Années 1941, 1945, p. 220.

(٤٣) السمعانى، المصدر السابق، جـ٣، ص٣٠٨.

(٤٤) نفسه، نفس المصدر، جـ١، ص٢٦٠.

ويلاحظ أن تلك الإشارة وردت فى عدد من المصادر سواء فى مؤلفات الرحالة اليهود فى العصور الوسطى، مثل بنيامين التطيلى، وكذلك فيما ألف المؤرخون المسلمون السنيون، ومن أمثلتهم العماد الأصفهانى، والذهبى، وهو أمر وجدناه كذلك لدى تلك المصادر التاريخية، عندما عبرت عن عناصر الدروز خلال ذلك العصر. عن الإشارات الخاصة بتلك الزاوية لدى عناصر الاسماعيلية النزارية أنظر :

بنيامين التطيلى، الرحلة، ص٩١؛ الأصفهانى، البستان الجامع، ص١٣٦؛ الذهبى، دول الإسلام، جـ٢، ص١٠٠؛ العثمانى، تاريخ صفد، ص٤٨٤-٤٨٥؛ محمد مؤنس أحمد عوض، البستان الجامع مصدراً من مصادر تاريخ الاسماعيلية النزارية فى بلاد الشام فى عصر الحروب الصليبية، (القرنين ٦، ٧هـ/ ١٢، ١٣م)، ط. القاهرة ١٩٨٣م، ص٢٠-٢١.

(٤٥) السمعانى، المصدر السابق، جـ١، ص٤٣٠.

(٤٦) نفسه، نفس المصدر، جـ٢، ص٢٨٧.

(٤٧) نفسه، نفس المصدر، جـ١، ص٤٢٨.

(٤٨) نفسه، نفس المصدر، جـ١، ص٢٦٣.

(٤٩) نفسه، نفس المصدر، جـ٤، ص٤٢.

(٥٠) نفسه، نفس المصدر، جـ١، ص٢٢٠.

والسقمونيا، نبات، ورد ذكره فى عدد من مؤلفات العرب الطبية فى العصور الوسطى، وقد وصف بأنه حار، ويابس، وأجود أنواعه الأنطاكى الأزرق، المائل إلى البياض السريع الانفراك، وفى حالة انحلاله فى الماء غيره، ووصف النوع الأسود منه بالرداءة، وسمى السقمونيا بالمحمودة، ومن

الملاحظ أن من خصائصه أن تبقى له فعاليته حتى بعد انقضاء ثلاثين أو أربعين عاماً، أما الفوائد العلاجية للسقمونيا الأنطاكى، فهى تتمثل فى معالجة البرص، والبهاق، والكلف، وكذلك علاج الصداع المزمن، وعرق النساء، كما يفيد في لسع العقرب سواء بتناوله كشراب أو من خلال طلائه على العضو المصاب، وبالإضافة إلى تلك الفوائد فقد وصف بأنه مسيل للصفراء، ومع ذلك فيبدو أن السقمونيا كانت له بعض المحاذير فى استعماله، والدليل على ذلك؛ أن كبار الأطباء المسلمين فى العصور الوسطى، حذروا من أنه يسبب الضرر للمعدة، والكبد، والقلب، والأمعاء، ومن المحتمل أن ذلك كله كان له أثره فى أفضلية استعماله الظاهرى فقط دون أن يتم تناوله كشراب؛ لتأثيره السلبى على القلب والجهاز الهضمى للإنسان. عن السقمونيا، وفوائده العلاجية، وتأثيراته الجانبية أنظر :

ابن سينا، القانون فى الطب، حـ١، ط. بيروت ب-ت، ص٣٨٥-٣٨٦؛ ابن رسول الغسانى، المعتمد فى الأدوية المفردة، تحقيق مصطفى السقا، ط. بيروت ب-ت، ص٢٢٧-٢٢٩؛ العطار الهارونى، منهاج الدكان ودستور الأعيان فى أعمال وتراكيب الأدوية النافعة للأبدان، تحقيق حسن عاصى، ط. بيروت ١٩٩٢م، ص٢٨١-٢٨٢؛ داود الأنطاكى، تذكرة أولى الألباب والجامع المعجب العجاب، ط. القاهرة ١٣٠٢هـ، ص١٨٢-١٨٣؛ محمد العربى الخطابى، الطب والأطباء فى الأندلس الإسلامية، دراسة، وتراجم ونصوص، جـ٢، ط. بيروت ١٩٨٨، ص١٢٤؛ إبراهيم بن مراد، المصطلح الأعجمى فى كتب الطب والصيدلة العربية، حـ٢، ط. بيروت ١٩٨٥م، ص٤٥٣-٤٥٤؛ كمال القرى، نهر الذهب فى تاريخ حلب، حـ١، ط. حلب، ص١٣٥.

٢ - أسامة بن منقذ

(ت ٥٨٢هـ/ ١١٨٨م)

يتصدى هذا الفصل بالدراسة لأحد الرحالة الشاميين الذين عاصروا القرن السادس الهجرى/ الثانى عشر الميلادى. ونعنى به أسامة بن منقذ الشيزرى[١] (ت٥٨٢هـ/ ١١٨٨م)، وقد قدم لنا تناولاً هاماً وفريداً فى آن معاً، للعديد من صور الحياة فى بلاد الشام، فى عصر الحروب الصليبية؛ سواء بالنسبة للمسلمين أو الصليبيين، ومن ثم فإننا سنتناول فى الصفحات التالية تلك الجوانب المختلفة التى قدمها ذلك الرحالة، والفارس، والأديب الشامى.

وقد ولد أسامة بن منقذ فى شيزر[٢] فى جمادى الأولى عام ٤٨٨هـ/ يوليو ١٠٩٥م[٣]، حيث سيطرت عليها أسرته العربية، وقد كان من حق والد أسامة الأمير مرشد أن يتولى الإمارة، بيد أن نسخ القرآن الكريم ملك عليه قلبه بالإضافة إلى القيام برحلات الصيد والقنص، فتنازل عن الإمارة لأخيه سلطان، وقد اتجهت همة الأخير إلى أن يخلفه أسامة بن منقذ، بيد أنه عندما رزق ولداً ذكراً؛ بعد عن أسامة وشعر الأخير بذلك التغير، فغادر شيزر[٤].

وقد زار أسامة بن منقذ بيت المقدس، وقام بالحج إلى الحرمين الشريفين، وتنقل بين العديد من العواصم الإسلامية، وصاحب عماد الدين زنكى ونور الدين محمود وكذلك الخليفة الحافظ الفاطمى، كما أنه اتصل بعدد من القيادات الصليبية مثل بوهيمند Bohemond وتنكرد Tancred[٥]. وقد توفى أسامة فى يوم الإثنين ٢٣ رمضان عام ٥٨٤هـ/ ١٥ نوفمبر ١١٨٨م[٦]، عن عمر يبلغ السادسة والتسعين.

والملاحظ أن أسامة بن منقذ قد ألف العديد من المؤلفات، ومن أمثلتها، كتاب الاعتبار[٧]، وكتاب البدرى، وكتاب الشيب والشباب، وكتاب رسائل السائل، وكتاب نصيحة الرعاة، وكتاب البشارة، وكتاب العصا، وكتاب أزهار الأنهار وكتاب النوم والأحلام، وكتاب التأسي والتسلي، وكتاب نزهة الناظر في البلاء الخاطر، وكتاب ردع الظالم ورد المظالم، وكتاب تاريخ ذكر الحوادث من أول الهجرة إلى زمانه مختصراً، وكتاب لباب الألباب، وكتاب التجارة المربحة، وكتاب المكارم والكرم ورعاية الذمم، وكتاب مكارم الأخلاق ويقال إنه وقع فى عشرين مجلداً[٨]، وكتاب المنازل والديار وكتاب البديع فى الشعر وغيرها.

وهكذا، فإن تلك المؤلفات تعكس لنا عقلية ذلك الرجل الغزير الانتاج فى العديد من المجالات الأدبية والتاريخية فى ذلك العصر.

وتجدر الإشارة إلى أن أسامة بن منقذ يمتاز بعدة مميزات عن غيره من الرحالة المسلمين فى بلاد الشام فى عصر الحروب الصليبية وعلى مدى القرنين السادس والسابع الهجرى/ الثانى عشر والثالث عشر الميلادى، ويمكن إجمالها فى الآتى :

أولاً : إنه شامى المولد والنشأة، فهو يقدم لنا رؤية خاصة عن بلاد الشام فى ذلك العصر من خلال أحد أبنائها، وبالتالى يختلف عن الرحالة المسلمين الآخرين الذين قدموا إلى بلاد الشام سواء من المشرق أو من المغرب الإسلاميين، ولا مراء فى أن صفته الشامية تعطى له طبيعة متميزة فى كتاباته، فهو ليس بالوافد والغريب عن المنطقة، بل هو من أبنائها.

ثانياً : يتميز أسامة بن منقذ بأنه فارس مسلم قوى الشكيمة وخبير فى أمور الحرب والقتال، وكذلك الصيد، وتلك الصفات لا نجدها فى الرحالة المسلمين الآخرين الذين لا نجد منهم من اتصف بصفة الفروسية، وهكذا نجد أن اهتماماته تختلف عن

اهتمامات غيره من الرحالة المسلمين المعاصرين لتلك المرحلة التاريخية الهامة من تاريخ بلاد الشام فى العصور الوسطى.

ثالثاً : من جهة أخرى، توطدت علاقات أسامة بن منقذ بعناصر من الصليبيين، ومن ثم تفيد كتاباته فى تسليط الضوء على داخل المجتمع الصليبى ذاته، من خلال رؤية رحالة خبير، لم يمكث أياماً قليلة فى تلك المناطق، بل خالطهم، وعاش مراحل زمنية متفرقة، وعميقة داخل ذلك الكيان الأجنبى، وفى تقديرى أن تلك الناحية لم تتأت لغيره من الرحالة المسلمين.

مهما يكن من أمر، فإن ذلك الأديب، والفارس، والرحالة، قدم لنا كتاباً على جانب كبير من الأهمية ونعنى به كتاب «الاعتبار»، وهو مذكرات شخصية لأسامة ابن منقذ وخلاصة تجاربه الحياتية ونلمح فيه دقة الملاحظة، والقدرة الوصفية الفذة، والتمكن من اختيار الجوانب الحساسة التى قد لا يتطرق إلى تناولها المعاصرون فى كتاباتهم التى وصلت إلينا. ولا جدال فى أن عمق تجربة أسامة نفسه، أثقلت كتابه بصورة واضحة.

ومن الممكن إثارة زاوية هامة فيما يتصل برحلات أسامة بن منقذ فى ربوع بلاد الشام سواء فى المناطق الخاضعة للسيادة الإسلامية أو تلك التى سيطر عليها الصليبيون، وهى تتعلق بالمصادر التى استقى منها مادة رحلاته.

والواقع أن ذلك الرحالة قد أفاد من مشاهداته وكذلك من المصادر الشفهية، ومن الملاحظ أنه أحياناً كان شاهد عيان لبعض الأحداث التى يوردها فى الاعتبار عن بلاد الشام(٩)، كما أنه فى أحيان أخرى نجده يذكر إشارات من خلال ما سمعه شخصياً(١٠)، وفى المجال الأخير، نعرف أنه استقى بعض رواياته من أفواه قيادات صليبية على أعلى مستوى قيادى(١١)؛ مما يعطى لما أورده فى كتابه أهمية متميزة.

وهكذا، يمكن القول بأن هناك مصدرين أساسيين لأسامة بن منقذ وترحاله فى ربوع الشام، ألا وهى المشاهدة والمصادر الشفهية، مع ملاحظة أن عنصر المشاهدة والمعاينة تفوق على العنصر الآخر فى أحيان كثيرة، خاصة إذا ما أدركنا أن أسامة ابن منقذ يقدم لنا خبرته الشخصية من خلال الاعتبار.

والجدير بالذكر، أن ذلك الرحالة الشامي، قد قدم لنا العديد من الجوانب، وكأنه يقدم لنا بانورامية شاملة عن بلاد الشام من خلاله، ومن أمثلة ذلك تناوله للمرأة المسلمة فى بلاد الشام في عصر الحروب الصليبية ومظاهر البطولة الفردية لعدد من النساء فى ميادين القتال، وكذلك أوضاع الأسارى منهن، ثم تعرضه للمرأة الصليبية والإنحلال الجنسي لدى الصليبيين، وتحليله لسلوكياتهم بين الإيجابيات والسلبيات، وكذلك الفوارق الحضارية بين المسلمين والصليبيين ولاسيما من خلال المعارف الطبية، كذلك تعرضه الهام للجانب التنصيرى، ثم الخريطة العقائدية لبلاد الشام فى ذلك العصر، بالإضافة إلى تعرضه لنواحي الصيد ووسائله فى عدد من المناطق الشامية.

مهما يكن من أمر، فإن أسامة بن منقذ يقدم لنا تصورات هامة عن دور المرأة المسلمة فى بلاد الشام فى ذلك الحين، وتحتل رواياته فى هذا الشأن قدراً كبيراً من الأهمية على اعتبار قلة إن لم يكن ندرة الإشارات التى وصلتنا عن المرأة من خلال مصادر ذلك العصر التاريخية، إذ أن المؤرخين المعاصرين، قد شغلوا بتسجيل الأحداث السياسية والحربية الطابع، وتناول كبار القيادات، وتجنبوا التعرض لقطاعات العامة، وكذلك دور المرأة فى صنع تاريخ تلك المرحلة الهامة والحاسمة من حياة بلاد الشام، وإن وردت إشارات من جانبهم عن المرأة الشامية، فذلك بصورة عرضية ونادرة، وإن كان التجاهل من جانبهم هو الأعم للظروف والملابسات المذكورة.

وهكذا، تأتى إشارات أسامة بن منقذ عن المرأة المسلمة فى بلاد الشام، وكذلك المرأة الصليبية لتقدم لنا ثروة طائلة، وتكشف النقاب عن العديد من الحقائق التاريخية فى ذلك العصر، التى كان الباحثون فى أشد الحاجة إليها من أجل تجلية غوامضه.

والجدير بالذكر، أن أسامة بن منقذ اتسم بطابع الاحترام والتقدير للمرأة المسلمة الشامية، ويتضح ذلك من خلال كتابه إذ أنه يقرر صراحة «ما ينكر للنساء الكرام الإنفة والنخوة والاصابة فى الرأى»(١٢). ومن المرجح أن ذلك التصور الراقى لم يكن حالة فردية من جانب ذلك الرحالة، بل أنه تعبير عن تصور عصر بأكمله قدر المرأة واحترمها من خلال مبادئ الإسلام وتعاليمه الراقية، على نحو لم يتوافر بنفس القدر لدى المرأة الأوروبية المعاصرة لاسيما فى الغرب الأوروبى.

ونجد لديه الحرص على إيراد الجانب المتعلق بالبطولات النسائية، فهناك المرأة التى قتلت زوجها وهو على عبد ابن أبى الدرداء والذى كان من رجال خلف بن ملاعب أمير أفامية(١٣)، وذلك انتقاماً منه بعد أن اعتاد القيام بعمليات السلب، والنهب، والقرصنة، ضد قوافل المسلمين، خاصة بعد أن ارتبط بالصليبيين فى كفر طاب؛ وقد قدر لها المسلمون دورها وعملوا على إكرامها وتقديرها(١٤).

كذلك حرص أسامة بن منقذ على إظهار البطولة النسائية فيما يتصل بجهاد الصليبيين، من ذلك أن نضره بنت يوزرماط قامت بأسر ثلاثة من الصليبيين وجعلتهم فى بيتها ثم دعت أهلها إليهم فقاتلوهم وتمكنوا من قتلهم(١٥). وتعنى تلك الرواية أن الرجال لم يكونوا هم القوة الفاعلة فقط، بل إن المرأة المسلمة، شاركت ووقفت جنباً إلى جنب بجوار الرجل المسلم، فى معركة الجهاد ضد الغزاة الصليبيين.

ولم يكن دور المرأة المسلمة قاصراً على مواجهة الصليبيين، بل إن الأمر تعدى ذلك إلى مواجهة عناصر الشيعة الاسماعيلية من ذلك أن الاسماعيلية، عندما هاجموا شيزر فى عام ٥٠٧هـ/ ١١١٣م، قامت النساء بصد الأعداء، إذ أن امرأة تناولت سيفاً وخرجت إلى القتال، ومازالت كذلك حتى تكاثر الشيزريون، وصدوا هجوم أعدائهم(١٦). ثم هناك إمرأة أخرى كانت تحث أحد أقاربها على القتال وعدم الفرار من المعركة(١٧). بل إنه أشار إلى أن امرأة شيزرية، أرادت أن تلقى بأبنتها فى الوادى لتلقى

حتفها بدلاً من أن تقع أسيرة فى قبضة الاسماعيلية[١٨]. وفى ذلك أوضح دليل على العزة والكرامة لتلك النوعيات من النساء المسلمات فى ذلك العصر.

وإذا كان هذا هو حال النساء الشيزريات، فإن ذلك الرحالة، أورد أمر بعض الأسارى من المسلمات، من ذلك تعرضه لأمر الفتاة رفول بنت أبى الجيش، وهو أحسن العناصر الكردية، وقد تم أسرها من جانب أحد الفرسان الصليبيين، على نحو انعكس على والدها الذى فتكت بأعصابه المحنة، وفيما بعد وجدت جثتها طافية فى مياه أحد الأنهار الشامية، وقد هدأت نفس والدها عندما أدرك ذلك على اعتبار أنها فضلت الموت عن الوقوع فى الأسر[١٩]، وفى هذا إيضاح إلى أن الوقوع فى أسر الصليبيين كان بمثابة كارثة كبرى لدى المسلمين فى ذلك العصر، حتى أن البعض من النساء فضلن الموت عن أن يقعن فى قبضتى الأعداء كأسارى.

ويلاحظ أن أسامة بن منقذ اتسم بنظرة موضوعية حيادية تجاه المرأة المسلمة، فهو لا يقدم صورتها المشرقة فحسب، بل إنه يقدم أيضاً الجانب المظلم الآخر، فى صورة قيام بعض النساء بالعمل كساحرات كالمرأة التى تدعى بريكة التى كانت تسحر بين المقابر خلال ساعات الليل وقد سخر منها أسامة عندما وصفها بأنها مكشوفة الرأس، منفوشة الشعر، تركب قصبة، وتصهل بين المقابر، وتتجول هناك[٢٠]. وفى ذلك أوضح تعبير عن احتقاره لتلك الأعمال الشريرة من جانب بعض النساء، ومنطقى تصور أن مثل تلك النوعية من النساء الساحرات وجدت سوقاً رائجة من خلال إقبال عناصر من العامة لحل مشكلاتهم الحياتية المتعددة.

من جهة أخرى، لا تخلو رحلات أسامة بن منقذ من جوانب طريفة عن المرأة الشامية فى ذلك العصر، فهو يتحدث عن إحدى السيدات المسلمات قارب عمرها المائة عام[٢١]، فهى من المعمرات، ويلاحظ أن ذلك الرحالة قد حرص على الإهتمام بقضية طول الأعمار، إذ أنه توفى عن عمر يبلغ السادسة والتسعين، وهو نجده يرى أن الموت لا

يقدمه ركوب الأخطار، كما أنه لا يؤخره شدة الحذر، وقد لقى الأخطار المتعددة وحارب الصليبيين وقاتل الحيوانات المفترسة وعلى الرغم من ذلك طال عمره إلى حد كبير(٢٢).

أضف إلى ذلك، تطرق أسامة بن منقذ إلى أمر المرأة الصليبية، التى ندر اهتمام المصادر التاريخية العربية بها، وقد أوضح أن المرأة الصليبية لا يغار عليها زوجها، وأن هناك إنحلالاً كبيراً داخل المجتمع الصليبى. وهو يقرر أنه ليس عند الصليبيين نخوة أو غيرة، وضرب مثلا دالاً على ذلك برجل يمشى مع امرأته فيلقاه رجل آخر يأخذ المرأة فيعتزل بها ويتحدث معها بينما زوجها واقف ينتظر فراغهما من الحديث، فإذا طالت المحادثة تركها مع محدثها وانصرف(٢٣). كما أشار إلى أمر أحد الصليبيين الذى دخل بيتاً وضاجع إمرأة فيه، وعندما قابله زوجها قال له أنه إذا عاد إلى ذلك مرة أخرى خاصمه(٢٤).

وهكذا، يلقى ذلك الرحالة الأضواء على الإنحلال الخلقى داخل المعسكر الصليبى، ومن المعروف أن الكيان الصليبى قد احتوى على العديد من مظاهر الإنحلال الخلقى، من ذلك أن مدينة عكا الساحلية احتوت على حى للدعارة عرف بالحى الأحمر(٢٥)، كما أن المؤرخ الصليبى جاك دى فترى Jacques de Vitry أشار إلى أن رجال الدين الصليبيين كانوا يؤجرون أماكن العبادة من أجل الدعارة لما تدر عليهم من ربح وفير(٢٦)، وهى شهادة تاريخية هامة نظراً لصدورها من جانب رجل دين صليبى ومؤرخ لمملكة بيت المقدس الصليبية خلال القرن الثالث عشر الميلادى/ السابع الهجرى.

كما نجد أن الجيوش الصليبية قدمت إلى المنطقة لتقاتل المسلمين، وجاءت السفن القادمة من أوروبا محملة بالبغايا والعاهرات؛ من أجل الترفيه عن الفرسان الصليبيين(٢٧) وهو كان بمثابة ظاهرة اجتماعية عامة، دعمتها فكرة تكون ذلك المجتمع من العديد من العناصر، والجنسيات المختلفة.

وتتأكد الصورة السابقة من خلال إشارات الرحالة الأوروبيين أنفسهم الذين زاروا مملكة بيت المقدس الصليبية خلال القرن الثاني عشر الميلادى/ القرن السادس الهجرى، حيث أشاروا إلى الإنحلال الجنسى فى المدن الساحلية الشامية الخاضعة لسيطرة الصليبيين كعكا على سبيل المثال(٢٨).

من ناحية أخرى، قدم أسامة بن منقذ رؤية هامة للنساء الصليبيات، تعكس نظرته الخبيرة، فقد أورد أمر جارية صليبية صارت للأمير شهاب الدين مالك بن سالم بن مالك صاحب قلعة جعبر، وأنجبت منه ولداً أسماه بدران، وصار ولياً لعهده، ومن بعد ذلك فرت من المسلمين إلى الصليبيين وارتضت أن تتزوج إسكافياً وذلك على الرغم من أن ابنها صاحب قلعة جعبر، ويشار له بالبنان. ويعلل أسامة بن منقذ ذلك الموقف بقوله أنهن «جنس ملعون لا يألفون لغير جنسهم»(٢٩). وهو رأى مهم صادر عن رجل خبير بالصليبيين.

وإذا نحينا ذلك جانباً، نجد أن ذلك الرحالة، يقدم لنا تصورات هامة بشأن سلوكيات الصليبيين، وقد أوضح فى إشارة هامة، أن الصليبيين القريبى العهد بالبلاد الأوروبية طباعهم جافة إذا ما قورنوا بالذين عاشروا المسلمين(٣٠)، كما أنه أوضح أن هناك من الصليبيين من تأثر بطباع المسلمين، من ذلك أمر الرجل الصليبى الذى لا يأكل من حطام بنى جلدته ولا يدخل داره لحم الخنزير(٣١)، وتتضح دقة أسامة بن منقذ من توضيحه أن المثال الأخير لا يقاس عليه لأنه أشبه شئ بالاستثناء، بيد أن روايته بصفة عامة تكشف لنا بجلاء أن الصليبيين ترقت طباعهم من خلال احتكاكهم بالمسلمين، وفى هذا رؤية هامة للسلوك الاجتماعى من جانب ذلك الرحالة الثاقب النظر القوى الملاحظة.

زد على ذلك، أن أسامة بن منقذ يقدم لنا تصوراً هاماً وموضوعياً لصفات الصليبيين، وقد وصفهم «بالشجاعة العظيمة»(٣٢)، والاحتراز فى الحرب(٣٣)، كما أنه

قرر أنه لا فضيلة لهم إلا الشجاعة، وأن الفرسان مقدمون بينهم[٣٤]. وفى تقديرى أن مثل تلك النصوص إنما تدل على الموضوعية الواضحة من جانب ذلك الرحالة الذى امتدح مثل تلك الصفات فى أعداء المسلمين فى وقت شهد عنف المواجهة بين عالمى الإسلام والمسيحية فى العصور الوسطى.

وكامتداد لتناول أسامة بن منقذ للطرف الآخر، وعمق تصوره له، نجده يكشف بجلاء عن الفارق الحضارى بين كل من المسلمين والصليبيين، ونجد ذلك واضحاً فى مجال العلوم الطبية؛ إذ أن الصليبيين طلبوا مساعدة المسلمين فى بعض الأمور التافهة كإزالة «دمل» بسيط[٣٥]، كما أشار إلى أمر القس الذى ملأ أنف أحد الفرسان بالشمع فمات، وعندما قالوا له لقد مات قال : نعم، إذ أنه كان يعانى ويتعذب فأراحه[٣٦]، وفى هذا أوضح دليل على تخلف أوضاع الصليبيين الطبية[٣٧]، إذا ما قورنوا بالمسلمين ومعارفهم فى هذا المجال.

من جهة أخرى، نجد ذلك الرحالة يقدم لنا تصورات هامة عن الجانب التنصيرى، وقد أورد أمر أحد الرجال اعتنق الإسلام وحسن إسلامه، وذلك من خلال قيامه بتأدية الصلوات المفروضة وصوم شهر رمضان، وتزوج ورزق بولدين، ومن بعد ذلك فر إلى أفامية وهى خاضعة للسيادة الصليبية، وتنصر هو وأولاده[٣٨].

أضف إلى ذلك، أنه أشار إلى أحد الصليبيين يقدم صورة السيدة مريم العذراء وهى تحمل السيد المسيح طفلا ويخاطب أحد المسلمين بأن هذا هو الله صغيراً، وقد استفاد أسامة بن منقذ من ذلك بقوله «تعالى الله عما يقول الكافرون علواً كبيراً»[٣٩].

وتجدر الإشارة أن إيراد ذلك الرحالة لمثل تلك الأحداث يدل على أنه أدرك خطورة البعد التنصيرى كأحد أهداف المشروع الصليبى الذى رغب فى تحويل مسلمى الشرق الأدنى إلى مسيحيين يدينون بالولاء لكنيسة روما وفق المذهب الكاثوليكى[٤٠]. مع

ملاحظة أن الرحالة المسلمين الذين زاروا بلاد الشام في ذلك العصر، حرصوا على إيـ
بعض الروايات الهامة عن ذلك الجانب التنصيرى. ولا مراء فى أن رواية أسامة
منقذ لها شأنها فى ذلك المجال مع ندرة ما ورد فى هذا الشأن فى المصادر التاريـ
العربية المعاصرة.

وبالإضافة إلى كافة الجوانب السابقة، نجد أن ذلك الرحالة قد قدم لنا تناولاً مهـ
للخريطة المذهبية والعقائدية التى كانت عليها بلاد الشام لاسيما المناطق الإسلامية،
ذلك تعرضه للاسماعيلية النزارية، كذلك تناوله للصوفية.

وفيما يتصل بالاسماعيلية النزارية، نجد أن ذلك الرحالة قد أورد أمر هجومهم ..
شيزر فى عام ٥٠٧هـ/ ١١١٣م. وأوضح مقاومة المدينة(٤١) لذلك الهجوم المضا..
من جانب الاسماعيلية الذين انتهزوا خروج الشيزريين خارج المدينة من أجل قضاء أ..
الأعياد، وبادروا بالهجوم عليها، إلا أن المقاومة الباسلة قضت على مخططهم من أ..
الاستيلاء على تلك المدينة الاستراتيجية الهامة فى شمال الشام.

مع ملاحظة أنه لم يقدم إشارات أخرى عن دورهم فى عمليات الاغتيالات
وجهوها نحو القيادات المسلمة السنية، وكذلك قلاع الدعوة الاسماعيلية فى بلاد الـ..
ومن ثم اقتصر تناوله فقط على تناول الهجوم الاسماعيلى على شيزر.

أما فيما يتصل بالصوفية، فنجد أن ذلك الرحالة، قد عبّر عن ظاهرة انتشار التصـ..
فى بلاد الشام فى ذلك العصر. وقد أورد أمر إثنين من المتصوفة، وهما الفنـدلا..
والحلحولى(٤٢)، وقيامهما بمواجهة الصليبيين المحاصرين لدمشق خلال الحملة الصـ..
الثانية فى عام ٥٤٣هـ/ ١١٤٣م. مع ملاحظة أن عصر ابن منقذ قد اعتقد فى ..
أولئك المتصوفة، وفى كراماتهم ولا أدل على ذلك من أنه نفسه أورد شيئاً منها،
تعرضه لأمر حسن الزاهد، الذى أعمى الله سبحانه وتعالى عيون الصليبيين، عن
بينما كان هلاكه لا ريب فيه(٤٣).

وهكذا أورد ذلك الرحالة أمر تلك الكرامات المتصلة بالصوفية، مع ملاحظة أن المصـادر التاريخية لذلك العصر تفيض بتناول ذلك الجانب لاسيما كتب الطبقات والتراجم والوفيات.

ومن ناحية أخرى، نجد أن أسامة بن منقذ قد ألقى الضوء على ما يتصل بفنون الصيد فى بلاد الشام خلال ذلك العصر، ويعتبر ذلك الجانب من أهم الجوانب التى تعرض لها من خلال تجربة شخصية وخبرة عريضة.

وفى هذا المجال أشار إلى الصيد بالبزاة[٤٤] فى شيزر، وغيرها من مدن الشام حينذاك، ومن المعروف أنه يعنى الصيد باستخدام الطيور المدربة على ذلك، مثل الصقور ونحوها، ولا نغفل أنه وجد هناك ما يعرف بالبيزرة، وهى فى الأصل كلمة فارسية عربت بازيار أى صاحب الباز. والبيزرة علم أطوار الطيور الجارحة[٤٥]، مثلما البيطرة علم الحيوان. ولا شك فى أن معرفة أسامة بن منقذ بالبيزرة كانت متسعة على نحو أوضحته بجلاء صفحات كتابه الاعتبار.

وقد أشار إلى كثرة الصيادين وكثرة البزاة حتى صارت لديهم فى شيزر من الكثرة كالدجاج[٤٦]، وأشار إلى بعض الأنواع النادرة من الباز مثل ذلك النوع المقرنص الأحمر العينين[٤٧]، والباز الأفرنجى الذى تم احضاره لبنى منقذ فى شيزر مكسر ريش الأجنحة والذنب[٤٨]، كذلك تعرض للشاهين[٤٩] الذى جمعه شواهين وشياهين، وكان على ثلاثة أنواع : شاهين، وفطامى، وانبقى[٥٠]، مع ملاحظة أن الشاهين نفسه من جنس الصقر.

ومن الملاحظ أن بنى منقذ فى شيزر، على الرغم من أنهم نالوا جانباً هاماً من التحضر فى جوانب حياتهم، إلا أنهم فضلوا أن يحيوا حياة البادية وأن يمارسوا فنون الصيد والقنص[٥١]، ووجدوا فى ذلك متعة كبيرة، كما هو جلى من خلال عرض أسامة بن منقذ نفسه.

وهكذا ألقت رحلات أسامة بن منقذ فى ربوع بلاد الشام الأضواء الساطعة على العديد من جوانب حياة المسلمين والصليبيين فى عصر المواجهة بين الإسلام والمسيحية ونعنى به عصر الحروب الصليبية، الأمر الذى جعل رحلته تحتل مكانتها الرفيعة من بين الرحلات التى وصلت إلينا من ذلك العصر.

الهوامش

(١) عن مصادر ومراجع ترجمة أسامة بن منقذ أنظر :

ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، حـ٢، تحقيق بدران، ط. دمشق ١٣٣٢هـ، ص٤٠٠؛ أسامة بن منقذ، المنازل والديار، حـ١، ط. بيروت ١٩٦٥م، ص «س» من المقدمة؛ البديع فى نقد الشعر، تحقيق أحمد بدوى وحامد عبدالحميد، ط. القاهرة ب-ت، ص ؛ ديوان أسامة بن منقذ، تحقيق أحمد أحمد بدوى وحامد عبدالمجيد، ط. بيروت ١٩٨٣م، ص٦-٣٩؛ ياقوت، معجم الأدباء، حـ٥، ص١٨٨، ابن كثير، البداية والنهاية، حـ١٢، ص٣١-٣٢؛ النعيمى، الدارس فى تاريخ المدارس، حـ١، تحقيق جعفر الحسنى، ط. دمشق ١٩٤٨م، ص٣٨٤؛ ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، حـ٥، ص٢٨٣؛ ابن العماد الحنبلى، شذرات الذهب، حـ٤، ص٢٧٩؛ حسن عباس، أسامة بن منقذ، حياته وشعره، ص٦٧-١٣١؛ أحمد كمال زكى، أسامة بن منقذ، ط. القاهرة ١٩٦٨م. فارس الفرسان، ط. القاهرة ١٩٧٤م؛ جمال الدين الألوسى، أسامة بن منقذ بطل الحروب الصليبية، ط. بغداد ١٩٦٧م، كردعلى «كتاب الاعتبار» مجلة المجمع العلمى العربى بدمشق، م (١٠)، حـ (٩) عام ١٩٣٠م، ص٧٧٢-٧٧٣؛ طاهر النعسانى، «أسامة بن منقذ» مجلة المجمع العلمى العربى بدمشق، م (١٠)، حـ ٤-٥، عام ١٩٣٠م، ص٢٣٠-٢٣٧، ٣٠٥-٣١٦؛ محمد أحمد حسين، أسامة بن منقذ، صفحة من تاريخ الحروب الصليبية، ط. القاهرة ١٩٤٦م؛ أحمد أحمد بدوى، الحياة الأدبية فى عصر الحروب الصليبية بمصر والشام، ط. القاهرة ب-ت، ص١٧١-١٧٥؛ محمد الجفال، أسامة بن منقذ حياته وشعره، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب، جامعة القاهرة؛ فيليب حتى، أسامة بن منقذ، مجلة المجمع العلمى بدمشق، م (٣)، حـ (١٠)، عام ١٩٣٠م، ص٥٩٦، شوقى ضيف، الترجمة الشخصية، ط. القاهرة، ص١٠٠.

Derembourg, Ousama Ibn Munkidh, Un Emir Syrien au premiere siecle des croisades, Vie de Ousama, Paris 1889.

(٢) شيزر، مدينة من مدن شمال الشام، تقع على بعد خمسة عشر ميلا إلى الشمال من حماة، وعندها توجد هضبة سماها مؤلفو العرب «عرف الديك»، ويلتف عندها نهر العاصى من جهات ثلاث، فهى أشبه شئ بشبه جزيرة من الناحية الجغرافية، وقد تم حفر خندق فى الصخر الواصل بين شبه الجزيرة والبر، وهناك شيدت قلعة حصينة كانت لها ثلاثة أبواب، وقد تأثرت شيزر بالزلزال

المدمر الذى وقع فى بلاد الشام فى عام ٥٥٢هـ/ ١١٥٧م. على نحو أدى إلى القضاء على الأسرة العربية الحاكمة فى شيزر، ونعنى بها أسرة بنى منقذ، بيد أن أسامة نجا من الموت لعدم وجوده بشيزر وقت وقوع ذلك الزلزال المدمر. عن شيزر والزلزال الذى أصابها أنظر :

اليعقوبى، كتاب البلدان، ص٣٢٤؛ الأصطخرى، مسالك الممالك، ص٦١؛ ابن القلانسى، ذى؛ تاريخ دمشق، ص٥٢٦؛ تقديم فيليب حتى لتحقيق كتاب الاعتبار؛ ابن قاضى شهبة، الكواكب الدرية فى السيرة النورية، ص١٥٣، ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، حـ٥، ص٣٢٥؛ السيوطى، كشف الصلصلة عن وصف الزلزلة، ص١٨٨.

Anonymous Syriac Chronicle, p. 302; Ruhricht, Geschichte des Kengreichs Jerusalem, p. 290, note (4); Tsugitako, The Syrian coastal Town of Jabala, its History and present situation, p. 47.

محمد محمد الشيخ، الإمارات العربية فى بلاد الشام فى القرنين ١١، ١٢م، ط. الاسكندرية ١٩٨٠م، ص٣٧١-٣٧٢؛ مولر، القلاع أيام الحروب الصليبية، ص٦٩.

(٣) أسامة بن منقذ، البديع فى الشعر، ص١.

(٤) نقولا زيادة، رواد الشرق العربى، ص٨٧.

(٥) عبدالرحمن حميدة، أعلام الجغرافيين العرب، ص٣٠٧.

ويلاحظ أن عبدالرحمن حميدة يقرر فى كتابه أن أسامة بن منقذ قد صاحب الخليفة الفاطمى الحافظ، وخلفه الظاهر، بيد أن هذا القول ينافى الواقع التاريخى لأمر يسير، ألا وهو أن الخليفة الحافظ قد حكم خلال الفترة من ٥٢٤-٥٤٤هـ/ ١١٣٠-١١٤٩م، أما الظاهر، فإنه لم يخلف الحافظ، إذ أنه حكم خلال الفترة من عام ٤١١-٤٢٧هـ/ ١٠٢٠-١٠٣٥م، وجاء عهده بعد الحاكم بأمر الله الذى حكم خلال المرحلة من ٣٨٦-٤١١هـ/ ٩٩٦-١٠٢٠م، ومعنى هذا أن قرناً من الزمان أو ما يزيد قد فصل بين عهدى الحافظ والظافر. عن إشارة عبدالرحمن حميدة، أنظر : أعلام الجغرافيين العرب، ص٣٠٧.

وعن تصحيح ذلك أنظر :

ابن حماد، أخبار ملوك بنى عبيد وسيرتهم، تحقيق التهامى نقرة وعبدالحليم عويس، ط. الرياض ب-ت، ص١٠٦، ١١٢ 'خوان مير، روضة الصفا فى سيرة الأنبياء والملوك والخلفاء، ت. أحمد عبدالقادر الشاذلى، ط. القاهرة ١٩٨٨م، ص٢٢٦، ٢٣٠ 'ستانلى لين بول، طبقات سلاطين الاسلام، ص ٦٩، زمباور، معجم الأسرات الحاكمة فى الاسلام، ت. زكى حسن وحسن محمود وسيده كاشف، ط. القاهرة ١٩٥١م، ص .

(٦) تقديم فيليب حتى لتحقيق الاعتبار.

(٧) تجدر الاشارة إلى أن كتاب الاعتبار، قد حققه دير نبرج وصدر عمله فى ليدن وباريس عام ١٨٨٤-١٨٨٦م، عن ذلك أنظر :

Ousama Ibn Munkidth, un Emir au Syrren au premier siecle des croisades (1095-1188), par Hartwig Derenbourg, Leiden- Paris 1884-1886.

ثم من بعد ذلك قام فيليب حتى، بتحقيق الكتاب، وصدر عمله فى برنستون بالولايات المتحدة الاميريكية فى عام ١٩٣٠م، ثم طبع الكتاب بتحقيق حتى مرة أخرى فى بيروت وذلك فى عام ١٩٨١م، وهى الطبعة التى اعتمدت عليها فى إعداد هذا الفصل.

وأخيراً قام بتحقيقه قاسم السامرائى، وصدر عمله فى الرياض بالمملكة العربية السعودية عام ١٩٨٧م.

ويلاحظ أن كتاب الاعتبار نال شهرة عالمية كبيرة، وترجم إلى العديد من اللغات الأوروبية. مثل الانجليزية، والألمانية، والروسية، والبولندية، والدنماركية، عن ذلك أنظر الترجمات الانجليزية :

The autobiography of Osama, Translated with introduction and notes by George Richard potter, London 1929.

An arab-Syrian gentleman and warrior in the period of the crusades, Memoirs of Usama Ibn Munqith Translated by philip Khuri Hitti, New York 1927.

الترجمات الألمانية :

Kitab Al-Itibar Ein Leben im Kampf gegen kreuzzitterheere, Aus dem Arabischen ubertrugen und bearbeiter von G. Rotter. Tubingen 1978.

Usama b. Munqudth Memoiren aus d. Arab. ubers v. Geo. Schumann, mit verw. v. H. Derenbourg, Insbruck 1905.

Die Erlebnisse des Syrischen Ritters Usama Ibn Munqid, Unterhaltsames und Belehrendes aus der zeit der Kreuzzuge, ubersetzt und herausgege ben von Holger preiss ler, (Munchen 1985).

الترجمات الروسية :

Usama Ibn Munkyz : Kniga nazidanija pere wod : N. Salier, Red, Wstupit, stat'ja I primec : 1. Ju Karackowskij, petersburg, Moskwa 1922.

الترجمات البولندية :

Kitab al. Ictibar Kniega pouczajacyth przykladow dzielo Usamy Ibn Munkidtha, Jan Reychman, Ossolineum 1973.

الترجمات الدنماركية :

De Laereige eksem plers bog (kitabu-1 Itibar) of Usama Ibn Munkids, Syrisk emir fra Korstogstiden, Ovesat I uddrag of ove chr. Krapup, Kobenhaven 1950.

عن ذلك أنظر : تحقيق قاسم السامرائي للاعتبار، ص٢٤٣-٢٤٤، علي عبدالله الدفاع، رواد علم الجغرافي، ص١٦٧-١٦٨.

(٨) عن مؤلفات أسامة بن منقذ، أنظر ما أورده المقريزي في مخطوطته المقفي، مكتبة جامعة ليدن برقم ١٤٥٣٣ شرقي، وقد نشر الورقة ١٤٠ أ من الجزء الثالث قاسم السامرائي في تحقيقه المشار إليه. وصح في ص٢٣٥-٢٣٦ من تحقيقه للاعتبار، بيد أنني أرى أن ما أورده المقريزي ليس كاملاً إذ أن هناك مؤلفات أخرى أوردها مؤرخون سابقون على المقريزي، ولم ترد في المقفي، ومن أمثلتها القلاع والحصون على سبيل المثال. وقد أورد أمره ابن خلكان، ويعد هذ الكتاب نادر في موضوعه، بيد أنه على ما يبدو من مؤلفات أسامة المفقودة، وفي حالة العثور على مخطوطته، فإنه يسد فراغاً كبيراً في مكتبة المصادر التاريخية العربية التي وصلت إلينا من عصر الصليبيات في بلاد الشام.

وأنظر كذلك : هشام عدره، قلعة شيزر والأمير الشاعر أسامة بن منقذ، المنهل، العدد (٥٠٧)، م (٥٥) صفر ١٤١٤هـ/ يوليو - أغسطس ١٩٩٣م، ص١٥٦-١٥٧.

(٩) أسامة بن منقذ، الاعتبار، ص١٧٤.

(١٠) نفسه، نفس المصدر، ص١٧٥.

(١١) من أمثلة ذلك ولم دي بور William of Bures, Guillaume de Bores.

نفسه، نفس المصدر، ص١٧٦.

(١٢) نفسه، نفس المصدر، ص١٦٠.

(١٣) خلف بن ملاعب، هو خلف بن ملاعب الأشهبي سيف الدولة، كان من قطاع الطرق، وقد وجد أحد الحصون الواقعة بين حلب، وسلمية، عرف باسمه، وقد أخضع حمص وأفامية، وقد حاربه السلطان السلجوقي ملكشاه وتمكن من أسره، وفيما بعد أطلق سراحه على يد خاتون زوجه السلطان، وقد هاجمه الباطنية وتمكنوا من قتله وذلك في عام ٤٩٩هـ/ ١١٠٥م. عن خلف بن ملاعب واغتياله على أيدي الباطنية أنظر :

ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص١٨٦، ١٨٨؛ ابن العديم، ترجمة خلف بن ملاعب من بغية الطلب

Lewis, Three Biographies from Kamal Ad-Din", Melanes Füad koprülü, Istanbul 1953, pp. 325-329.

زبدة الحلب، حـ٢، ص١٥١-١٥٢؛ ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، حـ٥، ص١٩٢؛ السيد العزاوى، فرقة النزارية، ص١٠٧.

(١٤) أسامة بن منقذ، المصدر السابق، ص١٦٣.

(١٥) نفسه، نفس المصدر، ص١٦٥-١٦٦.

(١٦) نفسه، نفس المصدر، ص١٦٠.

(١٧) نفسه، نفس المصدر، ص١٥٩.

(١٨) نفسه، نفس المصدر، ص١٦٠.

(١٩) نفسه، نفس المصدر، ص١٩٢-١٩٣.

(٢٠) نفسه، نفس المصدر، ص١٥٨.

(٢١) نفسه، نفس المصدر، ص١٦٢

(٢٢) نفسه، نفس المصدر، ص٢١١.

(٢٣) نفسه، نفس المصدر، ص١٧٤.

(٢٤) نفسه، نفس المصدر والصفحة.

(٢٥) براور، عالم الصليبيين، ت. محمد خليفة وقاسم عبده قاسم، ط. القاهرة ١٩٨١م، ص٢٢١.

(٢٦) Jacques de Vitry, p. 64.

(٢٧) العماد الأصفهانى، المصدر السابق، ط. القاهرة ب-ت، ص١٧٠؛ ولمزيد من الإشارات عن الانحلال الجنسى لدى الصليبيين أنظر ؛ حسان حلاق، العلاقات الحضارية بين الشرق والغرب فى العصور الوسطى، ط. بيروت ١٩٨٦م، ص١٩٥؛ زكى نقاش، العلاقات الاجتماعية والثقافية والاقتصادية بين العرب والافرنج خلال الحروب الصليبية، ط. بيروت ١٩٥٨م، ص٣٣؛ جمعة الجندى، حياة الفرنج ونظمهم فى الشام خلال القرنين الثانى عشر والثالث عشر، دراسة تطبيقية على مملكة بيت المقدس، رسالة دكتوراه غير منشورة، كلية الآداب، جامعة عين شمس عام ١٩٨٥م، ص٢٩٩-٣٠٠؛ حسين أحمد أمين، الحروب الصليبية، ص١١١؛ تيسير بن موسى، نظرة عربية على غزوات الأفرنج من بداية الحروب الصليبية حتى وفاة نور الدين، ط. طرابلس ب-ت، ص٩٧.

(٢٨) Joannes phocas, A brief Description of the Holy land, p.11.

(٢٩) أسامة بن منقذ، المصدر السابق، ص١٦٦-١٦٧.

(٣٠) نفسه، نفس المصدر، ص١٧٢.

(٣١) نفسه، نفس المصدر، ص١٨٠.

(٣٢) نفسه، نفس المصدر، ص١٧٦.

وتجدر الإشارة إلى أن من المؤرخين الصليبيين الذين عاصروا الحملة الصليبية الأولى، من أشار إلى نفس الصفات التى امتدح بها أسامة بن منقذ الصليبيين، ولكنها تطلق من جانب أولئك لمؤرخين على المسلمين، ومن أمثلتهم المؤرخ المجهول، الذى وصف السلاجقة بأنهم من أشجع المقاتلين، بل أنه تمني لو أنهم كانوا مسيحيين. عن ذلك أنظر :

Anonymous, The deeds of The Franks, p. 21; Hill, "The christian view of the Muslims at the Time of the First crusade", in, the eastern mediterranean Lands in the period of the crusades, ed. by P.M. Holt, London 1977, p. 2.

(٣٣) أسامة بن منقذ، المصدر السابق، ص٢١.

(٣٤) نفسه، نفس المصدر، ص٨٣.

(٣٥) نفسه، نفس المصدر، ص١٧٠.

(٣٦) نفسه، نفس المصدر، ص١٧٦-١٧٧.

(٣٧) عن ذلك أنظر : John of Wurzburg, p. 44.

ويلاحظ أن ذلك الرحالة الألمانى؛ الذى زار مملكة بيت المقدس الصليبية، خلال الرحلة من عام ١١٦٠-١١٧٠م/ ٥٥٥-٥٦٥هـ على الأرجح، قد أشار إلى أنه فى مستشفى الاسبتارية فى بيت المقدس، يموت يومياً نحو خمسين شخصاً، وهى شهادة من رحالة معاصر لتلك المرحلة، تعكس أن الوسائل العلاجية فى ذلك الوقت لدى الصليبيين، حتى فى المستشفيات، كانت عاجزة عن تقليل أرقام الوفيات، بحيث بلغت ذلك المعدل السابق.

أنظر أيضاً إشارات هامة لدى :

Woodings, "The Medical resources and practice of the Crusader states in Syria and palestine (1096-1192), M.H., Vol. XV, No. 3, July 1971, p .

كامل حسين، فى الطب والأقرباذين، ضمن كتاب أثر العرب والاسلام فى النهضة الأوروبية، ط. القاهرة ١٩٧٠م، ص٢٨٥؛ سعيد عاشور، المدينة الاسلامية وأثرها فى النهضة الأوروبية، ط. القاهرة ١٩٦٧م، ص١٤٧؛ زكى نقاش، المرجع السابق، ص٢٠٦؛ محمود الحويرى، الأوضاع الحضارية فى بلاد الشام فى القرنين ١٢، ١٣م، ط. القاهرة ١٩٧٩م، ص٢٣١؛ العروسى الطوى، الحروب الصليبية فى المشرق والمغرب، ط. بيروت ١٩٨٢م، ص٧٥؛

نقولا زيادة، سوريا زمن الصليبيين، المقتطف، يوبو ١٩٢٨م، ص٢٠٠؛ ادوارد براون، الطب العربى، ت. داود سلمان على، ط. بغداد ١٩٨٦م. ص٦٨؛ شفيق جاسر، القدس تحت الحكم الصليبى ودور صلاح الدين فى تحريرها، ط. الرياض ١٩٨٩م، ص١٢٢.

(٣٨) أسامة بن منقذ، المصدر السابق، ص١٦٧.

(٣٩) نفسه، نفس المصدر، ص١٧٣.

(٤٠) جوزيف نسيم يوسف، العرب والروم واللاتين فى الحرب الصليبية الأولى، ط. بيروت ١٩٨٣م، ص٧٠.

(٤١) أسامة بن منقذ، المصدر السابق، ص١٥٨-١٦٠. وعن هجوم الاسماعيلية على شيزر أنظر :

ابن القلانسى، ذيل تاريخ دمشق، ص١٨٩، العظيمى، تاريخه، تحقيق على سويم، ط. أنقرة ١٩٨٨م، ص٣٢؛ ابن الأثير، الكامل، حـ١٠، ص٢٢٥؛ ابن العديم، زبدة الحلب، حـ٢، ص١٥١؛ ابن الوردى، تاريخه، حـ٢، ص. القاهرة ١٨٦٨م، ص١٩؛ سعيد عاشور، أضواء جديدة على الحروب الصليبية، ط. القاهرة ١٩٦٤م، ص٩٧؛ مسفر سالم الغامدى، الجهاد ضد الصليبيين فى الشرق الاسلامى قبل قيام الدولة الأيوبية فى مصر (٤٩١-٥٦٩هـ/ ١٠٩٧-١١٧٣م)، ط. جدة ١٩٨٦م، ص٦٠؛ محمد مؤنس أحمد عوض، المؤرخ الحلبى العظيمى (ت ٥٥٨هـ/ ١١٦٣م) حياته، ومنهجه فى الكتابة التاريخية عن بلاد الشام فى عصر الحروب الصليبية، سلسلة دراسات عن الشرق الأوسط، مركز بحوث الشرق الأوسط، جامعة عين شمس عام ١٩٩٣م، ص١٩.

(٤٢) أسامة بن منقذ، المصدر السابق، ص١٢٢. وعن دور الفندلاوى والحلحولى أنظر :

ابن القلانسى، المصدر السابق، ص٤٦٤؛ ابن الأثير، المصدر السابق، حـ١١، ص١٢٩-١٣٠؛ الباهر، ص٥٩؛ ابن خلكان، المصدر السابق، حـ٢، ص٤٥٢؛ ابن تغرى بردى، المصدر السابق، حـ٥، ص٢٨٢؛ ابن العماد الحنبلى، المصدر السابق، حـ٤، ص١٢٦؛ العدوى، الزيارات، تحقيق صلاح الدين المنجد، ط. دمشق ١٩٥٦م، ص٦٢-٦٣؛ فايد حماد عاشور، جهاد المسلمين فى الحروب الصليبية، ص٢١٥، على أحمد، الأندلسيون والمغاربة فى بلاد الشام من نهاية القرن الخامس وحتى نهاية القرن التاسع، ط. دمشق ١٩٨٩م، ص٣٠٣.

(٤٣) أسامة بن منقذ، المصدر السابق، ص١١٩. أنظر أيضاً :

العصا، تحقيق عبدالسلام هارون، فى نوادر المخطوطات، المجموعة الثانية، ط. القاهرة ١٩٥١م، ص١٩٧-١٩٨.

(٤٤) أسامة بن منقذ، الاعتبار، ص٢٥٦.

(٤٥) سعاد ماهر، البيزرة فى التاريخ والآثار، الدارة، العدد الأول، السنة (٣)، ربيع الأول ١٢٩٧هـ/ فراير ١٩٧٧م، ص١١٤. وفى هذا المجال أنظر هذه المخطوطة الهامة ؛ الغطريف بن قدامة، كتاب ضوارى الطير، مخطوط أحمد الثالث، رقم (٢٠٩٩)، مكتبة طوب قابوسراى، استانبول، تصوير معهد تاريخ العلوم العربية والاسلامية، فرانكفورت ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م.

(٤٦) أسامة بن منقذ، الاعتبار، ص٢٥٧.

(٤٧) نفسه، نفس المصدر، ص٢٦٨.

(٤٨) نفسه، نفس المصدر، ص٢٦٩.

(٤٩) نفسه، نفس المصدر، ص٢٧٠.

(٥٠) سعاد ماهر، المرجع السابق، ص١٠٤.

ويلاحظ أن الشواهين أو الشياهين، ومفردها شاهين، وهو طائر جارح من فصيلة الصقريات ويقابل كلند Falco أو Falcon، ويمثله الشاهين الزوروبى أو Falco Pereyrinus، وهو ليس عربى، ولكن تكلمت به العرب كما يلاحظ الدميرى، والشاهين له ثلاثة أنواع، شاهين وقطامى وانيقى،وهو من جنس الصقر، وحركته تكون من العلو إلى أسفل بصورة شديدة، ولذا فإنه ينقض على فريسته انقضاضاً دونما تحويم، وعل ذلك من المحتمل أن يضرب نفسه بالأرض فيموت خاصة إذا ما ارتطم بصخر من الصخور، ويقال أن الشاهين أسرع الجوارح كلها، وأشجعها، وأخفها، وأحسنها إقبالاً وإدباراً، ويذكر الباحثون عدة أنواع منه مثل الشاهين العراقى، والسايبيرى، والمغربى، والهندى وغيرها. عن الشاهين أنظر :

القزوينى، عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات، ط. القاهرة ب-ت، ص٣٦٤ ؛ الدميرى، حياة الحيوان الكبرى، ط. القاهرة ١٣٦٧هـ، ص٤٨-٤٩ ؛ الغطريف بن قدامة، المخطوط السابق، ورقة (٣٦)، الزبيدى، انتهاز الفرص فى الصيد والقنص، تحقيق عبدالله الحبشى، ط. لندن ١٩٨٥م، ص١٣٢ ؛ عزيز العلى العزى، الطير فى حياة الحيوان للدميرى، ط. بغداد ١٩٨٦م، ص١٢٩، حاشية (٢).

(٥١) سعيد عاشور، المجتمع الاسلامى فى بلاد الشام فى عصر الحروب الصليبية، ضمن كتاب بحوث ودراسات فى تاريخ العصور الوسطى، جامعة بيروت العربية، ط. بيروت ١٩٧٧م، ص٤٤.

٣ - السائح الهروى

(ت ٦١١هـ/ ١٢١٥م)

يتصدى هذا الفصل بالدراسة لأحد الرحالة المسلمين الذين زاروا بلاد الشام فى عصر الحروب الصليبية، ونعنى به السائح الهروى[١] (ت ٦١١هـ/ ١٢١٥م)، ويتعرض لأهم ما ورد فى رحلته عن المناطق الإسلامية وكذلك الصليبية مع ملاحظة غلبة الطابع الدينى على ما ألفه في هذا الصدد على نحو جعل من كتاباته فى هذا المجال ذات محدودية معينة لا نجدها فى كتابات الرحالة المسلمين الذين زاروا بلاد الشام فى تلك المرحلة الهامة، والفعالة من تاريخها.

والهروى؛ هو أبو الحسن على بن أبى بكر بن على الهروى الأصل، الموصلى المولد[٢]، ولا نعرف تفاصيل حياته من قبل أن يشتهر بالرحلة والأسفار، ولكن على ما يبدو أنه حقق قسطاً وافراً من العلم، وقد وصف بأنه كانت له معرفة بعلم السيمياء[٣]، وإن لم يكن ذلك هو المجال الوحيد لتفوقه؛ إذ أن له مؤلفات أخرى تدل على أنه كان ذا باع كبير فى مجال الحيل الحربية، والجغرافيا، والرحلات، والآثار، وغيرها من العلوم والمعارف.

وقد عرف الهروى باتساع نطاق رحلاته، وأسفاره، حتى أنه طاف أنحاء المشرق الإسلامى، وذهب إلى الهند، والقسطنطينية، والمغرب، وصقلية، والعديد من جزائر البحر المتوسط[٤]، وقد وجدت فيه صفة مميزة وهى؛ حب الترحال والأسفار، ثم كتابة اسمه على الآثار التى يزورها[٥]، ويبدو أنه رغب من وراء ذلك أن يخلد اسمه من بعد وفاته على اعتبار أن الأشخاص يرحلون وتبقى الآثار شاهدة عليهم حتى بعد رحيلهم.

ولا نزاع فى أن كثرة أسفاره بمثل تلك الصورة قد أدت إلى أن أطلق عليه معاصروه لقب السائح الهروى ومعنى هذا أننا أمام رحالة محترف باعتراف معاصريه، ولا شك فى أن ترحاله المتسع بمثل هذه الصورة، قد أفاده بالتأكيد عندما ألف مؤلفاته المتعلقة بالرحلة.

ومنطقى أن نجد لمثل ذلك الرجل العديد من المؤلفات، التى تعكس تكوينه العلمى المتعدد من ناحية، وموسوعية علماء العصر من ناحية أخرى، وفى هذا المجال نعرف أن الهروى قد ألف الإشارات إلى معرفة الزيارات(٦) – وهو أساس دراستنا له فى هذا الفصل – ثم التذكرة الهروية فى الحيل الحربية(٧)، وكذلك الخطب الهروية، وكتاب الأصول ثم منازل الأرض ذات الطول والعرض، وأيضاً كتاب الآثار والعجائب، والأصنام(٨).

وتجدر الإشارة إلى أن الهروى وفد على القسطنطينية(٩)، عاصمة الامبراطورية البيزنطية، وذلك فى عهد الامبراطور البيزنطى عمانويل كومنينوس Manuel Comnenus (١١٤٥-١١٨٠م/ ٥٤٠-٥٧٦هـ)(١٠)، ثم من بعد ذلك ارتحل إلى مدينة دمشق حاضرة الشام الكبرى وذلك فى عام ٥٦٨هـ/ ١١٧٢م. وفى هذا المجال، يذكر إثنان من الباحثين القديرين فى مجال الرحلات الإسلامية فى العصور الوسطى، أن الهروى دخل دمشق فى العام المذكور «وذلك قبل أن يستعيدها صلاح الدين الأيوبى من يد الفرنجة»(١١)، غير أن ذلك القول لا ينطبق على الحقيقة التاريخية فى شئ لأمر يسير وهو أن الصليبيين لم يتمكنوا على مدى القرنين ٦، ٧هـ/ ١٢، ١٣م من دخول مدينة دمشق، بل إنه خلال الحملة الصليبية الثانية التى حاصرتها حصاراً شديداً فشلت جهودهم فى إسقاطها والمنطق يدعو إلى الاعتقاد بأن الهروى دخل المدينة المذكورة فى عهد الملك العادل نور الدين محمود الذى توفى فى عام ٥٧٠هـ/ ١١٧٤م، وكان صلاح الدين الأيوبى فى ذلك الوقت فى مصر نائباً له بعد أن اسقط الخلافة الفاطمية فى عام ٥٦٧هـ/ ١١٧١م.

مهما يكن من أمر، فإن الهروى قد قضى أيامه الأخيرة فى مدينة حلب – حاضرة الشام الشمالية الهامة – حيث احتضنه هناك الملك الظاهر بن صلاح الدين الأيوبى الذى قربه إليه لمعرفته بالسيمياء، مثلما قرب إليه من قبل الفيلسوف السهروردى الحلبى المقتول (ت ٥٨٧هـ/ ١١٩١م)(١٢) لمعرفته بنفس العلم، وقد لقى لدى الظاهر تقديراً كبيراً ولا أدل على ذلك من أنه بنى له مدرسة خاصة به هى المدرسة الهروية بظاهر حلب(١٣)، وفيما بعد دفن فيها الهروى، وقد زارها ابن خلكان، وأورد لنا تلك الإشارة الهامة، وتعرف أن الرجل توفى فى عام ٦١١هـ/ ١٢١٤م(١٤).

والكتاب الأساسى الذى يعكس جانباً هاماً من ترحال الهروى يتمثل فى صورة «الاشــارات إلى أماكن الزيارات» وقد تناول فيه كافة المنــاطـق والأماكن التى هى موضع زيارة الأهلين فى عصره، وفى هذا المجال أورد عدداً كبيراً من المزارات والمساجد ودور العبادة. ويلاحظ أنه كتب كتابه هذا اعتماداً على ذاكرته القوية، وذلك بعد أن فقدت كتبه نتيجة سـرقة لصوص الصليبيين التابعين للملك الصليبى ريتشـارد الأول Richard I (١١٨٩-١١٩٩م/ ٥٨٥-٥٩٥هــ)، وقـد حـدث ذلـك فـى جـنـوب فلسطين فى منطقة الداروم على ماء الخويلفه(١٥) وقد أورد الهروى هذه الحادثة فى عبارات تفيض ألماً وحسرة.

ومن الملاحظ أن اعتماد الهروى على ذاكرته فى تسجيل ما شاهده فى كتابه الإشارات فى معرفة الزيارات تجعله منفرداً بين الرحالة المسلمين الذين زاروا بلاد الشام فى عصر الحروب الصليبية، إذ أننا لم نجد فى أى رحلة من الرحلات التى ألفوها إشارة واحدة إلى مثل تلك المأساة الشخصية، ويبدو أن الكل سجل أسفاره أولاً بأول من أجل أن يستعين بها عندما يقدم بتسجيل رحلته، أما الهروى فقد تميز بتلك الحادثة، ويبدو أنه أجهد نفسه تماماً فى تذكر أسماء المواقع وأماكنها، ومن الممكن أن نستنتج ناحية شخصية عن ذلك الرحالة ونعنى بها قوة ذاكرته، على نحو جعله يتذكر كافة تلك الأماكن بمثل تلك الدقة العجيبة.

وكتاب الإشارات إلى معرفة الزيارات يمكن أن يوصف أنه كتاب فى السياحة الدينية كما وصفه أحد الباحثين القديرين(١٦)، ولكن من الضرورى أن نتناول الدوافع التى دفعت الهروى إلى تأليفه لذلك الكتاب، ومن الملاحظ أنها دوافع شخصية مرتبطة بطبيعة العصر نفسه عصر الصراع بين عالمى الإسلام والمسيحية، ويمكن إجمالها فى الآتى :

أولاً : رغبة الهروى فى أن ينقل لمعاصريه نتاج ترحاله إلى مناطق متعددة، خاصة أنه وصف بأنه لم يترك براً ولا بحراً ولا سهلاً ولا جبلاً من الأماكن التى يمكن أن يقصدها المرء ويراها إلا رآه(١٧)، وحيث أن زكاة العلم نشره، فقد رأينا الهروى يسعى إلي تأليف ذلك الكتاب؛ ومن المنطقي أن هناك دوافع دينية دفعته شخصياً إلى نقل رحلاته وأسفاره خاصة فى المزارات الدينية إلى معاصريه.

ثانياً : حيث أن مؤلفات الهروى، نجد فيها أحدها يتناول الآثار، فمن المنطقى تصور أن الهروى هدف من وراء كتابه أن يقدم وصفاً أثرياً لكافة المزارات والمساجد والمشاهد التى مر بها خاصة فى بلاد الشام؛ وهو ما يعنينا فى موضوع فصلنا هذا.

ثالثاً : إن دوافع الهروى لا يمكن أن نفصلها بأى حال من الأحوال عن دوافع العصر ذاته، لقد كان عصر الصراع بين المسلمين والصليبيين، وأدى الغزو الصليبى للمنطقة ونجاح الغزاة فى زرع كيانهم الدخيل فى صورة إمارات الرها وأنطاكية وبيت المقدس وطرابلس، إلى زيادة التمسك بالمظاهر الدينية لدى المسلمين. ومن ثم تعاظمت ظاهرة التصوف واكبار المتصوفة والأولياء بنفس الصورة التى رأيناها فى رحلة – ابن جبير – ومن ثم فإن العصر نفسه الذى عاش فيه الهروى وجدنا فيه الظاهرة الدينية هى التى تظهر على السطح، ولاشك فى أن كتابه ما هو إلا تأكيد لذلك الموقف، وجزء من المحافظة على الهوية فى مواجهة رغبة الصليبيين فى القضاء على هويتها الإسلامية.

وهذا الوضع السابق، يفسر لنا بالضرورة ضخامة التراث الدينى الذى وصل إلينا من ذلك العصر، لقد كانت هناك استجابة إسلامية للتحدى الصليبى أخذت أشكالا متعددة سياسية وحربية وعلمية، من خلال إطار عام للمواجهة الشاملة ضد الصليبيين.

ومن ناحية أخرى، من الضرورى تناول ناحية هامة، ونعنى بها المصادر التى استقى من خلالها الهروى كتابه الإشارات إلى معرفة الزيارات، والواقع أن مطالعة ما ألفه تكشف لنا بجلاء أنه اعتمد على مشاهداته الشخصية فى تأليف كتابه، فهو يقدم فى المقام الأول رؤية شاهد عيان معاصر ورحالة خبير، ولا جدال فى أن ذلك يعطى أهمية خاصة لكتابه، على الرغم من نطاقه المحدد من خلال المزارات فقط، وعدم تقديم تصور سياسى واقتصادى واجتماعى فى نطاق الرحلة، مثلما وجدناه لدى الرحالة ابن جبير على سبيل المثال.

مهما يكن من أمر، فإن الهروى يفيدنا فى ثلاث نواحى، ونعنى بها : الناحية السياسية والحربية، ثم السياحة العلاجية، وكذلك السياحة الدينية.

أما الناحية السياسية والحربية، فنجدها من خلال إشارة خاصة بمعركة حطين عام ٥٨٣هـ/ ١١٨٧م، إذ أن الهروى عندما مر بمنطقة حطين ذكر أنه يقال لها أيضاً حطيم وقد أشار إلى أن فيها جرت المعركة المشهورة «وتم أسر ملوك الفرنج وتم فتح بيت المقدس، والساحل، والعواصم»(١٨).

ومن الواضح من خلال نصوص رحلة الهروى، فى هذه الجزئية، المعنويات المرتفعة من خلال انتصار المسلمين، بعكس ما نجده لدى السمعانى عندما يمر بالمناطق الإسلامية الخاضعة للاحتلال الصليبى، حيث نجد لمسة الانكسار، والمرارة، من خلال نصوص المرحلة ذاتها.

ومن جهة أخرى، وجدناه عندما مر بعكا يذكر لنا أنه ببرج عكا خلق كثير تم

استشهادهم في المعارك والحروب المشهورة على عكا من عام ٥٨٥هـ/ ١١٨٩م إلى عام ٥٨٧هـ/ ١١٩١م[١٩]، ويقرر ما نصه «لم تبطل الحروب والرباط ليلاً ونهاراً في هذه المدة»[٢٠]، وهذه الرواية تفيد في توضيح حجم جهاد المسلمين خلال الحملة الصليبية الثالثة وأحداث حصار مدينة عكا الذى استمر عامين كاملين، وربما كان يقصد الهروى من روايته السابقة أن يشير إلى أولئك الأبطال المسلمين الذين مثلوا حامية عكا، وظلوا يدافعون عندها طوال تلك المرحلة الزمنية الطويلة، وقد قام الملك الإنجليزى ريتشارد الأول بقتل أفراد الحامية البالغ عددهم حوالى ٢٦٠٠ رجل في مذبحة كبيرة[٢١]، ومن المحتمل أن جثث هؤلاء الأبطال كانت مدفونة في المقابر التى شاهدها الهروى في مرج عكا في أعقاب تلك المذبحة البشعة.

ولا مراء، في أن إشارة الهروى لها جانبها الكبير من الأهمية، لأنها تعكس شهادة تاريخية هامة دالة على التصميمات البشرية التى قدمها المسلمون من أجل الدفاع عن الإسلام وعن وجودهم في مواجهة واحدة من أكبر الحملات الصليبية التى قدمت إلى المنطقة العربية. وهى من ناحية أخرى تعكس، نوعية القيادة الإسلامية حينذاك ممائلة في السلطان الناصر صلاح الدين الأيوبى وصحبه الذين قادوا معركة طويلة الأمد لمدة عامين يمكن أن توصف بمعركة عكا، لم تتوقف أحداثها ليلاً ونهاراً، على حد قول الهروى.

أما إشاراته بخصوص السياحة العلاجية، فنجدها متمثلة في طبرية، وهى منطقة كانت تكثر بها العيون المائية الحارة التى تتكفل بعلاج الأمراض، ولدينا وصف هام يقدمه الهروى، فيقرر أن حمام طبرية يعتبر من عجائب الدنيا، ويخص بالذكر موضعاً يسمى الحسينية[٢٢] ونجد هناك إثنى عشر عيناً كل عين متخصصة في علاج مرض من الأمراض، ويأتى المرض مثل أصحاب العاهات والزمنى وغيرهم[٢٣] إلى تلك العيون العلاجية من أجل الاستشفاء، ويلاحظ أن تلك المميزات العلاجية لمياه طبرية قد أدت إلى كثرة الوافدين على المنطقة، وبالطبع من الممكن افتراض أنهم لم يكونوا من عناصر

المسيحيين فقط بل والمسلمين واليهود كذلك من أجل العلاج، هذا بالإضافة إلى المزارات الدينية الموجودة أصلا فى طبرية.

وتجدر الإشارة إلى أن تلك الخاصية العلاجية لطبرية سوف تجدها محط اهتمام الرحالة المسلمين الذين وفدوا على بلاد الشام فى عصر الحروب الصليبية، وعلى مدى القرنين ٦، ٧هـ/ ١٢، ١٣م. وبالذات نبع الحسينية الذى خصه بالذكر الهروى.

وتعكس رواية الهروى السابقة، ناحية هامة ألا وهى أن وسائل العلاج فى ذلك العصر لم تكن فقط متصلة بالأدوية المفردة والأدوية المركبة – وفق اصطلاحات الأطباء المسلمين فى العصور الوسطى – بل أنها امتدت لتشمل العيون والينابيع ذات التأثير العلاجى.

ومن الملاحظ أن تكرار تردد أمر الفعالية العلاجية لمثل تملك المياه من جانب الهروى وغيره من الرحالة المسلمين له دلالة من حيث أنه يؤكد استمرار فعاليتها من ناحية، وشهادة الرحالة الوافدين على بلاد الشام وأتوا من خارجه، شهادتهم لتلك المياه بمقدرتها العلاجية بإذن الله تبارك وتعالى.

أما إذا ما اتجهنا إلى المزارات التى أوردها فى كتابه نجد أن منها مزارات إسلامية، وأخرى مسيحية، ويهودية، ويلاحظ أن أغلب ما ذكره الهروى يتصل بالمزارات الإسلامية، وأقلها ما كان خاصاً بالمزارات المسيحية، واليهودية.

والجدير بالذكر، أن الرحالة اليهود والمسيحيين كتبوا مؤلفات خاصة عن مزاراتهم المقدسة، ومن أمثلة أولئك الرحالة الذين زاروا فلسطين على نحو خاص خلال نفس القرن الذى زار فيه الهروى بلاد الشام، نذكر سايولف Saewulf الذى قام برحلته ما بين عامى ١١٠٢-١١٠٣م، ثم دانيال Daniel (١١٠٦-١١٧٠م)، وايو فروزين Euphrosine (١١٦٢-١١٧٢م)، بنيامين التطيلى Benjamin of Tudelo

(١١٦٢–١١٧٠م)، وبثودريش Theaderich (١١٧١–١١٧٣م)، وبتاحيا أوف راتسبون Petachia of Ratisbonn (١١٧٤–١١٨٧م)، ثم يوحنا فوكاس John Phocas (١١٨٥م)[٢٤]، ومن الملاحظ أن كافة أولئك الرحالة سواء المسيحيين منهم أو اليهود تناولوا فى كافة رحلاتهم المزارات التى على الحاج اليهودى أو المسيحى أن يقوم بزياراتها.

ومعنى هذا، أن هناك تشابهاً فى أشكال الكتابة الخاصة بالرحلات فى ذلك العصر سواء لدى الجانب الإسلامى، أو الجانب المسيحى واليهودى، من خلال مؤلفات الرحالة بصفة عامة، ومن خلال تناول المزارات المقدسة لدى أتباع كل دين من الأديان السماوية. ويتضح ذلك بجلاء من خلال مقارنة ما أورده الهروى فى كتابه وكذلك ما ورد لدى مؤلفات الرحالة اليهود والمسيحيين خلال تلك المرحلة.

وبالنسبة للمزارات الإسلامية التى أوردها الهروى نجد أنه أوضح أمر المسجد الأقصى[٢٥]، وفيه الصخرة وقد فصل فى الإشارة إليه بالمقارنة بالمزارات الدينية الأخرى، ومن الطبيعى ملاحظة أن ذلك المسجد احتل مكانة خاصة لدى المسلمين خاصة فى عصر الصراع بين المسلمين والصليبيين ونعنى به عصر الحروب الصليبية، تشهد على ذلك كتب الفضائل التى تناولت فضائل المسجد الأقصى خلال القرن السادس الهجرى/ الثانى عشر الميلادى وحتى فيما بعد ذلك القرن[٢٦].

ومن جهة أخرى، أشار الهروى إلى أنه فى حلب يوجد مشهد الإمام على بن أبى طالب[٢٧] – كرم الله وجهه – كما أن بها قبر عبدالله الأنصارى[٢٨]، وفى حمص ذكر وجود مشهد للإمام على أيضاً[٢٩]، كما أن بها دار خالد بن الوليد[٣٠] رضى الله عنه.

ومن الملاحظ أن المناطق التى ذكر الهروى وجود مشاهد فيها للإمام على كانت بصفة عامة، وعلى مدى عصر الحروب الصليبية، من المناطق التى شهدت تركزاً للوجود

الشيعي بها. مع وجود الكيانات السنية بالطبع إلى جوارها وبكثافة عديدة فاقتها بمراحل.

أضف إلى ذلك؛ أنه ذكر وجود قبر أبي عبيدة بن الجراح في طبرية[٣١]، كما أنه أشار إلى وجود قبور متعددة للصالحين والتابعين في وادي جهنم شرق بيت المقدس[٣٢].

أما المزارات المقدسة بالنسبة للمسيحيين، فإنه يوضحها في صورة كنيسة القيامة[٣٣]، وقد عبر عن مكانتها السامية في نفوسهم من خلال قوله «وأما زيارات الملة المسيحية فأعظمها كنيسة القيامة»[٣٤]، كما أنه أشار إلى كنائس أخرى أقل مكانة مثل كنيسة السليق وكنيسة صهيون[٣٥].

وقد ذكر إشارات موجزة عن كل كنيسة، مع ملاحظة أن مؤلفات الرحالة الأوروبيين السالفي الذكر تفيض وبطبيعة الحال بتناول تلك الكنائس ومكانتها الدينية لدى المسيحيين كما أن الإشارت التي قدمها من قبل الإدريسي في هذا الصدد تعد أكثر تفصيلاً إذا ما قورنت بما قدمه الهروي.

أما المزارات اليهودية فنجد أنه يوضح أنه في نابلس يوجد الجبل الذي يعتقد فيه اليهود ويسمونه كريزم وقد أشار أنه قد ورد ذكره في التوراة[٣٦]. وبصفة عامة فإن اليهود لهم اعتقاد كبير فيه لتصورهم أن الذبيح كان عليه وعندهم أن الذبيح إسحاق، كما أنه أشار إلى أن قبر يوشع بن نون، فتى موسى عليه السلام، يوجد قبل معرة النعمان في جانب سورها[٣٧].

وتوجد ناحية هامة أخرى، وهي مدى اعتقاد الهروي في صحة أماكن تلك المزارات التي يعتقد فيها القوم، والواقع أن الهروي صحح في كتابه بعض الاعتقادات، وهذه ميزة كبرى تذكر له في ذلك العصر الذي شهد الاعتقاد في الأولياء وفي

كراماتهم بصورة كبيرة، وهو فى ذلك يتشابه مع موقف جغرافى شامى معاصر له ونعنى به ياقوت الحموى (ت ٦٢٦هـ/ ١٢٢٨م).

وعلى سبيل المثال، نجد أنه يصحح الاعتقاد بشأن وجود قبر يوشع بن نون فى معرة النعمان، بأن ذكر أن مكانه فى أرض نابلس(٣٨)، كذلك أشار إلى أن الربوة الموجودة فى جبل قاسيون المطل على دمشق، والذى يعتقد الكثيرون أنها الربوة التى ورد ذكرها فى القرآن الكريم فى قوله تعالى ﴿وآويناها إلى ربوة ذات قرار ومعين﴾(٣٩)، ليست هى الربوة المذكورة فى القرآن الكريم، لأن عيسى عليه السلام ما دخل دمشق، ولا وطئ الشام، وبهذا يصحح اعتقاد عدد من الذين كتبوا فى ذلك العصر عن فضائل دمشق وعلى رأسهم مؤرخها الكبير ابن عساكر مؤلف كتاب تاريخ مدينة دمشق.

وبالإضافة إلى المزارات السابقة لأهل الأديان السماوية الثلاثة، نجد أن الهروى قد قدم إشارات محدودة بالمقارنة بغيره من الرحالة المسلمين الذين زاروا بلاد الشام فى ذلك العصر، ومن أمثلة ذلك أنه بالنسبة للساحل الشامى، لا يهتم به إلا من خلال المزارات، وفى تقديرى أن هذا، يتفق مع ما هو متوقع من عنوان كتابه أصلا، وينبغى ألا نتوقع منه أكثر من ذلك، ونجد أنه بالنسبة لعسقلان مثلا يقرر أن بجبّانتها خلق من الأولياء والتابعين، وكذلك بغزة، وعكا، وصور، وصيدا، وجميع بلاد الساحل(٤٠)، ثم أنه أشار إشارة محدودة إلى فتحها عام ٥٨٣هـ/ ١١٨٧م(٤١).

أما بالنسبة للخريطة العقائدية لبلاد الشام، فنجده لا يشير بالتفصيل إلى توزيعات الأديان بها، باستثناء ما ندر، ومن أمثلة ذلك، ذكره وجود السامرة فى نابلس وأنهم يعتقدون فى عين تحت كهف فى جبل هناك(٤٢). وهو أمر ردده الجغرافيون والرحالة المسلمون الذين زاروا بلاد الشام فى ذلك العصر.

أما إذا بحثنا عن الجوانب الأخرى الاقتصادية، أو الاجتماعية، فى رحلة الهروى وسياحته لبلاد الشام خلال تلك المرحلة، فلا نجد فيها ما يستحق الذكر

نظراً لاهتمامه الأصلى بالمزارات الدينية فى بلاد الشام وعدم اعطائه نفس الأهمية للجوانب الأخرى.

وهكذا، قدم لنا الهروى فى سياحته جوانب متعددة عن أوضاع بلاد الشام فى ذلك العصر، ولاسيما من خلال ما يتصل بالمعتقد الدينى على اعتبار أن ما ألفه يمكن أن يندرج تحت قائمة السياحة الدينية، ولا مراء، فى أنه يحتل مكانته الهامة بين الرحالة المسلمين الذين زاروا بلاد الشام فى عصر الحروب الصليبية.

الهوامش

(١) عن مصادر ومراجع ترجمة السائح الهروى :

ابن خلكان، وفيات الأعيان، حـ٣، تحقيق إحسان عباس، ص٣٤٦-٣٤٧؛ ابن العماد الحنبلى، شذرات الذهب، حـ٥، ط. بيروت ب-ت، ص٤٩؛ نقولا زيادة، رواد الشرق العربى، ص٨٥. سوريا فى الرحلات الإسلامية، المقتطف م (١٠٢)، حـ (٢)، ط. القاهرة ١٩٤٣م، ص١٧٣؛ صلاح الدين المنجد، مدينة دمشق عند الجغرافيين والرحالة المسلمين، ط. بيروت ١٩٦٧م، ص١٥٥؛ محمد بهجة الأثرى، الجغرافية عند المسلمين والشريف الإدريسى، مجلة المجمع العلمى العراقى، حـ (٢)، عام ١٩٥٨م، ص٥٩؛ زكى حسن، الرحالة المسلمون فى العصور الوسطى، ص٨٨-٨٩؛ صلاح الدين الشامى، الفكر الجغرافى سيرة ومسيرة، ص٢٥٨؛ عبدالرحمن حميدة، أعلام الجغرافيين العرب، ص٣٩٠؛ على عبدالله الدفاع، رواد علم الجغرافية، ص١٦٩؛ أحمد رمضان، الرحلة والرحالة المسلمون، ص٢٨٤-٢٨٥؛ زكريا هاشم، فضل الحضارة الاسلامية والعربية على العالم، ص٥٣٤؛ جورجى زيدان، تاريخ آداب اللغة العربية، م ٢/ حـ٣، ط. بيروت ١٩٨٢م، ص٩١؛ ماهر حمادة، المصادر العربية والمعربة، ط. بيروت ١٩٨٠م، ص٢٩٠.

Brockelmann, Geschichte der Arabischen Literature, T. I, Leiden 1937, p. 620-630; Suppl., T. I, . 879.

(٢) ابن خلكان، المصدر السابق، حـ٣، ص٣٤٦.

(٣) نفسه، نفس المصدر، حـ٣، ص٣٤٧.

(٤) زكى حسن، المرجع السابق، ص٨٩.

(٥) ابن خلكان، المصدر السابق، حـ٣، ص٣٤٦؛ زكى حسن، المرجع السابق، ص٨٩.

(٦) من المحتمل أن هذا الكتاب - كما يرى أحمد رمضان - قد ألفه الهروى فى عام ٦٠٢هـ/ ١٢٠٥م، أى قبل أن تدركه المنية فى حلب فى عام ٦١١هـ/ ١٢١٥م، بحوالى عشر سنوات تقريباً، ويذكر أن هناك نسخة مخطوطة منه فى دار الكتب المصرية، بعنوان رحلة أبى الحسن بن أبى بكر بن الهروى الموصلى تحت كتابتها فى العام المذكور. أنظر رأيه فى : الرحلة والرحالة المسلمون، ص٢٨٥.

وتجدر الإشارة إلى أن تشارلز شيفر Charles Scheffer، كان قد نشر مقتطفات من رحلة الهروى، فى مجلد أرشيف الشرق اللاتينى، العدد الأول، الصادر فى باريس عام ١٨٨١م.

A.O.L., T: I, Année 1881, pp. 597-609.

ثم جاءت من بعد ذلك مجهودات دومنيك سورديل ليتم تحقيق الرحلة، ويتم اصدارها من جانب المعهد الفرنسى للآثار الشرقية بدمشق عام ١٩٥٣م.

(٧) تم تحقيق التذكرة الهروية فى الحيل الحربية ونشرت فى مجلة الدراسات الشرقية الصادرة عن المعهد الفرنسى للآثار الشرقية بدمشق عدد (١٧) عام ١٩٦١م.

B.E.O., T. XVII Année 1961 - 1962.

(٨) ابن خلكان، المصدر السابق، حـ٣، ص٣٤٧، زكى حسن، المرجع السابق، ص٥٠، على عبدالله الدفاع، المرجع السابق، ص١٧٠؛ جورجى زيدان، المرجع السابق، م ٢، حـ٣، ص٩١.

(٩) زكى حسن، المرجع السابق، ص٨٥.

(١٠) عن ذلك الامبراطور أنظر :

Cinnamus, Epistome Historiorum, in C.S.H.P., Bonn 1836; Witting, Monnaies pyzantines, Paris 1975, p. 181.

محمود سعيد عمران، السياسة الشرقية للامبراطورية البيزنطية فى عهد الامبراطور مانويل كومنين، ط. الاسكندرية ١٩٨٢م؛ على عودة الغامدى، معركة برياكيفالون ١٩٧٤م، مجلة كلية الشريعة، جامعة أم القرى، العدد (٢)، عام ١٤٠٤هـ؛ أسد رستم، الروم فى سياساتهم وحضارتهم ودينهم وثقافتهم وصلاتهم بالعرب، حـ٢، ط. بيروت ١٩٥٦م، ص١٤٤-١٦٨؛ حسنين ربيع، دراسات فى تاريخ الدولة البيزنطية، ط. القاهرة ١٩٨٣م، ص٢١٧-٢٣٢؛ تمارا تالبوت رايس، السلاجقة، ت. لطفى الخورى والداقوقى، ط. بغداد ١٩٦٨م، ص٧٢؛ زبيدة عطا، الترك فى العصور الوسطى، ط. القاهرة ب-ت، ص٩٩-١٠٠.

(١١) زكى حسن، المرجع السابق، ص٨٩؛ أحمد رمضان، المرجع السابق، ص٢٨٤.

(١٢) السهروردى الحلبى المقتول، اختلف المؤرخون فى اسمه، فقال بعضهم أنه أحمد، وقيل كنيته اسمه وهو أبو الفتوح وقيل كذلك ان اسمه عمر أو يحيى بن بخش، ولقب بالمؤيد بالملكوت، وقد ولد فى سهرورد وهى بلدة صغيرة فى العراق العجمى وذلك حوالى عام ٥٤٩هـ/١١٥٤م، ودرس الفلسفة وأصول الفقه، وكان يرى رأى المعتزلة الذين لا يرون الصفات شيئا خارجاً عن الذات. أما مذهبه فى التصوف فمذهب الاشرقيين الذين يعتقدون أن المعرفة تنال

باشراق منه تعالى على قلوب مريديه ويلاحظ أن السهروردى قد ألف العديد من المؤلفات مثل التنظيمات فى أصول الفقه، والألواح العمادية، وكتاب التلويحات، وكتاب هياكل النور، وكتاب اللمحات، وكتاب المعارج، وكتاب حكمة الإشراق، وكتاب المطارحات، ورسالة الغربة الغربية، وتجدر الاشارة إلى أن السهروردى قد اتجه إلى مدينة حلب حيث توطدت الصداقة بينه وبين الظاهر غازى بن صلاح الدين الأيوبى، بيد أن الفقهاء أفتوا بتكفيره، ثم إعدامه بأمر من السلطان الأيوبى، وذلك فى عام ٥٨٧هـ/ ١١٩١م. عن السهروردى الحلبى المقتول أنظر :

ابن أبى أصبيعة، عيون الأنباء فى طبقات الأطباء، تحقيق نزار رضا، ط. بيروت ب–ت، ص٦٤١–٦٤٦؛ ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، حـ٦، ص٩، ١١٤؛ ابن العماد الحنبلى، شذرات الذهب، حـ٤، ص٢٩٠؛ مجموعة من الباحثين، شهاب الدين السهروردى فى ذكراه، ط. القاهرة ١٩٧٠م؛ محمد مؤنس أحمد عوض، التنظيمات الدينية، ص١٥٢–١٥٧؛ أحمد أحمد بدوى، الحياة العقلية فى عصر الحروب الصليبية بمصر والشام، ط. القاهرة ب–ت، ص٢٨٩–٢٩٥؛ قاسم عبده قاسم، ماهية الحروب الصليبية، ص٢٠٨؛ محمد أديب الحصينى، منتخبات التواريخ لدمشق، حـ٢، ط. دمشق ١٩٢٨م، ص٤٧٥؛ على أصغر حلبى، تاريخ فلاسفة إيران أزاغاز اسلام تامروز، شهران ١٩٥١م، ص٤٩٨؛ قاسم فتحى، تاريخ تصوف در اسلام، جله قوم، ط. شهران، ص٦٧٠؛ عبدالله رازى، تاريخ كامل إيران، ص٢٥٥.

(١٣) ابن خلكان، المصدر السابق، حـ٣، ص٣٤٧.

(١٤) نفسه، نفس المصدر، ص٣٤٧؛ زكى حسن، المرجع السابق، ص٨٩، نفيس أحمد، المرجع السابق، ص٤٠٣؛ أحمد رمضان ، المرجع السابق، ص٢٨٤؛ على عبدالله الدفاع، المرجع السابق، ص١٦٩.

(١٥) عن ذلك الملك الصليبى أنظر :

Ambrose, The Crusade of Richard of Heart of Lion, Trans. by Hubert, New York 1943; Godfrey of Vinsauf, History of the expedition of Richard coeur de Lion, in Chronicles of the crusades, London 1902.

(١٦) صلاح الدين الشامى، الفكر الجغرافى، سيرة ومسيرة، ط. الاسكندرية ١٩٨٠م، ص٢٥٨.

(١٧) ابن خلكان، المصدر السابق، حـ٣، ص٣٤٦.

(١٨) الهروى، الإشارات إلى معرفة الزيارات، تحقيق جانبين سورديل، ط. دمشق ١٩٥٣م، ص٢٠.

(١٩) نفسه، نفس المصدر، ص٢٣.

(٢٠) نفسه، نفس المصدر، والصفحة.

(٢١) عن المذبحة التى أقامها ريتشارد الأول لحامية عكا المسلمة، أنظر المصادر والمراجع التالية :

ابن شداد، النوادر السلطانية، ص١٧٤؛ ابن الأثير، الكامل، حـ١٢، ط. بيروت ١٩٧٩م، ص٦٧؛ العماد الأصفهانى، الفتح القسى فى الفتح القدسى، تحقيق محمد محمود صبح، ط. القاهرة ١٩٦٥م، ص٥٧٨؛ أبو شامة، الروضتين فى تاريخ الدولتين، حـ٢، ط. القاهرة، ص١٨٩؛ ابن الوردى، تتمة المختصر فى أخبار البشر، حـ٢، ط. القاهرة ١٢٨٥هـ/، ص١٠٣؛ ابن خلدون، العبر وديوان المبتدأ والخبر، حـ٥، ط. القاهرة ١٢٨٤هـ، ص٣٢٦؛ ابن الفرات، تاريخ الدول والملوك، م٤/ حـ١، تحقيق حسن الشماع، ط. بغداد ١٩٦٩م، ص٢٧.

Jacques de Vitry, A. History of Jerusalem, p. 113; Roger of Wondover, Flowers of History, Trans. From The Latin by Gries, Vol. II, London 1849, p. 105.

أحمد عبدالجواد الدومى، صلاح الدين الأيوبى الناصر لدين الله، ط. صيدا ب-ت، ص١٢٤؛ جنفياف شوفيل، صلاح الدين بطل الإسلام، ت. جورج أبى صالح، ط. بيروت ١٩٩٢م، ص٣٠٣؛ وفاء محمد على، دراسات فى تاريخ الدولة الأيوبية، ط. القاهرة ١٤١٠هـ/ ص٧٢؛ سيد الحريرى، الأخبار السنية فى الحروب الصليبية، ص٢٧٤؛ أنظر سعداوى، التاريخ الحربى المصرى فى عهد صلاح الدين، ط. القاهرة ١٩٥٧م، ص٢٨٠. تاريخ انجلترا وحضارتها فى العصور القديمة والوسطى، ط. القاهرة ١٩٦٢م، ص٩٢؛ محمد مؤنس أحمد عوض، نقد اتجاهات بعض الباحثين الغربيين فى دراسة تاريخ الحروب الصليبية، مجلة بيادر، النادى الأدبى بأبها، العدد (١١)، رجب ١٤١٤هـ، ص١٣٧؛ قدرى قلعجى، صلاح الدين الأيوبى، ط. بيروت ١٩٧٩م، ص٣٩٥.

Lane-Poole, A History of Egypt in the middle ages, London 1898, p. 210; Lamb, The Crusades, The Flame of Islam, London 1921, p. 129; Oman, A History of The art of war in the middle ages, Vol. II, Cambridge 1924, p. 305; Duggan, The story of the Crusades, p. 187.

(٢٢) الهرى المصدر السابق، ص٢٠-٢١.

(٢٣) نفسه، نفس المصدر، ص٢١.

(٢٤) عن كافة أولئك الرحالة أنظر :

محمد مؤنس أحمد عوض، الرحالة الأوروبيون فى مملكة بيت المقدس الصليبية (١٠٩٩-١١٨٧م)، ص٤٢، ص٣٢٨.

(٢٥) الهروى، المصدر السابق، ص٢٥-٢٦.

(٢٦) عن ذلك أنظر القائمة التالية :

ابن صصرى (ت ٥٨٦هـ/ ١١٩٠م) له كتاب فضائل بيت المقدس، ابن الجوزى (ت ٥٩٧هـ/ ١٢٠١م)، له كتاب فضائل القدس، وقد حققه جبرائيل سليمان جبور، ط. بيروت ١٩٨٠م، وبهاء الدين القاسم بن عساكر (ت ٦٠٠هـ/ ١٢٠٤م) له الجامع المستقصى فى فضائل المسجد الأقصى، القاضى أمين الدين أحمد بن محمد الشافعى (ت ٦١٠هـ/ ١٢١٤م) له الأنس فى فضائل القدس. عبدالرحمن بن على بن اسحاق (ت ٦٢٥هـ/ ١٢٢٩م) له مفتاح المقاصد ومصباح المراصد فى زيارة بيت المقدس، أبو سعد عبدالله بن عساكر (ت ٦٣٥هـ/ ١٢٣٩م) له فضل بيت المقدس، شمس الدين الكنجى (ت ٦٨٢هـ/ ١٢٨٦م)، له فضائل بيت المقدس، وفضل الصلاة فيها،أبو اسحاق المكناسى (النصف الثانى من القرن السابع الهجرى/ الثالث عشر الميلادى) كتاب فيه فضائل بيت المقدس وفضائل الشام، مؤلف مجهول، فضائل الشام، وفضائل مدنها، وبيت المقدس، وعسقلان، وغزة، والرملة، وأريحا، ونابلس، وبيسان، ودمشق، وحمص... إلخ، الفزارى (ت ٧٢٩هـ/ ١٣٣٣م) كتاب باعث النفوس إلى زيارة القدس المحروس، وقد حققه مارتن نوث Martin Noth ونشر فى J.P.O.S., Vol. XV, 1939 .

عن تلك المؤلفات التى تناولت فضائل المسجد الأقصى وبيت المقدس أنظر :

الواسطى المقدس، فضائل البيت المقدس، تحقيق اسحاق حسون، معهد الدراسات الآسيوية والافريقية، الجامعة العبرية بالقدس، ط. القدس ١٩٧٨م، ص١٢٠؛ جميل العسلى، مخطوطات فضائل بيت المقدس، دراة وبيلوغرافيا، ط. عمان ١٩٨٤م، ص٤١-٦١؛ محمود إبراهيم، فضائل بيت المقدس فى مخطوطات عربية قديمة، دراسة تحليلية، ونصوص مختارة محققة، المنظمة العربية للتربية والعلوم والثقافة، ط. الكويت ١٩٨٥م، ص٢٠٨-٥٢٩؛ أحمد رمضان، الأقصى المبارك فى ذاكرة العلماء والمؤرخين، مجلة المنهل، العدد (٥٠٨)، م (٥٥)، الربيعان ١٤١٤هـ/ أغسطس، سبتمبر ١٩٩٣م، ص٦٨-٧٣؛ كارل بروكلمان، تاريخ الأدب العربى، حـ٦، ت. السيد يعقوب بكر، ط. القاهرة ١٩٧٧م، ص٧٣-٧٥؛ رمضان ششن، نوادر المخطوطات العربية فى مكتبات تركيا، المجلد الثانى، ط. بيروت ١٩٧٢م، ص٤٤٨؛ عبدالجليل حسن عبدالمهدى، الحركة الفكرية فى ظل المسجد الأقصى فى العصرين الأيوبى والمملوكى، ط. عمان ١٩٨٠م، ص١٧٢-١٧٣.

(٢٧) الهروى، المصدر السابق، ص٤.

(٢٨) نفسه، نفس المصدر والصفحة.

(٢٩) نفسه، نفس المصدر، ص٨.

(٣٠) نفسه، نفس المصدر والصفحة.

(٣١) نفسه، نفس المصدر، ص١٩.

(٣٢) نفسه، نفس المصدر، ص٢٨.

(٣٣) نفسه، نفس المصدر، والصفحة.

(٣٤) نفسه، نفس المصدر والصفحة.

(٣٥) نفسه، نفس المصدر، ص٢٧.

(٣٦) نفسه، نفس المصدر، ص٢٤.

(٣٧) نفسه، نفس المصدر، ص٧. وعن يوشع بن نون أنظر : الفصل الرابع، الباب الأول، حاشية (٢٥).

(٣٨) نفسه، نفس المصدر والصفحة.

(٣٩) سورة ، رقم ( ) آية ( ).

(٤٠) الهروى، المصدر السابق، ص١١.

(٤١) نفسه، نفس المصدر، ص٣٢.

(٤٢) نفسه، نفس المصدر، ص٢٤.

٤ - ابن جبير

(ت ٦١٦ أو ٦١٧هـ/ ١٢١٩ أو ١٢٢٠م)

يتصدى هذا الفصل بالدراسة لأحد الرحالة الأندلسيين الذين قدموا إلى بلاد الشام، خلال القرن السادس الهجرى/ الثانى عشر الميلادى، ونعنى به ابن جبير[(١)] (ت ٦١٦ أو ٦١٧هـ/ ١٢١٩ أو ١٢٢٠م)، وقد ألف رحلة[(٢)] هامة تناول فيها العديد من الجوانب السياسية، والحربية، والاجتماعية، والاقتصادية، والعقائدية، فى حياة بلاد الشام فى عصر الحروب الصليبية. وفى بعض الأحيان نجده ينفرد بإيراد إشارات لا نجد لها نظيراً فى رحلات الرحالة المسلمين الذين زاروا بلاد الشام فى ذلك العصر، ومن ثم تحتل رحلته مكانة خاصة من بين ما وصل إلينا من مؤلفات خاصة بالرحلة الإسلامية إلى هناك.

وابن جبير؛ هو أبو الحسن محمد بن أحمد بن جبير الكتانى[(٣)] الأندلسى، وأسرته فى الأصل من مدينة شاطبه، وقد ولد فى بلنسية. وذلك فى عام ٥٤٠هـ/ ١١٤٥م، وقد اهتم والده بتربيته؛ فدرس العلوم الدينية واللغوية، وظهرت موهبته الأدبية فقرض الشعر، ولمع اسمه، ومن ثم اتخذه حاكم غرناطة أبو عثمان سعيد بن عبدالمؤمن؛ رفيقاً له وجعله أحد كتاب ديوانه[(٤)].

ويذكر أن حاكم غرناطة اضطره إلى شرب الخمر، وكافأه على ذلك بأن أعطاه سبعة كؤوس مليئة بالدنانير، وقد عقد ابن جبير العزم على أن يقوم بالحج إلى بيت الله الحرام من أجل التكفير عن ذلك الإثم الكبير، ومن هنا نبتت فى ذهنه فكرة الارتحال إلى الشرق[(٥)].

وقام ابن جبير بثلاث رحلات إلى الشرق. إذ أنه غادر غرناطة فى عام ٥٧٨هـ/ ١١٨٣م وركب البحر في سفينة وقصد الاسكندرية وتنقل فى أنحاء مصر، ثم اتجه من عيذاب إلى الحجاز حيث قام بتأدية فريضة الحج، ومكث فى الأرض المقدسة مدة ستة أشهر ثم أتجه إلى العراق، ثم إلى بلاد الشام حيث كان الصليبيون قد أخضعوا بعض المناطق هناك، ثم ركب البحر من عكا عائداً إلى بلاده؛ فوصل إلى هناك فى عام ٥٨١هـ/ ١١٨٥م(٦).

ثم قام برحلة ثانية؛ إذ أنه قد علم بانتصار المسلمين على الصليبيين عام ٥٨٣هـ/ ١١٨٧م، فقرر الذهاب مرة أخرى إلى الشرق من أجل أن يشاهد المناطق الإسلامية بعد أن تم تحريرها من قبضة الغزاة الصليبيين، فارتحل إلى هناك عام ٥٨٥هـ/ ١١٨٩م، وعاد إلى بلاده فى عام ٥٨٧هـ/ ١١٩١م(٧).

أما الرحلة الثالثة، فيختلف الباحثون فى شأن دوافعها، فالبعض يرى أنه قد توفيت زوجته، وكان يحبها حباً شديداً، ولا أدل على ذلك من أنه نظم ديواناً من الشعر فى رثائها وأراد أن يسرى عن نفسه، فلم يجد بداً من الارتحال، فرحل رحلته الثالثة(٨) وذلك عام ٦١٤هـ/ ١٢١٧م، وأقام بمكة المكرمة فترة من الزمن ثم رجع إلى الاسكندرية، وأقام بها إلى أن أدركته منيته هناك.

بينما يرى البعض الآخر أنه لم يقم برحلته الثالثة من أجل حزنه على زوجته، وإنما من أجل حب البحث واكتساب المعرفة(٩)، وفى تقديرى أن الدافعين معاً وجها ذلك الرحالة إلى القيام بتلك الرحلة. فمن المتصور أنه قد أصابه الحزن الشديد لرحيل زوجته فأراد بتغيير المكان أن يجد راحته خاصة بالذهاب إلى الأماكن المقدسة الإسلامية، بالإضافة إلى حبه للبحث واكتشاف عالمه المحيط به.

مهما يكن من أمر، فإن ابن جبير ترك لنا رحلته الهامة. وقد اختلف فى عنوانها، إذ أن حاجى خليفة قد جعلها رحلة الكتانى(١٠)، ويلاحظ أن المخطوط يبدأ

بعبارة «تذكرة بالأخبار فى اتفاقيات الأسفار»، كما أنه ينتهى بعبارة[١١] «كتاب اعتبار المناسك فى ذكر الآثار الكريمة والمناسك»، وقد تشكك المستشرق رايت Wright فى عنوان الكتاب بالشكل الأخير، ولذا فقد فضل أن يكون العنوان هو «رحلة ابن جبير»[١٢].

وتجدر الإشارة إلى أن رحلة ابن جبير تلك هى تسجيل لرحلته الأولى، وقد كتبها على شكل مذكرات يومية يستخدم فيها دائماًالتاريخين القمرى (مع السنة الهجرية) والشمس (دون أن يذكر السنة)، وعنى فيها بتسجيل الجوانب الدينية والعقائدية وكذلك الاجتماعية[١٣]، وامتاز أسلوبه بالحيوية المتدفقة وسهولة التعبير وسلاسته، مع ملاحظة أنه أحياناً يلجأ إلى الصنعة الأدبية ومن مظاهرها السجع وإن عالجه «بالكثير من المهارة دون مبالغة، وهناك من يقرر أن ذلك المصنف «رفيع الأسلوب يختتم بجدارة حلقة الجغرافيين الأندلسيين لذلك العصر»[١٤].

ويذهب أحد الباحثين إلى القول بأن كتابة ابن جبير عن الرحلات تتسم «بركاكة التعبير أحياناً»، وعدم ترابط الجمل، والأفكار أحياناً أخرى، وأنها تكشف العجز فى بنيته، وتكوين وتركيب الصور، والانطباعات التى يمكن أن يستخلصها القارئ من كتابات ابن جبير[١٥].

والواقع أن ذلك الرأى لا ينطبق على الواقع فى شئ، لأن رحلة ابن جبير تتسم بالفعل بسلاسة التعبير ومرونته، ولا يستشعر المرء فيها بتلك الأوصاف التى يذكرها الباحث السابق، مع ملاحظة أن الباحثين فى مجال الجغرافيا والرحلات الإسلامية فى العصور الوسطى قد اتفقوا على تلك الميزات الخاصة لرحلة ابن جبير[١٦]، وكان ذلك بالطبع من عوامل حصولها على الشهرة الفائقة من بين ما وصل إلينا من مؤلفات الرحالة المسلمين فى تلك العصور.

وهنـاك ناحيـة هامة جديرة بالملاحظـة، وهى بشـأن المصـادر التى اعتمد عليها ابن جبير فى تأليف رحلته خاصة ما اتصل ببلاد الشام، ويلاحظ أنه اعتمد فى المقام الأول على المشاهدة والملاحظة، وكانت لديه قدرة فذة على ملاحظة كل ما تقع عليه عينيه وإيراده خاصة ما يجده جديداً أو غير مألوف، ومن المهم أن ينقله لقارئ رحلته، وفى هذا المجال نذكر أنه كان يسأل المعاصرين عما يعنّ له من أمور تستعصى عليه فى الفهم، بالإضافة إلى ذلك، نجده أحياناً يورد بعض الإشارات لكتب قرأها لاسيما خلال زيارته لحاضرة الشام الكبرى؛ دمشق(١٧).

ويلاحظ أن مقدار المشاهدة والملاحظة تتفوق بشكل واضح فى رحلته لاسيما عن بلاد الشام، وهو لا ينقل عن رحالة آخرين، أو يقدم نصوصاً للسابقين وإنما يقدم رؤيته الشخصية الخاصة به، ومن هنا كانت القيمة المتزايدة لرحلته.

زد على ذلك إنه دخل مناطق الصليبيين، وتناول أوضاع المسلمين الخاضعين لسيطرتهم، وتتحدث عن العلاقات السلمية بين الجانبين، وكل ذلك من خلال رؤية نافذة، وملاحظة واعية، وبأسلوب أدبى رفيع المستوى على نحو ندرك معه أن الأدب والجغرافيا والتاريخ، اجتمعوا سوياً، بتوافق فذ فى رحلة ذلك الرحالة الأندلسى المتمكن من أدوات الرحالة بجدارة.

وتجدر الإشارة إلى أن القسم الخاص ببلاد الشام فى رحلة ذلك الرحالة الأندلسى يعد قسماً كبيراً إذا ما قورن بالأجزاء الخاصة بالأقاليم الأخرى فى نفس الرحلة. ويقدم فى روايته عنها التفاصيل الثرية المسهبة التى يجد فيها الباحث ذاته عندما يطالعها. ويركز على جوانب لا تهتم بها كتب الحوليات التى تعنى أول ما تعنى بالجانب السياسى والحربى دون أن تلقى الضوء على الزوايا الاقتصادية والاجتماعية والتعليمية.

وابن جـبير رجـل ذو عاطفة دينيـة جياشـة، ومشـاعره الإسلامية واضحة بصورة لا تنكر، وهو يختلف عن الإدريسى الذى لا نجد فى كتابته تلك الزاوية إلا نادراً نظراً

لارتباطاته السلطوية مع روجر الثانى ملك صقلية(١٨). ومن ثم نجد تعبيراته صريحة لاسيما حيال عدائه للصليبيين، فى عصر استقر فيه العداء بين عالمى الإسلام، والمسيحية.

من جهة أخرى، فإن ذلك الرحالة، عندما نحلل نصوص رحلته، لاستخلاص دلالاتها النفسية، نجد أنه يعكس لنا بصورة جلية كافة انفعالاته كسائح ورحالة مسلم لاسيما عندما يدخل مناطق الصليبيين، حيث يتغير النص بعد أن كان من خلال معنويات مرتفعة عندما كان الرحالة يمر بمناطق المسلمين، ونجد أن النص ذاته يتحول إلى مشاعر مضطربة أخرى، ومريرة عندما يستشعر أنه غريب فى مناطق كانت من قبل من أملاك المسلمين وصارت ضمن نطاق أعدائهم وضاعت من الأولين من جراء الانقسام والتشرذم والتهاون، وقد ساعده على ذلك التوضيح أن لا يوجز عبارته على نحو ما وجدناه للإدريسى بل إنه يفصلها، ويقدم تصوراته العقلية وأحاسيسه النفسية الصادقة دون مواربة على نحو أعان على إثراء رحلته.

ومن الممكن أن أقرر أن البعد السيكولوجى فى رحلة ابن جبير فى بلاد الشام كان من أهم عوامل الحيوية المتدفقة فى سطورها وبالتالى تميزها.

والجدير بالذكر، أن إشارات ابن جبير عن بلاد الشام نجدها تحوى كافة الجوانب المتعلقة والمتصلة بتلك البلاد، حتى نكاد نعتقد أنه لم يترك شيئاً جديراً بأن يتناوله فى رحلته ولم يذكره. وفى تقديرى أن اكتمال بناء رحلته يعكس أنه من قبل أن يخرج ويرتحل اطلع على مؤلفات الجغرافيين والرحالة المسلمين السابقين، وعلى مدى قرون عديدة سابقة على القرن السادس الهجرى/ الثانى عشر الميلادى، ومن ثم حصل على خبرتهم التعبيرية، لأن النص ذاته يعكس خبرة كبيرة ليس من السهل أن نجدها لدى رحالة لأول مرة يكتب رحلة، وتعليل ذلك أنه تلقى علومه المتعددة منذ حداثة سنه، وهكذا من الممكن توقع مطالعته على العديد من تلك المؤلفات قبل أن يقوم بمهمته فى كتابة رحلته.

مهما يكن من أمر، فإن ابن جبير تناول فى رحلته العديد من الجوانب المتصلة بحياة بلاد الشام سواء فى المناطق الصليبية أو الإسلامية، ومن ذلك تعرضه للساحل الشامى، والجوانب الاقتصادية المتعددة، ثم دور عناصر المغاربة فى حياة بلاد الشام، والخريطة المذهبية لتلك البلاد أو المزارات الدينية، سواء للمسلمين أو المسيحيين، ثم القلاع، والحصون، أو العمارة الحربية فى ذلك العصر.

وفيما يتصل بالساحل الشامى، نجد أن ذلك الرحالة قدم تناولاً هاماً لعدد من المدن الساحلية وبتفاصيل هامة ومن ثم لم تقض على رؤيته ظاهرة الاختصار التى وجدناها عند من سبقه من الجغرافيين لاسيما الإدريسى، وهو عندما تعرض لعكا قدم وصفاً يفيض بالحيوية المتدفقة بين كلماته، وقد أوضح أنها «قاعدة مدن الإفرنج بالشام»[١٩] أى أنها بمثابة المركز الصليبى فى بلاد الشام، ومن المعروف أنها كانت بمثابة القلب التجارى لذلك الكتاب، وأشار إلى أنها مشبهة فى عظمتها بالقسطنطينية[٢٠]، ونتصور أن ذلك الوصف الأخير يحوى مبالغة كبيرة وغير منطقية، خاصة إذا ما علمنا أن ابن جبير لم يشاهد القسطنطينية ذاتها، ومع ذلك فإن مجرد مثل تلك العبارة تعكس ضخامة شأن تلك المدينة الساحلية الشامية ونعنى بها عكا، خاصة أنها كانت أشبه شئ بمدينة عالمية يلتقى فيها التجار من كافة الأقطار. وقد قدم لنا وصفاً للكثافة السكانية المتزايدة بها فأشار إلى أن شوارعها «تغص بالزحام، وتضيق فيها مواطئ الأقدام»[٢١] وفى هذا التعبير الأدبى، التصوير الحقيقى للكثافة السكانية فى تلك المدينة التى التقى فيها التجار من كافة أنحاء العالم المعمور حينذاك.

ويلاحظ أن ذلك الرحالة، قد أدرك الدور الصليبى الخطر فى تغيير هوية المنطقة وتحويلها عن الإسلام، من خلال البعد التنصيرى، إذ أنه بعد أن أشار إلى خضوع عكا لسيطرة الصليبيين فى «العشر الأول من السنة السادسة»[٢٢]، ومن المقرر بالطبع أنها سقطت فى قبضتهم عام ٤٩٨هـ/ ١١٠٤م، نجده يشرح حال تلك المدينة فيذكر أن

مساجدها تحولت وصارت كنائس، وصوامعها صارت محل أحد النواقيس[٢٣]، وفي مثل ذلك التعبير نجده يكشف بجلاء عن دور الصليبيين فبتغيير هوية المنطقة الإسلامية ومحاولة تنصيرها من خلال القضاء على الدور الهام لأماكن العبادة الإسلامية فى صورة المساجد، بل وصل الأمر أن صارت هناك بقعة صغيرة فى مسجد عكا الجامع يجتمع فيه الغرباء من أجل إقامة الصلاة. ويمكن وصف ابن جبير بأنه شاهد عيان معاصر على تلك الحقيقة ألا وهى السياسة التنصيرية التى أراد للصليبيون تنفيذها فى منطقة الشرق الأدنى من أجل توسيع رقعة عالم المسيحية على حساب الإسلام والمسلمين.

أما مدينة صور فإن ابن جبير يقدم لنا أكبر وصف وصل إلينا من ذلك العصر عن حصانة تلك المدينة الواقعة على الساحل اللبنانى، وتناول تلك المناعة من جهة البر وكذلك من ناحية البحر، وتعرض للسلسلة الكبيرة التى تعوق دخول السفن الغير مرغوب فيها، و«لا مجال للمراكب إلا عند إزالتها»، كما تناول الحراس الذين يراقبون الدخول والخروج إلى ومن المدينة[٢٤].

زد على ذلك أنه لا يورد مدن الساحل الشامى فقط، بل إنه يعقد المقارنة بينها على نحو عمق رؤيته لها، ومن أمثلة ذلك أنه عقد مقارنة بين صور وعكا، ويبدو أن المدينة الأولى قد كانت أقل فى إشعاره بالاغتراب، فامتدحها إذا ما قورنت بعكا، إذ أشار إلى أنها أنظف من الأخيرة، ووجه أهلها ألين فى طبائعهم، ويميلون إلى الغرباء أكثر من أهل عكا، أما أوضاع المسلمين فيها فهى أقل سوءا منها[٢٥].

وتجدر الإشارة إلى أن عقد المقارنة بين المدن الشامية فى ذلك العصر، لا نجده لدى الرحالة المسلمين بمثل تلك الصورة التى نجدها لدى ابن جبير، والصفة الغالبة أنهم كانوا يوردون إشارات عن كل مدينة دون عقد مثل تلك المقارنات، ومن ثم تظهر لنا أهمية ذلك الرحالة الأندلسى.

ومن الملاحظ أن ابن جبير لا يشير فى رحلته إلى كل المدن الساحلية التى كانت فى قبضة الصليبيين، ولذا فمن الممكن أن نرى أن وصفه لعكا وصور يمكن أن يكون نموذجا لتعبيره عن تلك المدن ذات الموقع الاستراتيجى الهام، والذى مثل نقطة الاتصال بين الغزاة الصليبيين ووطنهم الأم فى أوروبا التى تقدم لهم الدعم المادى والمعنوى اللازم لاستمرار المشروع الصليبى.

من جهة أخرى، تكشف رحلة ابن جبير إلى بلاده الشام عن وجود ما يمكن وصفه «برؤية اقتصادية» لتلك الرحالة الأندلسى، وفى هذا المجال أشار إشارات هامة لم تأت بصورة عرضية، وإنما جاءت مقصــودة وثريــة، ومفصلة، على نحو عكس تلك الرؤية وعمقها.

وفى هذا المجال ذكر العديد مظاهر النشاط الاقتصادى فى عدد من المدن الشامية خاصة تلك الواقعة تحت السيادة الإسلامية.

وعلى سبيل المثال، أشار إلى بعض الصناعات فى مدينة دمشق، منها صناعة الثياب، وكذلك الصناعات النحاسية. وذكر موقعها بطول جدار الجامع الأموى القبلى(٢٦)، بيد أن إشاراته للنشاط التجارى تعد أثرى وأكبر، من ذلك أنه تناول الأسواق فى العديد من تلك المدن، ومن أمثلة ذلك تعرضه لأسواق تلك المدينة وذكر أنها من أحفل أسواق بلاد الشام وأحسنها انتظاما(٢٧)، أما حلب فهى عنده أسواقها واسعة وكبيرة، منتظمة ومستطيلة، وهى مسقوفة بالخشب، بها جميع الصناعات المدنية(٢٨)، أما حماة فقد تعرض لأسواقها وأشار إلى أن أسواق المدينة العليا فيها أفضل وأجمل من المدينة السفلى وهى تشمل كافة الصناعات وأنواع السلع التجارية. وتمتاز بأنها منظمة ومرتبة ومقسمة(٢٩). وعند بزاغه، نجده يقرر أنها ذات سوق تجتمع فيه المرافعة الشعرية، وكذلك أنواع التجارة الموجودة فى المناطق الحضرية(٣٠).

وفى رؤيته الاقتصادية لتلك الأسواق التجارية نجده يفرق بين المزدهر منها والكاسد، فإذا كان قد امتدح أسواق المدن السابقة، ووصفها بصفة عامة على أنها مزدهرة، إلا أنه بالنسبة لأسواق حمص أوضح أنها تعانى من الكساد، وذكر أنها بلا رونق(٣١)، ويلاحظ أن ابن جبير لم يترك الأمور هكذا دون أن يشرح السبب، ويقدم التفسير الحقيقى لذلك الأمر، فأوضح أن وجود أحد المعاقل الصليبية الكبرى ونعنى به حصن الأكراد Crac des Chevaliers(٣٢)، على بعد عشرة أميال من المدينة، وهجوم العناصر الصليبية فيه على تلك المدينة، كل ذلك جعلها مدينة حدودية ثغرية تعانى من الكساد التجارى.

إن وضع أسواق حمص بالصورة التى أوردها ذلك الرحالة وبنفس التعليل الهام الذى قدمه، يكشف لنا عن حقيقة هامة، وهى أن مناطق الاحتكاك الحربى بين المسلمين والصليبيين، عانت من عدم الانتعاش التجارى نظراً لاستمرارية لغة الحرب، والصدام بين الجانبين على نحو هدد التجارة.

ومن جهة أخرى، وجدنا ابن جبير يشير إلى ما يمكن وصفه بالمؤسسات التجارية، من ذلك تناوله للخانات والقياسر، وعلى ذلك نجد أنه أشار إلى أن حلب، بها ربض كبير، فيه ما لا يحصى من الخانات(٣٣)، ويلاحظ أن تلك الأخيرة؛ كانت بمثابة نزل للمسافرين وإن تطورت وظيفتها بحيث صارت بمثابة مكان لقضاء الأعمال التجارية(٣٤).

ولم يكتف ذلك الرحالة بتتبع أمر الخانات فى دمشق، بل أنه تناوله كذلك فى حمص، إذ ذكر أن هناك خان السلطان؛ الذى أقامه السلطان الناصر صلاح الدين الأيوبى، وقد وصفه بأنه فى غاية الحسن، وله باب حديد، ومزود بالماء الجارى، وفى وسطه سقاية تشبه الصهريج(٣٥).

كذلك تعرض لإحدى المنشآت التجارية الأخرى الهامة وهى القياسر. وقد ورد أمرها فى دمشق، ومن المعروف أن القيساريات كانت بمثابة عمائر تجارية مسقوفة كانت

فى الغالب ذات دكاكين تختص بسلعة تجارية معينة وعدة أنواع من البضائع، وكانت أبوابها تغلق ليلاً، ويتم تعيين الحراس[٣٦] لها من أجل مواجهة عمليات السطو المحتملة.

وفى هذا الصدد أشار إلى قياسر دمشق، وذكر أنها مرتفعة مثبتة بأبواب حديدية الصنع، ومن إعجابه بها وصفها بأن أبوابها «كأبواب القصور»[٣٧].

نخلص مما سبق أن ابن جبير تناول مصطلحين من المصطلحات الاقتصادية التجارية الهامة تختص بالتسويق والتخزين، وكذلك الكساد التجارى. بل وأكثر من ذلك أنه تناول أمر الاحتكار التجارى.

وفى المجال الآخر، انفرد ابن جبير بإشارة هامة للغاية، تعكس طبيعة ذلك العصر، الذى شهد ما يمكن وصفه بالثورة التجارية، إذ أن الحروب الصليبية أدت إلى إثراء الصلات التجارية بين الشرق والغرب بصورة لم تكن موجودة بمثل ذلك الشكل من قبل، وكنتيجة طبيعية لذلك الوضع أخذت المصادر تشير إلى ضخامة حجم التعامل النقدى، فى مثل تلك العملات التجارية، وظهرت بصورة واضحة رؤوس الأموال الضخمة، وخاصة فى التعامل التجارى الدولى.

وهكذا، وجدنا ذلك الرحالة يشير إلى ظاهرة الاحتكار التجارى وتركزه فى عدد قليل للغاية من التجار الرأسماليين الكبار، ومن أمثلة ذلك ذكره لأمر تاجرين هما نصر بن قوام وأبى الدر ياقوت مولى العطافى[٣٨]، وهما عنده على درجة كبيرة من الثراء، والدليل على ظاهرة الاحتكار تلك أنه ذكر صراحة «تجارتهما كلها بهذا الساحل الإفرنجى، ولا ذكر فيه لسواهما»، كما أن القوافل التجارية صادرة وواردة تحمل البضائع لحسابهما.

ومن الطبيعى أن توجد عوامل تساعد على نمو ذلك الوضع؛ وهى تتمثل فى الثراء

العريض وتوافر رأس المال الضخم للمشاركة به فى العمليات التجارية الواسعة النطاق، والتى توصف بأنها تجارة دولية، بالإضافة إلى حماية سياسية عالية المستوى من أجل استمرار ذلك الوضع، وهذا ما اعترف به ابن جبير نفسه، إذ قرر أيضاً أمرين، أولهما؛ أن التاجرين المذكورين من «مياسر التجار وكبرائهم، وأغنيائهم المنغمسين فى الثراء»[٣٩]، أما ثانيهما فهو أن «قدرهما عند أمراء المسلمين والإفرنجيين خطير»[٤٠].

والجدير بالذكر، أن الدليل على قوة ذلك الدور الذى قام به هذان التاجران، هو أن علاقاتهما ليست قوية بالسلطة الأيوبية القائمة فقط؛ بل أنها أيضاً قوية بالقوى الصليبية، وهذا أمر منطقى تماماً أن تكون صلاتهما ممتازة، بطرفى النشاط التجارى من أجل توفير الأجواء المناسبة لاستمرارية ذلك الدور. وبديهى أن ذلك الدعم السلطوى جاء من خلال مصالح قائمة بين السلطة، وأولئك التجار الذين أفادوا خزائن الدولة بأموال طائلة من عوائد المكوس المفروضة.

ولا نزاع فى أن ذلك الرحالة الأندلسى قد قدم بذلك التناول جانباً هاماً ما كانت تتمكن من أن توضحه مؤلفات الحوليات التى عنيت بالجوانب السياسية والحربية وندر أن تذكر الجوانب الاقتصادية التجارية وهى جوانب بالغة الحيوية فى ذلك العصر.

كذلك ألقى ابن جبير الضوء على جانب هام من جوانب العلاقات السلمية بين المسلمين والصليبيين فى بلاد الشام ونعنى به التداخل فى المعاملات التجارية، إذ أشار إلى أن قوافل المسلمين تدخل مناطق الصليبيين وقوافل الصليبيين تدخل مناطق المسلمين[٤١].

ويلاحظ أنه فى تلك الناحية لم يستطع أن يقدم المبرر لذلك، على الرغم من استعار العداء بين الطرفين، أما التعليل الحقيقى لذلك، فهو أن كلا من الطرفين المتحاربين لم يكن يستطيع الاستغناء عن الآخر، إذ أن الصليبيين بعد أن تمكنوا من الاستيلاء على الساحل الشامى الممتد من السويدية أو سان سيمون St. Simoon مينا

أنطاكية إلى غزة جنوباً، وبعد عام ١١٥٣م/ ٥٤٨هـ، عاماً حاسماً فى هذا المجال على اعتبار أن الصليبيين تمكنوا من إغلاق ذلك الساحل بالكامل فى وجه المسلمين، وصارت القوى الإسلامية الشامية بمثابة قوى برية حبيسة لا تستطيع تصريف منتجاتها التجارية إلا عن طريق الصليبيين أنفسهم؛ المسيطرين على الساحل. كما أن الأخيرين صاروا يقومون بدور الوسيط التجارى بين المسلمين والقوى التجارية الأوروبية، ولا ريب فى أن القوى الصليبية قد استفادت من ذلك الأمر وغنمت مغانم وفيرة من عوائد المكوس من جراء تجارة العبور.

ومن الضرورة بمكان ملاحظة أن المسلمين لم يتمكنوا من حل مشكلة سيطرة الصليبيين على الساحل إلا بعد أن تمكنوا من هزيمتهم فى معركة حطين الفاصلة عام ٥٨٣هـ/ ١١٨٧م، ثم اتجهوا إلى فتح الساحل وبسيطرتهم على أجزاء هامة فيه تم تغير ميزان القوى لصالحهم.

وهكذا، ألقت رواية ابن جبير فى ذلك الصدد الضوء الساطع على أن العداء اتخذ شكلا حربياً وسياسياً بين المسلمين والصليبيين، بيد أنه لم يتخذ البعد الاقتصادى، ولم يستطع أى من الطرفين أن يقاطع الآخر تجارياً لأن ذلك كان يعنى الانتحار الذاتى له قبل القضاء على خصمه.

هكذا، ألقت رحلة ذلك الرحالة الأندلسى الأضواء على النشاط الاقتصادى، لاسيماالتجارى فى بلاد الشام ولم يكن تناوله قاصراً على القوى الإسلامية فقط، بل إنه امتد ليشمل القوى الصليبية وعلاقاتها بالمسلمين على المستوى التجارى. ولذا حق لأحد الباحثين القول بأن «الحركة التجارية» قد أولاها ابن جبير أهمية كبيرة، وتفرد فى وصفها وتحليلها على نحو مميز»(٤٢).

من جهة أخرى، قدم ابن جبير تناولا هاماً لأوضاع المغاربة فى بلاد الشام خلال القرن السادس الهجرى/ الثانى عشر الميلادى. ويلاحظ أن ذلك الرحالة الأندلسى حرص

على أن يوضح أوضاع أولئك المغاربة الذين قدموا إلى بلاد الشام، وتركوا أوطانهم على الرغم من بعد الشقة.

وقد أوضح ابن جبير أنهم شاركوا فى قضية الجهاد ضد الصليبيين مع إخوانهم فى بلاد الشام، ووقع منهم عدد فى أسر أعدائهم وقد حرص بعض أثرياء التجار المسلمين على أن يفكوا أسرهم(٤٣) وكذلك كان موقف القيادة الإسلامية متمثلة فى الملك العادل نور الدين محمود(٤٤). ولا شك فى أن اشتراكهم فى المعارك ضد الصليبيين قد جر عليهم عداءهم، ولذا وجدنا أن الصليبيين، قد عملوا على فرض ضريبة زائدة على المغاربة على نحو خاص عقاباً لهم على تلك المشاركة(٤٥) فى تلك القضية المقدسة.

ومن المؤكد أن دور المغـاربة فى مسـاعدة إخوانهم فى المشرق ضمن الغزو الصليبى يدل على أن قضية الجهـاد ضد ذلك الغزو، لم تكن قضية مشرقية فقط بل ومغربية أيضاً(٤٦).

ونجد أن ابن جبير يتعرض لأوضاع المغاربة بصفة عامة فى بلاد الشام، فيوضح عملهم فى مجالات متعددة، والجرابات التى ترتبط بهم، ومن مظاهر عملهم فى بلاد الشام أن يوجد أحد المغاربة حارساً على بستان أو أميناً على طاحونة، أو محفظ القرآن الكريم للأطفال(٤٧). وبصفة عامة فإن ذلك الرحالة يرغب المغاربة للقدوم إلى بلاد الشام لطلب العلم أو العمل، على اعتبار اتساع مجال الأرزاق هناك(٤٨).

ومن جهة أخرى، نجد أن ذلك الرحالة يمتلك قدراً كبيراً من الموضوعية، ولايتصف بالنظرة الأحادية، أو من زاوية واحدة، ولا أدل على ذلك من أنه لا يكيل الثناءوالمديح لعناصر المغاربة بصفة مستمرة، بل إنه يذكر الإيجابيات والسلبيات، وذلك على الرغم من أنه قدم أصلا من الغرب الإسلامى، فمن ذلك أنه أشار إلى أن أحد المغاربة – من ضعاف الإيمان – ارتد عن الإسلام، واتجه إلى اعتناق المسيحية، وقد ذكر أنه من يونة من أعمال بجاية وبحث ذلك الرحالة عن تعليل ذلك، فعرف أنه كان أسيراً

وتم افتدائه على يد أحد أثرياء تجار المسلمين، ثم ذهب إلى عكا، فى إحدى القوافل التجارية، وقد صاحب الصليبيين، وتخلق بأخلاقهم، ووصل به الأمر أن ارتد عن الإسلام واعتنق المسيحية(٤٩).

فنجد رواية ابن جبير السابقة تاريخياً أنها وصلت إلينا من عصر شغل فيه المؤرخون المعاصرون بتسجيل المعارك الحربية، والتصارعات السياسية، عن ذكر مثل تلك الحوادث، ومع ذلك فهناك عدة دلالات هامة ينبغى أن نلاحظها من خلال رواية ابن جبير السابقة.

أولاً : أن تلك الحادثة ذات طابع فردى بحت، وقد خلت رحلة ذلك الرحالة من أية إشارة أخرى للتنصير، الفردى أو الجماعى على نحو يوضح أنها كانت أشبه شئ بالحادثة الاستثنائية المتفردة التى لم يورد ذلك الرحالة تكراراً لها.

ثانياً : من الضرورة بمكان ملاحظة أن الحادثة السابقة ليست استثناء عددياً فقط، بل أنها أيضاً تمثل استثناء تاريخياً بالنسبة لدور المغاربة فى بلاد الشام فى عصر الحروب الصليبية الذين حملوا لواء الجهاد، وشاركوا إخوانهم المشارقة فى جهاد أعداء الإسلام من الصليبيين، وهذا واضح من خلال نصوص ابن جبير نفسه.

وتجدر الإشارة إلى أن أسامة بن منقذ من قبل قد أشار إلى حادثة تنصير خاصة بالشاب المسيحى الذى اعتنق الإسلام ثم ارتد من بعد ذلك(٥٠)، ومن الواضح أن الفارق الأساسى بين رواية ابن جبير وحادثة المغربى، ورواية أسامة بن منقذ والحادثة التى أوردها، أن المغربى كان مسلماً وارتد إلى المسيحية. أما الشاب الذى أورد أمره أسامة بن منقذ، فكان مسيحياً فى الأصل ثم تحول إلى الإسلام، وارتد من بعد ذلك، عنه إلى المسيحية، ويلاحظ أن أسامة بن منقذ أورد تلك الحادثة بصورة منفردة، مثلما كان الأمر لدى رحلة ابن جبير، على نحو يؤكد ما ذكرته من قبل بشأن كونها استثناء فردياً.

من جهــة أخرى، احتوت رحلة ابن جبير على تناول للخريطة المذهبية والعقائدية فى بلاد الشــام فى ذلك العصر، ومن ذلك أنه تناول المتصوفة، كذلك تعرض للاسماعيلية النزارية.

وفيما يتصل بالمتصوفة؛ أشار إلى مكانتهم العالية فى ذلك العصر الذى ازدهرت فيه تلك الظاهرة، واحتضنها الأيوبيون وعملوا على ارضائهم، وقد أشار إلى قيامهم بجلسات السماع، وإلى أماكنهم مثل الربط أو الخوانق، مع ملاحظة أنه لا يفرق بين الإثنين بل يعتبرها شيئًا واحدًا(٥١).

أما فيما يتصل بالاسماعيلية النزارية، فنجد ابن جبير قد قدم لنا إشارات فريدة لا نجدها لدى مصدر آخر من مصادر الرحالة المسلمين الذين زاروا بلاد الشام فى عصر الحروب الصليبية.

فمن الملاحظ، أنه تناول أمر النبوية، ودورها فى مواجهة العناصر الشيعية فى بلاد الشام(٥٢)، ويلاحظ أن هناك من الباحثين من اعتقد أنها إحدى الفرق الصوفية(٥٣)، غير أن هذا القول مردود على اعتبار أن صاحب ذلك الرأى خلط بين النبوية، والبيانية وهى الطريقة الصوفية الشامية، التى تنسب إلى نبا بن بيان الزاهد(٥٤).

كما أن أحد الباحثين اعتقد أن النبوية تنظيم فروسى سنى، ضد عناصر الشيعة فى العراق(٥٥)، بينما نجد أن نص ابن جبير واضح أنها موجهة للعناصر الشيعية فى بلاد الشام، كما تصور البعض أن فعالياتها كانت فى القرن السابع الهجرى/(٥٦) الثالث عشر، بيد أن نفس النص الذى أورده ابن جبير يوضح بجلاء أن فعالياتهم كانت خلال القرن السادس الهجرى/ الثانى عشر الميلادى وليس القرن التالى له.

وقد قدم لنا ابن جبير تعريفًا للنبوية لم أجد نظيرًا له فى مؤلفات الرحالة المسلمين المعاصرين، واللاحقين، على مدى مرحلة الحروب الصليبية فى بلاد الشام، وكذلك فى

مؤلفات كتاب الحوليات المسلمين، وقد ذكر أنهم مسلطون ضد عناصر الرافضة، وهو تعبير يطلق أيضاً ليعنى عناصر الشيعة المتطرفين. وأشار إلى أنهم يأخذون بتقاليد الفروسية وأنهم يقتلون الروافض أينما وجدوا(٥٧).ولم يكتف ابن جبير بذلك بل إنه عندما تحدث عن مدينة الباب الواقعة بالقرب من بزاغة في شمال شرق حلب(٥٨). وعند وادى بطنان، ذكر أمر هجوم عناصر البنوية ضد الإسماعيلية هناك وحدد ذلك بأنه كان قبل ثمانى أعوام من تاريخ رحلته(٥٩)، ولما كان ابن جبير قد قام بتلك الرحلة عام ٥٧٨هـ/ ١١٨٣م فمعنى ذلك أنه يتحدث عن وقائع جرت عام ٥٧٠هـ/ ١١٧٥م.

وقد أوضح ذلك الرحالة أنه تم وضع السيف فيهم؛ وتم افناؤهم عن آخرهم، وعندما مر بالمنطقة، وجد جماجم القتلى موجودة هناك(٦٠).

ويلاحظ أن ابن العديم الحلبى(٦١) (ت ٦٦٠هـ/ ١٢٦١م) قد أشار إلى تلك الحادثة، وذكر أن عناصر النبوية قامت بمواجهة الاسماعيلية فى الباب، وذكر أن حجم القتلى كان ضخماً(٦٢). مع احتمال المبالغة بالطبع فى مثل تلك المواقف.

وكان من جراء تلك المواجهة السنية/ الشيعية فى شمال الشام، وفى أعقابها أن وجدنا نزوحاً من العناصر الإسماعيلية القاطنة الباب، وإتجاهها إلى مناطق أخرى مجاورة، بحيث حدث تغير ما ديموغرافى فى المنطقة بحيث أننا لا نجد العناصر الاسماعيلية تستمر فى الوجود فى الباب، ولا أدل على ذلك من أن ابن جبير نص صراحة أن «سكانها اليوم قوم سنيون»(٦٣)، وفى هذا تأكيد واضح على دور وفعاليات النبوية التى لا يمكن أن نتفهمها إلا من خلال صحوة الفتوة التى أظهرها الخليفة العباسى الناصر لدين الله (ت٦٢٢هـ/ ١٢٢٦م)(٦٤).

وهكذا، قدم لنا ابن جبيرنصاً فريداً فى تعريف النبوية وفى فعالياتهم فى الباب، كما أنه أفاد فى توضيح خريطة توزيعات السكان فى ذلك العصر من خلال بعد عقائدى، ويعد هذا القسم من أهم ما أورده فى رحلته عن بلاد الشام وأكثرها أصالة.

وبالإضافة إلى ذلك، نجد أن ذلك الرحالة أشار إلى تحصن الاسماعيلية فى بلاد الشام بعدد من المعاقل وقد وصفها بأنها «حصون للملاحدة الاسماعيلية»، ومن جهة أخرى، نجده يتناول القيادة الاسماعيلية فى ذلك الحين والتى تعرف أنها تمثلت فى راشد الدين سنان بن سليمان الذى تولى قيادة الاسماعيلية هناك لأمد طويل بلغ ثلاثين(٦٥) عاماً (٥٥٩-٥٨٩هـ/ ١١٦٣-١١٩٣م) وقد أشار ابن جبير إلى أن طائفة الاسماعيلية ألهت راشداً هذا، وقد وصفه بأنه «شيطان من الإنس»(٦٦).

وتجدر الإشارة إلى أن ابن جبير قد ذكر أن سيطرة راشد الدين سنان على أتباعه بصورة متعاظمة، ولا أدل على ذلك من ذكره أنه إذا أمر أحدهم بأن يتردى من شاهقة جبل فإنه يستجيب لذلك من أجل إرضائه(٦٧).

وقد تبدو رواية ذلك الرحالة فى هذا الصدد غريبة، بيد أننا نملك رواية أخرى من أحد المصادر التاريخية الصليبية تشير إلى أن الأمير الصليبى هنرى دى شامينى Henry de Champagne قد زار راشداً فى معقله، فأراد الأخير، أن يظهر له سيطرته على أتباعه فأمر إثنين منهم بأن يلقوا بأنفسهم من فوق قمة جبلية، وقد نفذا ذلك الأمر(٦٨)، من فورهما ودونما معارضة.

وهكذا تأكدت رواية ابن جبير من خلال ورود رواية أخرى متطابقة فى المصادر التاريخية الصليبية. ومثل تلك الروايات تعكس سيطرة شيخ الجبل على أتباعه وأن طاعتهم له كانت طاعة مطلقة، ويبدو أن تلك الطاعة قد أثارت عليه حق القاعدة الأم للدعوة الاسماعيلية فى إيران ونعنى بها ألموت، فأرسلت إلى راشد الدين سنان من يقضى عليه، بيد أن تلك المحاولة باءت بالفشل(٦٩) وهكذا ألقت رحلة ابن جبير الضوء على تلك القيادة الاسماعيلية الشامية.

زد على ذلك، أن رحلة ابن جبير عنيت عناية خاصة بتتبع ظاهرة تعليمية هامة عاشتها بلاد الشام فى ذلك العصر، ألا وهى ظاهرة المدارس، وتجدر الإشارة إلى أن ذلك

العصر عرف على أنه عصر المدارس، التي انتشرت في كافة أنحاء بلاد الشام كجزء من انتشارها فى العديد من أقاليم الشرق الأدنى كجزء من حركة تعليمية ثقافية ناهضة، وكتعبير عن حركة الاجتهاد السنى التى كانت من خلال تلك المؤسسات التعليمية.

وفى هذا المجال نجد أن المدارس، والجوامع، والكتاتيب تقوم بدورها الهام فى المجال التعليمى والتثقيفى؛ من أجل تخريج كوادر مدربة يمكنها التصدى للمد الشيعى الاسماعيلى، وحتى يتمكن المسلمون من التمسك بدينهم أكثر من ذى قبل فى عصر شهد الصراع بين عالمى الإسلام، والمسيحية.

وهكذا وجدنا ذلك الرحالة الأندلسى، يوضح أن فى مدينة دمشق عشرين مدرسة(٧٠)، وفى هذا تعبير واضح عن تفوق ظاهرة المدارس فى حاضرة الشام الكبرى، ونعنى بها دمشق، وقد لقيت المدرسة النورية التى أقامها الملك العادل نور الدين محمود إعجاب ذلك الرحالة(٧١)، وقد وصفها بعبارات تعكس ذلك الإعجاب، من ذلك قوله بأنها «من أحسن مدارس الدنيا» كذلك وصفها بأنها «قصر من القصورالأنيقة»(٧٢).

ومن الملاحظ أن عرض ذلك الرحالة لأعداد المدارس نجده يتناقص بالتدريج بالنسبة للمدن الأخرى فى بلاد الشام. إذا ما قارناها بدمشق، من ذلك أنه عدد فى حلب حاضرة الشام الشمالية نحو خمس أو ست مدارس(٧٣)، أما حماة ففيها ثلاث مدارس(٧٤)، وفى حمص يتناقص العدد ليصل إلى مدرسة واحدة(٧٥)، على نحو عكس دلالات هامة عن ذلك العصر.

والواقع أن ذلك التناقص فى أعداد المدارس بالمقارنة بما فى مدينة دمشق، يرجع فى المقام الأول إلى مظاهر النمو الحضارى، والكثافة السكانية، إذ أن دمشق – التى وجد فيها العدد الأكبر من المدارس – زاد عمرانها وازداد عدد سكانها بشكل واضح، وذلك يمكن ملاحظته من خلال أوصاف نفس الرحالة إذ أشار إلى أن المرافق بها «أكثر من أن

توصف»(٧٦)، كما أنه عدد فى تلك المدينة مائة حمام(٧٧)، وفى أرباضها ونواصيها أربعين داراً، من أجل الوضوء(٧٨). كما أنه أشار إلى أن أبنية المدينة تصل إلى ثلاثة طوابق(٧٩)، أما من الناحية السكانية فقد ذكر نفس الرحالة أنه «أكثر بلاد الدنيا خلقاً»(٨٠)، وفى هذا دليل واضح على النمو الحضارى والعمرانى لدمشق، والكثافة السكانية المتزايدة بها.

ولا مراء، فى أن مدينة ذلك هو طابعها، من الطبيعى أن نجدها تستأثر بأكبر عدد من المدارس، إذا ما قورنت بالمدن الأخرى الأصغر فى بلاد الشام.

وقد حرص ذلك الرحالة على أن يوضح مظاهر الحركة التعليمية فى الجوامع، من ذلك تناوله لتعليم الصبيان فى الجامع الأموى بدمشق، وكيف أنهم يدربون على تحفيظ القرآن الكريم، وأن هناك الإقبال من جانب الصبيان من أجل تعلم كتاب الله تبارك وتعالى. وقد ذكر أن المعلم لا يعمل بشئ سوى تلقين الصبيان كما أن الصبى متفرغ للتعلم فقط(٨١).

وإلى جانب ذلك الجانب، نجد ذلك الرحالة قد حرص على إيراد ناحية هامة، ونعنى بها النهضة الطبية التى وجدت فى بلاد الشام فى ذلك العصر، وتمثلت تلك النهضة بصفة عامة فى إقامة البيمارستانات فى العديد من المدن الشامية وكذلك فى الرعاية الطبية الكبيرة التى لقيها المرضى، وفى هذا الشأن، نجد أن ابن جبير قد أشار إلى وجود بيمارستانين للمرضى فى دمشق(٨٢)، وأن هناك بيمارستان قديم وكذلك بيمارستان حديث، وقد قرر أن الحديث أكبر وأكثر فخامة، وذكر أيضاً أن هناك نظاماً محدداً فى استقبال المرضى، وتسجيلهم فى سجلات، وتم تدوين ما يحتاجه المرضى من الأدوية والأغذية. ويقوم الأطباء المعالجون بالذهاب إلى البيمارستان فى ساعة مبكرة من الصباح، ويقومون بتفقد المرضى، ويقررون لهم الأغذية والأدوية الخاصة بكل حالة

مرضية(٨٣). على نحو عكس مدى درجة التحضر العالية التى بلغها المجتمع الإسلامى فى بلاد الشام فى ذلك العصر.

أما إذا ما اتجهنا إلى حاضرة شمال الشام وهى حلب، فنجد أن بها مارستاناً واحداً كما يقرر ذلك الرحالة(٨٤). وفى حماة لاحظ وجود مارستان على شاطئ نهر العاصى(٨٥) أما حمص؛ فعندما سأل أحد الشيوخ عن وجود مارستان بها، أنكر عليه سـؤاله، وأجاب بأن «حمص كلها مارستان»(٨٦).

وتجدر الإشارة إلى أن بلاد الشام فى عصر الحروب الصليبية وعلى مدى القرنين السادس والسابع الهجرى/ الثانى عشر والثالث عشر الميلادى قد شهدت ظهور العديد من الأطباء البارعين فى العديد من المجالات والعلوم الطبية، ولا أدل على ذلك من التراجم الضافية التى أوردها ابن أبى أصيبعة(٨٧) (ت ٦٦٨هـ/ ١٢٨٠م) فى كتابه البارز عيون الأنباء فى طبقات الأطباء، حيث ضمن كتابه عدداً وافراً من الأطباء الشاميين الذين برعوا فى ذلك العصر. ولا نزاع فى أن احتدام الصراع الإسلامى/ الصليبى، وسقوط الجرحى والقتلى قد عمق ضرورة العناية بالطب وأمور المعالجة، كما أن ذلك الصراع جعل فكرة العناية بالقوة البشرية الإسلامية أمراً ملحاً على أساس أن تلك القوة كانت أحد مظاهر العمق الدفاعى الاستراتيجى الإسلامى فى المواجهة الإسلامية/ الصليبية من خلال الكثافة السكانية التى تميز بها على خصمه الصليبى.

وبالإضافة إلى كافة تلك العناصر السابقة. نجد أن ابن جبير قد أورد فى رحلته عدداً من المزارات الدينية الإسلامية والمسيحية فى بلاد الشام. فى عصر اشتهر بظاهرة التبرك بالقبور والأضرحة.

ولذا نجده يذكر أن بغربى دمشق جبانة كبيرة خاصة بقبور الشهداء وفيها عدد وافر من قبور الصحابة والتابعين، ومن القبور المشهورة هناك قبر أبى الدرداء وأم الدرداء ثم

قبر فضالة بن عبيد وسهل بن النظامية وهما من الذين قاموا بمبايعة الرسول ﷺ تحت الشجرة(٨٨). وكذلك قبر لخال معاوية بن أبى سفيان، أما فى حمص فنجد أنه أشار إلى قبر خالد بن الوليد وكذلك قبر ابنه عبدالرحمن، وقبر عبيد الله بن عمر(٨٩)، وفى حلب نجده يقرر وجود مشهد لإبراهيم الخليل وقد أشار إلى أن الناس يقصدونه بالزيارة ويتبركون بالصلاة هناك(٩٠).

وبالإضافة إلى يذلك نجده قد أورد مزارات خاصة بالمسيحيين، ومن ذلك إشارته إلى كنيسة مريم الموجودة فى مدينة دمشق، وقد ذكر أمر مكانتها العالية فى نفوسهم، وأوضح تفوق عمارتها والصور الموجودة بها، والناحية الهامة التى أشار إليها أنها بأيدى الروم وأضاف «ولا اعتراض عليهم»(٩١)، وهكذا أتت تلك الأسطر لتعبر عن التسامح الدينى الذى عاش خلاله المسيحيون تحت الحكم الإسلامى فى مدن بلاد الشام، على الرغم من استعار العداء بين المسلمين والغزاة الصليبيين الذين غزوا المنطقة تحت شعار الصليب، وبقاء أماكن عبادتهم دون أن تمس بالأذى أو طمس المعالم.

ويلاحظ أن ابن جبير لم يحرص على أن يذكر الأماكن المقدسة المسيحية فى المناطق الخاضعة للسيادة الصليبية، وذلك على عكس الإدريسى الذى حرص على إيرادها بصورة مفصلة إلى حد ما تشابه بذلك مؤلفات الرحالة الأوروبيين أنفسهم والتعليل الرئيسى الكامن وراء ذلك أنه لم يدخل مدينة بيت المقدس أصلاً.

وإضافة إلى ما سبق، نجد أن ابن جبير يقدم تناولا هاماً لأوضاع المسلمين الخاضعين للاحتلال الصليبى، وفى ذلك أوضح أن المسلمين يؤدون للصليبيين نصف الغلة، كما أن هناك جزية على كل رأس تبلغ ديناراً وخمسة قراريط، كما أن هناك ضريبة على التجار، وباستثناء ذلك فإن مساكن المسلمين بأيديهم، وجميع أموالهم متروكة لهم، ويقرر أن ذلك هو أسلوب الصليبيين فى التعامل مع من فى نطاق أملاكهم من مدن الساحل الشامى(٩٢).

وتجدر الإشارة إلى أن الوضع السابق ينبغي ألا يجعلنا نتصور أن المشروع الصليبي نجح في أن يمزج المسلمين مع الصليبيين في نسيج واحد مشترك، إذ أن الصليبيين نظروا باستمرار نظرة شك وارتياب للمسلمين الخاضعين لهم، وقد قرر ذلك صراحة أحد الرحالة الأوروبيين ونعني به تيودريش Theoderich(٩٣)، ومما زاد من صعوبة الموقف أن الغزاة لم يقدروا على التخلي عن الخدمات التي يمكن أن يؤديها السكان المحليون من المسلمين، لاسيما في مجال الزراعة، نظراً لكثرة أعدادهم ولخبرتهم الواسعة في ذلك المجال، بالإضافة إلى أن الصليبيين قد عانوا أصلا من مشكلة نقص العنصر البشرى. ناهيك عن طبيعة المشروع الصليبي نفسه، كمشروع استعمارى - أى استعمارى ، استيطاني، على نحو جعل إمكانية المسالمة بين الجانبين أمراً مستبعداً، وإن حدثت فهى في أضيق نطاق وأندره.

ويقرر المؤرخ السوفييتي المعاصر ميخائيل زابوروف، أنه عندما استقر السادة الجدد (يعني الصليبيين) في الأراضي المغتصبة المفتوحة، حولوا الفلاحين في القرى من المسلمين والمسيحيين إلى أقنان، وقضى القادمون على آخر بقايا حرية السكان القرويين الشخصية(٩٤).

ومن جهة أخرى، ينبغي ألا يتصور المرء أن الوضع الذى أشار إليه ابن جبير يتسم بالطابع العام الشامل لكافة المسلمين الخاضعين للسيطرة الصليبية. فمن الأمور الجديرة بالملاحظة أن ابن جبير نفسه أشار إلى زاويتين هامتين، هما وضع أسرى المسلمين الذين رآهم في مدينة عكا الصليبية، وهم يرسفون في الأصفاد، وخاصة النساء «وفي أسوقهن خلاخيل الحديد» على حد قوله، وقد ذكر أن الأسرى المسلمين يوجهون للقيام بالأعمال الشاقة المجهدة. وعبر عن الحسرة الشديدة حيالهم، حيث لا تنفع ولا تفيد(٩٥).

أما الناحية الثانية التى تتضح من خلال رواية ابن جبير أننا نجده يشعر بالمرارة لوجوده داخل نطاق السيطرة الصليبية، على الرغم من أنه مجرد زائر لمدة أيام قلائل فما بالك بمن اضطر إلى الإقامة المستمرة، وقد ضاق ذرعاً بمظاهر الصلبان، ووجود الخنازير، وجميع المحرمات(٩٦) بنص تعبيره، ناهيك عن مظاهر الإنحلال الخلقى داخل المجتمع الصليبى ذاته. وقد أورد ذلك الرحالة عبارة ذات دلالات عميقة عن اغتراب المسلم داخل الوجود الصليبى عندما أبدى ندمه الشديد لتورطه بزيارة تلك المناطق، وقدم نصيحة عامة لكل من يفكر فى أن يشد الرحال إلى هناك بقوله «فالحذر الحذر من دخول بلادهم، والله تعالى المسئول حسن الإقامة والمغفرة من هذه الخطيئة التى زلت فيها القدم ولم تتداركها إلا بعد موافقة الندم»(٩٧)، وجاءت عبارته تلك من خلال موقف نفسى هابط ومعنويات منحدرة لوجوده داخل مناطق الاحتلال الصليبى.

وهكذا، فإن إشارة ابن جبير إلى تعامل الصليبيين المحدد تجاه المسلمين فى مجال الضرائب وغيرها مع ترك أموالهم وممتلكاتهم بأيديهم، يحتل أحد جوانب السياسة الصليبية فى التعامل معهم، ولكن وجدت مظاهر أخرى، أمكن استخلاصها من نفس تلك الرحلة الهامة.

وإضافة إلى ما سبق، نجد أن ابن جبير قد حرص على إيراد بعض الجوانب الخاصة بالعادات والتقاليد الاجتماعية سواء لدى المسلمين والصليبيين، على نحو أدى إلى إثراء رحلته بصورة واضحة.

فمن ذلك، تناوله لعادات الدماشقة فى الاجتماع بصحن المسجد الأموى، حيث قرر أنه متنزههم كل عشية، حيث يمضون وقتهم هناك، رائحين غادين، وحدد ذلك الموقع بأنه من باب جبرون، إلى باب البريد، ومن ازدحام القوم فى ذلك المكان أشار إلى أن المرء قد يتصور «أنها ليلة السابع والعشرين من رمضان»، أى ليلة القدر على الأرجح(٩٨).

وإذا كان ابن جبير قد تناول عادات الدماشقة فى التمتع بمباهج الحياة البريئة، فإنه وصف لنا الجانب الآخر، ونقصد به عاداتهم فى الجنائز. وفى هذا المجال، أشار إلى أنهم يسيرون فى الجنائز بقراء يقومون بقراءة القرآن الكريم بأصوات شجية محزنة، تؤثر فى النفوس تأثيراً بالغاً، وتنهال على أثر سماعها العبرات، وتتم الصلاة على الجنائز فى الجامع الأموى قبالة المقصورة، كما أنه قرر أن من الممكن أن يجتمع الناس من أجل العزاء، وذلك فى البلاط الغربى من صحن المسجد، وحدده بأنه فى مواجهة باب البريد(٩٩).

وتوضح إشاراته السابقة، أهمية المسجد فى حياة الدماشقة فى ذلك العصر، وأنه مثل قلب الحياة الدينية والاجتماعية، مثلما كان دوره دوماً فى حياة الجماعة المسلمة منذ فجر الإسلام.

ومن جهة أخرى، حظى الجانب الاجتماعى لدى الصليبيين على اهتمام ذلك الرحالة. وفى هذا المجال، نجد أنه أشار إلى حفل زفاف لعروس صليبية فى مدينة صور اللبنانية، وقد اتسم وصفه لذلك الحفل بالحيوية، وأيضاً بالتحفظ تجنباً للفتنة، وقد ذكر أنه احتفل بالأمر جميع عناصر الصليبيين من الرجال والنساء، وقد تم اصطفاف سماطين عند باب العروس، وعزفت الآلات الموسيقية احتفالا بتلك المناسبة.

وقد قام ابن جبير بوصف ثياب تلك العروس الصليبية، فأورد أنها ارتدت أفخر ثياب وأزهاها، وأشار إلى أن ملابسها صنعت من الحرير المذهب(١٠٠)، حيث ازدهرت صناعة الملابس الحريرية فى العديد من المدن الشامية سواء تلك الخاضعة للسيادة الصليبية أو الإسلامية.

وبصفة عامة، يُعد إيراد ابن جبير لتلك المناسبة أمراً هاماً زاد من إيجابيات رحلته، وبصفة عامة تمثل تلك الحادثة جانباً يكاد يكون استثنائياً فى وسط الكم الهائل من الأحداث الحربية والسياسية التى أوردها مؤرخو ذلك العصر سواء المسلمين أو الصليبيين،

من خلال طبيعة العصر التاريخى نفسه، وهو عصر غلبت عليه صفة الصراع العنيف بين الجانبين.

وهذا الأمر، محدود أصلا فى المصادر العربية فيما يتصل بالمسلمين، والأمر أشد بالنسبة للصليبيين أنفسهم ومظاهر الحياة المختلفة عندهم، وخاصة من خلال عيون أعدائهم المسلمين.

من جهة أخرى، أشار ابن جبير إلى الجانب الحربى وما اتصل بالقلاع والحصون، وهى التى مثلت المظهر البارز للعمارة الحربية فى ذلك العصر، وقد أشار إلى ذلك الجانب لدى كل من الصليبيين، والمسلمين.

وتجدر الإشارة إلى أن ابن جبير ذكر أمر القلاع الصليبية بيد أنه أشار إلى القليل منها، خاصة حصن الأكراد Crac des Cheraliers الذى كان الصليبيون يغيرون منه على المدن الإسلامية المجاورة مثل حماة وحمص، وكان على مسافة قريبة منها، حيث أن ذلك الرحالة أشار إلى أنه «بمرأى العين منهما»(١٠١).

كذلك تعرض لقلعة صليبية أخرى، ونعنى بها قلعة تبنين Toron، ووصفها بأنها حصن كبير من حصون الصليبيين(١٠٢).

ومن جهة أخرى، تعرض لحصن الكرك Krak de Montrial الواقع على طريق الحجاز، وأشار إلى منازلة السلطان الناصر صلاح الدين الأيوبى له(١٠٣).

ومن جهة أخرى، قدم ابن جبير فى عبارة موجزة تناولاً لأمر حصن كبير يعرف بالزاب، ووصفه بأنه مطل على قرى وعمائر متصلة، ويطل على قرية تعرف باسكندرونة(١٠٤)، والواقع أنه ليس من السهل معرفة عما إذا كانت تلك التسمية التى أطلقها ابن جبير على ذلك الحصن يقصد بها قلعة اسكندرونة(١٠٥)، ذاتها أم أن

المقصود قلعة أخرى، وهو أمر ليس من الممكن التحقق منه، نظراً لعدم وضوح نص ابن جبير فى هذا الصدد.

ومن جهة أخرى، أشار إلى عدد من القلاع والحصون الإسلامية، من ذلك تعرضه لقلعة دمشق، وقد أوضح أن السلطان يسكنها وحدد موقعها بأنها فى مواجهة باب الفرج(١٠٦)، وهو أحد أبواب المدينة، أما قلعة حلب فقد امتدحها من حيث ارتفاعها الشاهق، كذلك مناعتها، وذكر أن حصانتها الذى يصعب وصفه. وأشار إلى أن سورها الأعلى كله أبراج منتظمة، كما أن بداخلها نجد المساكن السلطانية، والمنازل الملوكية(١٠٧).

وتجدر الإشارة إلى قلعتى دمشق، وحلب، كانتا محل اهتمام واضح من الجغرافيين، والرحالة المسلمين الذين قدموا إلى بلاد الشام، فى عصر الحروب الصليبية، وإن كانت إشاراتهم فى هذا المجال متشابهة. وهو أمر ينطبق على ما أورده ابن جبير نفسه فى ذلك المجال.

كذلك نجد أن ابن جبير أشار إلى قلعة حماة، ووصفها بأنها على ربوة كبيرة مستديرة، وتناول أمر حصانتها ومناعتها، وتوافر المياه بها، من أجل سقاية الجنود(١٠٨)، أما حمص فتناول قلعتها ووصفها بالمنعة، وفى بزاغة ذكر قلعتها الكبيرة المنيعة(١٠٩)، وإن لم يقدم أية تفصيلات أخرى بشأنها.

وتجدر الإشارة إلى أن المسلمين شيدوا عدداً من القلاع، والحصون فى بلاد الشام فى عصر الحروب الصليبية(١١٠)، بيد أن قلاعهم كانت أقل فى العدد إذا ما قورنت بقلاع أعدائهم من الصليبيين، خاصة إذا ما لاحظنا أن الأخيرين كانوا فى الأصل غزاة غرباء وافدين على المنطقة، وعانوا من مشكلة ظلت تؤرقهم على مدى قرنين من الزمان، ونعنى بها مشكلة نقص العنصر البشرى(١١١)، بينما كان المسلمون هم أصحاب الأرض الأصليين بالإضافة إلى أنهم مثلوا كثافة سكانية واضحة، بالمقارنة بأعدائهم.

مهما يكن من أمر، فإن رحلة ابن جبير فى ربوع بلاد الشام قدمت لنا إشارات هامة ومتوازنة فى الغالب عن قلاع الطرفين المتحاربين الإسلامى والصليبى مع ملاحظة أنها اقتصرت فى الغالب على تناول أمر الحصانة والمنعة وتهديد الأعمال الجاورة دون أن تتطرق إلى الزوايا المعمارية بالحديث، على نحو أفقدها جانباً هاماً كان من الممكن - فى حالة إيراده - أن تزيد من قيمة روايات ذلك الرحالة الأندلسى فى هذا الصدد. ومع ذلك من الإنصاف أن نقرر أن هذا الرحالة لا ينفرد بذلك الجانب، بل إنه ذات النهج الذى سار عليه الجغرافيون والرحالة المسلمون الذين تناولوا بلاد الشام فى ذلك العصر.

وهكذا، احتوت رحلة ابن جبير على تناول هام لكافة الجوانب المتصلة بحياة بلاد الشام سواء من ناحية المسلمين أو الصليبيين على نحو جعله واحداً من أكثر الرحالة المسلمين الذين زاروا بلاد الشام ثراء فى مادة الرحلة ذاتها والأضواء الكاشفة التى ألقتها رحلته على أوضاع بلاد الشام فى عصر الحروب الصليبية، ولاسيما خلال القرن السادس الهجرى/ الثانى عشر الميلادى.

الهوامش

(١) عن مصادر ومراجع ترجمة ابن جبير أنظر :

لسان الدين بن الخطيب، الاحاطة فى أخبار غرناطة، حـ٢ ، تحقيق عبدالله عنان، ط. القاهرة ١٩٧٤م، ص٢٣٠-٢٣٩ ؛ المقرى، نفح الطيب فى غصن الأندلس الرطيب، حـ٣، ط. القاهرة ١٩٤٩م، ص١٤٣ ؛ ابن الصابونى، تكملة الإكمال، تحقيق مصطفى جواد، ط. بغداد ١٩٥٧م، ص١٩٩، حاشية (٢)، كراتشكوفسكى، تاريخ الأدب الجغرافى العربى، ت. صلاح الدين هاشم، ق١ ، ط. القاهرة ١٩٦٣م، ص٢٩٧-٢٩٨ ؛ صلاح الدين المنجد، المشرق فى نظر المغاربة والأندلسيين، ط. القاهرة ١٩٦٠م، ص١٨-١٩ ؛ عبدالقدوس الأنصارى، مع ابن جبير فى رحلته ط. القاهرة ١٩٧٦م، ص٢١-٣٦ ؛ هنرى لامنس، بلاد سوريا فى القرن الثانى عشر وفقاً لرواية ابن جبير، المشرق، العدد (٧)، السنة (١٠) عام ١٩٠٣م، ص٣٨٧ ؛ شوقى ضيف، الرحلات ط. القاهرة ١٩٥٦م، ص٣٠-٧١ ؛ زكى حسن، الرحالة المسلمون فى العصور الوسطى، ص٧-٧١ ؛ عبدالفتاح وهيبة، جغرافية العرب فى العصور الوسطى، ص١٨-١٩ ؛ براون، تاريخ الأدب فى إيران من الفردوس إلى السعدى، ت. الشواربى، ط. القاهرة ١٩٥٤م، ص٦١٤ ؛ أحمد رمضان، الرحلة والرحالة المسلمون، ص٣٢٣ ؛ سامى الدهان، قدماء ومعاصرون، ط. القاهرة ١٩٦١م، ص١٢٠-١٣١ ؛ محمد مؤنس أحمد عوض، الصراع السنى/ الشيعى فى بلاد الشام فى القرن السادس الهجرى، الثانى عشر الميلادى من خلال رحلة ابن جبير، ندوة العرب وآسيا، جامعة القاهرة، أبريل ١٩٨٩م، ص١٢-١٣ ؛ محمد محمود محمدين، الجغرافيا والجغرافيون بين الزمان والمكان، ط. الرياض ١٩٨٣م، ص١٥٣ ، التراث الجغرافى الاسلامى، ط. الرياض ١٩٨٤م، ص١٥٥-١٥٦ ؛ حمد الجاسر، أشهر رحلات الحج، ط. الرياض، ١٩٨٢م، ص١٩ ؛ جورجى زيدان، تاريخ آداب اللغة العربية، م٢/ حـ٣، ص٩٠ ؛ نقولا زيادة، ابن جبير، عالم، وفقيه، وأديب، ورحالة، العربى، العدد (١٩)، يونيو ١٩٦٠م، ص١١٧ ؛ أحمد أبو سعد، أدب الرحلات فى الإسلام، رجب ١٣٩٦هـ/ يوليه ١٩٧٦م، ص٦٧ ؛ أبو الحسن على الندوى، مختارات من أدب العرب، حـ١ ، ط. جدة ١٩٧٨م، ص١٠٣ ؛ عبدالرحمن الحجى، التاريخ الأندلسى، ط. بيروت ١٩٧٦م، ص٥٠٣.

وتجدر الإشارة إلى أن جرير أبى حيدر، قد ذكر أن نسب ابن جبير هو أبو الحسين محمد بن

أحمد بن جبير الكنعانى، لكن هذا لا يجد سنداً من المصادر الأصلية، وهو الكنانى وليس الكنعانى، أنظر إشارته :

جرير أبى حيدر، رحلات أندلسية ثلاثة، البكرى، والإدريسى، وابن جبير، مجلة الفكر العربى، العدد (٥١) يونيو ١٩٨٨م، ص١٠٥.

(٢) عن طبعات رحلة ابن جبير نعرف أنه قد اهتم بها عدد من المستشرقين خاصة وليم رايت W. Wright، وكذلك اسكياباريلى Schiaparelli، وقد نشر رايت رحلة ابن جبير للمرة الأولى عام ١٨٥٢م، وصدر عمله فى ليدن Leyden عام ١٨٥٢م أنظر :

Wright, The Travels of Ibn Jubair, ed. by W. Wright, Leyden 1852.

أما الطبعة الثانية فكانت بمراجعة المستشرق دى جويه De Geoye ونشرت ضمن سلسلة جب التذكارية، الجزء الخامس، وصدرت فى ليدن Leyden عام ١٩٠٧م.

The Travel of Ibn Jubayr edided from a ms. in the university library of leyden by wright, second edition revised by M.J. de Goeje and printed for trustees of the E.J.W. Gibb memorial, Leyden 1907.

أما عن جهد سكياباريلى، فقد صدر فى روما عام ١٩٠٦م وبعنوان :

Schraparelli, Ibn Gubayr (Giobeir) Viaygio in Ispagna, Sicilia, Siria, Palestina, Mesopotamia, Arabia, Egitto, compiute mel secole XII, primo Traduzione Sull, Oriyinale arabe J.A.C. Schiaparelli, Roma 1906.

عن ذلك أنظر :

بالنثيا، تاريخ الفكر الأندلسى، ص٣١٧؛ كراتشكوفسكى، المرجع السابق، ص٩٨٢-٩٩٦؛ عبدالرحمن حميدة، أعلام الجغرافيين العرب، ص٣٣٤؛ سيد حامد النساج، مشوار كتب الرحلة (قديماً وحديثاً)، ط. القاهرة ب-ت، ص٢٠.

Thomsen, Die palastina - Literatur Eine internationale Bibliographie in Systematisher Ordnung mit Autoren - und Sachregister, Band II, Leipzeg 1911, p. 11.

والجدير بالذكر، أن حسين نصار قام بتحقيق رحلة ابن جبير، وصدر عمله فى القاهرة عام ١٩٥٥م، وأعيد طبعه عام ١٩٩٢م، كما صدرت عدة طبعات تجارية للرحلة المذكورة فى بيروت، ومنها طبعة عام ١٩٦٤م، وهى التى استعنت بها فى إعداد هذا الفصل.

(٣) لسان الدين بن الخطيب، المصدر السابق، حـ٢، ص٢٣٠.

(٤) نفسه، نفس المصدر، حـ٢، ص٢٣١.

(٥) نقولا زيادة، الجغرافيا والرحلات عند العرب، ص١٦٠.

(٦) لسان الدين بن الخطيب، المصدر السابق، حـ٢، ص٢٣١، ٢٣٣؛ شوقى ضيف، المرجع السابق، ص٧٠-٧١؛ يوسف الغزو، المرجع السابق، ص١٠٥.

(٧) نفسه، نفس المرجع والصفحة.

(٨) لسان الدين بن الخطيب، المصدر السابق، حـ٢، ص٢٣٣؛ نقولا زيادة، رواد الشرق العربى فى العصور الوسطى، ص٨٢.

(٩) يوسف الغزو، المرجع السابق، ص١٠٥.

(١٠) حاجى خليفة، كشف الظنون، حـ١، ق٢، ص٨٣٦.

(١١) نقولا زيادة، ابن جبير، ص١١٨.

(١٢) حسين نصار، مقدمة تحقيق رحلة ابن جبير، ص٢٦٩، حاشية (١)؛ أيضاً نقولا زيادة، دمشق فى عصر المماليك، ط. بيروت ١٩ م، ص١٢٨.

(١٣) نقولا زيادة، ابن جبير، ص١١٨؛ أحمد أبو سعد، المرجع السابق، ص٦٠.

(١٤) كراتشكوفسكى، تاريخ الأدب الجغرافى العربى، ط. بيروت ١٩٨٧م، ص٣٣٥.

(١٥) صلاح الدين هاشم، الإسلام والفكر الجغرافى العربى. ط. الاسكندرية ١٩٧٨م، ص١٤٩-١٥٠.

(١٦) محمد محمود محمدين، المرجع السابق، ص١٥٣؛ ابراهيم الكردى وعبدالتواب شرف الدين، المرجع فى الحضارة العربية الاسلامية، ط. الكويت ١٩٨٤م، ص٢٧٨.

(١٧) ابن جبير، الرحلة، ط. بيروت ١٩٦٤م، ص٢٤٧، ٢٥١؛ من ذلك ذكره لقراءته كتاب تاريخ ابن العلى الأسدى وكذلك كتباً فى فضائل دمشق.

(١٨) عن ذلك أنظر الفصل الخاص بالإدريسى.

(١٩) ابن جبير، المصدر السابق، ص٢٧٦؛ زكى حسن، المرجع السابق، ص٨٥.

(٢٠) ابن جبير، المصدر السابق، ص٢٧٦؛ محمد مصطفى زيادة، رحلة ابن جبير ورحلة ابن بطوطة، ط. القاهرة ١٩٣٩م، ص١٨.

(٢١) ابن جبير، المصدر السابق، ص٢٧٦.

(٢٢) نفسه، نفس المصدر والصفحة.

(٢٣) نفسه، نفس المصدر والصفحة.

(٢٤) نفسه، نفس المصدر، ص٢٧٧-٢٧٨.

(٢٥) نفسه، نفس المصدر، ص٢٧٨.

(٢٦) نفسه، نفس المصدر، ص٢٣٨.

(٢٧) نفسه، نفس المصدر، ص٢٦١.

(٢٨) نفسه، نفس المصدر، ص٢٢٦-٢٢٧. وعن أسواق حلب أنظر:

Sauvaget, Alep, Essai sur le development d'une grande Ville, p. 119-121.

(٢٩) ابن جبير، المصدر السابق، ص٢٣١.

(٣٠) نفسه، نفس المصدر، ص٢٢٤.

(٣١) نفسه، نفس المصدر، ص٢٣٢.

(٣٢) نفسه، نفس المصدر والصفحة.

(٣٣) ابن جبير، المصدر السابق، ص٢٢٨.

(٣٤) كامل العسلى، من آثارنا فى بيت المقدس، ص٣٩.

ويلاحظ أن الخان مبنى كبير اشتمل على مجموعة من الحوانيت الكبيرة، والصغيرة، ومخازن للبضائع، ويتوسطه فنار كبير على شكل رواق مغطى من أجل أن يحفظ التجار سلعهم، ويجدوا مأوى لهم، ولدوابهم خلال ارتحالهم، وقد عنيت الخانات بشكل خاص بعمليات التخزين ولم توجد فى المدن فقط، بل أيضاً على امتداد الطرق التجارية فى بلاد الشام، والجزيرة، وقد وجدت من الخانات أنواع كبيرة الحجم، وأنواع أخرى صغيرة، وفق قدراتها على تخزين البضائع، ومن الخانات الشامية الشهيرة وقت زيارة ابن جبير خان أبى الشكر، وخان تمنى، وخان حماة. عن الخانات أنظر:

ابن جبير، المصدر السابق، ص٢٢٨؛ نعيم زكى، طرق التجارة الدولية أواخر العصور الوسطى، ط. القاهرة ١٩٧ م، ص٢٩٣؛ أشتور، التاريخ الاقتصادى والاجتماعى للشرق الأوسط فى العصور الوسطى، ص ٣٠٥؛ فتحى عثمان، الحدود الإسلامية/ البيزنطية بين الاحتكاك الحربى والتأثير الحضارى، حـ٣، ط. القاهرة ١٩٦٦م، ص٢٣٤؛ عبدالقدوس الأنصارى، مع ابن جبير فى رحلته ص١١٣.

(٣٥) ابن جبير، المصدر السابق، ص٢٧٣.

(٣٦) كامل العسلى، المرجع السابق، ص٣٩، حاشية (٢).

والجدير بالذكر، أن القيسارية عبارة عن بناء كبير تتوزع فيه الحوانيت على الجانبين. ولذا فهي تتخذ شكل السوق، وكلمة قيسارية هي تعريب للكلمة اللاتينية Caesares؛ حيث ان الرومان استعملوها كمستودع لبضائعهم، واحتوى على كافة السلع مثل الطراز، والفرش، والفراء، والمجوهرات، وتم اغلاقها ليلاً، وفرضت عليها الحراسة من أجل مواجهة هجمات اللصوص، ومن القياسر البارزة في بلاد الشام وقت زيارة ابن جبير لها، قياسر الجعفري، ودرب اللبان، والفراء، والفرش، والسلطان والوزير. عن القياسر أنظر :

ابن جبير، المصدر السابق، ص٢٢٧؛ ابن مماتي، قوانين الدواوين، تحقيق عزيز سوريال عطية، ط. القاهرة ١٩٤٨م، ص٤٥٧؛ ابن عساكر، المصدر السابق، م (٢)، ص٧٠، ص١٤١، ص١٥٧، ١٥٩؛ اليسيف، الحياة الاقتصادية في دمشق في عهد نور الدين محمود، ضمن الكتاب التذكارى عن ابن عساكر، ط. دمشق ١٩٧٩م، ص٣٠٥؛ نوال محمد عبدالله، العمران في المشرق العربي في القرن السادس، قراءة في رحلة ابن جبير، المؤتمر الجغرافي الاسلامي الأول، جامعة الإمام محمد بن سعود الاسلامية، المجلد الثالث، ط. الرياض ١٩٨٤م، ص٣٧٨؛ ماجد، ظهور خلافة الفاطميين وسقوطها في مصر، ط. القاهرة ١٩٦٨م، ص٣٠١؛ شاكر أبو بدر، الحروب الصليبية والأسرة الزنكية، ص٢٠٠.

Elisseeff, "Corporation de Damas sous Nur Al-Din Materiaux pour Une topographie economique de Damas au XIIe Siecle", R.E.A., T. III, Année 1956, p. 77.

(٣٧) ابن جبير، المصدر السابق، ص٢٦١.

(٣٨) نفسه، نفس المصدر، ص٢٨٠. وعن الاحتكار التجارى في العصر الأيوبي أنظر :

أنيس مقدسي، الدولة الأيوبية في رسائل ابن الأثير، مجلة الأبحاث، الجامعة الأمريكية بيروت، السنة (١٨)، م (٣)، حـ (٢)، سبتمبر ١٩٦٥م، ص٣٢٧.

(٣٩) ابن جبير، المصدر السابق، ص٢٨٠.

(٤٠) نفسه، نفس المصدر والصفحة.

(٤١) نفسه، نفس المصدر، ص٢٦٠؛ زكي حسن، المرجع السابق، ص٨٢-٨٣؛ البير شاندور، صلاح الدين الأيوبي، البطل الأنقى في الاسلام، ت. سعيد أبو الحسن، ط. دمشق ١٩٨٨م، ص٦٢.

وعن إشارة المصادر التاريخية لعصر الحروب الصليبية وخاصة مؤلفات الرحالة الأوروبيين للعلاقات التجارية بين الجانبين الاسلامي والصليبي أنظر :

Fetellus, p. 24; Theoderich, p. 65; Burchard of Mont Sion, p. 163; Ludolph Von Suchem, p. 5.

(٤٢) أحمد ربايعة، إسهامات بعض الرحالة العرب فى الدراسات الأنثروبولوجية المبكرة، مجلة دراسات، عمان، م (١٠)، العدد (١)، عام ١٩٨٣م، ص٤٤.

(٤٣) ابن جبير، المصدر السابق، ص٢٨١.

(٤٤) نفسه، نفس المصدر، ص٢٨٠.

(٤٥) نفسه، نفس المصدر، ص٢٧٤.

(٤٦) من دور المغاربة فى الجهاد فى بلاد الشام أنظر :

ابن جبير، المصدر السابق، ص٢٧٨؛ عبدالهادى التازى، بلاد الشام فى الوثائق الدبلوماسية المغربية، بحث ضمن أعمال المؤتمر الأول لتاريخ بلاد الشام، ط. عمان ١٩٧٤م، ص٤٣٤؛ السيد عبدالعزيز سالم، طرابلس الشام فى التاريخ الإسلامى، ط. الاسكندرية ١٩٦٧م، ص٢٤٩؛ عبدالقدوس الأنصارى، المرجع السابق، ص٢٣٧؛ أحمد بدر، الأندلسيون والمغاربة فى القدس، مجلة أوراق، المعهد الأسبانى العربى، العدد (٤)، عام ١٩٨١م، ص١٣٣؛ أحمد مختار العبادى، دور المغاربة فى الحروب الصليبية فى المشرق العربى، ضمن كتاب بحوث فى تاريخ الحضارة الاسلامية، ط. الاسكندرية ١٩٨٣م، ص ؛ على أحمد، الأندلسيون والمغاربة فى بلاد الشام، ص٣٠٣-٣٠٤.

(٤٧) ابن جبير، المصدر السابق، ص٢٥٠.

(٤٨) نفسه، نفس المصدر، ص٢٥٨.

(٤٩) نفسه، نفس المصدر، ص٢٨١.

(٥٠) أنظر الفصل الخاص بأسامة بن منقذ.

(٥١) ابن جبير، المصدر السابق، ص٢٥٦.

(٥٢) نفسه، نفس المصدر، ص٢٥٢.

(٥٣) حسين نصار، تحقيق لرحلة ابن جبير.

(٥٤) عن أبى البيان الزاهد وطريقته البيانية أنظر :

ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، حـ٥، ص٣٢٤، المنهل الصافى، ص٤٨، حاشية (٣)؛ النعيمى، الدارس فى تاريخ المدارس، حـ١، ص١٩٢؛ ابن العماد الحنبلى، شذرات الذهب، حـ٤، ص١٦٠.

(٥٥) Lewis, The Assassins, p. 114.

(٥٦) Demombyne, Muslim; Institutions, English Trans. by Meegnegor, London 1954, p. 41.

(٥٧) ابن جبير، المصدر السابق، ص٢٥٢.

(٥٨) عن بلدة الباب أنظر، الفصل الخامس، الباب الأول، حاشية (٢٤).

(٥٩) ابن جبير، المصدر السابق، ص٢٢٤.

(٦٠) نفسه، نفس المصدر والصفحة.

(٦١) عن ابن العديم، أنظر الفصل الرابع، الباب الأول، حاشية (٢٦).

(٦٢) ابن العديم، زبدة الحلب من تاريخ حلب، حـ٣، تحقيق سامى الدهان، ط. دمشق ١٩٦٨م، ص٣٢.

(٦٣) ابن جبير، المصدر السابق، ص٢٢٥.

(٦٤) فيما يتصل بجهود الخليفة الناصر لدين الله فى إحياء تقاليد الفتوة، نعرف أنه اتجه إلى إحداث نهضة فى هذا المجال، وقد سعى إلى بعث أخلاقياتها وآدابها التى وجدت لدى العرب منذ العصر الجاهلى. ووجدت هناك آداب متعددة للفتيان منها لبس السراويل، والأحزمة، وشرب الماء، والملح، وغيرها من المراسيم، ولدينا بعض المصادر المتخصصة فى الكتابة عن الفتوة وآدابها وتعود إلى عهد ذلك الخليفة، ومن أمثلتها ما ألفه ابن البقال البغدادى (ت ٥٨٨هـ/ ١١٩٢م) وكذلك ابن عمار الحنبلى (ت ٦٤٢هـ/ ١٢٤٤م)، ويبدو أن العديد من فرق الفتيان قد ظهرت فى ذلك العصر، مثل الرهاصية وهى المنسوبة إلى عمر الرهاص، والخليلية، وهى المنسوبة إلى إبراهيم الخليل عليه السلام وغيرها كثير.

عن ظاهرة الفتوة وجذورها التاريخية فى الجاهلية والاسلام ودور الخليفة الناصر لدين الله فى بحث آدابها أنظر :

ابن طباطبا، الفخرى فى الآداب السلطانية، ط. القاهرة ١٣١٥هـ، ص٢٨٧؛ ابن الأثير، الكامل حـ١٢، ص٤٤٠؛ ابن البغال، المقترح فى المصطلح فى تعليم رمى البندق والصيد، ألفه للخليفة الناصر لدين الله، مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ٣٥٠٦ج؛ ابن عمار الحنبلى، كتاب الفتوة، تحقيق مصطفى جواد، وآخرون، ط. بغداد ١٩٥٨م؛ الصفدى، نكت الهميان من نكتب العميان، ط. القاهة ١٩١١م، ص٩٣؛ عمر الدسوقى، الفتوة عند العرب، ط. القاهرة ب-ت،

ص٢٣٢؛ محمد صالح محيى الدين، الحياة السياسية ومظاهر الحضارة فى الشرق فى عهد الناصر لدين الله العباسى، رسالة دكتوراه غير منشورة، كلية الآداب، جامعة القاهرة، عام ١٩٧٤م، ص٦٧؛ محمد الحاج فلفل، علاقة الأيوبيين فى مصر والشام بالخلافة العباسية فى بغداد، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب، جامعة القاهرة عام ١٩٧٧م، ص١٠٧؛ أحمد أمين، الصعلكة والفتوة فى الإسلام، ط. القاهرة ١٩٥٣م، ص٦٦؛ واصف بطرس غالي، تقاليد الفروسية عند العرب، ت. أنور غالي، ط. القاهرة ١٩٦٠م، ص٣١؛ جيرارد زلنجر، الفتوة هل هى الفروسية الشرقية؟، ضمن كتاب دراسات اسلامية، ت. مجموعة من الباحثين بإشراف نقولا زيادة، ط. القاهرة ١٩٦٠م، ص ؛ كامل شيبى، همنكى ميان تصوف وتشيع، ط. تهران ١٣٥٤هـ، ص٢٨٧-٢٨٨.

(٦٥) راشد الدين، هو راشد الدين سنان بن سلمان محمد أبو الحسن البصرى، مقدم الاسماعيلية النزارية فى بلاد الشام فى عصر الحروب الصليبية، وهو فى الأصل من مدينة البصرة من قرية فيها تسمى عقر السدن، وبدأ حياته بتعليم الصبيان، وقدم مقدمو الاسماعيلية فى ألموت بجنوب بحر قزوين بفارس، وسيطر على أتباعه سيطرة كاملة، ووصف بأنه كان بعيد الهيبة عظيم المخاريق، وله قدرة كبيرة على مخادعة القلوب، وتصفه المصادر التاريخية السنية أنه أباح لأتباعه الحرمات، وقد توفى راشد الدين سنان فى عام ٥٨٩هـ/ ١١٩٣م، ويلاحظ أن أتباعه بعد موته اعتقدوا فى غيبته ورجعته من بعد، وهناك من يقرر أن فى حصن الكهف؛ يوجد الغار الذى اختفى فيه راشد الدين سنان، ويقال إنه مدفون فيه ويزعمون أنه غاب فيه ويظهر منه، كما يزعم اتباعه، وذلك وفق ما أورده شيخ الربوة الدمشقى. عن راشد الدين سنان أنظر :

ابن العديم، سيرة راشد الدين سنان، تحقيق برنارد لويس، R.E.A., T. VIII, 1966، ص٢٦٠-٢٦١؛ ثلاثة تراجم من بغية الطلب، تحقيق برناردلويس Melanges Fuad Koprülü، ص٣٣٨-٣٣٩؛ ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، حـ٦، ص١١٧؛ شيخ الربوة الدمشقى، نخبة الدهر فى عجائب البر والبحر، ص٢٠٨؛ الموسوعة الميسرة فى الأديان والمذاهب المعاصرة، ط. الرياض ١٩٨٩م، ص٢٠٦.

Lewis, The sources for the History of The Syrian Asassins, Speculum, Vol. XXVII, p. 486.

(٦٦) ابن جبير، المصدر السابق، ص٢٢٩.

(٦٧) نفسه، نفس المصدر والصفحة؛ ابن العديم، ترجمة راشد الدين سنان، فى ثلاثة تراجم من بغية الطلب، ص٣٣٣.

(٦٨) Eracles, l'Eracle Empereur et la conquete de la Terre d'Outremere, R.H.C., Hist. Occ., T. I, Paris 1869, p. 210.

(٦٩) برنارد لويس، الدعوة الإسماعيلية الجديدة، ص .

(٧٠) ابن جبير، المصدر السابق، ص٢٥. وفى هذا المجال أنظر :

ممدوح الروبى، المدارس الدمشقية القديمة، المنهل، العد (٥١٦)، م (٦٠)، المحرم ١٤١٥هـ/ يونيو ١٩٩٤م، ص١٢-١٧.

(٧١) ابن جبير المصدر السابق، ص٢٥٦.

(٧٢) نفسه، نفس المصدر والصفحة.

(٧٣) نفسه، نفس المصدر، ص٢٢٨.

(٧٤) نفسه، نفس المصدر، ص٢٣١.

(٧٥) نفسه، نفس المصدر، ص٢٣٢.

(٧٦) نفسه، نفس المصدر، ص٢٤٦.

(٧٧) نفسه، نفس المصدر، ص٢٦١.

(٧٨) نفسه، نفس المصدر والصفحة.

(٧٩) نفسه، نفس المصدر، ص٢٥٥.

(٨٠) نفسه، نفس المصدر والصفحة.

(٨١) نفسه، نفس المصدر، ص٢٤٥.

(٨٢) نفسه، نفس المصدر، ص٢٥٥. وعن البيمارستان النورى الذى أقامه نور الدين محمود فى دمشق أنظر :

ابن عساكر، ترجمة محمود بن زنكى، تحقيق اليسيف B.E.O., T. XXV, Année 1972، ص١٣٨؛ ابن الأثير، الباهر، ص١٧٠؛ النعيمى، دور القرآن فى دمشق، ص٥١؛ ابن قاضى شهبة، الكواكب الدرية، ص٣٥؛ القرمانى، أخبار الدول وآثار الأول، ط. بيروت ب-ت، ص٢٧٩؛ صلاح الدين المنجد، بيمارستان نور الدين، ط. دمشق ١٩٤٦م؛ أحمد عيسى، البيمارستانات فى الاسلام، ط. دمشق ١٩٣٩م، ص٢٩٧؛ أسعد طلس، الآثار الاسلامية والتاريخية فى حلب، ط. دمشق ١٩٥٦م، ص٦٥-٦٦.

Gibb, The Career of Nur Al-Din, p. 519.

(٨٣) ابن جبير، المصدر السابق، ص٢٥٥.

والجدير بالذكر هنا أن البعض يرى أن البيمارستان النورى الذى أقامه نور الدين محمود فى دمشق يعد أول جامعة بالمصطلح الحديث تعنى بتدريس العلوم الطبية، حيث كانت تحتوى على مختبرات وأدوات طبية وغرف للجراحة والتوليد وكذلك قاعات مخصصة للدراسة. عن ذلك أنظر :

ممدوح الزوبى، المرجع السابق، ص١٦.

(٨٤) ابن جبير، المصدر السابق، ص٢٢٨. وعن بيمارستان نور الدين محمود فى حلب أنظر :

أدولف بوخه، تطور الطب فى حلب عبر العصور، عاديات حلب، الكتاب الأول حلب، ١٩٧٥، ص١٢٧.

(٨٥) ابن جبير، المصدر السابق، ص٢٣١.

(٨٦) نفسه، نفس المصدر، ص٢٣٢.

(٨٧) ابن أبى أصيبعة، هو موفق الدين أبو العباس أحمد بن القاسم بن خليفة الخزرجى، ولد فى دمشق حوالى عام ٦٠٠هـ/ ١٢٠٤م، وتلقى علومه هناك حيث درس العديد من العلوم الدينية والطبية، وبرع فى الأخيرة على نحو خاص، وتتلمذ على أيدى عدد من كبار الأطباء فى عصره مثل الدخوار (ت ٦٢٨هـ/ ١٢٣٠م)، وابن البيطار (ت ٦٤٦هـ/ ١٢٥١م). وكذلك تتلمذ على يدى والده الذى كان هو الآخر طبيباً، وزامل ابن النفيس (ت ٦٨٧هـ/ ١٢٨٨م)، فى دراسته الطبية، ويبدو أنه لم يحقق شهرة كبيرة فى مسقط رأسه بدمشق خاصة أنه عرف بطب العيون فقط، وربما كان ذلك من العوامل الدافعة له لكى يغادروا الشام إلى مصر، حيث كانت الروابط العلمية مزدهرة ووثيقة الصلة بين القطرين، فارتحل إليها عام ٦٤٣هـ/ ١٢٤٨م، وذلك فى عهد الملك الكامل الأيوبى، وقد عمل فى البيمارستان الصلاصى، ويبدو أنه اكتسب خبرة عملية من خلال ذلك على نحو أفاده فى ممارساته الطبية، وبعد مضى عام عاد أدراجه إلى الشام، ويبدو أن إقامته فى مصر مدة عام واحد لا تخلو من دلالات فربما أراد العودة إلى بلاده بعد أن كون خبرة مناسبة فى القاهرة، إضافة إلى خبرته السابقة فى دمشق، ومن المحتمل أنه استفاد من اقامته فى مصر من أجل الحصول على المادة التاريخية اللازمة لكتابة القسم الخاص بأطباء مصر ضمن عمله الفذ عن طبقات الأطباء، وربما لم يحقق هناك ما كان يصبو إليه من شهرة عريضة فى مصر، ومن بعد ذلك نراه يتجه إلى صرخد بحوران، حيث أمضى بها معظم ما بقى من حياته، وأدركته منيته هناك فى عام ٦٦٨هـ/ ١٢٧٠م عن عمر يبلغ السبعين عاماً تقريباً،

ويلاحظ أن عمل ابن أبي أصيبعة الهام والذى حقق له شهرته العريضة هو عيون الأنباء فى طبقات الأطباء، وقد ترجم فيه لما يزيد على الربعمائة طبيب من المسلمين وغير المسلمين، ونجد أن غالبية الذين ترجم لهم من الأطباء المسلمين كانوا من عصر الحروب الصليبية. عن أبى أبى أصيبعة أنظر :

ابن كثير، البداية والنهاية، حـ١٣، ط. بيروت ١٩٨٠م، ص٢٥٧؛ ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، حـ٧، ص٢٢٩؛ الصفدى، الوافى بالوفيات، حـ٧، باعتناء إحسان عباس، ط. فسباون ١٩٨٢م، ص٢٩٥؛ ابن العماد الحنبلى، شذرات الذهب، حـ٥، ص٣٢٧؛ كردعلى، خطط الشام، حـ٤، ط. بيروت ١٩٨٣م، ص٣٨؛ أحمد عيسى، معجم الأطباء من سنة ٦٥٠هـ إلى يومنا هذا، ط. القاهرة ١٩٤٢م، ص١١٤؛ شاكر مصطفى، التاريخ العربى والمؤرخون، حـ٢، ط. بيروت ١٩٨٠م، ص٢٦٨؛ فرات خطاب، الكحالة عند العرب، ط. بغداد ١٩٧٥م، ص٣٨-٣٩؛ على عبد الله الدفاع، أعلام العرب والمسلمين فى الطب، ط. بيروت ١٩٨٣م، ص٣٠٧، حاشية (٥)؛ صالح العلى، العلوم عند العرب، دراسة فى كتبها ومكانتها فى الحركة الفكرية فى الاسلام، ط. بيروت ١٩٨٩م، ص٦٧؛ محمود الحاج قاسم، الطب عند العرب،والمسلمين، تاريخ ومساهمات، ط. مكة المكرمة ١٩٨٧م، ص٨٦؛ دائرة المعارف الاسلامية، مادة «ابن أبى أصيبعة»، حـ١، ت. خورشيد وآخرون، ط. القاهرة ١٩٣٣م، ص٦٩؛ عمر رضا كحالة، معجم المؤلفين، حـ١، ص. بيروت ١٩٨٣م، ص٤٧؛ الزركلى، الأعلام، حـ١، ط. بيروت ١٩٨٤م، ص١٩٧؛ محمد مؤنس أحمد عوض، الأسرات الطبية العربية حتى القرن ٧هـ/ ١٣م، ومكانة أسرة بنى أبى أصيبعة فى تاريخ الطب العربى، مؤتمر تاريخ العلوم عند العرب، السويد، الجمهورية العربية السورية عام ١٩٩٣م؛ عبدالرحمن زكى، تراث القاهرة العلمى والفنى فى العصر الإسلامى، ط. القاهرة ١٩٦٩م، ص٤٠-٤١.

(٨٨) ابن جبير، المصدر السابق، ص٢٥١.

(٨٩) نفسه، نفس المصدر، ص٢٣٢.

(٩٠) نفسه، نفس المصدر، ص٢٢٦.

(٩١) نفسه، نفس المصدر، ص٢٥٤.

(٩٢) نفسه، نفس المصدر، ص٢٧٥.

(٩٣) ثيودريش Theoderich، أحد الرحالة الألمان الذين زاروا مملكة بيت المقدس الصليبية على ما يرجح خلال المرحلة من ١١٧١-١١٧٣م/ ٥٦٧-٥٦٩هـ، والواقع أننا لا نملك معلومات

مؤكدة عن ثيودريش باستثناء اسمه، ومن المحتمل أنه قد ورد لدى مقدمة يوحنا أوف ورزبرج John of Wurzburg الإنجيلية Introductionary Eposle، ومع ذلك لا يوجد دليل يدعم ذلك، ومن المحتمل أن ثيودريش هذا عمل أسقفا لورزبرج، ويلاحظ أن وصفه لكنيسة الضريح المقدس في بيت المقدس، وعقده المقارنة بينها، وبين كنيسة اكس لاشابيل Aix la Chapelle (آخن) يدل على أنه أكثر من التردد على تلك البلاد على الأرجح. عن ثيودريش ورحلته أنظر :

Tobler, Bibliographia geographic a palestinae, Leipzeg 1867, p. 18; Wright, The geographical Lore in the time of the crusades, Astudy in the history of medieval science and tradition in Western Europe, p. 540.

محمد مؤنس أحمد عوض، الرحالة الأوروبيون في مملكة بيت المقدس الصليبية (١٠٩٩-١١٨٧م)، ص١٨٠-٢٠٠. وعن إشارته أنظر : Theoderich, p. 22.

(٩٤) ميخائيل زابوروف، الصليبيون في الشرق، ص١٣٢.

(٩٥) ابن جبير، المصدر السابق، ص٢٨٠؛ محمد فتحي الشاعر، أحوال المسلمين في مملكة بيت المقدس الصليبية، ط. القاهرة ١٩٩٠م، ص٢٤.

(٩٦) ابن جبير، المصدر السابق، ص٢٨٠.

(٩٧) نفسه، نفس المصدر والصفحة.

(٩٨) نفسه، نفس المصدر، ص٢٣٩.

(٩٩) نفسه، نفس المصدر والصفحة.

(١٠٠) نفسه، نفس المصدر، ص٢٧٨.

وفيما يتصل بالحرير، نعرف أن مصدر دودة القز أو دودة الحرير من جبال آسام في شمال الهند، ومن بلاد البنغال، إلا أنه في شمال الصين تعلم الانسان لأول مرة كيف يقوم بعملية نسج خيوط الحرير من الشرنقة، وقد تم ذلك الإنجاز الكبير في تاريخ الحضارة البشرية في حوض نهر تاريم، في ما يعرف بتركستان الصينية، ويلاحظ أن طريق الحرير بدأ من الشرق من الصين، واخترق ما يعرف بمنغوليا، وحوض نهر تاريم الصحراوي وفجاج وممرات أفغانستان وبلاد فارس، ثم من بعد ذلك اخترق بلاد الرافدين ومنها إلى بلاد الشام، ومن هناك تفرع إلى فرعين أحدهما اخترق الأناضول إلى القسطنطينية عاصمة الامبراطورية البيزنطية، أو اتجه نحو موانئ البحر المتوسط، مثل الاسكندرونة وطرابلس حيث وجدت هناك السفن التجارة الأوروبية من أجل حمل المنسوجات الحريرية إلى جنوة،والبندقية، ومرسيليا، وغيرها من موانئ القارة

الأوروبية. وتجدر الإشارة إلى أن الحرير تميز بلونه الأبيض الجميل المائل إلى الإصفرار، واتسم بصفات مميزة كالنعومة، والمتانة، وشبه الشفافية، مما جعله محل إعجاب وحرص الملوك القدماء وكبار الأغنياء من رجال ونساء على شرائه فدخل فى نطاق التجارة الدولية بصورة واضحة.

ومن ناحية أخرى، نعرف أن المغول فى مرحلة من مراحل تاريخهم؛ فكروا فى إقامة دولة عالمية، كان من أهدافها السيطرة على طريق الحرير، وهو فى واقعه جسر التواصل بين الشرق والغرب، وقد قام اثنان من الرحالة فى العصور الوسطى، وهما ماركو بولو Marco Polo (١٢٥٤-١٢٢٤م)، وابن بطوطة (٧٠٢-٧٧٩هـ/ ١٣٠٣-١٣٧٧م) بإرتياد طريق الحرير المذكور فى أسفارها الطويلة المدى، والتى مثلت بالنسبة للأول مناطق فى أوروبا وآسيا، والثانى مناطق أفريقيا وآسيا.

وجدير بالذكر أن الچيولوچى والرحالة الألمانى فرديناند فون ريشتهوفن Ferdenand Von Richthoffen (١٨٣٣-١٩٠٥م) قام ١٨٦٠م برحلاته إلى أخطار الشرق، وعاد إلى أوروبا عام ١٨٧٢م وأطلق على ذلك الطريق المذكور تعبير طريقة الحرير. عن الحرير وطريقه التجارى الدولى أنظر :

أبو دلف المهلهل الخزرجى، الرسالة الثانية، تحقيق بطرس بولياكوف وأنس خالدوف، ط. موسكو ١٩٦٠م، ص٣٧؛ على أبو عساف، طريق الحرير والطرق التجارية الأقدم، مجلة دراسات تاريخية، جامعة دمشق، السنة (١٢)، العددان (٣٩)، (٤٠)، كانون الأول ١٩٩١م، ص٧٢-٨٢؛ عبدالرحمن حميدة، طريق الحرير بين ابن بطوطة وماركو بولو، العدد المذكور، ص٨٣-٩٥؛ محمد حرب فرزات، حوار الحضارات على طريق الحرير بين الصين والشام، العدد المذكور، ص٩٦-١١٨؛ بشير زهدى، طريق الحرير وتدمر مدينة القوافل التجارية، العدد المذكور، ص١١٩-١٣٧؛ نعمان محمود جبران، محاولات المغول السيطرة على طريق الحرير (أسباب ونتائج)، العدد المذكور، ص١٣٨-١٥٥؛ ساطع محلى، طريق الحرير ١٩٩١م، الطريق وسيلة وصل حضارية بين الشعوب، العدد المذكور، ص٤٩-٧١؛ هايد، تاريخ التجارة فى الشرق الأدنى، حـ١، ص١٣؛ موريس لومبار، الإسلام فى مجده الأول، ت. اسماعيل العربى، ط. الدار البيضاء ١٩٩٠م، ص٢٧١-٢٧٢؛ مجدى غنيم، الحرير، ط. القاهرة ١٩٩٣م؛ عبدالرحمن سامى، القول الحق فى بيروت ودمشق، ط. بيروت ١٩٨١م، ص١٠٣.

(١٠١) ابن جبير، الرحلة، ص٢٢٩.

(١٠٢) نفسه، نفس المصدر، ص٢٧٤.

(١٠٣) نفسه، نفس المصدر، ص٢٦٠؛ وأيضاً، ابن شاهنشاه الأيوبي، مضمار الحقائق وسر الخلائق تحقيق حسن حبشي، ط. القاهرة ١٩٦٨م، ص١٥٣-١٥٤؛ فايد حماد عاشـور، الجهاد الإسلامي ضد الصليبيين في العصر الأيوبي، ط. القاهرة ١٤٠٣هـ، ص٤٢.

(١٠٤) ابن جبير، المصدر السابق، ص٢٧٦.

(١٠٥) من الملاحظ أن قلعة اسكندرونة Scandalium نستمد معلوماتنا عنها من مصدرين أصليبيين هما : فوشيه دى شارتر Fulcher of Chartres، ووليم الصورى William of Tyre، ويقرر الأول أن الملك بلدوين الأول Baldwin I (١١٠٠-١١١٨م/ ٤٩٣-٥١١هـ) قام ببنائها، وأنها سميت سكاندليون، وهي تعني ميدان الأسد، أما وليم الصورى فيقرر أن ذلك الملك عندما أراد تشديد قبضته على صور قام بتشييد القلعة المذكور. وقرر أنها شيدت في موقع يسمى الكسندريوم Alexandrium على اسم الاسكندر المقدوني Alexander of Macedonia، وقد قام ذلك الملك بإعادة بناء الاسكندرونة، وعهد بها إلى أحد النبلاء وذلك على ما يبدو عام ١١١٧م/ ٥١١هـ. عن قلعة اسكندرونة أنظر :

Fulcher of Chartres, p. 220; William of Tyre, Vol. I., p. 514; Burchard of Mont Sion, Trans. by Aubrey Stewart, P.P.T.S., Vol. XII, London 1896, p.10, note (1); Marino Santo, Secret For the True Crusaders to help Them to recover the Holy Land, Trans. by Aubrey Stewart, P.P.T.S., Vol. VII, London 1896, p. 8; Ludolph Von Suchem, p. 61-62.

(١٠٦) ابن جبير، المصدر السابق، ص٢٦١.

(١٠٧) نفسه، نفس المصدر، ص٢٢٦.

(١٠٨) نفسه، نفس المصدر، ص٢٣٠.

(١٠٩) نفسه، نفس المصدر، ص٢٣٢.

(١١٠) نفسه، نفس المصدر، ص٢٢٤.

(١١١) من مشكلة نقص العنصر البشرى وأثرها على الوجود الصليبي في بلاد الشام أنظر : الباب الأول - الفصل الأول.

الخاتمـة

ذلكم سـفر الجغرافيين والرحالة المسلمين فى بلاد الشام فى عصر الحروب الصليبية، وقد تمخض البحث عن عدد من النتائج الهامة، من الممكن إجمالها على النحو التالى:

أولاً : أفادت مؤلفات الجغرافيين، والرحالة المسلمين فى بلاد الشام فى عصر الحروب الصليبية وعلى مدى القرنين السادس والسابع الهجرى/ الثانى عشر والثالث عشر الميلادى، فى تقديم صورة جلية للطوبوغرافية التاريخية بلاد الشـام حينذاك، ومزجت بين الجغرافيا والتاريخ فى تناسـق حيوى وهام، ومن المهم بمكان إدراك أن كتابة تاريخ بلاد الشام بدون الاعتماد على مثل تلك الزاوية السـابقة يعد أمراً مستحيلا، وذلك على اعتبار أن الجغرافية توجه التاريخ، وأن التاريخ فى بعض جوانبه ما هو إلا صراع على الجغرافيا فى أشكالها المتعددة الطبيعية، والبشرية، والاقتصادية.. إلى غيرها من فروع الدراسات الجغرافية.

ثانيـاً : أكدت مؤلفات أولئك الجغرافيين والرحالة، على شمولية الرؤية الجغرافية لديار الإسلام فى ذلك العصر، إذ أنهم قدموا لنا أوصافاً متعددة لبلاد الشام من خلال تناولهم العام لكافة أنحاء العالم الإسلامى الذى جابوا أقطاره المتعددة، ولم تكن هناك فكرة التجزؤ أو الانقسام حتى مع وجود العدو الصليبى الذى غرس كيانه فى المنطقة الشـامية وحاول مد ذلك الكيان إلى مناطق أخرى مثل مصر وتونس وغيرها. وهكذا فمن الممكن القول إن مؤلفاتهم فى هذا المجال ما هى إلا امتداد طبيعى لمؤلفات الجغرافيين والرحالة المسلمين السابقين، ولاسيما منذ القرن الرابع الهجرى/ العاشر

الميلادى، مع إدراك فوارق الخبرة الجغرافية، وتطورات أوضاع المسلمين على مدى قرنين كاملين من الزمان.

ثالثاً : ألقت مؤلفات أولئك الجغرافيين والرحالة المسلمين الأضواء الكاشفة على أوضاع الساحل الشامى الذى امتد من سان سيمون (السويدية) ميناء أنطاكية فى الشمال، حتى غزة جنوباً، وظهر حرصهم الواضح على إيراد العديد من الجوانب المتصلة به سواء السياسية أو الاقتصادية أو السكانية، على نحو أوضح إدراكهم لأهميته فى قضية الصراع الإسلامى/ الصليبى. وقد مثل الساحل عصب الحياة بالنسبة للصليبيين من خلال حركة الصادرات والواردات، وفرضهم المكوس على حركة التجارة، بالإضافة إلى أنه مثل نقطة أساسية فى اتصالهم بالوطن الأم للحركة الصليبية، ونعنى بها الغرب الأوروبى حيث قدم الدعم المادى والمعنوى اللازم لاستمرار المشروع الصليبى. ولذا، من الممكن القول دونما مبالغة، أن الصليبيين بقوا فى بلاد الشام ما بقيت فى أيديهم المناطق الساحلية، وعندما انتزعت منهم بالكامل فى نهاية المطاف على أيدى المماليك البحرية، كان ذلك إيذاناً بفشل مشروعهم لغزو بلاد الشام، وطردهم من المنطقة.

رابعاً : كشف الجغرافيون، والرحالة المسلمون، الذين قدموا إلى بلاد الشام فى ذلك العصر عما يمكن وصفه بالمواجهة الحضارية بين الجانبين الإسلامى والصليبى، إذ أنه بعد انقشاع غبار المعارك الأولى التى خاض الصليبيون غمارها ضد المسلمين وانتصروا خلالها، وبعد نجاحهم فى غرس كياناتهم السياسية فى الرها، وأنطاكية، وبيت المقدس، وطرابلس، احتك الطرفان حضارياً، وظهر بجلاء كيف أن الهزيمة العسكرية التى أصابت المسلمين على أيدى أعدائهم لم تكن تعنى الهزيمة الحضارية، بل إنهم كانوا أكثر تفوقاً على المستوى الحضارى منهم، ومن ثم فإن بلاد الشام خلال عصر الحروب الصليبية مثلت أحد المعابر الأساسية والهامة التى نهلت من خلالها أوروبا الحضارة الإسلامية. وجاءت شهادات الرحالة المسلمين لتكشف لنا تلك الحقيقة المتصلة باختلاف المستوى

الحضارى بين الطرفين المتصارعين، وكان المجال الطبى، أحد المجالات الهامة التى كشفت أبعاد تلك المواجهة، ناهيك عن الجوانب الأخرى، بطبيعة الحال.

خامساً : كشفت مساهمات أولئك الجغرافيين والرحالة المسلمين النقاب، عن ما يمكن وصفه بالنمو الحضارى والعمرانى لحواضر الشام الكبرى الخاضعة للسيادة الإسلامية مثل دمشق، وحلب وحماة وغيرها، والواقع أن من الأهمية بمكان رصد ذلك الجانب، على اعتبار أن تلك المدن التى وقعت على خطوط التجارة العالمية ثم تمتعت بموقع جغرافى وفر لها مصادر الحياة الوفيرة، والكثافة السكانية المرتفعة، ثم أنها اتصلت بجاراتها فى العراق ومصر، فإذا ما لاحظنا أن مدن العراق والشام ومصر، مثل الموصل وحلب، ودمشق والقاهرة كانت تمثل خط الدفاع الاستراتيجى فى مواجهة الصليبيين، وعجز الأخيرون عن إخضاع تلك المدن، واستمروا منحصرين فى الساحل والسهل الساحلى. ومن ثم فإن النمو المتزايد على المستوى الحضارى والعمرانى لتلك الحواضر الشامية، أفاد فى تقديم صورة عن آليات الصراع الإسلامى/ الصليبى فى ذلك العصر.

سادساً : ألقت كتابات أولئك الجغرافيين والرحالة المسلمين، الأضواء الكاشفة على طبيعة فكرة الجهاد الإسلامى فى عصر الصليبيات، إذ أوضحت حجم مشاركة العناصر الإسلامية الوافدة على بلاد الشام، ومن أمثلتها المغاربة، الذين أبلوا بلاء حسناً فى مواجهة الصليبيين هناك، على نحو يكشف بجلاء عن أن قضية الجهاد الإسلامى فى ذلك العصر، لم تكن قضية شرقية فحسب؛ بل ومغربية أيضاً. وهكذا يمكن القول بأن الشخصية الإسلامية، تجاوزت العوائق الجغرافية فى ذلك العصر من أجل أن تنصهر فى تجربة الجهاد ضد الغزاة الصليبيين.

سابعاً : قدمت مؤلفات أولئك الجغرافيين والرحالة إشارات هامة من العمائر الحربية، ودورها التاريخى فى بلاد الشام فى عصر الصليبيات، ولاسيما دور القلاع الصليبية، مع ملاحظة أن إشاراتهم تركزت على وصف مظهرها الخارجى، وحصانتها

ومناعتها، أما دورها الحربى، فكانت إشـاراتهـم نادرة بشـأنه، وإن قدمت مؤلفات الحـوليات البديل عن ذلك النقـص فى صورة وفرة التفصيلات المتعـلقة بالجانبين الحربى، والسياسى.

ثامنـاً : وفرت رؤية أولئك الجغرافيين والرحالة المسلمين فى ربوع الشام، صورة هامة لدى الباحثين المحدثين عن خريطة بلاد الشام المذهبية، بالإضافة إلى حجم المواجهة السنية – الشيعية هناك خلال عصر الحروب الصليبية. وقد واجه المسلمون السنيون – الذين حملوا على كاهلهم عبء الجهاد – خطر الإسماعيلية النزارية الذين تحالفوا استراتيجياً مع الصليبيين ضد عدوهم المشترك فى صورة المسلمين السنة، وشهروا سلاح الإرهاب والاغتيال فى وجه قيادات الجهاد الإسلامى فى ذلك العصر، وكانت منطقة شمال الشام إحدى المناطق الهامة فى أمر المواجهة بين الجانبين.

تاسـعاً : قدمت إشارات الرحالة المسلمين الذين زاروا بلاد الشام فى ذلك العصر، لاسيما المغاربة، شهادة معاصرة عن العلاقات السلمية بين المسلمين والصليبيين، لاسيما على المستوى التجارى، فى عصر شهد احتدام الصراع الحربى، إذ أن كل طرف احتاج الآخر من أجل تصريف منتجاته التجارية. ومن الملاحظ أنه بعد إخضاع الصليبيين للساحل الشامى والذى تم عام ١١٥٣م، بإسقاطهم آخر المعاقل الفاطمية هناك عسقلان، اكتملت السيادة الحربية والسياسية الصليبية على ذلك القسم الحيوى والهام من بلاد الشام، وصارت القوى الإسلامية الشامية قوى برية حبيسة، وتم القضاء على دور المسلمين كوسطاء تجاريين يستفيدون من سيطرتهم على ذلك الساحل. الأمر الذى حافظوا عليه بمهارة منذ القرن الأول الهجرى/ السابع الميلادى حتى آخريات القرن الخامس الهجرى/ الحادى عشر الميلادى.

وأمام الوضع السابق، احتاجت القوى الإسلامية إلى الصليبيين من أجل تصريف

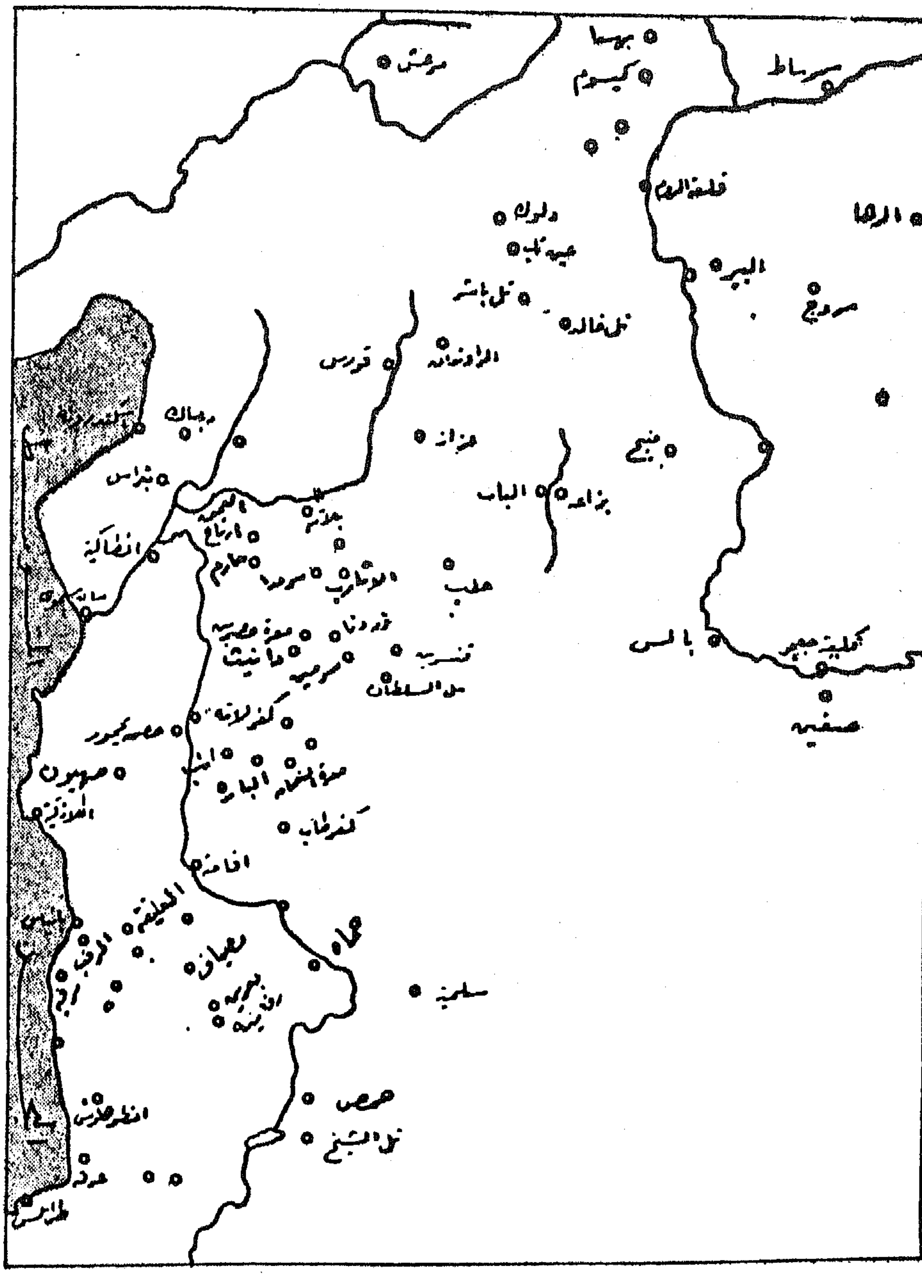
منتجاتها، وقبل الصليبيون ذلك على اعتبار أنهم جنوا أرباحاً طائلة من خلال تجارة العبور، واحتلالهم دور الوسيط التجارى البديل، وكان للمدن التجارية الإيطالية مثل جنوة، وبيزا، والبندقية دورها الهام فى هذا المجال، وهكذا أشارت مؤلفات أولئك الرحالة إلى قدوم قوافل الصليبيين إلى مناطق المسلمين والعكس، وفى ذلك دلالة واضحة على أن العلاقة بين الجانبين لم تكن جميعها عدائية، بل إن المصلحة المشتركة فرضت واقعاً خاصاً وفريداً. ومثل تلك الإشارات، ما كان من الممكن أن توردها كتب الحوليات ذات الاهتمام الحربى والسياسى الطابع. على نحو يعكس أهمية مؤلفات الرحالة المسلمين كأحد المصادر التاريخية المتميزة للعلاقات الإسلامية/ الصليبية.

مجمل القول وصفوته، إن مؤلفات الجغرافيين، والرحالة المسلمين، الذين تناولوا بلاد الشام فى عصر الحروب الصليبية احتوت على جوانب هامة من تاريخها على نحو جعل لها مكانة خاصة متميزة من بين مصادر تاريخ تلك المنطقة، خلال عصر المواجهة بين المسلمين والصليبيين.

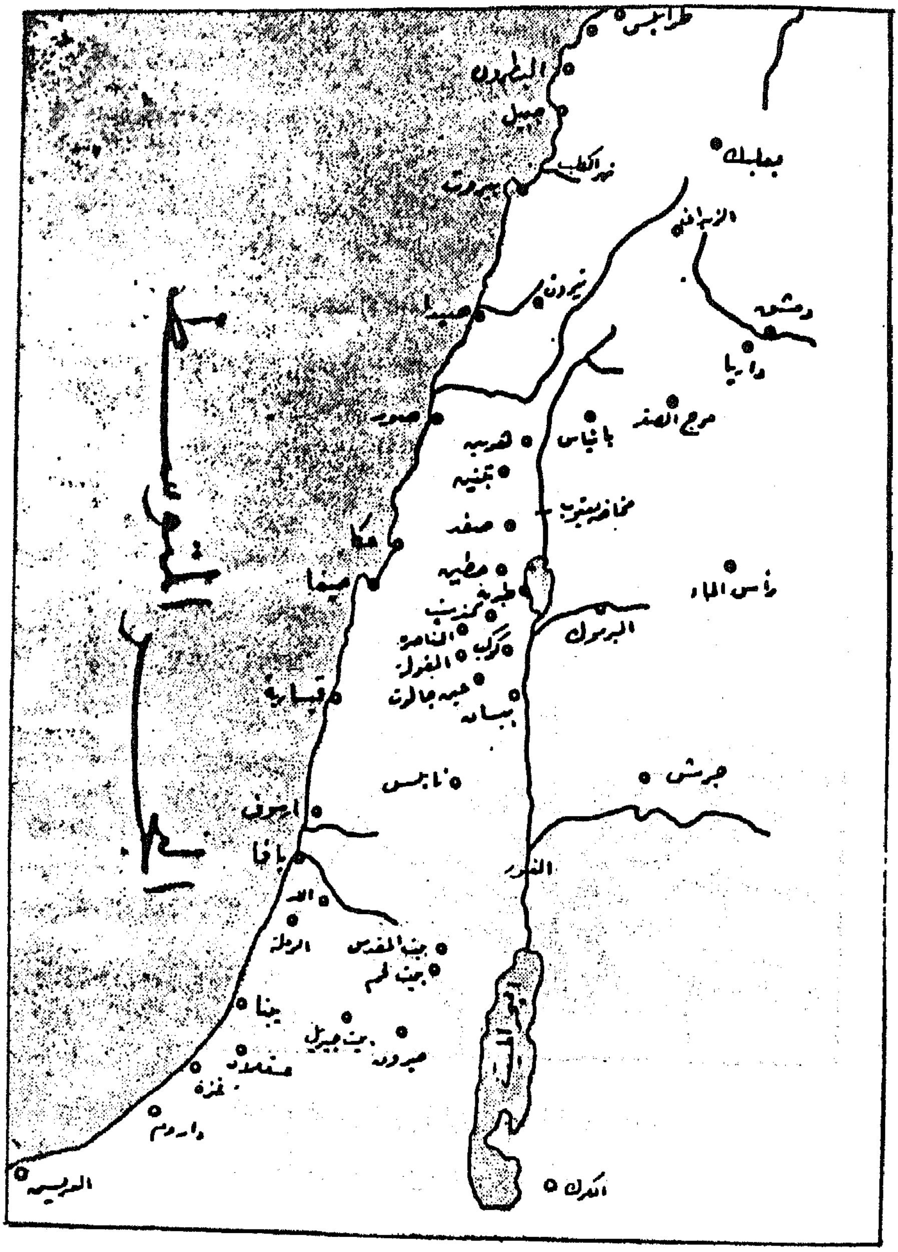
قائمة بالمختصرات

List of Abbreviation

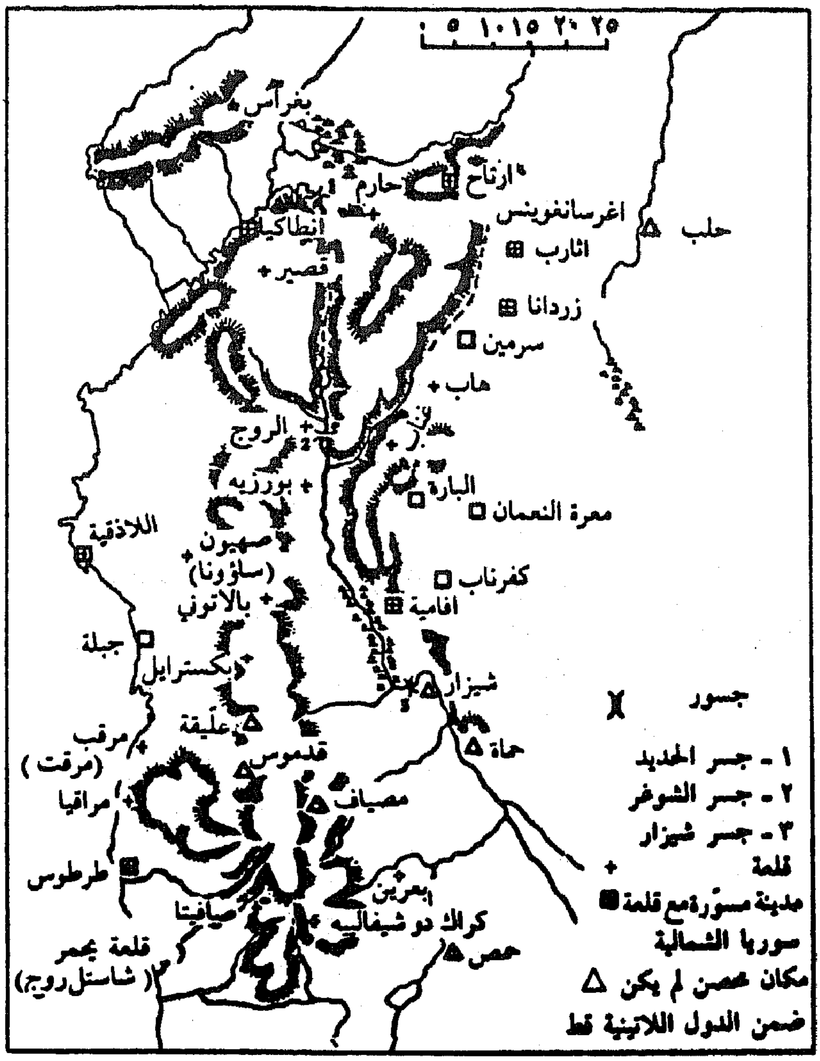
A.O.L.	: Arshives de L'Orient Latin.
B.E.O.	: Bulletin d'Etudes Orientales.
B.F.A.A.U.	: Bulletin of The Faculty of Arts Alexandria University.
B.S.O.A.S.	: Bulletin of The School of Oriental and African Studeis.
C.E.	: Chamber's Encyclopedia.
C.H.I.	: Cambridge History of Iran.
C.S.H.P.	: Corpus Scriptorum Historiae Pyzantinae.
D.E.I.	: Diction naire Encyclopedie quillet.
E.B.	: Encyclopedva Britannica.
E.J.	: Encyclopedia Judeca.
J.A.	: Journal Asiatique.
J.R.A.S.	: Journal of Royal Asvatvc Society.
J.P.O.S.	: Journal of Palestine Oriental Society.
M.H.	: Medical History.
M.I.E.	: Memoires publiés par Les membres de L'institute Francais d'Archaeologie Orientale au Caire.
M.W.	: Muslim World.
P.O.	: Patrologia Orientalia.
P.P.T.S.	: Palestine Pilgrims Text Society.
R.D.S.O.	: Rivista degli Studi Orientalia.
R.E.A.	: Revue d'Etudes Arabes (Arabica).
R.H.C.	: Recueil des Historiens des Croisades.
S.	: Syria.
U.J.E.	: Universal Jewish Encyclopedva.



شمال الشام نقلاً عن العرينى، الشرق الأوسط والحروب الصليبية.

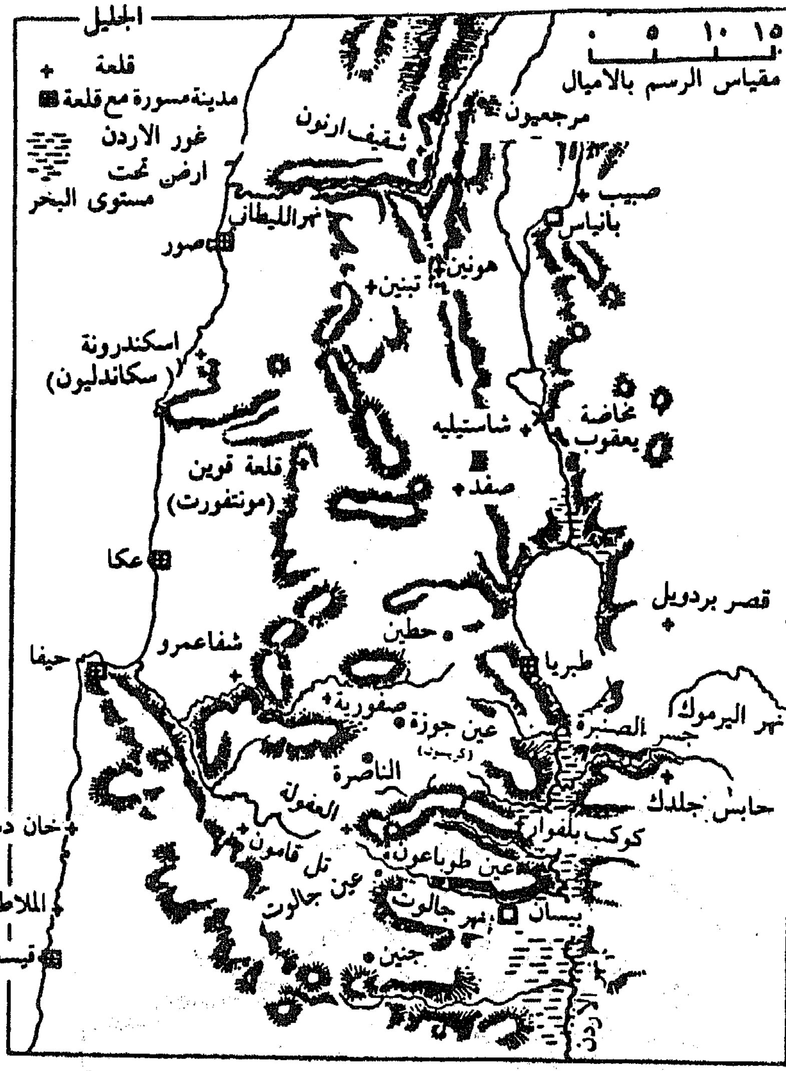


فلسطين نقلاً عن العرينى، الشرق الأوسط والحروب الصليبية.

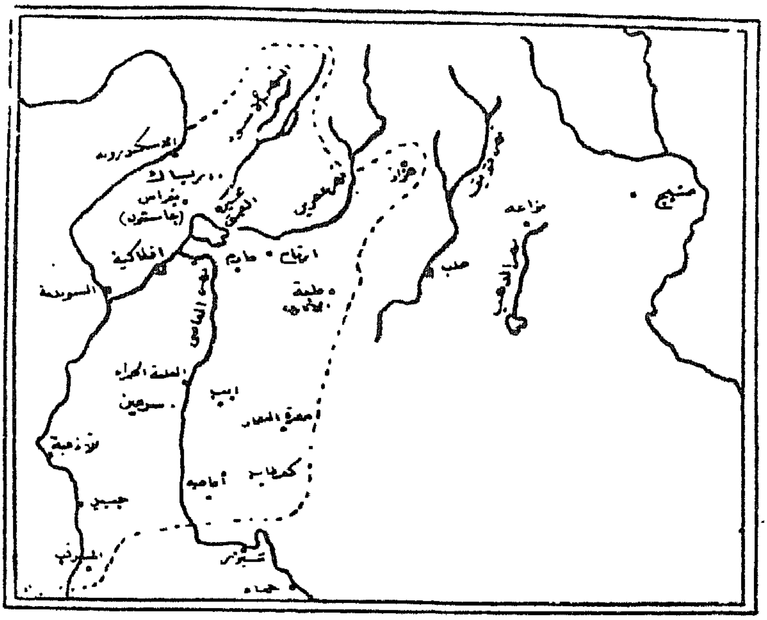


القلاع الصليبية فى إمارتى أنطاكية وطرابلس

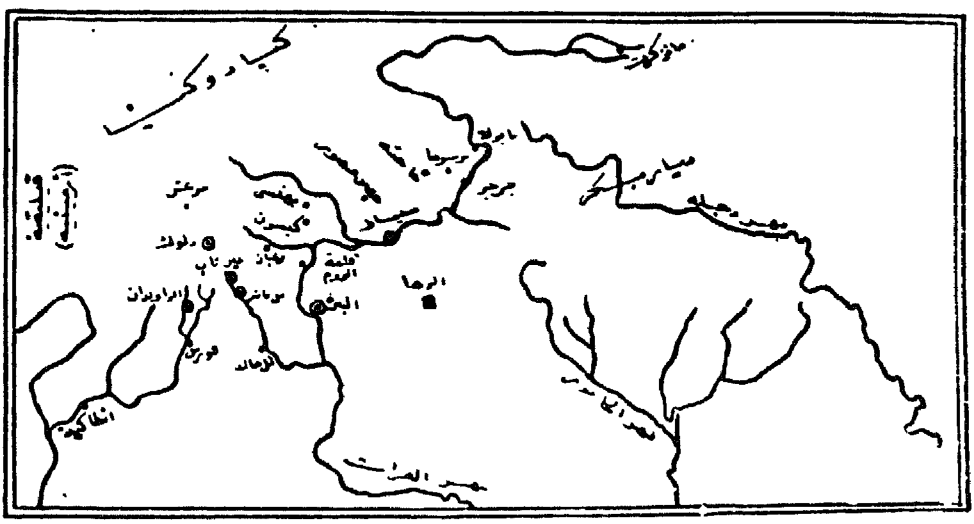
نقلاً عن سمايل، الحروب الصليبية.



القلاع الصليبية فى شمال فلسطين
نقلاً عن سمايل، الحروب الصليبيــة.



إمارة أنطاكية، نقلاً عن عمران، السياسة الشرقية للإمبراطورية البيزنطية
في عهد الامبراطور مانويل الأول



إمارة الرها، نقلاً عن نفس المرجع.

الفهرس

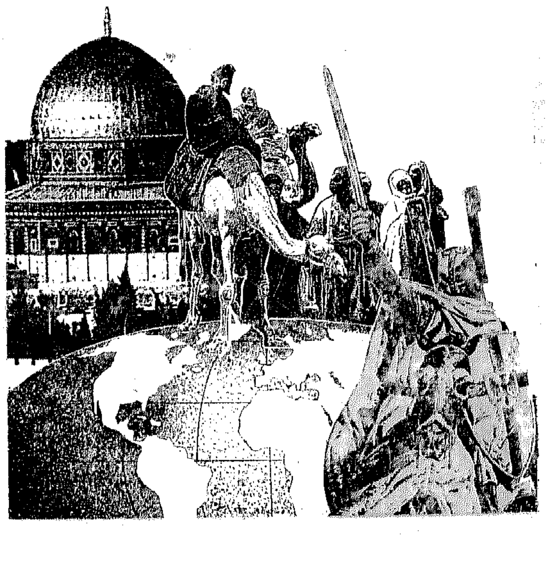
رقم الإيداع ٣٠٧٣/ ٩٥

I. S. B. N. 977 - 5487 - 26 - 9

مطابع الهداية
« المربى أنور سيد » ـ البراجيل ـ الجيزة

الجغرافيون والرحالة المسلمون

في بلاد الشام زمن الحروب الصليبية



للدراسات و البحوث الانسانية و الاجتماعية
FOR HUMAN AND SOCIAL STUDIES